



دكتور سيول يتحدث إلى المصحات

تأليف: بنجامين سبول
ترجمة: عايقة ابادي
بعد الجلاء
تقديم: الدكتور مصطفى الديواني



دکنور سپول یقحدث ای انصحات

«مشکلات الاولیاء فی اطوار نموسم»

شمر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
القاهرة — نيويورك
يناير سنة ١٩٦٤

دكتور سيول يتحدث إلى الأمهات

«مشكلات الاطفال في أطوار نموهم»

تأليف
بنجامين سيول

ترجمة
سعد الجبوري و عابدة أبادير

تقديم
الدكتور مصطفى الديواني

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

هذه الترجمة مرخص بها ، وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حق الترجمة من صاحب هذا الحق .

This is an authorized translation of DR. SPOCK TALKS
WITH MOTHERS Growth and Guidance by Benjamin Spock.
Copyright © 1961 by Henry Cooper, Trustee under an Irrev-
ocable Trust dated February 3, 1961, between Benjamin M.
Spock of Cleveland, Ohio, Donor, and Henry Cooper of Pitts-
burgh, Pennsylvania, Trustee. Published by Houghton Mifflin
Company, Boston, Mass.

المشتركون في هذا الكتاب

المؤلف :

الدكتور بنجامين ميوك

طبيب وباحث ومدرس تخرج في كلية الأطباء الجراحين في جامعة نيويورك سنة ١٩٢٩ ونحصى في أمراض الأطفال وفي الصحة العقلية والنفسية حتى سنة ١٩٣٣ . وبعد هذا الإعداد العلمى الطويل الدقيق بدأ في ممارسة المهنة كطبيب معالج من ناحية ، وكأستاذ لأمراض الأطفال بجامعة نيويورك من ناحية أخرى . وذاع صيته واشتهر بعمله بالإضافة إلى ما تقدم كاستشار فنى في أمراض الأطفال للإدارة الصحية في مدينة نيويورك ثم دعى للعمل في « معهد تنمية الشخصية » ثم اختير مستشاراً فنياً لصحة مايو المعروفة Mayo clinic وأستاذاً لمادته في جامعة منيسوتا وأسهم إسهاماً كبيراً في تدريس مادة جديدة هى « تطور الطفولة » . ألف الكثير من المراجع العلمية الهامة في الصحة العقلية وفي طب الأطفال ، منها « الناحية النفسية من طب الأطفال » سنة ١٩٣٨ و « تفادى مشاكل الانحراف » سنة ١٩٤٥ . ولقد نشرت له هذه المؤسسة كتابه الشهير « دستور الأم » في ثلاثة أجزاء .

المترجمان :

سعد الجبلاوى

يعمل مدرساً للأدب الإنجليزى بكلية المعلمين بالقاهرة . ولد سنة ١٩٢٧ . حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٧ . سافر في بعثة دراسية إلى إنجلترا سنة ١٩٥٤ . حصل على دبلوم الدراسات الإنجليزية من جامعة اكستر في سنة ١٩٥٦ وكانت رسالته عن « جورج هربرت » الشاعر الميتافيزيقى . نشرت له قصص مترجمة وبعض المقالات في النقد الأدبى . اشترك في ترجمة كتاب « داخل أفريقيا » لچون جنر وكتاب « في غياهب المجهول » لروى تشابمان اندروز ، وكتاب « الأبناء » لبيرل باك ، وهى من الكتب التى نشرتها هذه المؤسسة .

(و)

عائدة أبادير

زوجته . تعمل بالتعليم الثانوى . حصلت على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة
فى سنة ١٩٥٣ ، وعلى دبلوم التربية من جامعة اكستربانجلترا فى سنة ١٩٥٥ . تقدمت
برسالة عن أنظمة التعليم فى الجمهورية العربية المتحدة .

اشتركت مع زوجها فى ترجمة كتاب « داخل أفريقيا » وكتاب « فى غياهب
المجهول » وكتاب « الأبناء » .

مصمم الغلاف : محمد إسماعيل صالح

تخرج فى كلية السلام الإنجليزية ، يعمل حالياً بشركة الطيران العربية المتحدة .
صمم عدة أغلفة للمؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

١	مقدمة بقلم الدكتور مصطفى الديواني
٥	تصدير

- ١ -

صحة طفلك

٩	مق ينبغي استدعاء الطبيب ؟
١٩	معالجة الطفل في فترة النقاهة
٣٢	الطبيب يفحص طفلك
٤٤	بنيان الجسم ، والرياضة ، واللياقة الجنسية
٥٨	ما مدى أهمية الهواء النقي ؟
٧٠	ما هي الفترة الكافية للنوم ؟
٨١	الأسنان والحلوى

- ٢ -

مركز الطفل في الأسرة

٨٩	الطفل الأكبر والأوسط والأصغر
١٠٠	المركز الخاص الذي يشغله الطفل الأول
١١٧	للولود الجديد والطفل المعزول
١٣١	مشاجرات الأطفال

- ٣ -

التهديب والمصاحبة

١٤٥	كيف أحمله على إطاعة الأوامر ؟
-----	-------------------------------

(ح)

١٥٢	مشكلة العقاب
١٦١	دور الأب في تأديب الطفل
١٧١	مصاحبة أطفالك

— ٤ —

مشكلات سلوك الطفل الصغير

١٨٥	الطفل العدوانى
١٩٧	الطفل المتلصق
٢٠٧	الطفل كثير العويل « البكاء »
٢١٤	الطفل ضعيف « الشبهة »
٢٢٣	التبول في الفراش
٢٣٢	مشكلات وقت النوم حول سن الثانية

— ٥ —

الارتباطات ومظاهر القلق في الفترة ما بين سن

الثالثة والسادسة

٢٤٧	معنى الخوف
٢٦٢	معالجة حالات القلق والاهتمامات الجنسية
٢٧٣	ما الدور الذى ينبغي أن يلعبه الوالدان ؟

— ٦ —

التحول إلى العالم الخارجى بعد سن السادسة

٢٨٥	التباعد عن الوالدين
٢٩٥	تكوين الضمير الحى عند الطفل

(ط)

ملحة

استمرار حاجة الطفل إلى رقابة الوالدين ٣٠٢

— ٧ —

توترات مرحلة المراهقة

حاجة المراهقين إلى التوجيه ٣١٣

عبادة الأبطال عند المراهقين ٣٢١

معنى انحراف الأحداث ٣٣١

لماذا ينحرف سلوك المراهقين ؟ ٣٤٩

لماذا ازداد الانحراف ٣٦٥

علاج الانحراف ٣٧٧

منع انحراف الأحداث ٣٩٠

كشف تحليلي ٤٠٩

تقديم

بقلم

الدكتور مصطفى البربواني

إن اسم مؤلف هذا الكتاب بنجامين سيوك يعتبر في الولايات المتحدة اسم علم في كل منزل يذرع في جنباته ذلك المخلوق الجبار حيناً ، الضعيف حيناً ، والذي يسمونه الطفل . فنذ ألفت كتابه الأول^(١) من سبعة عشر عاماً خلت عن العناية بالطفل ، أصبح اسمه أنيس كل أم في الولايات المتحدة ، ترجع إلى الكتاب كلما عرضت لها مشكلة في حياة طفلها ، حيث تجد فيه ما تبغى في أسلوب سهل جذاب لكنه مقنع . والمشكلات في حياة الطفل عديدة ، والطفل مخلوق ضعيف قاصر يرقب الأفق من بعيد فيخاله في قبضة يده ويعيش للساعة التي هو فيها غير مفرق بين أمسه وغده . وهو أحياناً جبار عنيد عنيف ، يتخطى المسئوليات دون مبالاة ، حتى إذا ما وجد نفسه فجأة متمسكا بالعشب الأخضر الناهي على حافة هاوية انزلق إليها دون أن يقصد بنفسه ضرراً ، تلفت يميناً ويساراً عساه أن يجد من يأخذ بيده .

ومن بين السحب المتهدية في انسياب لا ينتهي إلا مع الزمن يظهر الوجه الحبيب دائماً ، الطبيب الذي جاء ليرشد وينصح ويعالج ويدعم العلاقات بين

(١) هو كتاب The Common Sense Book Of Baby And Child Care ، الذي نشرته مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بعنوان « دستور الأم » بالاشتراك مع مكتبة الأنجلو المصرية مترجماً إلى العربية في ثلاثة أجزاء ، يتناول الأول منها حياة الطفل في عامه الأول ويتناول الجزء الثاني حياة الطفل حتى يبلغ الحادية عشرة ، ويتناول الجزء الثالث الأم . التي تصيب الطفل ويصف وسائل علاجها .

أحاديث إلى الأمهات

الطفل ووالديه ويحل مشكلاتهما النفسية ، وما في حبال الروابط من عقد قد يغطيها ستار زائف من حنان حيث لا حنان ، ومن شفقة قد تنقلب إلى الضد إذا تمادت الأم في ممارستها نحو طفلها ، وخاصة إذا كان وحيداً .

ولعل من أصعب الأمور على الطبيب أن يهبه الله القدرة على التحدث مع الأمهات ناصحاً مرشداً . لقد بدأ الدكتور سپوك هوايته - وما أصعبها من هواية ! في سنة ١٩٤٦ ، وبدأتها أنا قبله بست سنوات ، وحاول كل منا وضع حد فاصل بين اعتقادات سادت في الماضي القريب ، وبين تطورات حديثة كان يجب أن تدركها كل أم ، ويعيها كل والد ، لتسير السفينة بين الأمواج المتلاطمة باسم الله مجراها ومرساها فتصل بالطفل إلى بر السلامة ، مجنبه إياه صدمات الزمان التي قد تصيب من جسمه ضرراً ، ومن نفسيته كدماً ، تبدو للعين المجردة خلال تصرفاته نحو نفسه ونحو من حوله من أهل بيته .

وما من والد مدد له الله حبل العمر حتى عاصر ابنه المراهق ، إلا أدرك جو الحيرة الذي أحاط به لمواجهة هذا الانقلاب الطارئ الذي ساد الجو العائلي فأظلمته سحب الشقاء بعد أن كانت السعادة ترفرف بسخاء في أرجائه ، يتساءل الوالدان معاً أو كل على حدة عما انتاب ابنهما المراهق الذي كان مثلاً يحتذى في النظام واحترام المخالطين له ، فإذا به يصبح مستحيلاً بحيث ينقلب الجو العائلي إلى جحيم لا يطاق ، وقد تشق الأم صدرها باكية مكمودة وتهمس قائلة : يا ليتني مت قبل هذا !! وهنا تبدو فائدة مخطوط مثل كتاب الدكتور سپوك . إنه يشرح للأم ، وهو دائماً يتكلم إلى الأم ، كيف تتصرف بحكمة وكيف تتفعل إلى أعماق نفسه لتكشف المجهول من ذلك العالم المترام الأطراف الذي يسمونه نفسية الطفل ، أو بالأحرى نفسه ، لعلها واجدة بين الأمثلة التي يسردها ما يطابق حالة طفلها فتطبقه محاولة إعادة السعادة إلى تلك الوحدة التي لا تملك من العالم

غيرها وهي المنزل ، وهي مسئولة تماماً عن كل ما يجري فيه ظاهراً وباطناً ،
كان الله في عونها .

وهناك فترة من حياة الطفل لاتقل حرجاً عن فترة المراهقة ، وهي الفترة بين
السنة الثالثة والسادسة من العمر ، وفيها يصل الدكتور سبوك ويجول شارحاً
ما خفي من مشكلات خالدة مثل الأحلام المزعجة والخوف والاهتمام الجنسي
والأسئلة المحرجة التي قد بوجهها الطفل إلى أمه في هذا الصدد .

ولأنك حين تقاب صفحات هذا الكتاب تعجب كيف ينتقل بك الدكتور
سبوك من دوح إلى دوح ، فهو لا يقتصر على النفسيات ، بل يلمس في بعض
الصفحات مشكلات مرضية وصحية ، مثل التبول الليلي ، وفوائد الهواء الطلق
النقي ، وفوائد ومضار إعطاء الحلوى للأطفال ، ومشكلات الشهية للطعام ،
ثم يرشد الأم كيف تربي في طفلها ملكة (الضمير) . ولم يفته أبداً الاهتمام بموضوع
انحراف الشباب ، وهو مشكلة المجتمع في كل مكان ، فأورد له باباً خاصاً ، مفصلاً
بين أسبابه الاجتماعية والنفسية ، وسرد طريق تجنب الولد اليافع من السقوط بين
برائته قبل فوات الأوان .

إن الأمسيات التي قضيتها في تصفح هذا الكتاب القيم لم أندم عليها ، فقد
أضفت إلى معلوماتي رغم إلماي بالكثير منها ما جعلني على يقين أن هذا
كتاب كل والد ووالدة يهمنهما أن ينشأ طفلهما نشأة صالحة مستقيمة لا تشوبها
شائبة ، أو قد تشوبها شائبة يمكن تلافيها بالرجوع إلى سطور هذا الكتاب التي
تضم كل غال وثمين .

وكان بودي أن أطيل في غير ملل فأذكر المثل تلو الآخر مما حواه الكتاب
من كل ممتع طريف ، ولكن مترجمه سعد الجبلاوي وعائدة أبادير لم يتركا
شاردة دون ترجمتها في أمانة ودقة وجزالة لفظ يهنآن عليها .

تصدير

عم يتحدث هذا الكتاب ؟

هناك موضوعات هامة في تربية الطفل تحتاج إلى شيء من الشرح والتوضيح
إذا أراد الآباء والأمهات أن يدركوا المعاني العميقة التي تكمن وراء السلوك
السوى أو انحراف السلوك عند أطفالهم .

المراهقة مثلاً .. هذه مرحلة من مراحل النمو ، تثير كثيراً من المشكلات
الحيرة . غير أن من المحال معالجة هذه المشكلات عن طريق بعض المقترحات
البسيطة الساذجة . فإذا أرادت الأم أن تعالج بحكمة مراهقاً صعب القياد ، فإنها
في رأيي محتاجة فعلاً إلى أن تكون لديها فكرة عما يجري في أعماق مشاعره ،
هذه المشاعر التي لا يدركها حتى هو نفسه . لذلك فقد حاولت جهدي أن أكشف
الغموض عن هذه المسائل المعقدة ، وأن أوضحها بأمثلة مختلفة ، تتدرج من
الحالات الشائعة إلى الحالات المريضة .

هناك أيضاً بعض المشكلات المتعلقة بالفترة ما بين سن الثالثة والسادسة من
عمر الطفل — كمشكلة الأحلام المزعجة ، والخاوف الوهمية ، ومشكلات النوم ،
واللعب الجنسي ، وأسئلة الطفل بشأن حقائق الحياة — وهي جميعاً متصلة بعوامل
الصراع والقلق الكامنة في العقل الباطن للطفل الصغير . وقد ناقشت هذه
المشكلات مناقشة صريحة في هذا الكتاب .

كما أن مسألة النظام والتهديب — ودور الأب فيها — من الموضوعات التي
يثور حولها دائماً الكثير من الجدل ، حتى إن أحداً لا يستطيع أن يدل الآخر
على الطريقة المثلى التي يمكن بها تنفيذ خطة النظام في البيت . لذلك فقد حاولت

قدر استطاعتي أن أتناول بالتحليل بعض العوامل الحيوية في هذه المسألة ، كي يصبح الآباء والأمهات في موقف أفضل ، يتيح لهم أن يحصلوا على النتائج التي ينشدونها من أطفالهم .

ولكن فصول هذا الكتاب لا تقتصر على بحث المسائل النفسية ، فقد تناولت أيضاً بعض الأسئلة الأخرى مثل : ما مدى أهمية الهواء النقي ؟ ولماذا ترغب الأمهات في إعطاء الحلوى لأطفالهن ؟ وقد عبرت عن آرائى الشخصية بشأن هذه الأسئلة ، راجياً أن تساعد هذه الآراء الأمهات على الوصول إلى بعض النتائج التي تنسم بالحكمة والتعقل ، على ضوء ظروفهن الخاصة .

والمادة الأساسية في فصول هذا الكتاب ، مستمدة من بعض المقالات التي كتبت قد كتبتها لـ «لديز هوم» Ladies Home في مناسبات مختلفة . لذا فإنى مدين بالشكر لرؤساء تحرير هذه المجلة لسماحهم لى باستغلال مادة المقالات مرة أخرى . على أنى أثناء إعدادى لهذا الكتاب ، توسعت فى هذه المادة ، وأضفت إليها أحدث الآراء العلمية ، كما أعدت تنسيقها وكتابتها ، حتى يقضى لى عرض كل موضوع من الموضوعات الأساسية كوحدة متكاملة المعنى .

كما أعرب عن شكرى لهوفتون ميفلين ، لأنه عهد إلى جويس هارتمان بمهمة تحرير هذا الكتاب ؛ ذلك أن أداءها لعملها بمهارة ولباقة ، قد سهل على عملى . وأشكر أيضاً مارى برجن وإليزابث دونتون ، لما قدمتا لى من نصائح رشيدة ، أثناء كتابتى لبعض المقالات الأصلية . كذلك أقدم شكرى للدكتور مارفين شايدرو ، لاشرأكه معى فى بحث وكتابة الأجزاء الخاصة بمركز الطفل فى الأسرة .

بنجامين سبوك

۱

صحة طفلك

متى ينبغي استدعاء الطبيب ؟

« ليس المقصود أن تصبح الأمهات
متخصصات في تشخيص الأمراض »

كتبت إلى إحدى الأمهات قائلة : « أرجو أن تتمكن من إسداء النصح إلى
الأمهات الشابات بشأن الظروف التي ينبغي فيها استدعاء الطبيب . فقد نشأت ،
بسبب نقص الأطباء ، نزعة أعتقد أنها تضر بأطفال هذا البلد ، تلك أن الأمهات
ينتاجن شعور بالإثم بشأن استدعاء الطبيب . فرغم أنك وغيرك من الأطباء
طالما حذرتم مراراً من أن العطس واحتقان الحلق مع ارتفاع طفيف في درجة
الحرارة ، قد تدل على الإصابة بأي مرض من الأمراض — ابتداء من نزلات
البرد حتى الحمى القرمزية — رغم ذلك فإن الأمهات غالباً ما يترددن في دعوة
الطبيب ، خشية أن يظهرن بمظهر الحماقة والمغالاة في القلق . لقد كدت أقع في
نفس الخطأ منذ بضعة أسابيع ، عندما ظهرت على طفلي البالغ من العمر سبع
سنوات ، نفس هذه الأعراض يصحبها صداع حاد ، وكان الصداع هو الذي
دفعني إلى التصميم على استدعاء الطبيب ، فكانت نتيجة الفحص هي ما أسماه
« التهاب الغشاء السحائي » . على أن المرض لم يشتد بصغيري بفضل العلاج
السريع من جانب الطبيب » .

وإني أوافق بكل قوة على أن الأم التي يساورها القلق بشأن حالة طفلها ،
ينبغي أن تتصل تليفونياً بالطبيب ، دون أن تترث لتسائل نفسها عما إذا كان
الطبيب سيرى أنه لم يكن هناك داع لاستدعائه ، وما إذا كانت ستحس بالخجل
والارتباك عند حضوره . لكننا إذا اتفقنا على هذه النقطة ، فإن هذا سيؤدي

فقط لأن يتحول السؤال بالنسبة لكثير من الأمهات إلى سؤال آخر : « متى ينبغي أن نحس بالقلق على الطفل ؟ » .

* * *

المشكلة الأولى : وقد شغلت بالي طوال الفترة التي قضيتها في تأليف كتابي « رعاية الرضيع والطفل »^(١) — هي أنه ما من اثنتين من الأمهات تتشابهان تماماً بطبيعة الحال ، وأنه حتى إذا استطاع الطبيب أن يضع لإحدى الأمهات مجموعة من القواعد السليمة المأمونة إلى حد ما ، فإن هذه القواعد لن تكون مأمونة العواقب بالنسبة لأم أخرى . ولناخذ مثالين يقفان على طرفي نقيض : لو أنني كنت أكتب كتابي فقط للأمهات اللاتي تؤرقهن ضماثرهن الحمية ، ويستبد بهن القلق على أطفالهن ، لظلت أطمئنهن طوال الوقت إلى أن الكثير من الأعراض التي تبدو مخيفة في ظاهرها لا تؤدي عادة إلى أى مرض وخيم العاقبة ؛ فالشعور بالألم خلف الأذن في بداية إصابتها بالعدوى لا يدل في العادة على التهاب عظمة النتوء الحلمي بمعناه المؤلف . كما أن الإحساس بآلام في البطن لا يدل على التهاب الزائدة الدودية إلا في بعض الأحيان ، وهلم جرا . غير أننا على طرف النقيض الآخر نجد الأمهات اللاتي يغالين أشد المغالاة في الاسترخاف وعدم الاكتراث . فلو أنهن قرأن نفس هذه العبارات ، لتبادرن إلى أذهانهن أني أعني أن الألم وراء الأذنين لا يدل على شيء مطلقاً ، وأن الأطفال لا يصابون أبداً بالتهاب الزائدة الدودية ، ومن ثم ليس هناك ما يدعو للاهتمام بآلام البطن التي تنتاب أطفالهن .

والواقع أن غالبية الأمهات يتحولن من المغالاة في اللهقة والقلق على طفلهن الأول إلى التطرف في عدم الاكتراث بالطفل الثالث أو الرابع ، وهو اتجاه طبيعي سوى ، وما زلت أذكر حتى الآن أن أمّاً تتسم بالعقل والإدراك السليم

(١) نشرته مؤسسة فرانكلين في ثلاثة أجزاء تحت اسم « دستور الأم » .

بوجه عام ، دعتنى ذات يوم لعلاج مرض ألب بطفلتها الرابعة ، قائلة : « إننى أكره أن أزعجك ، غير أن ابنتى مريضة بعض الشيء منذ ثلاثة أيام ، فهى تعاني من الصداع مع ارتفاع حاد فى درجة الحرارة . هل تعتقد أن هناك ما يدعو لأن تفحصها ؟ » . إن هذين العرضين من أعراض المرض إذا ظهرأ معاً كان فيهما الكفاية لأن يحملا الطبيب على الاشتباه فى احتمال الإصابة بالالتهاب السحائى . وقد حاولت أن أخفى انزعاجى عن الأم ، واندفعت خارجاً وسط ساعات العمل بالعيادة لزيارة المريضة فى البيت . (على أنها لم تكن مصابة بالالتهاب السحائى) .

من السهل أن أقول للأمهات : إن الحرارة المنخفضة لا تدل على مرض جسيم ، على حين أن الحرارة المرتفعة تكون دائماً أكثر خطورة . لكن هذا القول ليس صحيحاً فى الواقع . حقيقة إن الكثير من الأمراض الخطيرة ، كالتهاب الرئوى ، والتهاب السحائى ، والتهاب البريتونى ، والتهاب عظمة النتوء الحامى ، عادة ما يصحبها ارتفاع حاد فى درجة الحرارة ، لكنها جميعاً يمكن أن تنشأ مع ارتفاع طفيف فى الحرارة . كما أن الحصبة الألمانية - وهى من أمراض الطفولة المبكرة التى لا تشكل خطراً على الإطلاق - تتميز دائماً بحرارة مرتفعة تظل ثابتة عند ٣٩° لمدة ثلاثة أو أربعة أيام قبل ظهور الطفح .

وجدير بالذكر أن الجسم فى الشهور الأولى من مرحلة الرضاعة لا ينجح إلى رد فعل الميكروبات بارتفاع شديد فى درجة الحرارة ، حتى فى حالات العدوى الخطيرة . ثم تتغير الحال بالنسبة انمالبية الأطفال عند ما يبلغون عاماً أو عامين من أعمارهم . ذلك أن الجسم فى هذه السن يميل إلى رد الفعل بارتفاع حاد فى الحرارة عند بدء الإصابة بالأمراض على شتى أنواعها ، الهينة والخطيرة على السواء . ومعظم الآباء والأمهات يعرفون هذه الحقيقة من خبراتهم الخاصة مع أطفالهم ؛ فن القصص الشائعة أن الطفل تبدو عليه أمارات الصحة والعافية فى الصباح ، ثم يفقد شيئاً

من شهيته وحيويته عند الغداء ، فإذا ما انقضت فترة ما بعد الظهر تكون درجة حرارته قد بلغت ٤٠° . ويستدعى الطبيب فلا يسفر فحسه للطفل عن شيء يذكر اللهم إلا احتقان بسيط في الحلق . وفي خلال يوم أو يومين تنخفض درجة الحرارة ويسترد الطفل عافيته ، أو قد يتبقى عنده مجرد رشح في الأنف . وبعبارة أخرى ، فإن أخف نزلات البرد واحتقان الحلق أو الإنفلونزا قد تؤدي إلى ارتفاع حاد في درجة الحرارة في هذه السن من عمر الطفل . أما في سن الخامسة أو السادسة أو السابعة ، فإن غالبية الأطفال يتجاوزون هذه المرحلة التي ترتفع فيها الحرارة دون ما سبب جدير بالذكر . فالأرجح الآن أن تبدأ إصابتهم بنزلات البرد أو احتقان الحلق بارتفاع طفيف في الحرارة ، أما عندما تشدد عليهم فعلا وطأة الحمى فإنها قد تدل على مرض له خطورته .

وفي حالات أمراض معينة عديدة ، يمكنك القول بأن ارتفاع الحرارة عند بدء الإصابة بالمرض أهون كثيراً من ارتفاعها بعد مرور أيام قلائل . فالحرارة التي تبدأ في الارتفاع بعد مضي عدة أيام من بدء الإصابة تدل في الغالب على أن المرض يزداد سوءاً ، أو أنه قد نشأت بعض المضاعفات ، سواء أكان هناك ارتفاع في الحرارة منذ البداية أم لا . وهذه الظاهرة تنطبق بصفة خاصة على نزلات البرد والتهابات الحلق ، ذلك أن ارتفاع الحرارة أو عودتها إلى الارتفاع تشير التساؤل عما إذا كانت نزلة البرد قد امتدت إلى الأذنين ، أو هبطت في الشعب الرئوية (تسبب الإصابة بالنزلة الشعبية أو الالتهاب الرئوي لا سيما إذا اشتد السعال) ، أو تغلغت في الجهاز البولي (تسبب التهاب حوض الكلى) ، أو سرت في الجيوب الأنفية أو في غدد العنق . وبعبارة أخرى ، إن أعانها كلمة واضحة صريحة : إن الحرارة التي ترتفع أو تعود إلى الارتفاع بعد اليوم الثاني من بداية المرض ، تستلزم الاتصال بالطبيب .

ألا توجد دلائل أخرى تنير السبيل أمام الأمهات العاقلات ، لا سيما اللاتي يقمن على بعد أميال عديدة من مقر الطبيب ولا يتسنى لهن الاتصال به تليفونيا ؟ لا أعتقد أن هناك دلائل يمكن الاعتماد عليها اعتماداً كاملاً ، ومع ذلك فهناك بضعة إرشادات قد تساعد الأمهات بعض الشيء . إنني أضع في المقدمة المظهر العام للطفل : إلى أي مدى تبدو عليه علامم المرض ، مدى استرخائه في الفراش ، مدى التغير الذي طرأ على مظهره وتصرفاته بالنسبة لحالته المألوفة وهو متمتع بالصحة . فلو أن الطفل بدت عليه أمارات المرض في مظهره ومسلكه ، فإنني أحاول جاهداً أن أستدعي طبيباً لفحصه أو أنقله إلى عيادة الطبيب ، أكثر مما لو كان يأكل ويأعب كالمعتاد مهما تكن درجة حرارته .

أود بعد ذلك أن أحصى لكن أعراضاً معينة متعددة تظهر في أثناء نزلات البرد وتستدعي دائماً العناية الطبية السريعة . لعل أكثر هذه الأعراض شيوعاً هي آلام الأذنين . ولا يعني هذا أن التهابات الأذن تكون دائماً وخيمة العاقبة ، ففي معظم الحالات يشفى الطفل منها دون متاعب خطيرة . غير أن التهابات الأذن التي تترك دون علاج ، تستمر أمداً طويلاً في بعض الأحيان ، وقد تختلف نوعاً من الصمم الدائم إذا طال مداها . على حين أن هذه الالتهابات يمكن في العادة وقفها عند حدها إذا عولجت سريعاً بأحد العقاقير الحديثة . وليس هناك ما يبرر إهمال علاجها .

ثمة عرض آخر من أعراض المرض يدعو دائماً إلى العناية السريعة ، ذلك هو خشونة الصوت أو ضيق التنفس . حقيقة إن خشونة الصوت تدل غالباً على مجرد التهاب بسيط في الحنجرة ، لا يؤدي إلى شيء له خطورته ، كما أن ضيق التنفس يرجع في الغالب إلى ذبحة مؤقتة في الحنجرة . ومع ذلك فإن خشونة

الصوت وضيق التنفس ، لا سيما إذا صحبهما ارتفاع في الحرارة ، قد يدلان على حالات من التهاب الحنجرة ، والنزلة الشعبية أخطر من ذلك ، وتتطلب علاجاً قوياً فعالاً .

لقد ناقشت حتى الآن مشكلة نزلات البرد والتهابات الحلق ومضاعفاتها . ومن المحتمل أن هذه النزلات مجتمعة هي التي تسبب تسعة أعشار الأمراض التي تصيب الأطفال . غير أن هناك فصيلة أخرى من الأمراض وهي نزلات المعدة والأمعاء التي تتمثل في حالات الإسهال والقيء ، ويكون الطفل في العادة أكثر تعرضاً لها في العامين الأول والثاني من حياته ، لذا ينبغي علاجها بعناية خاصة في هذه المرحلة من العمر . وأعتقد أن من الضروري استشارة الطبيب كلما أصبح براز الطفل الصغير سائلاً تماماً . وتضحي هذه الضرورة ملحّة إذا أصبح البراز مخاطياً أو مختلطاً بالدم ، أو إذا صحبه قيء وارتفاع في الحرارة أو استرخاء كامل في الفراش . أما بعد السنة الثانية من عمر الطفل ، فإن الإسهال الخفيف لمدة يوم واحد قد لا يكون خطيراً . ومع ذلك ينبغي استدعاء الطبيب إذا كان الإسهال مصحوباً بآلام في البطن أو بأي عرض من الأعراض الأخرى التي أحصيتها فيما سلف .

هناك أيضاً بطبيعة الحال عشرات من الأمراض الأخرى التي تؤثر في أعضاء الجسم المختلفة ، وهي من التعقيد بحيث نتعذر علينا مناقشتها ، كما أن غالبيتها من الندرة بحيث يتعذر على الذاكرة أن تحصيها جميعاً . ولقد كان من سوء حظ الأم التي كتبت لي الخطاب السالف الذكر ، أنها صادفت في طفلها حالة من حالات التهاب السحايا ، وهي حالة نادرة جداً ، فقد أحست هذه السيدة — إن لم تكن قد تأملت الأمر ملياً — أن الصداع ، لا سيما الصداع الحاد ، ليس بالظاهرة المألوفة في سنى الطفولة المبكرة ، وأنه ينبغي فحص هذه الحالة عند

الطفل على جناح السرعة . ومن المحتمل أيضاً أن يكون طفلها قد ظهرت عليه أمارات المرض في حالة الالتهاب السحائي بصورة أشد منها في غالبية حالات الأمراض الأخرى ؛ ذلك أن المظهر غير المألوف الذى يصحب المرض هو الذى ينبغى أن يندر الأم بالخطر ، وهو الذى يندرنا فى العادة .

ويشكو الطفل من آلام فى بطنه ، عند بداية العدوى فى حالات أمراض عديدة . وقد تعنى هذه الآلام شعور الطفل الصغير بالغثيان فى كثير من هذه الحالات . كما أن المغص من الأمراض الشائعة بين الأطفال الذين يعانون من مشكلات التغذية وغيرها من بواعث القلق . أما التهاب الزائدة الدودية فإنه من الحالات النادرة بلاريب ، إذا قورن بغيره من الأسباب الأخرى التى تؤدى إلى آلام البطن . غير أن احتمال الإصابة به من الخطورة بمكان ، بحيث ينبغى فحص آلام البطن فحصاً دقيقاً ، لاسيما إذا كانت هذه شكوى لم نعهدها من هذا الطفل بالذات ، وإذا استمرت هذه الآلام ساعة أو أكثر . (لأن الألم الذى يستمر لبضع دقائق معدودات ثم يزول إلى غير رجعة لا يدل على التهاب الزائدة الدودية) .

عند هذه النقطة من الحديث ، يحتمل أن تراودك الرغبة فى أن تقولى : « إن كل هذا يبدو معقداً غاية التعقيد ، ثم إنه ليس وافيًا بحيث يمكن أن يجدى نفعًا . أشك أننى سأذكر هذا الحديث حين يمرض طفلى فى المرة القادمة » . فى اعتقادى أن هذا هو رد الفعل الطبيعى ، إذ ليس المقصود أن تصبح الأمهات متخصصات فى تشخيص الأمراض . فالأطباء لا تقوم دراستهم فى فترة التمرين على مجرد استيعاب قائمة بأسماء الأمراض وأعراضها . ثم تتوقع منهم بعد ذلك أن يقوموا بتشخيصها . بل إنهم يقضون سنوات عدة فى كلية الطب ، وقد يقضون سنوات أخرى عديدة كأطباء مقيمين بالمستشفيات ، يدرسون الجسم البشرى

والميكروبات التي تغزوه ، وأعضاء الجسم التي غزتها الميكروبات ، والاختبارات المعملية الخاصة بالمرض ، وشرح الكتب الدراسية للأعراض المتباينة التي تظهر في الحالات المختلفة ، وبعد ذلك كله يفحصون ويعالجون عشرات الحالات في المستشفى . وهم حين يبدأون في ممارسة المهنة لا بد أن يكونوا ملينين إلاماً تاماً بأعراض التهاب الرئوى أو التهابات الأذن أو التهاب الزائدة الدودية ، في كل مظاهرها المألوفة ، ومن عشرات الزوايا المختلفة . وحتى بعد أن يبايع الأطباء هذه المرحلة ، فإنهم يحسون عادة أن فراستهم تخونهم حين يحاولون تشخيص الأمراض وعلاجها في أفراد أسرهم ، حتى إن جميعهم تقريباً يلجأون إلى غيرهم من الأطباء كي يقدموا لهم هذه المساعدة .

كيف يمكن إذن أن تتوقع من الأمهات اللاتي لم يمارسن أى نوع من التدريب أن يبلغن شأواً بعيداً في تحديد ما هو الخطير وما ليس بالخطير من الأمراض ؟ ومن الضروري استدعاء الطبيب في حالات التواء المفاصل التي تحدث وربما أوالماً مستمراً أو عجزاً عن استعمال العضو المصاب ، لأن هذه الحالات تتطلب مهارة طبية ، وأحياناً ما تحتاج إلى الفحص بأشعة إكس للتأكد من عدم حدوث كسر بالعظام . وينبغي أيضاً استشارة الطبيب بشأن الإصابات التي تحدث في الرأس ، إذا صحبتها غيبوبة قصيرة المدى وميل إلى النعاس وفيه صداع أو شحوب مستمر في الوجه .

عندما يتلع الطفل الصغير ، أو يشتبه في أنه قد ابتلع ، مادة يخطر على بالها أن تكون سامة — هناك عشرات من هذه الحالات في كل البيوت في هذه الأيام — فإن من الأسلم أن تستدعى طبيبك (بعد أن تحاولي بقوة ولفترة وجيزة أن تجملى الطفل على التقيؤ بأن تحركي إصبعك حركة دائرية في مؤخرة حلقه) . وإذا لم يتسن لك الاتصال بالطبيب على الفور ، فإن هناك وسائل أخرى عديدة لعلاج

الموقف بدلا من ذلك ؛ منها أن كثيراً من المدن الكبرى بها الآن مراكز للاستعلامات بشأن السموم ، حيث يمكنك أن تحصل على الاستشارة . ابحثي الآن عن رقم تليفون المركز ، وسجله عندك في مكان يكون في متناول يدك . وإذا كنت تسكنين على مقربة من أحد المستشفيات فيمكنك أن تسارعي بالطفل إلى هناك . أما إذا كان بيتك بعيداً عن المستشفى ، فعليك في هذه الحالة أن تطأبي من سكرتيرة طبيبك أو من عامل التليفون أن يجد لك طبيباً آخر على جناح السرعة ، أو اتصلي أنت بالمستشفى بنفسك .

إن معظم الجروح التي تصيب الأطفال عادة ما تكون كدمات وخدوشاً ثانوية ، تحس الأمهات من واقع تجاربهن أنها لا تدعو إلى القلق . وعندما يكشط الجلد أو يجرح جرحاً طفيفاً ، فإن غسل مكان الجرح بالماء والصابون هو أقرب الإسعافات إلى متناول اليد . أما إذا كان جرحاً حقيقياً مفتوحاً — لا سيما في الوجه حيث يحتمل أن يخلف ندبة — أو إذا كان جرحاً وخزياً ، فإن الطبيب هو الذي ينبغي أن يقرر ما إذا كان من الضروري خياطة الجرح أو حقن الطفل بالمصل المضاد لمرض التيتانوس .

إنني أعرف جيداً مدى ما يقدمه الآباء والأمهات من اعتذارات حين يستدعون الطبيب ، لاسيما إذا كانوا هم أنفسهم يشكون في جدية المرض . لكنني أعتقد أنهم يجب أن يحاولوا قدر طاقاتهم التغلب على هذا الارتباك عند دعوة الطبيب . فحتى لو أحسوا بأنها قد تكون دعوة سخيفة ليس لها ما يبررها ، فإنه ينبغي لهم أن يستدعوه لفحص المريض على أية حال . وإلا فلست أرى داعياً لأن يكون للأسرة طبيب يعالجها . إن الطبيب لا يضيق عادة بدعوة سخيفة كما تتخيل الأم . ومع ذلك فحتى لو كانت الأم واثقة بأن الطبيب سيتكدر من هذه الدعوة ، فإن من واجبها أن تدعوه مهما يكن الأمر ، إذا ساورها القلق على طفلها . فمن البديهي أن صحة الطفل أهم من مشاعر الطبيب أو أحاسيس الأم .

معالجة الطفل في فترة النقاهة

« من الممكن أن تنعاطني معه »

« دون أن تعذبني نفسك »

إن الاحتفاظ بالطفل في حالة من الرضا ، وتجنب الأم الشعور بالضيق والغيظ ، هما المشكلتان اللتان غالباً ما تواجههما الأمهات في أثناء فترة النقاهة من المرض . ومن الجائز أن هناك أسباباً نفسية وجسدية تؤدي إلى حالة العبوس والتبرم والمغالة في المطالب التي تلازم هذه الفترة في الغالب .

فقد أدر كنا من التحليل النفسي للأطفال الصغار أنهم كثيراً ما يفسرون إصابتهم بالمرض ، أو إجراء عملية لهم ، على أنها نوع من العقاب لحق بهم لأنهم اقترفوا عملاً سيئاً ، أو لأنهم قد راودتهم أفكار عدائية نحو أحد أفراد الأسرة ؛ ذلك أن الطفل يحس بالذنب إذا ساورته فكرة شريرة مثلاً يحس به إذا أقدم على عمل شرير ، فهو يظن أن فكرته الشريرة يمكن بطريقة سحرية أن تسبب ضرراً حقيقياً . والواقع أن غالبية الأطفال الكبار والراشدين يحملون في أعماقهم — لا شعورياً — من أيام الطفولة ، شيئاً من هذا الإيمان بالسحر الأسود ، ويؤمنون بمخرافات شتى يدراؤون بها خطر الأفكار السوداء .

فالأم تمسك الخشب عند ما تقول : إن طفلها لم يمرض طوال هذا الشتاء . ونحن الآباء غالباً ما نوحى للأطفال بأن الأمراض تنشأ من الشقاوة . فنقول للطفل : « لو أنك ارتديت سترتك الجلدية كما قلت لك ، لما أصبت بالبرد » . أو نقول له . « إن شجارك مع إخوتك قد سبب صداعاً لأمتك » .

إن الطفل في أثناء مرضه قد يخالجه شيء من الخوف من عامل العقاب ،

ومن أعراض المرض ، ومن خطر المرض ذاته ، وهذا الخوف الأخير من خطر المرض قد يسرى إليه من أمه ، التي تظهر أمارات الخوف على وجهها وهي تقرأ «الترمومتر» ، وتبدو في نبرات صوتها وهي تتحدث تليفونيا إلى الطبيب ، وتتجلى في قاقها وجزعها أثناء عنايتها بالطفل. على أنه عندما تنقضى شدة المرض ، فإن الطفل يبدأ في استرداد قوته ، وهذه هي الفترة التي يحتمل أن يصبح فيها صعب المراس . فمن بين مظاهر رد الفعل عند الإنسان بعد انقضاء حالة الخوف ، أن يثور ثورة عارمة على الشخص الذي تسبب في هذا الخوف . وهذه الظاهرة هي التي كثيراً ما تبدو واضحة في ثورة الأم على طفلها الذي أوشك أن يسقط من النافذة ، أو كادت تدفعه سيارة في الطريق بسبب رعوثته . وما دام الطفل الصغير يميل إلى اعتبار المرض نوعاً من العقاب ، وما دام يعتقد أن الأم هي التي تعاقبه في العادة ، فإنه من المحتمل أن يعتبرها — لا شعورياً — مسئولة إلى حد ما عن مرضه . كما أنه قد يلقي عليها اللوم لأنها لم تدفع عنه الأشياء الأثيمة التي اضطر الطبيب إلى القيام بها أثناء علاجه . والأم العادية غالباً ما تعزز اعتقاده بأنها مسئولة نوعاً ما عن مرضه ، بما تبديه من اهتمام يفوق المعتاد ، ومن استعداد لإرضاء نزواته ، وتحمل لمضايقاته . وما من شك أن من بين أسباب مسلكها هذا ، هو أنها قد تتوهم أن الطفل قد اعتراه المرض أو أصيب في حادث بسبب بعض الإهمال البسيط من جانبها . ومع أن الطبيب لا يوافقها عادة على هذا الرأي ، فإن هذه هي طبيعة تكوين الأم الطيبة .

إذا اعتقد الطفل أن أمه قد جلبت له المرض كنوع من العقاب ، واعتقدت الأم أنها قد تسببت في مرضه بإهمالها ، فإن في إمكانك أن ترى أن هاتين الفكرتين الخاطئتين تعزز إحداها الأخرى . لكن الطفل ما إن يبدأ في الشفاء من المرض حتى يزداد إحساسه براحة الضمير . فقد كفر عن خطايا —

حقيقية كانت أو وهمية — وها هو ذا يرى أنه ما زال يتدفق بالحياة . على حين أن أى شعور بالذنب عند الأم ، لا يتلاشى منها بهذه السرعة ؛ ذلك لأنها تدرك أن المرض لم ينته بعد تماماً . وهذه هي الظروف التي يمكن أن توجد فيها حالة من عدم الاتزان النفسى تستمر بضعة أيام . وعلى قدر ما تبدى الأم من شعور بالذنب فى سلوكها مع الطفل — بمعنى الخضوع له خضوعاً مطلقاً والسماح له بالطغيان عليها — فإن هذا السلوك منها يشجعه على توجيه اللوم إليها وإيقاع العقاب بها .

ربما تبادر إلى أذهانكن أنى أنظر إلى الأمور نظرة سوداء أكثر من اللازم . لكننى لا أعنى بجدى هذا أنه إذا وجدت مشاعر اللوم والإحساس بالذنب ، فلا بد بالضرورة أن تكون حادة وشديدة الوطأة . فهناك بطبيعة الحال حالات عديدة من المرض نضل فيها الأمهات تحتفظات بطابعهن الواقعى العملى ، ويظل الأطفال محتفظين بطبيعتهم اللطيفة العذبة . إنى أعرض عايكن فقط احتمال وجود هذه العوامل النفسية ، كى تتأملها الأمهات اللاتى يعانين المتاعب دائماً فى فترة نقاهة الأطفال من المرض .

* * *

من الحكمة أن تذكر الأم نفسها فى أثناء مرض أو إصابة طفلها أن من أيسر الأمور عليها أن تلقى اللوم على نفسها ، وبذلك يمكنها أن تحذر الخضوع والاستسلام له . وهى تستطيع أن تسأل طفلها عن أعراض مرضه فى لهجة واقعية عملية كالتى يستخدمها الطبيب فى حديثه ، دون أن تكرر عليه السؤال أكثر من اللازم . ولا أعنى بذلك أنه ينبغى لها أن تظهر أمامه بمظهر الشدة وعدم الاكتراث ، فمن الممكن أن تظهرى له العطف وتشاركه فى مشاعره دون أن تحملى نفسك وطأة الضيق والألم .

وعندما يبدأ الطفل في إظهار شيء من السيطرة والأمر والنهي في مطالبه ، فإن في وسع الأم أن توقفه عند حده بأن تذكره في حزم أنها لا تحب أن يخاطبها بهذه اللهجة ، وأن لديها الكثير من الأعمال الأخرى التي ينبغي أدائها . وإذا أظهر لها اشمئزازه من شراب قد طلبه بنفسه قبل فترة وجيزة ، فإنها تستطيع أن تقترح عليه أن يحاول تذوقه قدر إمكانه ، ربما يحين الوقت الملائم لأن تعد له شيئاً آخر .

أما إذا شرع في التسلق « الشعبطة » للخروج من الفراش مخالفاً بذلك أوامر الطبيب ، أو بدأ يمتطي جوانب السرير ، فإن من الأفضل في هذه الحالة أن تتشدد الأم في أوامرها وتظهر له سيطرتها بنفس الأسلوب الذي تتبعه معه ، وهو متمتع بكامل صحته ، بدلا من أن تغالى في التشبث بأهداب الصبر ، أو تظل تحذره في قلق من احتمال تدهور حالة مرضه . فهذا التحذير يعطى الطفل فرصة الاختيار بين إطاعة الأوامر أو تحمل العواقب ، لذا فهو دائماً أضعف أثراً من الأمر الحاسم . القاطع .

من النواحي العملية في هذا المجال ، تحديد مدى الوقت الذي تستطيع الأم أن تقضيه مع الطفل المريض . فهي تود أن تخصص له على الأقل بعض فترات وجيزة في أثناء اليوم ، تستطيع أن تجالسه فيها ، حتى ولو كانت مثقلة بالعمل في البيت . فالأطفال — شأنهم شأن البالغين — إذا تركوا بمفردهم في أثناء المرض لا يعانون من الملل فحسب ، بل إنهم لا يبالون أن يكون أنفسهم في هذه الفترة من الشعور بالاعتماد على الأم أكثر من المعتاد . وما زلت أذكر حتى الآن مدى سرورى حين كانت أمى تأتي إلى المستشفى وتجلس معى في غرفتى وتعطينى رشفات من الماء بعد عملية « استئصال اللوز » التي أجريت لى في العشرين من عمرى .

وإذا بدأ الطفل يطالب أمه بأن تمنحه من وقتها واهتمامها أكثر مما تستطيع أن تمنحه ، فقد يكون من الأفكار الصائبة في هذه الحالة أن تضع له جدولاً قاطعاً تحدد فيه متى يمكنها أن تزوره في حجرتها ومتى يتعذر عليها ذلك . لكن الأهم من عدد الدقائق التي تحددها لزيارتها ، هو نبرات صوتها حين تعان له جدول المواعيد ، أو حين يحاول الطفل فيما بعد أن يحملها على الحياء إليه في غير المواعيد المحددة .

عندما تتنازع الأم مشاعرها المتباينة بشأن إجابة الطفل إلى مطلب ما ، فهي لا تريد أن تسلم له في هذا المطلب الذي يبدو غير مناسب أو معقول في نظرها ، لكنها في نفس الوقت تسأل نفسها - تحت وطأة الشعور بالذنب : هل من الجائز أن تجيبه إليه ؟ في هذه الحالة قد يظهر تردداتها في نبرات صوتها المترددة أو المتذمرة أو الغاضبة حين تقول له : « لا » . وفي التو يكتشف الطفل أنها ليست واثقة بالأرض التي تقف عليها فيشرع في العمل على تحطيم مقاومتها ، عن طريق توسلاته المتكررة ، وحديثه عن أعراض جديدة يحسها ، وراثته لنفسه في وصفه لحالته ، بل ودموعه الماكرة أيضاً . لذلك يجب على الأم أن تبدى له تـمـهـلـيـهـا القاطع في دجة واثقة مرحة .



ولنتقل الآن إلى بعض المقترحات العملية البارة التي بعثت بها إلى إحدى الأمهات .

بدأت السيدة الخطاب بقولها : « ما إن تنهد الأم حمداً لله حين تعاليم أن طفلها في طريقه إلى الشفاء حتى تواجهها عبارتان : « احمله على البقاء هادئاً في الفراش لمدة يومين آخرين » ثم « ماذا سأفعل الآن يا ماما ؟ » فالطفل لا يابث أن

يزهد في مشاهدة التايغزبون والرسم بالطباشير الملون وألعاب القساية المنزلية ، ويريد منك أن تقرئي له قصصاً ، أو أن تقصى له من جديد كل الحكايات التي تدور حول أيام طفولتك . غير أن قراءة كتب الأطفال المسلسلة ، لا سيما الفكاهية منها ، تحدث بالنسبة إلى نفس الأثر الذي يحدثه المورفين ، إذ تجعلني أستغرق في نوم عميق . لا مناص إذن من التفسير في حلول أخرى :

« غيبي له الفراش دائماً . دعيه يمكث فترة في فراشه ، ثم ينقل إلى الأريكة بعد أن تحولها إلى فراش . ثم يعود ثانية إلى فراشه الأصلي . إن تغيير المنظر يبعث الراحة في نفسه ، ويجعل اللعب القديمة تبدو في نظره أكثر إثارة وتسلية . »

« أعطيه جرساً يستعمله حين يناديك . فذلك يخفف من حدة الإغراء الذي يدفعه إلى القفز من الفراش بحثاً عنك . كما أنك تستطيعين سماع صوت الجرس عادة ، لأنه أعلى من صوت المكينة الكهربائية أو الماء الجاري . »

« أعطيه الصندوق الذي يحتوي على زينات عيد ميلاده ، مهما كان الوقت من السنة ، فسوف يجد متعة في تأمل كل قطعة منها على حدة ، ويمتلئ رأسه بالأفكار السعيدة التي تدور حول هذا العيد وربما صنع لك بضع قطع جديدة نضاف إلى مجموعة الزينات . »

« عند ما كنا نتأهب للسفر في إحدى الإجازات ، نشأت مشكلة معينة بخصوص زينات العيد ، إذ كان من الضروري أن تكون هذه الزينات مسطحة وغير قابلة للكسر حتى يمكن وضعها في الحقائب . لكنني عثرت على الحل . توجد على أغلفة الكتب الفكاهية التي يحبها الأطفال ، رسوم كبيرة الحجم للقطعة والتغلب والغراب والبطة وغيرها من الحيوانات الصديقة . فنقلت بعضها (مستخدمة ورق الكربون) على قطع من الورق المقوى الأبيض التي نأتى لنا

فى داخل القمصان عندما يرسلها إلينا محل الغسل والسكى . ثم لوّن طفلى هذه الصور وقصها بالمقص ، واحتفظ بها فى عناية لتعليقها فى عيد الميلاد . لقد أحرزت هذه الزينات نجاحاً هائلاً . أما الطفل الصغير ، فيمكنك أن تقصى له دوائر ومربعات ونجوماً كبيرة من الورق المقوى . وهذه أيضاً تبدو جميلة ، كما أنها تمنح الطفل متعة إعدادها بنفسه .

« أعطى الطفل كومة من المجلات القديمة ، لاجرد التفرج عايتها ، بل لتنفيذ مشروع محدد تهذفين إليه . ذلك أن فى وسعه أن « يشيد » بيتاً أو مستشفى من هذه المجلات . فن أجل بناء المستشفى ، عليه أن يفحص المجلات -فحصاً دقيقاً ، ويقص منها كل صور المرضات والأطباء والأطفال والأدوية والأزهار والأسرة والساعات أو أى شىء آخر يجب أن يكون عنده فى مستشفى . وعند ما يفرغ من جمع كومة من الصور ، عليك أن تشبكها بالدبايس فى ساتر « بارافان » قديم أو على (ستارة) بالقرب من فراشه . إذا كان الطفل غلاماً ، فإنه يستطيع أن يمثل دور كبير الأطباء ، يصدر أوامره من (مكتبه) على الوسادة . أما البنات فيمكنها أن تمثل دور كبيرة المرضات ، وتتبع نفس خطوات اللعبة فى حالة بناء بيت ، سوى أن على الطفل فى هذه الحالة أن يبحث فى المجلات عن صور لحجرة الجلوس وحجرة النوم وصنوف الطعام والسيارات وما إلى ذلك ، كما أنه يستطيع أيضاً بناء حظيرة للسيارة (جراج) . »

« لعبة الأزرار ! هناك أشياء عديدة يمكن صنعها بالأزرار ، لكنك يجب أن تراقبى الطفل جيداً أثناء لعبه بها ، إن كان صغير السن بحيث يحتمل أن يضعها فى فمه . من الممكن أن تصنف الأزرار كل نوع على حدة ، وتوضع فى أقذاح حسب درجة بريقها التى تجعلها شبيهة بالجواهرات ، أو حسب لونها ، أو شكلها . يمكن أيضاً أن يحركها الطفل بالمعلقة ويقدمها كطعام فى الأطباق الصغيرة التى

يلعب بها الأطفال (من الأشياء المساية للطفل أن يستخدم انغرفة في تقديم الأزرار) . ومن الممكن أيضاً أن ينظم الأزرار في عقد كبير أو يكون منها نماذج على المنضدة التي بجوار فراشه . هل يوجد عندك شريط عريض من « الأستك » كالذى يمكن أن يبقى من منامة (بيجامة) بالية ؟ يستطيع الطفل أن يخيط الأزرار أو يشبكها بالدبابيس الإنجليزى في هذا الشريط ، ليصنع منها حزاماً وهمياً .

« كما أن من الممكن أن تستخدم الأزرار بمثابة « نقود » لتسجيل النقاط الراجعة في لعبة من ألعاب التسلية المنزلية ، أو توضع في صندوق من الصفيح ، فتصبح آلة موسيقية تصدر إيقاعاً جميلاً عندما يهرها الطفل مع أنغام أسطوانة تدار على الحاكى .

« هل عندك عابطة للحلى القديمة المستهلكة ، تاقين فيها بحلى فصل الصيف ، التى لن تعودى إلى ارتدائها مطلقاً ، وكذلك « فرد » الأقراط بعد أن تياسى من العثور يوماً على « الفرد » المفقودة التى توائمها ؟ يمكنك أن تعطيه هذه العابطة أو تعطيه عابطة حليك اليومية بعد أن ترفعى منها كل شىء له قيمته . لقد أمضى طفلى ساعات طوالاً يتفحص الحلى قطعة قطعة ويدقق النظر فى الأشياء المعلقة فى القلادات . وفى آخر الأمر أصبح إمبراطور زمانه ، بأن ارتدى الحلى كلها دفعة واحدة ، ولبس سترة النوم الخاصة بى ، ثم توج رأسه بتاج من الألومنيوم . ورغم أن هذه الفكرة قد لا تبدو بعيدة الأثر ، فقد أتاحت لى أن أنعم بساعات من الهدوء وراحة البال .

« عابطة الفضيات ! رغم أنى لم أدرك قط السبب فى ذلك على وجه الدقة ، فإن إخراج الأدوات الفضية من العلبه ثم إعادتها إليها ، من الأشياء المسلية للأطفال .

« أعطيه صندوق الصور القديمة ، أو دفاتر حفظ الصور « الألبومات » .
أو الكراسات التي تلصق فيها قصاصات الصحف . إن الطفل يجد متعة في مشاهدة
الصور ، لا سيما الصور الخاصة به ، لذلك يمتعه ويساهي الألبوم الذي يضم صور
طفولته المبكرة . يجب أن تكون مستعدة أيضاً لأن تريه إحدى صورك الجميلة
في أيام شبابك ، فيقول لك : « من هذه الفتاة ؟ أهى أنت ؟ إنها لاتشبهك ! » .

« وإذا كانت إحدى إجازات الأعياد وشيكة ، فهناك بطاقات المعايدة يمكن
أن يعدها الطفل ، مثل بطاقات عيد الميلاد ، أو عيد الأم ، أو عيد
القيامة ، أو عيد الربيع ، أو أى نوع آخر من بطاقات المعايدة . فنحن
دائماً في انتظار عيد أو آخر من هذه الأعياد من الممكن أن تكون هذه البطاقات
مزينة بالزخارف أو مجرد صور مناسبة على رقعة كبيرة من الورق : صورة
بيضة كبيرة الحجم في عيد القيامة على سبيل المثال . المهم أن ننظر إلى هذه
البطاقات على أنها شيء له قيمته ، ونرسلها فعلاً بالبريد إلى الأشخاص الذين
يدرجهم الطفل في قائمة من يرغب في معايدتهم . هناك أيضاً « صناعة الدانتلا »
وهي من الألعاب القديمة التي يحبها الأطفال ؛ إذ يأخذ الطفل رقعة من الورق
العادي الأبيض يطويها بضع مرات ثم يقص منها شرائح وأنصاف دوائر ، فإذا
ما فتحها وجد « ورق الدانتلا المزركش » ، ثم تساعدني على اصقعه بالبرق الملون .

« ها هو ذا تعاطى الدواء قد أصبح الآن مهمة مزعجة تبعث على الضيق .
فقد استرد الطفل عافيته إلى الحد الذي يتيح له المقاومة والتهديد بأنه سيتقيا الدواء
كما أنه لم يعد يرغب في تناول السوائل ، في حين أن الطبيب يطلب إليك أن تملئيه
على ابتلاعه . لقد ساعدني مساعدة طيبة في هذا السبيل ، إلى ارتديت قبعة من
الورق كالتى ترتديها الممرضات كي أغريه بتناول الدواء .

« أما الفكرتان التاليتان فقد تمخضت عنهما قريحة طفلى ، أى إنهما من ابتكار

صاحب الشأن نفسه . الفكرة الأولى هي بناء مسرح مصغر . وقد استخدم في بنائه صندوقاً من الورق المقوى بمثابة خشبة للمسرح ، غطاها بقطعة قديمة من القماش حسنة المظهر إلى درجة معقولة . ثم نسق المناظر في الصندوق ، مستخدماً قطعاً دقيقة الحجم من الأثاث البلاستيك مع بعض المكعبات الخشبية وزينات عيد الميلاد أو بعض اللعب . وكان الممثلون هم الدمى الدقيقة والتمثيل الصغيرة المضحكة التي يشترها من « محلات ألف صنف » وقد أدار إحدى أسطواناته لتكون بمثابة « المؤثرات الصوتية » ، مفترضاً أن الدمى يقمن بالتمثيل أو الغناء . كما أنه استخدم آلة السينما الملونة التي عندنا لتأقي ضوءاً كاشفاً يساطله على المسرح . غير أن ضوء البطارية الكاشفة قد يؤدي نفس الغرض تماماً ، أو حتى ضوء أى مصباح كهربى يصبوب إلى خشبة المسرح .

« أما الفكرة الثانية فهي تعتمد أيضاً على استخدام صناديق الورق المقوى والصور التي يقصها الطفل من المجلات . فهو يستطيع أن يلصق الصور بداخل صندوق كبير ، يضعه أمامه بحيث يكون الجانب المفتوح منه مواجهاً له ، بذلك تصبح عنده ثلاثة جدران وأرضية وسقف لبيت يشيده بنفسه ، ويستطيع أيضاً أن يضع صندوقاً آخر فوق الصندوق الأول على أنه الدور العلوى من البيت .

« وإذا ألصق الطفل بعض صور السيارات بداخل الصندوق ، فإن في إمكانه أن يستغل السيارات للعب أيضاً ، فيدخلها إلى هذه الحظيرة « الجاراج » ويخرجها منها . أما إذا كان المفروض أن يكون هذا الصندوق بيتاً للسكنى ، فيمكن عندئذ أن يعيش فيه بعض « الناس » وتضاف إليهم بضع قطع صغيرة من الأثاث . وفي هذه الحالة يستطيع الطفل أن يلصق صوراً لاسجاجيد أو النوافذ على جوانب الصندوق .

« كما أن صندوق السيجار حين يملأ بالدمى الدقيقة يصبح لعبة رائعة في حالة الصحة والمرض على السواء . فهذه الدمى صغيرة الحجم بحيث تصلح للركوب في عربات البصاعة (اللعب) ، وللسكنى في المباني المصنوعة من المكعبات الخشبية أو الورق المقوى ، فضلاً عن أن ثمنها زهيد للغاية . كما أن هذه الدمى تستطيع أن تسير في استعراضات طويلة ، وأن تقوم بمغامرات مثيرة في الطائرات أو عربات الحريق ، وأن تركب في بعض عربات القطار الكهربى (العربى المعلقة) ، العربى القلابة ، العربى القافزة ، عربى التبريد ، أو عربى الخيل إن كان لها باب ينزلق على قضبان) . ويمكن أيضاً أن تثبت هذه الدمى فوق سطح القاطرة أو عربى الركاب بشريط من السيلولوز » .

« لقد تسلينا كثيراً — أنا وطفلى — بمشاهدة بعض المفامرات العنيفة التى قامت بها دمىة دقيقة من المطاط تسمى « لوسى » . كانت « لوسى » تركب الطائرات بمفردها ، وتقفز من فوق المباني الشاهقة ، وتقود القطارات بسرعة جنونية ، وتقوم فى الواقع بكل الحركات التى تروق للطفل . وعند ما سألته عن رأى والدى « لوسى » فى تجاربها المثيرة ، صرح لى بأن « لوسى » ليس لها والدان ، لذا فإنه من المباح لها أن تأكل ما يروق لها من الطعام ، ولا تذهب للنوم على الإطلاق . فأدركت أن هذه الدمى تتمثل فيها أحلام ابنى فى التمتع بالحرية . وأظن أنه بنفس عن نفسه بهذه الوسيلة فى كثير من حالات الكبت والإحباط » .

« إن لم يعجبك أو يعجب طفلك شىء من هذه المقترحات ، فما عليك إلا أن تذكرى كيف أنه من الأفضل كثيراً للمرأة أن تكون أمّاً فى عصر المضادات الحيوية ! كيف كان من الممكن فى الماضى أن تعالج الأم التهابات الأذن

عند طفاها ، أثناء سفرها في عربة مغلقة تجرها الجياد^(١) ؟ لقد أصبح لدينا الكثير مما ينبغي أن نشكر الله عليه .

* * *

إنى أحسد هذه الأم على خيالها الخصب ؛ ذلك لأننى لم أستطع يوماً أن أتفق قصة عن أيام طفولتى لأجعل منها شيئاً جديراً بالرواية ، كما أنى لا أستطيع أن أنحىل مجالات أخرى لنشاط الطفل عدا تلك المجالات التى أذكر أنى كنت مفرماً بها فى طفولتى . فالأولاد مثلاً يمكنهم قضاء ساعات طوال فى اللعب بمجموعة من السيارات المصغرة . وهناك عشرات من هذه السيارات التى تخبىب لب الأطفال بتركيبها المستمد من الواقع ، يمكن شراؤها من أى محل كبير من محال لعب الأطفال . ويمكنك أن تجدى فى هذه المحال أحياناً ، قطارات دقيقة الحجم (بغير محركات أو قضبان) يمكن دفعها فوق مسطحات صغيرة .

وعندما اضطر أحد أبنائى إلى ملازمة الفراش لمدة شهر كامل ، كان مما يبعث السعادة فى نفسه أن يلعب بوعاء متسع مليء بالماء ، يضعه على أرض الحجره وينسق فيه أحواض السفن ، ثم يعوم فيه السفن اللب التى كنت أشتريها له أو أصنعها من خشب « البلسا » الخفيف ثم أطليها بالألوان التى تطلّى بها نماذج الطائرات . ومن الممكن أيضاً فى هذه الأيام شراء تشكيلات لا نهاية لها من معدات التركيب التى يركب الأطفال أجزائها المفككة ، ليصنعوا منها نماذج الطائرات والقطارات والسفن والسيارات والمناظر الطبيعية ، ابتداء من النماذج البسيطة التى لا تتطلب جهداً من الطفل ابن السادسة سوى أن يلصق أجزائها معاً بالفراء ، حتى النماذج المعقدة التى يظل المراهق مشغولاً فى تركيب أجزائها لمدة أسبوع كامل .

(١) فى القرن التاسع عشر كان المسافرون يقطعون مسافات شاسعة فى هذه العربات ، أثناء سفرهم عبر البرارى الأمريكية .

وهناك أيضاً للأولاد والبنات معدات للتطريز والخياطة ، ونظم الخرز في عقود ، ونسج السلال وحملات الأواني ، وصناعة الجلود ، وقص العرائس من الورق . ومجموعات التركيب ذات الأجزاء الخشبية أو المعدنية ، عادة ما تتوافر فيها عشرات الإمكانيات لتكوين نماذج شتى غير التي يحتوى عليها كتاب الإرشادات المرفق معها . فالصبي يريد دائماً أن يخرج من نطاق النماذج المحددة له إلى تكوين نماذجه الخاصة ، كما أنه من الممكن أن نحى في البنات الرغبة في اللعب بالعرائس ، بأن نضيف بضع قطع بسيطة إلى معدات التركيب .

غير أن المشكلة الرئيسية فيما يختص بمعدات التركيب الجاهزة هي أنها إذا كانت أعلى من مستوى قدرات الطفل ، ولا يستطيع أن يكيفها بحيث تتلاءم مع مستواه ، فإن ذلك لن يلبث أن يثبط من عزمه . لذا كان جديراً بنا أن نذكر دائماً أنه ليس من الضروري أن نشترى اللعب الجديدة من المحال ؛ ذلك لأن عملية الخلق والإبداع تبعث الرضا في نفس الطفل (وتستغرق وقته أيضاً) أكثر من اللعب الفعلى بشيء ما بعد الانتهاء من صنعه . وهذا هو السبب في أن فراش الدمية الذى تصنعه الطفلة من صندوق للأحذية وتجهزه بالملاءات والبطاطين انتى قصتها بنفسها من قطع القماش البالية ، يخالب لبها ويستهوئها أكثر من أروع اللعب الجاهزة المشتراة من السوق . كما أن مجموعة طيبة من قطع البناء الخشبية يمكن أن تتحدى قدرة الغلام في الفترة ما بين سن الثانية والثامنة ، فتدفعه دائماً إلى مزيد من الإتقان في خلق النماذج الجديدة . أما إذا تعذر على الطفل أن يخلق شيئاً جديداً ، فإن المتعة التالية التي يؤثرها على غيرها ، هي أن يطور لعبة قديمة كي تحقق هدفاً جديداً . وهذا هو السبب في أنه يرغب أحياناً في انتزاع سقف عربة الركاب الصفيح من قطاره الكهربى ، كي يجعل العربة صالحة للحل بضاعة حقيقية ، مما يكدر أباه أشد الكدر .

وأضيف أن المنضدة الخاصة بالمريض التي تمتد فوق الفراش ، من الوسائل السليمة التي يمكن أن تستغياها العائلة ليلعب عليها الطفل في أثناء مرضه .

ليس من الضروري أن تعودى بالذاكرة بعيداً إلى أيام العربات المغلقة التي تجرها الجياد ، لتدركى إلى أى مدى قد قصرت فترة النقاهة في أيامنا هذه وأصبحت أهون كثيراً من ذى قبل ، فبعد منى فترة لا تزيد على خمسة وعشرين سنة ، كنا نضطر إلى الانتظار أياماً وأياماً على أمل أن تخف حدة المرض في حالة الالتهاب الرئوى . وكان الطفل المصاب بالحمى القرمزية — حتى ولو كانت خفيفة الوطأة — يضطر للمكوث في الفراش ثلاثة أو أربعة أسابيع لأسباب قوية لا تحتل الجدل . وكانت « الحمى الروماتيزمية » تحتاج إلى الراحة في الفراش شهوراً عديدة . أما التهابات الأذن التي يمكن الآن عادة أن نوقفها عند حدها في خلال يومين ، فقد كانت تعالج بالمشروط في العادة ، ثم يشبك الطبيب والوالدان أصابعهم ، ويضرعون لله أن نتوقف الإفرازات قبل انقضاء أيام عديدة ، حتى لا يمتد الالتهاب إلى عظمة التتوء الحامى .

لم تكن فترة النقاهة طويلة الأمد فحسب ، بل كانت عذاباً أليماً .

الطبيب يفحص طفلك

« إن كفاية الطبيب تتوقف
على توازن قدراته »

كتبت إلى إحدى الأمهات قائلة : إنها لا تحس بالرضا عن الطريقة السريعة التي يجري بها الفحص الجسماني على طفلها في زيارتها الدورية للطبيب . وهي تريد أن تعرف « ما هي مقومات الفحص الجسماني السليم ؟ » .

من الرعونة أن يحاول أحد الأطباء شرح أساليب مهنة الطب ، في حين أن هناك ٢٠٠٠٠٠ من الأطباء الممارسين في البلاد ، يؤمن كل واحد منهم بآراء تختلف بعض الشيء عن آراء الآخرين بشأن كل ناحية من نواحي المهنة . ومع ذلك فلنحاول أن نشرح هذا الموضوع .

أحب أن أوضح أولاً أن الفحص الجسماني لا يعدو أن يكون جانباً واحداً من العملية التي يقوم بها الطبيب حالة الفرد . أما الجوانب الأخرى فهي بطبيعة الحال تاريخ المرض (الذي يروي به المريض أو الأم) والفحوص المعملية إن وجد شيء منها . ومن الصواب في اعتقادي أن نقول إننا في أكثر الزيارات الطبية — لاسيما حالات الفحص الدوري — نجد أن تاريخ المريض من حيث إحساسه العام بالمرض ومدى أداء جسمه لمهمته ، يكشف لنا عن حقائق بشأن حالته أكثر مما يكشفه الفحص الجسماني . ونحن حين نفحص الأطفال الصغار يجب أن نفكر في النواحي التي تنال أكبر قسط من اهتمام الأم والطبيب في مرحلة الطفولة المبكرة : نوع الغذاء الذي يقدم للطفل ومدى تقبله له ، مدى الزيادة في وزنه أو مقاساته الأخرى ، مدى تقدمه في القدرات الآلية (قيادة الدراجة) ،

مدى تجاوبه مع المجتمع ، مدى قيام أمعائه بمهمتها ، التدريب على استعمال دورة المياه ، النوم ، مدى شعوره بالرضا بالمقارنة مع فترات الصراخ والبكاء ، إصابته بالعدوى في الجهاز التنفسي أو غيره من أجهزة الجسم ، حالة الجلد ، أثر الطفل في غيره من أفراد الأسرة . على حين أن الفحص الجسماني لا يحتمل أن يلقى كثيراً من الضوء إلا على ثلاثة فقط من هذه الموضوعات الأحد عشر التي ذكرناها .

أما في حالة الطفل الأكبر سناً الذي يأتي إلى عيادة الطبيب في زيارة للفحص الدوري ، فإن الغذاء والنمو والنوم والعدوى تظل من الموضوعات التي يهتم بها الطبيب . وبالإضافة إليها ينبغي أن يسأل الطبيب عن مدى تكيف الطفل مع إخوته وأبويه وأصدقائه ومدرسته ومع نفسه أيضاً . وفي هذه الحالة كذلك لا يساعد الفحص الجسماني في الكشف عن هذه النواحي ، إلا فيما يتصل بالنمو والعدوى .

وحتى فيما يتصل بالنمو والعدوى ، فإن تاريخ حياة الطفل لا يقل أهمية عن الفحص الجسماني في الوصول إلى نتائج سليمة . فتحافة الطفل أو سمته التي يكشف عنها الفحص الجسماني في يوم بالذات ، لا تعطينا بصيصاً من النور يوضح دلالتها ، ما لم نعرف تطورات وزنه وتكيفه مع البيئة في الماضي . ولناخذ مثالين لتوضيح هذه النقطة : هناك طفل يميل إلى التحافة والحساسية المفرطة منذ طفولته المبكرة ، وقد ظهر من اللوحة البيانية أن وزنه في عدة زيارات قام بها للطبيب ظل قريباً من الخط العشري ، أي إن عشرة في المائة من الأطفال الذين هم في مثل سنه يزنون أقل منه ، على حين أن تسعين في المائة منهم يزنون أكثر منه . ثم اتضح من فحص اليوم أن وزنه قد زاد أكثر من المعتاد في خلال الستة أشهر التي انقضت منذ الفحص الماضي ، فأصبح وزنه الآن عند الخط الخامس والعشرين — أي إن خمسة وعشرين في المائة من الأطفال في مثل سنه يزنون أقل منه . وتقول أمه للطبيب : إن حياة الطفل تسير على ما يرام في

هذه الفترة بصفة خاصة . في حالة هذا الطفل يمتد للأُم والطبيب أن يسعدا بحالته الصحية ، رغم أن الفحص الجسماني يدل على أنه ما زال نحيفاً بعض الشيء .

وعلى النقيض من هذا المثال ، نجد في أقصى الطرف الآخر ، مثلاً لطفل تبدو بنيته على خير ما يرام في فحص اليوم ، غير أنه يتضح من سجله الصحي في الماضي أن وزنه كان دائماً فوق المعتاد ، وتذكر أمه أنه دأب على شرب السوائل والتبول أكثر من المعتاد في الأسابيع الأخيرة . وهذه إحدى القصص التقليدية التي تنبئ عن بداية الإصابة بمرض السكر ، التي يمكن التحقق منها بإجراء التحاليل المعملية ، بحثاً عن السكر في البول والدم .

ولنتعرض الآن الجوانب الأساسية من الفحص الجسماني ، لنرى مدى أهميتها في الفحص الدوري الذي يجري على الطفل أو الرضيع .

ما دامت الطفولة تعنى النمو ، فإن وزن الطفل في الميزان يعتبر وسيلة سهلة قائمة على الحقائق الثابتة ، يتتبع بها الطبيب تطورات نموه على وجه التقريب ، ما دام يفسر هذه التطورات على ضوء التقديرات السليمة . كما أنه يقيس طول الطفل دائماً فيعطيه هذا القياس بياناً عن أحد مظاهر بناء الجسم ونموه ، ذلك أن طول الجسم لا ينحرف في العادة عن اتجاهه الطبيعي إلا نتيجة مرض حاد مزمن أو اضطراب عائلي عنيف .

إن الكثيرين من الأطباء — وأنا من بينهم — لا يقيسون درجة حرارة الأطفال الكبار أو الصغار الذين يأتون إليهم بهدف الفحص الدوري ، ما لم تظهر عليهم أعراض مرض عضوي . فالحرارة قلما تكون مرتفعة في الظروف العادية ، أما إذا كانت مرتفعة فإنها تدل عادة على مجرد حالة عدوى عادية في الجهاز التنفسي ، في مراحلها الأولى . كما أن معظم الأطفال الصغار يشعرون بأن

قياس حرارتهم من فتحة الشرج فيه إهدار لكرامتهم . غير أن الأطباء الآخرين يفضلون على أية حال أن يقيسوا الحرارة بصفة روتينية ، واضعين نصب أعينهم تلك الحالات النادرة التي يكون فيها ارتفاع الحرارة غير المشتبه فيه هو العلامة الأولى التي تنبئ عن بدء متاعب جدية .

والجانب الأول من فحص الطبيب يسمى عادة المظهر العام ، وهو يشمل بنيان الطفل وحالة تغذيته وسلوكه العام ، وما إذا كانت تبدو عليه أمارات الصحة أو المرض ؛ ذلك أن الطبيب دون أن يستخدم يديه أو أية أداة من أدواته ، يتلقى انطباعات عن هذه المظاهر الهامة طوال الفترة التي يقضيها مع الطفل ، كما أنه تلقائياً يقارن بينه وبين الأطفال الآخرين الذين في مثل سنه . وهو أيضاً يرى حالة الجلد في لحظة سريعة .

وفي حالة الطفل الرضيع يقيس الطبيب حجم الرأس ويتحسس اليافوخ (البقعة الرخوة في الرأس) ، كي ينتفي احتمال إصابة الطفل بأحد الأمراض النادرة التي تؤدي إلى نمو حجم الرأس نمواً سريعاً أو بطيئاً أكثر من المعتاد .

وفي العادة يقلب الطبيب الجفن السفلى للعين ويفحصه ، لأن شحوب الأوعية الدموية في هذا المكان ينبئ عن احتمال الإصابة بالأنيميا (وهي من الأمراض الشائعة في النصف الثاني من العام الأول وفي العام الثاني) ، مما يتطلب عد الكرات الدموية للتأكد من الحالة . كما أن الطبيب يلحظ أيضاً توازي أو تناسق حدقتي العينين في النظر إلى الأشياء .

أما الطفل الذي بلغ سن الذهاب إلى المدرسة ، فمن المهم أن تختبر قوة إبصاره مرة كل عام على الأقل بوساطة لوحة علامات النظر ، سواء أكان ذلك في المدرسة ، أم عن طريق طبيبيه الدائم ، أم إخصائي العيون . وهذا الفحص هام بصفة خاصة لاكتشاف قصر النظر الذي يحتمل أن يتطور سريعاً في هذه

السن ، لا سيما إذا كان قصر النظر أو ضعف النظر المحورى « الاستجماتيزم » شائعاً في الأسرة . (عندما توجد عيوب حادة من هذين النوعين فإن من المحتمل أن يلحظ المعلم أو الأم ، الوضع غير العادى الذى يمسك فيه الطفل بالكتاب ، أما حالات ضعف النظر البسيطة فقد لا يلحظها الآخرون ولا يشكو منها الطفل) .

ثمة نواح أخرى في فحص العينين يستطيع الطبيب العام القيام بها : حجم واستدارة العينين ، ما إذا كانتا تتقلصان عندما يسلط عليهما ضوء ساطع أو يقرب منهما هذا الضوء ، مظهر الشبكية في مؤخرة العين عندما تفحص في ضوء جهاز فحص قاع العين . غير أن هذه الاختبارات غالباً ما يستغنى عنها الطبيب عند إجراء الفحص الدورى على الأطفال الأصحاء . لكنه يجريها بعناية بالغة عندما تكون ثمة أعراض تدل على أمراض في الجهاز العصبى أو العينين . وفحص الشبكية يتطلب تعاوناً كبيراً من جانب المريض ، أو استخدام قطرة معينة لتوسيع الحدقتين .

وفحص الأنف فحصاً سريعاً بالضوء الكاشف ، غير أن هذا الضوء لا يكشف عن شيء في العادة إلا في حالة الحساسية أو الإفرازات الناتجة عن نزلات البرد أو التهاب الجيوب الأنفية ، أو في حالة وجود جسم غريب يكون الطفل قد حشاه في أعلى الأنف .

كما أن فحص طبلى الأذنين له أهمية بالغة في حالة الأطفال الصغار عندما يكونون مصابين ، أو كانوا قد أصيبوا حديثاً ، بنزلة برد أو احتقان في الحلق مع ارتفاع في الحرارة ، ذلك لأنهم في هذه السن يكونون أكثر استعداداً للإصابة بالتهابات الأذن من الأطفال الأكبر سناً والبالغين . غير أن بعض الأطباء — وأنا منهم — يفضلون ألا يثيروا غضب الطفل أو خوفه بفحص أذنيه ، إذا

كان رضيعاً أو طفلاً صغيراً إلى الحد الذي يتعذر معه أن يتعاون مع الطبيب ،
ما دام يتمتع بصحة جيدة منذ الفحص السابق .

لا يحاول الطبيب عادة أن يختبر قوة السمع في سنى الطفولة المبكرة ، لأن
نتيجة هذا الاختبار غير مؤكدة على الإطلاق ، ما لم يقم به أحد الإخصائيين .
فإذا كان ثمة اشتباه من هذه الناحية ، أو إذا كان الطفل قد أصيب بالتهابات
خطيرة في أذنيه ، أو إذا كان بطيئاً في النطق بكلام واضح ، فإنه ينبغي في هذه
الحالة أن يفحصه أحد الإخصائيين . أما في حالة الطفل الذي تجاوز عامه الرابع
أو الخامس ، الذي يأتي إلى الطبيب كل ستة أشهر لإجراء فحص دورى عام ،
فإنه من الممكن اختبار قوة سمعه بوساطة دقات الساعة أو الصوت الهامس .

ويفحص الفم والحلق دائماً لتتبع حالة الأسنان واللوزتين ، ولاكتشاف
بعض التهابات البسيطة مثل التهاب الغشاء المبطن للفم ، وهو من الأمراض
الشائعة في مرحلة الرضاعة ، ويعوق إرضاع الطفل . كما أنه عندما يصاب الطفل
بأمراض حادة مصحوبة بارتفاع في درجة الحرارة ، غالباً ما يكون الحلق هو
المكان الذي توجد فيه بؤرة العدوى . ويفحص الطبيب أيضاً سقف الفم في
أول فحص يجريه على الطفل بعد ولادته ، كي يتأكد من عدم وجود انشقاق في
سقف الحلق .

في الشهور الأولى من عمر الطفل يجب ملاحظة ما إذا كان الرأس معتدلاً
فوق العنق ، وهل يمكن تحريكه بسهولة إلى كلا الجانبين . وفي حالات المرض
الحاد يثنى الطبيب رقبة الطفل لينفي احتمال الإصابة بتهيج في الغشاء السحائي .
وفي أثناء الفحص يتحسس الطبيب بسرعة ، الغدد الليمفاوية في العنق وتحت
الإبطيين وأعلى الفخذين . والحالات الشائعة التي غالباً ما تتضخم فيها هذه الغدد
هي حالات العدوى التي تصيب الحلق أو اللوزتين أو الجلد . غير أن تضخمها
قد يدل أحياناً على أمراض أكثر خطورة .

وغالباً ما يطرق (ينقر) الطبيب على الرئتين ويصغى إلى صوتهما بسرعة .
 أما إذا كان الطفل في صحة جيدة فإن هذا الفحص يجرى أساساً بحكم العادة التي سار عليها الأطباء . فلئن سمع الطبيب صوتاً غير عادي يصدر عن رئتي هذا الطفل ، فإن ذلك خليق بأن يبعث فيه أشد الدهشة . غير أن الأمر يختلف كل الاختلاف إن كان الطفل يعاني من سعال حاد له خطورته ، فهذا يثير الاشتباه في النزلة الشعبية أو الالتهاب الرئوي أو الربو ، وفي هذه الحالة تفحص الرئتان فحفاً دقيقاً في كل أجزائهما .

ومن المحتمل أيضاً أن يطرق الطبيب على القلب ويصغى إلى ضرباته بسرعة . فاحتمال أن يكون الطفل قد أصيب بمرض في قلبه ما بين زيارة وأخرى للطبيب . احتمال ضئيل للغاية ، ما لم تظهر عليه في القليل أعراض بسيطة تنبئ عن سوء الصحة ، مثل شحوب الوجه وسرعة الشعور بالتعب . وهناك نسبة كبيرة من الأطفال يظهر عندهم لفظ بسيط « عرضي » في القلب أثناء السنوات الأولى من أعمارهم ، وهذا اللفظ ليست له أية دلالة من ناحية الصحة العامة ؛ إذ أنه لا يلبث أن يزول عندما يكبرون في السن . غير أن الطبيب يفضل أن يتتبع هذه الحالات في سجلاته ليرجع إليها إذا حدث اشتباه في مرض القلب فيما بعد .

يقيس الطبيب ضغط الدم على فترات متباعدة في مرحلة الطفولة المبكرة ، ما لم تكن هناك أعراض تشير إلى إحدى الحالات النادرة التي ترفع ضغط الدم . كما أنه من العسير قياس الضغط بدون تعاون من جانب الطفل ، والجهد الذي يبذل في هذا السبيل يضايق الأطفال الصغار في العادة .

ثمة مظاهر عديدة في البطن يفحصها الطبيب بصفة روتينية في مرحلة الرضاعة . هل توجد كمية من الغازات أكثر من المعتاد ؟ إلى أي مدى قاربت الصرة على الالتئام ؟ (هذه المسألة تهتم الأم أكثر مما تهتم الطبيب) . ما هو حجم الكبد ؟ هل الطحال كبير الحجم إلى الحد الذي يسمح بتحسسه تحت الضلوع ؟ هل توجد أي كتل غير عادية في البطن ؟

أما في بقية مرحلة الطفولة فإن الطبيب يتحسس البطن بسرعة ، غير أنه قلما يجد به شيئاً ، اللهم إلا إذا كانت هناك أعراض تدل على مرض موضعي مثل التهاب الزائدة الدودية .

وفي مرحلة الرضاعة يفحص الطبيب الأعضاء التناسلية كي يتأكد من أنها سليمة التكوين ، وأن خصيتي الطفل قد نزلتا في مكانهما الطبيعي وأن فتحة البول توجد في مكانها الصحيح . وليس ثمة ما يدعو لأن يثابر الطبيب على فحص هذه النواحي بالذات ، ما لم تكن هناك بطبيعة الحال أعراض معينة كالحرقة والإفرازات وصعوبة التبول .

ويلاحظ الطبيب أيضاً ذراعي الطفل الصغير وساقيه كي يتأكد من أنه يستعملها بسهولة ، وأن عضلاته متماسكة . ويكون متيقظاً تماماً في بحثه عن الأعراض التي تدل على عيوب في تكوين العظام مثل انتقال عظمة الحرقفة من مكانها أو ميل باطن القدمين إلى التقعر ، لأن من المهم أن تعالج هذه الأعراض في بدايتها . أما في العام الثاني من عمر الطفل ، فإنه يجب ملاحظته جيداً للكشف عن حالات تقوس الساقين أو الصدف (تكون الركبتان مقبلتين إحداهما على الأخرى) ، أو ضعف الرسغين ، أو انحراف أصابع القدمين بدرجة متطرفة إلى الداخل أو الخارج أثناء المشي (excessive loeing) . أما في الفترة التالية من مرحلة الطفولة ، فإن جميع المتاعب تقريباً التي تصيب الساقين سوف تكشف عنها أعراض معينة يبلغها الطفل أو أمه إلى الطبيب .

وفي مرحلة الرضاعة يختبر الطبيب بضع انعكاسات عصبية في الطفل ، مثل انتفاضات الركبتين (باستخدام المطرقة) وانتفاضات الرسغين ، وانعكاس بابينسكي (Babinski) (رد الفعل الذي يحدث في أطراف أصابع القدمين عند خدش باطن القدم) . غير أن هناك تبايناً كبيراً في هذه الانعكاسات بين الأطفال الصغار الأصحاء الذين ينمون نمواً طبيعياً ، لذا فإن هذه الاختبارات لاتعدو أن تكون مجرد إجراء شكلي يقوم به الطبيب . على أن هذه الانعكاسات

تزداد أهميتها ، وتزداد دقة الطبيب في فحصها ، عندما يوجد أى اشتباه في مرض عصبي (في المخ أو الأعصاب) ، وفحص الأعصاب فحصاً تاماً دقيقاً قد يستغرق من الطبيب نصف ساعة أو أكثر بمنتهى البساطة .

* * *

أعتقد أنى قد قلت ما فيه الكفاية لإعطائكم فكرة تقريبية عن أنه لا توجد إجراءات محددة يتكون منها « الفحص الجسماني السليم » ، ذلك لأن البؤرة التي يتركز عليها الفحص تختلف باختلاف مراحل العمر المتتالية . ثم إن الفحص الذى يجريه الطبيب الجديد على الطفل لأول مرة ، سواء في مرحلة الرضاعة وفي مرحلة الطفولة بعد ذلك ، يجب أن يشمل نواحى أكثر من النواحى التى يتناولها الطبيب عند إعادة الفحص في الزيارات الدورية التالية . كما أن فحص جزء معين من أجزاء الجسم يجب أن يجرى بدقة بالغة أكثر من المعتاد ، إذا ظهرت أعراض تدل على مرض حاد أو مزمن في ذلك الجزء من الجسم . على أنه ، من زاوية معينة ، يمكن القول إن الفحص في غالبية الزيارات للطبيب ، يعتبر أساساً مراجعة عامة لتاريخ صحة الطفل .

حقيقة أن الفحص يقصد منه أيضاً أن يتأكد المريض والطبيب من أن جميع أجزاء الجسم الرئيسية قد فحصت فحصاً كاملاً ، خشية أن تكون هناك أمراض كامنة لم تظهر بوادرها بعد . وهو يحقق هذا الهدف إلى درجة معينة . غير أن هذه الدرجة محدودة للغاية ، فلو أن الطبيب حاول قصارى جهده في كل زيارة ، أن يتأكد من عدم وجود أى احتمال لاضطرابات كامنة في الجسم ، لصار لزماً عليه أن يقضى ساعتين في دراسة تاريخ صحة الطفل ، وأن يمضى نصف ساعة في الفحص الجسماني ، ثم يأمر بإجراء اختبارات معملية باهظة التكاليف . ولئن كان هذا كله في مقدور الطبيب والمريض ، فما زال عليهما أن يحددا مواعيد أخرى لاستعراض نتائج الفحص والتحليل ، ثم مناقشة المسائل التى يثبت أنها تضايق الأم أو المريض بالفعل .

إن طالب الطب المبتدئ يستنفد أكثر من ساعة في إجراء فحص جسماني دوري على طفل صغير يتمتع بالصحة ، وفي تسجيل نتائج الفحص ، فهو يضطر أولاً إلى التريث بعد كل خطوة ريثما يفكر في الخطوة التالية ، ولنفترض أن هذه الخطوة هي فحص الرئتين . إنه في هذه الحالة يسترجع في ذهنه الترتيب السليم لخطوات الفحص : مراقبة مدى تعدد حجم القفص الصدري ومعدله وتناسق حركته ، ثم الجس براحة اليد لفحص الأزيز الصوتي (الأزيز الذي تسمعه اليد عندما يصدر المريض أصواتاً رنانة) ، والطرق على الصدر لسماع الرنين ، والفحص بالسماعة لمعرفة طبيعة أصوات التنفس والكلام ، وأيضاً لسماع أصوات الأزيز « التزييق » والطققة التي تدل على الإصابة بالنزلة الشعبية . وبعد كل هذا ، يكرر كل خطوة من خطوات الفحص على كل جزء من الرئتين ، مركزاً كل حواسه في تأن شديد . على أن تحركات الطفل العنيفة كثيراً ما تعوق سير الفحص . كما أن الأصوات الخافتة عديمة الأهمية التي دائماً ما يصدرها الأطفال الصغار — مثل التجشؤ والقرقرة والزخرفة والبقبة — تبدو من خلال السماعة وكأنها عاصفة رعدية عاتية ، فتثير شتى أنواع الاشتباهات في ذهن طالب الطب . أما إذا شرع الطفل في الصراخ ، فإن ضجيج الصاخب يبدو وكأنه يمحو تماماً صوت رنين الطرقات وأي صوت آخر يحتمل سماعه من خلال السماعة . أضف إلى ذلك أن طالب الطب يضطر إلى التوقف بعد كل خطوة من خطوات الفحص كي يسجل ملاحظاته عليها قبل أن تغرب ذاكرته .

أما الطبيب المحرب فإنه يطرق بأصابعه أجزاء عديدة ينتقيها بخبرته . فينتاكد من أن الرئتين صافيتان (تماماً كما تبين له من دراسة تاريخ صحة الطفل) . وأن القلب غير متضخم . ولئن طمست صرخات الطفل الصغير صوت السماعة . فإنه رغم ذلك يتلقى نفس الرسالة الصوتية الدالة على التجويف عن طريق إصبع يده اليسرى التي يطرق عليها . وهو بدون تردد ينقل قمع السماعة المحروطي على

نفس الأجزاء التي طرق عليها بأصابعه ، فيتعرف في التو الأصوات المميزة للارئة السليمة في كل جزء منها . والطبيب لا تزججه مطلقاً أصوات اللعاب والزنجرة العالية التي تصدر عن الأنف والحلق — الواقع أنه لا يكاد يلحظها — وهو في أثناء إصغائه لصوت السماعه ، يلحظ بطريقة آلية ما إذا كانت الحالة طبيعية من ناحية معدل التنفس (الشهيق والزفير) وعمقه وسهولته . ومع كل هذا ، فإن فحص هاتين الرئتين الصغيرتين قد يستغرق منه أقل من دقيقة واحدة .

إن الجوانب الجوهرية في الفحص الشهري للطفل الصغير الذي يتمتع بصحة جيدة من جميع النواحي ، يمكن أن يقوم بها الطبيب في خلال خمس دقائق في معظم الحالات ، ذلك ما لم يتوقف عن الفحص في بعض اللحظات للحديث إلى الأم وتوضيح بعض الأمور لها . أما الفحص الذي يجري على الطفل الأكبر سنّاً قبل التحاقه بالمدرسة ، وهو يشمل قياس ضغط الدم وقوة الإبصار والسمع ، فإنه يستغرق وقتاً أطول . كما أن فحص الطفل الذي كان مريضاً بمرض واضح أو غامض ، قد يستغرق من الطبيب وقتاً أطول من ذلك أيضاً .

ومن ثم فإن كفاية الطبيب وقيمه بالنسبة للأسرة ، ليست لها سوى علاقة ضئيلة بالجهد الذي يبذله في دراسة التفاصيل ، أو بالوقت الذي يستنفده عادة في فحصه الجسماني للطفل . بل إنها بالأحرى تتوقف على توازن قدراته : انتباهه وفهمه أثناء استماعه إلى النواحي المختلفة من تاريخ صحة الطفل ، الربط الذهني بين الأعراض التي تبدو على الطفل وبين الاضطرابات المحتملة والممكنة (نفسية وجسمانية على حد سواء) ، الاهتمام اهتماماً خاصاً بنواحي الفحص الجسماني التي يحتمل أن تلقى ضوءاً أكثر من غيرها على تشخيص المرض . ولكن دون أن يتجاهل أجزاء الجسم الأخرى . على أن يترك لنفسه وقتاً كافياً لدراسة النتائج التي يتوصل إليها من الفحص .

الطبيب يفحص طفلك

٤٣-

وما دام استغلال وقت الزيارة الطبية يشمل عامل التوفيق بين مختلف النواحي بصورة حكيمة معقولة ، وما دامت الأمهات — في اعتقادي — يواجهن من المشكلات النفسية ومشكلات النمو في أطفالهن ما يزيد مائة مرة على الأمراض الجسدية غير المشتبه فيها ، فإنني سأعبر لكن عن رأيي الشخصي في هذه المسألة ، وهو أن الفحص الجسدي الذي يجري على طفل تبدو عليه أمارات الصحة في زيارته الدورية للطبيب ، ينبغي أن يكون سريعا بالقدر المعقول ، كي يتسنى للطبيب توجيه الاهتمام إلى المشكلات الحقيقية التي تشغل بال الأم .

بنيان الجسم ، والرياضة ، واللياقة الجسمية

« ينبغي للأطفال أن ينموا عضلاتهم وقاماتهم
وطاقتهم الحيوية إلى الحد الذي تتطلبه منهم الطبيعة »

يرغب الآباء والأمهات دائماً في معرفة الوسيلة التي يمكن بها دفع عملية
النمو الجسماني السليم في أطفالهم .

غير أنهم في الآونة الأخيرة بدأوا يهتمون أيضاً بـ « اللياقة البدنية » ،
منذ نهض رجال التربية الرياضية إلى أن الأطفال الأمريكيين ، الذين كنا نميل
دائماً إلى اعتبارهم أصحاب الأطفال في العالم ، أصبحوا في الواقع متخلفين عن الصغار
في كثير من البلاد الأخرى من ناحية لياقتهم البدنية . وأقرب تفسير لهذه
الظاهرة يتبادر إلى الذهن هو أن عدداً كبيراً من أطفالنا لم يعد يحصل على قدر
كبير من الرياضة البدنية ؛ ذلك أنهم في الماضي ، أيام كانت الحياة أكثر
بساطة ، اعتادوا أن يذهبوا إلى المدرسة أو إلى أي مكان آخر يقصدونه ، سيراً
على الأقدام . أما الآن فإنهم ينتقلون إليها بالسيارة الخاصة أو سيارة المدرسة .
كما أنهم كانوا في أوقات فراغهم يدأبون على اللعب في نشاط وحيوية ، ويحبون
أن يتسابقوا بعضهم مع بعض في الخلاء خارج بيوتهم ، لأنهم يجدون فيه من
الحرية ومن صحبة الأطفال الآخرين ما يزيد كثيراً على ما يجدونه في بيوتهم .
أما الآن فإن التليفزيون يستهوي الصغار ويحملهم على الجلوس في أماكنهم
لفترات تبلغ زهاء عشرين ساعة أسبوعياً في المتوسط ، فضلاً عن أن البعض منهم
لم يحق الذهاب إلى السينما ، حيث يجلسون فيها طوال فترة ما بعد الظهر من
أيام السبت بانتظام .

إن طبيعة الهيكل العظمي في كل واحد منا — سواء أ كان ثقیل العظام
أم خفيفها ، عريض المنكبين أم نحيلها ، طويل القامة أم قصيرها ، وسيم الوجه

أم قبيحه — تتحدد أساساً بالصفات الوراثية التي يتصادف أن نرثها عن مختلف أسلافنا منذ اللحظة التي تحملنا فيها أمهاتنا . قد يؤدي مرض مزمن خطير أو توتر وجداني عنيف في الأسرة ، أو تحديد كمية الغذاء تحديداً متطرفاً ، إلى بطء نمو طول الطفل ، ولكن إلى حد معقول . على أن مثل هذه الظروف السيئة لا تمس الغالبية العظمى من الأطفال الأمريكيين .

كما أن حجم وشكل العضلات اللاصقة بعظامنا يتحددان أيضاً إلى حد بعيد بطبيعة الخلايا الميكروبية التي كونت كل واحد منا . حقيقة إن كمية المرانة التي نعطيها لمختلف العضلات تؤثر في حجمها إلى حد ما . « فسمانة » ساق راقصة الباليه ونغذيها تكون عادة أكبر قليلاً من غيرها نتيجة الساعات التي تقضيها في عمائها كل يوم ، كما أن الغلام المتحمس الذي يمارس الرياضة بالأثقال الحديدية لتمرين عضلاته ، يمكنه أن ينمي عضلات الكتف والفخذ إلى الحد الذي يستطيع معه قياس الفارق . ومع ذلك فإن هناك بعض راقصات الباليه وراقصى الزحاقة على الجليد سيقانهم نحيفة ، بل إن الشاب النحيل « الجاف » العود « الذي يأمل في أن يجعل من جسمه كتلة صلبة من العضلات المفتولة ليكون مثل الرجل الذي يظهر في إعلانات كمال الأجسام — هذا الشاب مكتوب عليه أن يخيب أمله في مسعاه . على حين أن شاباً آخر في مرحلة المراهقة لم يبذل قط أى جهد كبير في مجال الرياضة أو العمل الشاق ، قد ينتهى به الأمر إلى تكوين جسم مفتول العضلات .

أما فيما يختص بكمية الأنسجة الرخوة (فالشحم كلمة منفرة للغاية) الموزعة في مختلف أجزاء الجسم ، فأغلب الظن أن الصفات الوراثية التي يكتسبها الفرد (أو يجرم منها) وهو جنين في بطن أمه ، هي أقوى العوامل التي تحددها . ويعتقد الدكتور وليم شلدون وزملاؤه الذين وضعوا نظرية في وصف جسم الإنسان تسمى « تغميط الجسم البشرى » أن في وسعهم معرفة النسب الجسمية لإنسان ما ولد وعنده اتجاه طبيعى إلى البدانة ، حتى ولو كان مصاباً بالهزال من

أثر الجوع الشديد ، في اللحظة التي يتصادف أن يقيسوا فيها أبعاد جسمه ؛ ذلك أن « ذوى التكوين المستوعب (endomorphs) » وأعنى بهم ذلك النمط المتطرف من الناس الذين عندهم قابلية كبرى لتكوين الشحم ، على عكس الناس الذين تتميز عضلاتهم وعظامهم بالضخامة البالغة « ذوى التكوين الوسيط (mesomorphs) » ، والناس الذين يتسمون بالضآلة والنحافة المتطرفة « ذوى التكوين الطارد (ectomorphs) » — هؤلاء الناس تكون خصورهم ضخمة مستديرة ، غير أن لهم أطرافاً كأطراف الخنازير تستدق تدريجاً حتى تنتهى إلى أيد وأقدام صغيرة الجسم . بيد أن معظمنا بطبيعة الحال لا يغلب عليه نمط أو آخر من هذه الأنماط ، بل يكون خليطاً من هذه الاتجاهات الثلاثة معاً ، إلا أن الرجال بوجه عام عندهم استعداد أكبر للتكوين الوسيط ، على حين أن النساء يملن إلى البدانة .

لكن الآباء والأطباء ورجال التربية البدنية يدركون دائماً أن الكثير من الناس لا يحتفظون بنفس كمية الشحم طوال حياتهم . وقد لاحظ الدكتور شلدون أن معظم الناس ، سواء تميزوا بالنحافة أو البدانة ، تقترب أجسامهم من الشكل المثالي — بقدر الإمكان — في بداية مرحلة البلوغ ، ولعل ذلك يرجع إلى أن الطبيعة تدبر هذه الخطة ، تأييداً منها لعلاقات الحب والغرام في هذه المرحلة . فالإنسان الذى يميل بطبيعته إلى البدانة ، غالباً ما تبدو عليه هذه الظاهرة في الفترة التى تسبق المراهقة ، ثم ينجح إلى النحافة نوعاً ما في مرحلة المراهقة ، ويبدأ في البدانة مرة أخرى في سنى العشرين والثلاثين من عمره .

* * *

هناك بالتأكيد عوامل وجدانية وبيئية تؤثر في حالة تغذية الطفل . ففي أنحاء عديدة من العالم توجد أنواع شتى من سوء التغذية ، إما لأن الآباء لا يستطيعون الحصول على الغذاء لأطفالهم ، وإما لأنهم يجهلون العناصر الأساسية التى يجب أن تتوفر في الغذاء السليم . غير أن هذه العوامل التى تبرر سوء التغذية ، أقل كثيراً في أمريكا منها في البلاد الأخرى .

إن أكثر أنواع النحافة الشاذة شيوعاً في أمريكا ، قد يرجع في الغالب إلى مشكلة مزمنة من مشكلات التغذية . وغالباً ما تنشأ المشكلة عندما يجتاز الطفل مرحلة تضعف فيها شهيته ، في سن العام أو العامين من عمره ، أو في أعقاب إصابته بمرض من الأمراض (أنظر باب الطفل ضعيف الشهية) ، الأمر الذى يثير شعوراً بالقلق وخيبة الأمل في نفس أى أم لا تأخذ الأمور ببساطة بطبيعة تكوينها . غير أنها كلما أبدت غيظها للطفل أو حاولت إغراءه أو إرغامه على تناول الطعام ، ضعفت شهوته للطعام وزاد عناده . إنها بالضبط حلقة مفرغة أشد ما تكون نفسياً في أمريكا ، حيث يتوافر الطعام ، وحيث تدقق الأمهات غاية التدقيق في تزويد أطفالهن بوجبات غذائية متوازنة توازنًا سليماً .

وهذا النوع من مشكلات التغذية يجعل الآلاف من الأطفال الأمريكيين أكثر نحافة مما لو كانوا في ظروف أخرى . كما أن هذه المشكلة قد تنشأ بصفة خاصة في الأسر التي كانت فيها الأم ضعيفة الشهية إلى حد بعيد أيام طفولتها ، ذلك أن الشعور بالقلق على الطفل لعدم تناوله القدر الكافي من الطعام ، ينتقل من جيل إلى جيل ، فيخاق نفس الحالة التي يحاول جاهداً أن يمنعها . وإني أذكر هذه النقطة في بداية الحديث ، لأنها تبين لنا عدم جدوى المحاولة التي تبذلها الأم لدفع عملية النمو الجسماني للطفل ، عن طريق إغرائه بتناول الطعام في لهجة تقسم بالهفة والقلق .

ثمة نوع آخر من الأطفال الذين يتميزون بالنحافة الشاذة المتطرفة ، ذلك هو الطفل الذى يستنفد توتره العصبي المستمر كمية مفرطة من طاقته الحيوية (وغالباً ما يضاف من قابليته للطعام في نفس الوقت) . ومثل هذا الطفل قد يكون قلقاً بائساً . على حين أن طفلاً غيره من نفس النوع قد يكون «دينامو» يتدفق بالحياة والمرح .

كما أن العوامل الانفعالية يمكن أن تؤدي أيضاً إلى الإفراط في الأكل . فرغم أن غالبية الأطفال الذين تحمهم أمهاتهم على تناول الطعام يكون رد الفعل

عندهم هو ضعف الشهية والعناد . إلا أن طائفة قليلة منهم تستسلم في لين ووداعة لعملية حشو بطونهم بالطعام ، وبذلك يزدادون بدانة يوماً بعد يوم . وقد يتبادر إلى ذهنك أن الأم التي ترغب طفلها على تناول الطعام بسبب قلقها العميق على تغذيته ، سيكون في وسعها أن ترخي أعصابها بمجرد أن ترى طفلها يتجاوز الوزن العادي . غير أن الشعور بالخوف يظل قائماً رغم ذلك — الأمر الذي تعرفه الأم البائسة التي تعاني هذا القلق — بل إنها قد تأتي بطفلها البدين إلى الطبيب ، وهي ما زالت تشكو من أنه لا يأكل ما فيه الكفاية .

وقد ينشأ الإفراط في الأكل عن بعض العوامل الانفعالية داخل الفرد نفسه ، سواء أكان طفلاً أم بالغاً . فهناك مثلاً الشخص الذي لا تنمو فيه قط النزعة إلى استقلال الشخصية أو القدرة على المبادأة ، لكنه يظل دائماً — كالطفل الصغير — يتلقى شعوره الأساسي بالأمان والطمأنينة من تناول الطعام ومن رعاية الآخرين له . وهناك أيضاً طائفة قليلة من الناس يلاحظون على أنفسهم أنهم كلما صادفوا خيبة الفشل في حياتهم — في مجالات الصداقة أو الحب أو العمل — ازدادت « شهيتهم » للطعام وزاد وزنهم . على أن البدانة المفرطة — مهما كانت أسبابها — تصبح حلقة مفرغة ، لأنها تخلق في الإنسان شعوراً حاداً بالذات ، وتقيد حياته الاجتماعية ، وتزيد من إحساسه بالشقاء ، وبذلك قد تؤدي إلى زيادة « شهيته » لتناول الطعام أكثر فأكثر . كما أن البدانة تقلل من ممارسة الإنسان للرياضة البدنية ، فيخترن الجسم الوحدات الحرارية .

وقد لمست ذات مرة بصورة مجسمة ، الآثار المختلفة التي يحدتها التوتر الانفعالي على تغذية الطفل ، وذلك في حالة أخوين كانت تستعر بينهما حتى المنافسة إلى درجة متطرفة ، فكان الغلام الأكبر إنساناً تحيم عليه التعاسة ، يحنق على جميع أفراد أسرته الآخرين ، ليس له أصدقاء ، ومنطو على نفسه ، وكان بدين الجسم . أما الأصغر فقد كان إنساناً اجتماعياً متوتر الأعصاب مفرط النشاط يصر على أن يحصل لنفسه على أية ميزة يتمتع بها أخوه الأكبر ، وكان نحيل

الجسم : ولما كان الأكبر يقنابه هذا الشعور بالشقاء في البيت ، فقد تقرر آخر الأمر أن يرسل إلى مدرسة داخلية تتميز بحسن إدراكها لظروف الصغار . وهناك استطاع الغلام أن يتكيف تكيفاً رائعاً مع البيئة ، فنقص وزنه ١٢ رطلاً في خلال أربعة أشهر دون أن يتبع أى نظام خاص في الغذاء . أما الغلام الأصغر فقد أصبح أكثر راحة واسترخاء في حياته بالبيت ، فزاد وزنه ثمانية أرطال في نفس الفترة .



يستخدم رجال التربية الرياضية تعبير « اللياقة البدنية » ليشمل مجموعة من الصفات المختلفة كالقوة الجسمية والقدرة على الاحتمال واعتدال القامة والمهارة والرشاقة .

ومن الضروري أن ننظر إلى القوة الجسمية بالنسبة لأعضاء الجسم المختلفة ، فالإنسان الطويل النحيل قد تكون له ساقان قويتان تصلحان للجري والقفز ، ومع ذلك قد تكون ذراعاؤه من النحافة بحيث لا يكاد يستطيع أن يرفع جسمه على العقلة ولو مرة واحدة . (إنى أحس بالعطف على الأولاد الذين يتعرضون دائماً لاستهزاء زملائهم في حصة الألعاب الرياضية ، لأنى أنا نفسى لم أستطع في يوم من الأيام أن أرفع جسمى على « العقلة » أو أن أرفع جسمى من على الأرض معتمداً على راحتي اليدين وأطراف أصابع القدمين) ، على حين أن الرباع « بطل حمل الأثقال » يجب أن يكون جسمه ثقيل الوزن قوى العضلات ، إذا أراد أن يصبح بطلاً مجيداً حقيقة في يوم من الأيام .

والمرانة المنتظمة تزيد من قوة أية مجموعة من عضلات الجسم إلى حد كبير ، غير أنها لن تحول شخصاً لا يصلح من الناحية العضلية لممارسة لعبة معينة إلى بطل من أبطال هذه اللعبة . كما أن العضلات التي تكتسب مزيداً من القوة عن طريق

أحدث إلى الأمهات

••

المرانة المدروسة المثانية ، سوف تفقد جانباً من هذه القوة المكتسبة بمجرد أن يكف اللاعب عن المراتنة .

بل إن القدرة على الاحتمال تتوقف على المراتنة أكثر مما تتوقف عليها القوة الجسمانية . فهذه القدرة تنشأ في الإنسان نتيجة تقوية وتكييف عضلات الجسم التي تستخدم في لعبة ما أو عمل معين من ناحية ، ونتيجة تقوية القلب وعضلات التنفس التي تؤدي إلى تحسن عملية نقل الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون من ناحية أخرى . كما أن القدرة على الاحتمال لا تلبث هي أيضاً أن تقل في الإنسان بمجرد أن يتخلى عن المراتنة العنيفة المستمرة .

وما يبعث على خيبة الأمل أن يدرك المرء أن قوته الجسمانية وقدرته على الاحتمال سوف تتضاءلان ما لم تدع الحاجة إلى استخدامهما بانتظام . غير أن هذه الظاهرة ليست سوى الوجه الآخر من القدرة العجيبة التي تستجيب بها أجسامنا لدواعي الحاجة ، ذلك أن أجسامنا تتكيف بمهارة فائقة في نواح عديدة ، فهي تتكيف في الأجواء الباردة باختزان الحرارة ، وفي المناطق المرتفعة بزيادة كثافة الدم ، وفي المناطق المنخفضة بإنقاص كثافة الدم مرة أخرى ، وفي وهج الشمس الشديد بتلويع البشرة باللون القاتم ، وفي ضوء الشمس الباهت بشحوب لون البشرة ، وفي حالة استخدام راحتي اليدين في عمل خشن بترسيد مادة الكيروتين التي تنقشر بعد انتهاء العمل ، فأنت لا تستطيع أن تصمم جسماً يستجيب استجابة إيجابية لدواعي الحاجة ، ما لم يستجب أيضاً استجابة سلبية في حالة عدم وجود الحاجة .

ومعنى هذا الكلام - فيما يختص بالقوة الجسمانية والقدرة على الاحتمال - هو أن الجسم لا يكتسب سوى القليل من الفائدة الدائمة ، إذا مارس الإنسان

الرياضة البدنية العنيفة لفترات قصيرة من الزمن ، ذلك أن المراتة التي يؤديها الفرد بانتظام طوال الأسبوع وطوال حياته هي التي تحافظ على مستوى لياقته البدنية .

يؤكد غالبية الناس الذين دأبوا على ممارسة الرياضة البدنية بانتظام أنهم يشعرون بتحسن في حالتهم — بمعنى أنهم يصبحون أكثر حيوية وانطلاقاً ، وفي نفس الوقت أكثر اطمئناناً وارتياحاً إلى الحياة — كما أنهم يعتقدون أن منظرهم العام يتحسن أيضاً من أثر ممارستهم للرياضة . وهذا هو رأي أيضاً . غير أنه من المسير علينا أن نتأكد من سلامة هذا الرأي ، لأن المخلوقات البشرية قابلة للإيحاء إلى درجة متطرفة . حتى لقد أثبتت التجارب أن الإنسان إذا اعتقد أن المصل المضاد سوف يقلل من نزلات البرد التي تصيبه ، فإن المصل سوف يؤدي فعلاً إلى هذه النتيجة ، سواء أكانت الحقن تحتوي على الميكروبات أم على مجرد الماء الملح .

أما العوامل التي تؤدي إلى تناسق الجسم واعتدال القامة ورشاقة الحركة ، فإنها من الأمور الحيرة التي يصعب تفسيرها . إنني أذكر جيداً في هذا المقام أسرة في طليعة الأسر التي كنت طبيباً لأطفالها . كانت كبرى الأطفال في هذه الأسرة بنتاً تقسم برشاقة الحركة منذ نعومة أظفارها . وما إن بلغت الشهر السادس من عمرها إلا وكانت تتناول كل شيء في رقة بالغة ، حتى إن والديها لم يضطرا في يوم من الأيام إلى وضع الأشياء القابلة للكسر بعيداً عن متناول يدها ، لذلك كانت لعبها تبقى سليمة على الدوام . أما أخوها فقد اعتاد في السنين الأولى من عمره أن ينقض على أية لعبة ينشدها ويختطفها بيده في عنف ، وكان كلما عبر إحدى حجرات البيت لا بد وأن يتعثر في شيء ما هنا أو هناك . ومع

ذلك فقد كان طفلاً سعيداً لا يميل إلى التخريب . عند ما تظهر هذه الفروق بين الإخوة في هذه المرحلة من مراحل العمر ، فإنك تظنين أنها وليدة الطبيعة إلى حد ما على الأقل . غير أن العوامل الانفعالية تعقد هذه الصورة فيما بعد .

إنى أنظر إلى الناس الذين يمارسون الرياضة ويتسمون بالرشاقة على أنهم من النوع المنطلق الذى يحس بالأمان والطمأنينة في العادة . ولكن إذا كان هذا الرأى صحيحاً فإن هناك رغم ذلك حالات كثيرة تشذ عن هذه القاعدة . فبعض الناس المنطوين على أنفسهم ، المعرضين للإصابة بمرض الفصام العقلي ، يتسمون بالرشاقة بشكل خارق للعادة . ومن الأمثلة الشهيرة في هذا المضمار ، نيجينسكي راقصة الباليه العظيمة . كما أذكر أيضاً في هذا المجال صديقاً من أصدقاء الكلية كان رياضياً فذاً بطبيعته ، حتى لقد كان في استطاعته أن يتقن أية لعبة من الألعاب الرياضية في ربيع المدة التي يستغرقها اللاعب الهاوى العادى ، ومع ذلك فقد كان في حلبة الرقص يحرق قدميه مثاقلاً بصورة تدعو إلى الرثاء . كما أن بعض لاعبي التنس عندما يرون أن النصر قد أصبح ملك يمينهم يحسبون اللعب أكثر فأكثر ، على حين أن غيرهم لا يجيد اللعب إلا عند ما يكون متخلفاً ثم يتخاذل تماماً بمجرد أن يتفوق على منافسه .

أما القامة فهي ناحية أخرى يلعب فيها الشكل الذى ولدت عليه ومشاعرك لإزاء الحياة دوراً هاماً ، فالإنسان « ذو التكوين الوسيط » الذى يتميز بضخامة العظام والعضلات ، يكون له جسم متماسك يميل إلى اعتدال القامة . على حين أن الإنسان « ذا التكوين (الطارد) » الذى يتميز بالطول والنحافة ، يكون له عمود فقري يميل إلى الانحناء عند العنق والخصر ، ما لم تكن له روح شائخة تشد من قامته .

والقامة المترهلة المسترخية قد تدل على مجموعة متباينة من الاتجاهات النفسية: الشعور بالذات ، الحياء ، نقص الثقة بالنفس ، وهن العزيمة ، الامتعاض والنفور ، لاسيما في الفرد الذي يتعذر عليه أن ينفس عن مشاعره في كلمات . ولما كانت مرحلتا الطفولة والمراهقة من المراحل التي يصعب فيها على الإنسان أن يدرك كنه مشاعره ، وغالباً ما يكون من الخطر عليه أن يعبر عنها ، فإن القامة مخرج سهل ملائم للتنفيس عن هذه المشاعر . لذا فإن الأم التي تتدفق بالنشاط والحيوية دائماً ما تزججها القامة المترهلة لطفلها الواهن المسترخى ، فتظل تهمس قائلة له : « اجلس منتصب القامة » عشرين مرة في أثناء اليوم . ولكن رد الفعل المميز عند هذا الطفل هو أنه بطبيعة الحال يستجيب لهذا الحث الاستفزازي استجابة سلبية تنسم بالعناد . وما إن يتحول عنه انتباه الأم حتى يزداد تراخياً عن ذي قبل دون أن يعي ذلك على الإطلاق .

أما فيما يتصل بتناسق الأعضاء واكتساب المهارات فإن الناحية التي تجزى الإنسان خير الجزاء عن جهده فيها هي أنه عند ما يتقن إحدى المهارات بالمرانة الشاقة — سواء أكانت المهارة التزحلق على الجليد ، أم العزف على البيانو ، أم الكتابة على الآلة الكاتبة — فإنه يظل يتقنها دائماً . حقيقة إن مهارة الإنسان تصدأ من قلة المرونة ، فضلاً عن أن شعوره بمدى نسيانه لها قد ينشط من عزمه تماماً ، غير أن في إمكانه أن يعود إلى نفس مستواه السابق من المهارة تقريباً ، في فترة تعتبر وجيزة جداً إذا قورنت بالكفاح الطويل الذي تطلبه منه إتقان هذه المهارة في بادئ الأمر .

وهذا بطبيعة الحال يؤيد الاتجاه إلى تعليم الأطفال — وهم صفار السن وقابلون للتكيف — لعبة أو مهارة معينة يستمتعون بها بقية حياتهم . ذلك إن كان لديهم الإدراك الكافي لفهم هذه الحقيقة !! فالأطفال يمثلون طبعاً بالحماسة

الدافقة حين يرون لأول مرة أحد أبطال لعبة معينة وهو يؤديها أمامهم . ويتوهمون ، بحكم غرورهم الطفلي وبراءتهم المتطرفة ، أنهم لو استطاعوا مجرد الحصول على مضرب تنس أو ثياب رقص الباليه أو آلة الكمان ، فإنهم لن يلبثوا أن يؤديوا عرضاً لمهارتهم بين هتاف جماهير النظارة . والأطفال يثابرون مثابرة شديدة على اكتساب المهارات التي تكون في نطاق قدرتهم والتي يمارسها جميع الأطفال الآخرين في المناطق المحيطة (مثل تصويب الكرات على الشواخص الخشبية أو لعبة الهولا هوب) . غير أن معظم سرعان ما يفتر عزمه بمجرد أن يشعر أن أمامه شوطاً بعيداً حتى يصل إلى الإتقان الحقيقي . وعندما يجد الوالد أنه قد أصبح أكثر إلحاحاً من الطفل نفسه بشأن المراتبة على ممارسة اللعبة ، فإن حماسة الطفل لها لا تلبث أن تتحول إلى نوع من التمرد عليها .

* * *

الظاهر أن معظم الأفكار التي عبرت عنها حتى الآن بشأن النمو الجسماني واللياقة البدنية تنسم بالتشاؤم أو القدرية ، فالكثير منها يقوم على نوع الاستعداد الطبيعي الذي يتصادف أن يولد به أطفالنا ، على حين أن جهود الآباء غالباً ما تعمل في الاتجاه المضاد لهذا الاستعداد . غير أن الصورة لا تبث على اليأس إلى هذه الدرجة .

يجب علينا أن نتقبل تكوين أطفالنا العضلي والعظمي على علاته ، فنحن الذين أعطيناهم لم عن طريق الوراثة ، وليس في وسعنا أن نغيره أو نبدله . على أن هناك طريقتين مختلفتين لتقبل هذه الحقيقة : إحداهما أن نتقبلها على مضض ، والأخرى أن نتقبلها في هدوء رصين . فلو أننا شعرنا بالشقاء بسبب قصر قامة ابنتنا أو طول قامة ابنتنا فإننا نجعلهما يحسان بنفس شعورنا ، سواء حاولنا أم لم

نحاول إخفاء قلقنا واهتمامنا . أما إذا أظهرنا لأطفالنا أننا نعتقد أنهم في غاية الروعة كما هم دون أدنى تغيير ، فإنهم أيضا سوف يحسون بالرضا عن أنفسهم .

وبالنسبة للبدانة أو النحافة ، يجب أن نعترف بأننا لا نستطيع التحكم فيها إلا لدرجة محدودة . فنحن لا نستطيع أن نحمل الطفل على الإكثار أو الإقلال من تناول الطعام عن طريق مناقرته ومناكفته ، فهذا الأسلوب قد يؤدي إلى نتيجة عكسية . لذا فمن المستحسن عندما يكون الطفل نحيفا أن ترجع الأم إلى طبيبه ومعلمه ، كي تتأكد من أنه ليس ثمة جهود أخرى ينبغي أن تبذل في بحث حالته الصحية أو توافقه الاجتماعي .

وإذا كان الطفل على شيء قليل من البدانة ما بين سن السابعة والخامسة عشرة ، فالرأى عندى أن من الحكمة أن يغلق الآباء والأمهات أفواههم ويعقدوا أصابعهم في هدوء ، لأن عدداً كبيراً من هؤلاء الأطفال ستقل بدانتهم من تلقاء نفسها فيما بعد ، إن لم نرضجة لا داعى لها حول الموضوع .

أما مشكلة البدانة المفرطة فإن حلها أصعب كثيراً ، ذلك لأن الطفل الذى يواجه مثل هذه العقبة في حياته ، يميل إلى الإحساس بأن والديه يضطهدانه حين يحاولان فرض قيود على غذائه . لذلك ينبغي أن نشجعه على محاولة حل المشكلة بمساعدة شخص آخر خارج نطاق العائلة ، مثل طبيب العائلة الذى يوحى بالثقة ، أو أحد الأطباء النفسانيين ، أو إحدى الجماعات المدرسية التى تعمل على إنقاص الوزن تحت إشراف المدرسة . وتستطيع الأم أن تتعاون تعاوناً كبيراً في حل المشكلة ، بأن تكييف أنواع الطعام التى تقدم للأسرة بحيث تتلاءم مع حالة الطفل ، فتعمل على أن تبعد الفطائر الدسمة والحلوى عن البيت معظم الوقت ، حتى يمكن إنقاص حدة الإغراء إلى الحد الأدنى .

وفما يختص بالرياضة البدنية ، فإنني أعتقد شخصياً أن جميع الأطفال ينبغي أن يمكثوا في الهواء الطلق خارج البيوت (في حالة عدم سقوط المطر) لمدة ساعتين يومياً على أقل تقدير (على أن تزيد هذه المدة عندما يكون الطقس لطيفاً وعند ما تكون عندهم عطلة من المدرسة) كي تنمو عضلاتهم وطاقاتهم الحيوية وقامتهم إلى الحد الذي تتطلبه منهم الطبيعة . وهذا شيء يمكن تحقيقه إذا آمن به الآباء ، لأن الأطفال في هذه الحالة يعتبرون هذه الرياضة أمراً بديهياً مسلماً به ، ويحذون متعة فيها . أما إذا أوحى لهم بعض أصدقائهم فيما بعد بأن من الأشياء المسلية أن يهرعوا إلى جهاز التليفزيون بعد انتهاء المدرسة مباشرة ، فما على الآباء والأمهات إلا أن يبينوا لهم بطريقة حاسمة أنه لن يكون هناك تليفزيون ، ولن يكون هناك دخول إلى البيت قبل الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف .

ويستطيع الآباء ، عن طريق مجلس الآباء وغيره من المنظمات ، أن يقوموا بحملة لتنظيم مباريات في الملاعب — تحت إشراف المعلمين — بين تلاميذ المرحلة الأولى بعد انتهاء المدرسة ، ولتنظيم نشاط رياضي لجميع الأولاد المهتمين بالرياضة بين تلاميذ المرحلة الثانوية (لست من أنصار الألعاب الرياضية التي لا يشترك فيها سوى بضعة أفراد قلائل وتقوم على المنافسة الشديدة المغالى فيها ، لاسيما بين التلاميذ في المرحلة الأولى) .

كما أنني لا أميل إلى إكراه البنات على الاشتراك في المباريات الرياضية القائمة على التنافس ، لاسيما بعد بلوغهن مرحلة المراهقة . فالكثير منهن ليس عندهن قابلية للاشتراك في مثل هذه المعارك التي ابتكرها الأولاد ليمارسها الأولاد في الواقع . على أن من الأشياء المفيدة للبنات لو أمكن أن تقدم لهن بعض أنواع النشاط كالرقص الجماعي والسباحة ولعب التنس والجولف وركوب الخيل والانزلاق على الجليد .

وحيث يتعذر الحصول على مثل هذه الرياضات المترفة ، توجد كذلك رياضة المشى وركوب الدراجات للجنسين . وعلى الآباء أن يهتموا بأن يحصل أطفالهم على قدر معقول من هذه الوسائل المقيدة للصحة في الانتقال من مكان إلى آخر . (كم تزجني رؤية طلبة المرحلة الثانوية وهم واقفون في مفارق الطرق ، يحاولون الإشارة بالإبهام لبعض السائقين كي يصحبوهم في سياراتهم مسافة نصف ميل) .

في ختام تحليلي لهذه المشكلة ، يبدو لي أن أهم ما يسهم به الآباء في نمو أطفالهم الجسماني ، هو أن ينشئوهم بطريقة تجعلهم يشعرون بالثقة بأنفسهم ويحبون الحياة . فهذا هو الاتجاه الذي يمكن الاعتماد عليه ، أكثر من كل الحوافز الأخرى في أن يحتفظ الأطفال بنشاطهم دائماً ، وأن تظل شهيتهم للطعام في المستوى السليم ، وأن يقفوا على أقدامهم مرفوعي الهامة ؛ ذلك أن الروح المتألقة في الإنسان هي التي تجعل أشكال الجسم المختلفة جذابة للناظرين . إن كلا من مارلين مونرو وأودري هيبورن تتمتع بجاذبية فائقة . على حين كان النبل الذي يتسم به إبراهيم لنسكولن يجعل من هزاله الجسمي ذاته مصدر الجاذبية والإلهام .

ما مدى أهمية الهواء النقي ؟

« إن التحمس لفائدة الهواء النقي يتفاوت تفاوتاً كبيراً في المناطق المختلفة بين البلاد ، وبين أعماط الشخصية المتباينة »

يؤمن بعض الناس إيماناً قوياً بفائدة الهواء النقي ، وكلما ازدادت برودته كان ذلك أفضل في رأيهم . على حين أن غيرهم لا يهتم به ، حتى لو كانت درجة حرارته تبعث على الراحة ، ويمتته عندما تسوده البرودة . ومع أن المفروض أن الهواء النقي له علاقة وثيقة بصحة الإنسان ، فمن عجب أن البحوث العلمية التي أجريت في هذا المجال محدودة للغاية . فالناس الذين يؤمنون إيماناً قوياً بقيمة الهواء النقي ، يستمدون عادة هذه العقيدة من الطريقة التي نشئوا عليها ، وهي نفس الطريقة التي يكون بها الناس غالبية معتقداتهم الأخرى . ولعل هذا ينطبق على أنا أيضاً .

منذ خمسين عاماً مضت كان الهواء النقي هو « الموضة » السائدة ، إن كان من الممكن أن تستخدم كلمة « الموضة » في الحديث عن شيء اعتاد الناس أن ينظروا إليه نظرة جدية للغاية ، حتى لقد كان الكهار المصابون بالسل الرئوي ينقلون — إذا أمكن — إلى مصحة بين الجبال ، حيث كانوا يحملون في غالبية الأحيان على المكوث ليلاً ونهاراً في شرفات مسقوفة في الهواء الطلق . بل إن الأطفال المصابين بسل العظام كانوا أحياناً ما يصلب عودهم إلى الحسد الذي يستطيعون معه أن يلعبوا في الخلاء أثناء فصل الشتاء ، ولا يكاد يستتر أجسامهم شيء من الثياب .

في تلك الأيام ، شيد أبواي سقيفة مكشوفة الجوانب ، تستقر فوق الشرفة

ما مدى أهمية الهواء النقي ؟

٥٩

الأمامية ، للنوم فيها . ولم تلبث هذه السقيفة أن امتلأت تدريجياً بالصغار من آل سبوك . وكنا عندما تشتد برودة الطقس ، نأتى بقرب الماء الساخن المصنوعة من المطاط ونحملها معنا إلى الفراش ، أو نأتى بالأباريق الخرفية الساخنة أو صفايح الماء الساخن المصنوعة من الألومنيوم ، التي كانت جوانبها تفوص إلى الداخل تدريجاً كلما تقلص الهواء بداخلها من شدة البرودة .

بل إنى فى سن التاسعة والعاشرة كنت أذهب إلى مدرسة فى الهواء الطلق . ذلك أن طائفة من الآباء الذين تربط الكثيرين منهم صلة بالجامعة ، نجحوا فى إقناع هيئة التعليم بأن تجهز المعدات وتعين معلمة لفصل مدرسى فى خيمة متسعة أقيمت فى الفناء الخلفى لبيت أحد أساتذة الجامعة . كنا فى فصل الشتاء نجلس إلى قاطرنا « أدراجنا » ، مدثرين فى سراويل « بنطلونات » من اللباد السميك ترتفع إلى الإبطين ، وأقدامنا فى أحذية طويلة مبطنة بصوف الغنم ، وسواعدنا وأصابعنا شبه عاجزة عن الحركة من جراء الصدمات الصوفية والمعاطف والقفزات التى كنا نرتديها . وكنا فى كل ساعة أثناء فصل الشتاء نخرج إلى المنصة المكشوفة خارج الفصل ، لأداء بعض الرقصات الشعبية نلّين بها أجسامنا المتصلبة ، على الأتغام التى كانت معلمتنا تعزفها لنا على البيانو رغم القفز الذى كانت ترتديه .

ثم بدأ التحمس المتطرف لفائدة الهواء النقي يتناقص تدريجاً ، كلما عرف الناس مزيداً من الحقائق عن أسباب الأمراض وعلاجها . وفى اعتقادى أن الإيمان بهذه الفائدة يتفاوت تفاوتاً كبيراً فى المناطق المختلفة من البلاد ، وبين أنماط الشخصية المتباينة . فعندما كنت أمارس طب الأطفال بمدينة نيويورك فى الفترة ما بين سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٤٠ ، لم يكن من الضروري أن أوصى الأمهات

أحاديث إلى الأمهات

٦٠

باصطحاب أطفالهن في نزعات خارج البيت كل يوم ، فقد اعتادت السيدات حديثات العهد بالأمومة أن يسألن الأطباء عن الأوقات التي يمكن وينبغي فيها الخروج بالطفل في عربته ، على اعتبار أن ذلك أمر بديهي لا يحتمل الجدل ، تماماً كما يسألن عن الفيتامينات أو حمامات الطفل . وكانت غالبية الأمهات يحرصن أشد الحرص على الخروج بأطفالهن صيفاً وشتاءً في نزعات إلى الحدائق ، لا مرة واحدة ، بل مرتين يومياً ، ما لم تسقط الأمطار أو الثلوج ، ويدأبن على ذلك حتى يلتحق الأطفال بالمدرسة . وكان هذا يبدو لي أمراً طبيعياً كما يبدو للأمهات على حد سواء . كما أن الأمهات تعلمن بالمرانة أن يرتدين ثياباً مريحة في هذه النزعات وأن ينتقن أما كن جلوسهن حيث يحتمل أن يعثرن على صديقات لطيفات المعشر .

على أنى عند ما انتقلت إلى منطقة في الغرب الأوسط تتميز بالبرودة في الشتاء ، دهشت بل صدمت بعض الشيء — كما يمكن أن تتخيلين — لأنى لم أر أمهات يدفعن الأطفال الصغار في عرباتهم ، ولم أر سوى عدد قليل جداً من الأطفال خارج البيوت ما بين شهرى نوفمبر ومايو ، اللهم إلا في تلك اللحظات القلائل التي يهرعون فيها إلى المدرسة أو يعودون منها .

* * *

هل لدينا شيء محدد للاستطراد في الحديث عن فائدة الهواء النقي من الناحية الصحية ؟ في الواقع أنه لا يوجد الكثير مما يمكن قوله في هذا الصدد كما كنا نرجو . على أن التجارب قد أثبتت أن الحالة التي تجعل الناس يشعرون قطعاً بالشقاء والعجز ، هي ارتفاع درجة الحرارة المصحوب بارتفاع في نسبة الرطوبة ، كما تعرفن جميعاً يا من خبرتن أيام الصيف الحارة المشبعة بالرطوبة . بل إن هذا الطقس في حالاته المتطرفة ، يمكن أن يصبح خطراً على حياة الإنسان . فقد كان الحر المصحوب برطوبة بلغت مائة في المائة هو الذى قضى على حياة السجناء

المزدهجين في سجن « بلاك هول » بمدينة كلكتا . غير أن تبخر العرق هو الوسيلة التي نعتمد عليها أشد الاعتماد في الطقس الجار ، لطرد الحرارة التي تولدها أجسامنا دائماً . وكما ازدادت نسبة الرطوبة في الجو ، قلت سرعة التبخر . لذا فإننا دائماً نخلع عنا أكبر كمية من ثيابنا تسمح بها الظروف المحيطة ، ونحاول أن نعثر على تيار من الهواء ، أو نخلق هذا التيار باستخدام المروحة ، ذلك لأن تيار الهواء يحمل بعيداً عنا بعض حرارة أجسامنا ، ويسرع بعملية تبخر العرق بإزالة الهواء الملاصق لنا الذي تشبع فعلاً ببخار الماء . إن زيادة التبخر هي أحد الأسباب التي من أجلها يحب الأطفال اللعب بالرشاشات وخرطوم الماء في الطقس الحار . ولعلكم لاحظتم أنه يوم يكون الطقس كثير الرياح على شاطئ البحر ، فإنكم تحسون بالبرودة عند الخروج من الماء أكثر مما تشعرون بها وأنتم فيه .

ومن حسن حظ الأطفال الصغار في هذه الأيام أنه يسمح لهم بارتداء ثياب خفيفة للغاية في الجو الحار . ومع أن الأطفال الرضع ينبغي أن يستمتعوا بنفس الميزة ، فإنهم غالباً ما يجرمون منها ، لأن الناس يتوجسون خوفاً من تدفئة الرضيع . وقد أخبرتني بعض الأمهات — ممن تواتينهن الجراة على الخروج بأطفالهن الصغار أمام الناس دون أن يسترن جسم الطفل بشيء سوى « الكفولة » عندما يكون الطقس شديد الحرارة — أخبرتني هؤلاء الأمهات أن بعض الغرباء عنهن يوجهون إليهن اللوم أحياناً ، لأن هذا التصرف يخافى قواعد اللياقة ، بل لأنهم يفترضون أنه يعرض الطفل للإصابة بقشعريرة البرد ! مع أن أحداً لا يحس بالقلق على الطفل الصغير حين يكون على شاطئ البحر ، الذي هو أكثر برودة من شوارع المدينة . كما أن الأطفال الصغار الذين يمكنون في عرباتهم عندما يكون الطقس دافئاً ، تنبغى وقايتهم من التعرض للشمس ومن ارتداء الملابس الثقيلة أكثر من اللازم ، لأن حركة الهواء من حولهم تكون قليلة محدودة . والطفل

الذى يأخذ « حمام شمس » ، يمتص جسمه كمية كبيرة من الحرارة ، لذا ينبغي إخراجها من عربته أو مهده المفطى ، كي يصل إليه الهواء الطلق .

ثمة مشكلة أخرى على تقيض مشكلة الرطوبة العالية ، تلك هي مشكلة المناخ الجاف أكثر من اللازم ، الذى يوجد فى كثير من المنازل « والشقق » التى يشيع فيها جو ساخن تخلفه وسائل التدفئة ، ذلك أن الهواء البارد لا يحمل من بخار الماء ما يجعله الهواء الدافئ . لذا فإن الهواء البارد من المناطق الخلوية لورفعت درجة حرارته فى أحد الأفران ، تهبط درجة رطوبته النسبية هبوطاً حاداً ، وهذا هو السبب فى أنه عند ما تتجاوز درجة الحرارة داخل البيت ٧٢° يلحظ الناس الذين لم يألفوا هذا الجو شعوراً بالضيق وعدم الارتياح ، لا سيما الشعور بجفاف الأنف والحلق .

غير أن هذه الظاهرة لا تثير مشكلة فى غالبية المنازل الخاصة ، إما بسبب وجود ترموستات « جهاز قياس الحرارة » ، وإما لأن المنزل به من المنافذ التى يتسرب منها الهواء ما يجعل من العسير أن ترتفع درجة الحرارة إلى هذا الحد . كما أن التدفئة فى المباني المقسمة إلى شقق ومكاتب للعمل تجرى بطريقة أفضل منها فى المنازل الخاصة ، لأن العامل الذى يشرف على فرن التدفئة فى المبنى يستطيع أن يرفع الحرارة إلى درجة معقولة إن أراد ذلك . على أنه كلما زاد عدد الناس الموجودين فى داخل المبنى ، كان من المحتمل أن تجد من بينهم واحداً يشعر بالقشعريرة مهما تكن درجة الحرارة مرتفعة ، فيشكو البرد إلى ملاحظ المبنى . لذلك يبدو أن القاعدة التى يسير عليها ملاحظو المباني وعمال التدفئة هي أن « الحرارة الشديدة خير من البرودة الشديدة » . وكلما اعتاد الناس هذه الحرارة المتطرفة فى المباني ، زاد اعتمادهم عليها وطلبوا المزيد منها ، حتى إن الأم فى بيتها ،

حين تحس يوماً بأنحطاط في قواها وبشيء من القشعريرة ، تراودها نفسها على رفع حرارة الترموستات « موازن الحرارة » درجتين . فإذا غاب عن بالها أن ترجمه إلى المستوى العادى بعدئذ ، فإنها تألف هذه الحرارة ، وعند ما تحس بالقشعريرة في المرة التالية ، تعود فترفع الترموستات « موازن الحرارة » أكثر من ذلك .

وفي أثناء الفصل البارد الذى يتطلب التدفئة ، يلمس الطيب قيمة وجود كمية كافية من بخار الماء في الهواء ، من التحسن السريع الذى يطرأ على كثير من حالات السعال وذبحه الزور والزكام ، حين يصف للمريض استخدام « غلاية » فعالة لتبخير الماء أثناء الإصابة بالنزلات .

وحتى في حالة عدم وجود نزلات برد في الأنف ، فإن بعض الأطفال الصغار في البيوت والمستشفيات تنسد أنوفهم أثناء فصل التدفئة ، من جراء المواد المخاطية التى تجف في المسالك الأنفية ، لدرجة أنهم يجدون صعوبة حقيقية في التنفس (في هذه السن لا يكون عندهم الإدراك الكافى للتنفس من الفم) .

إن مسالك الأنف والحلق والقنوات الشعبية ، تحتوى على غدد تفرز ما يكفى من المواد المخاطية لأن تظل هذه المسالك والقنوات رطبة بشكل يبعث على الارتياح في درجات الرطوبة العادية . كما أن الخلايا المبطنه لهذه المسالك لها « أهداب » بارزة منها — زوائد ميكروسكوبية شبيهة بالمجاديف — تدفع باستمرار المواد المخاطية والغبار والميكروبات وأية إفرازات ناتجة عن الالتهابات إلى أعلى وإلى الخارج . وهذا هو السبب في أن المواد المخاطية تتجمع عادة في الأجزاء الأمامية من الأنف ، وفي أننا عندما نصاب بالنزلة الشعبية ، تصعد المواد المخاطية المتراكمة من الشعبات الصغيرة إلى القصبة الهوائية الرئيسية ، ثم نبصقها

خارجاً . وعند ما تصاب هذه المسالك بالجفاف ، فإن هذا النظام للتطهير والوقاية لا يؤدي عمله جيداً .

وقد أثبتت التجارب أن بعض الميكروبات التي تسبب احتقان الحلق والالتهاب الرئوى ، تموت أسرع بكثير في الجو المتوسط الرطوبة ، منها في الجو شديد الحرارة أو شديد الرطوبة . ولهذا السبب يتعرض الناس تعرضاً شديداً لهذه الالتهابات في بعض المناطق الواقعة على المنحدرات الشرقية في جبال روكى ، حيث الهواء جاف أكثر من المعتاد بوجه عام ، ثم إنه يصبح جافاً كالخجر عند ما ترفع درجة حرارته .

ويلحظ كثير من الناس الذين عندهم قشور في فروة الرأس ، أن هذه القشور تبدأ في الظهور كل شتاء ، عند ما يعمل جهاز التدفئة بأقصى قوته ، مما يوحى بأن جفاف الهواء لدرجة متطرفة يسبب اضطراباً في فروة الرأس أيضاً .

وقد ثبت أن وضع أوعية مليئة بالماء على أنابيب التدفئة المشعة للحرارة ، عديم الأثر في رفع درجة رطوبة الحجرة ، فهذه الطريقة لا تنتج سوى نسبة ضئيلة جداً من بخار الماء المطلوب . إن الوسيلة الوحيدة العمالية للاحتفاظ بنسبة معتدلة من الرطوبة في بيت به نظام للتدفئة (لا يوجد به جهاز محكم لتكييف الهواء أو لا تستخدم به غلاية لتبخير الماء أثناء المرض) هي أن نجعل درجة حرارة البيت أقل من ٧٢° دائماً .

أحياناً ما يتساءل البعض في قلق ، عما إذا كان الأوكسجين اللازم للتنفس يتوافر في حجرة مكتظة بالناس ، وما إذا كان «الجو المكتوم» (الذى يعنون به رائحة الأجسام عادة) ضاراً بالصحة ، في حجرة النوم أو الفصل المدرسى الذى لا تتوافر فيه التهوية الكافية .

هناك إجابات قاطعة لهذين السؤالين . إن حركة الهواء الجارى فى أية حجرة عادية كافية تماماً لأن تزود كل الناس الذين تستوعبهم الحجرة بكمية وفيرة من الأوكسجين . أما « الجو المكتوم » فى الحجرة ، الذى ينشأ عن وجود عدد كبير من الناس يشيع فيهم الدفء ، مع ندرة الهواء النقي فى المكان ، فليس له من أثر ضار فى حد ذاته (ومع ذلك أعود فأكرر أن ارتفاع نسبة الرطوبة هو الذى يسبب الشعور بالضيق) . والواقع أنك لا تكاد تلاحظ هذا « الجو المكتوم » بعد أن تمكث دقيقة واحدة فى الحجرة .

* * *

والآن ينبغي أن نعود إلى مناقشة الموضوع الخالص بقيمة الهواء النقي ، من ناحية التعرض للهواء البارد فى فصل الشتاء . لقد كنت أسخر من ذلك الإيمان الأعمى به ، الذى كان سائداً منذ خمسين عاماً ، لأن هذه النزعة السائدة كادت أن تصبح مسألة متعلقة بالقيم الأخلاقية أو بقوة الخلق عند الإنسان فى تلك الأيام . بل إن نفس هذا الاتجاه ما زال يعبر عنه فى بعض الأحيان ؛ ذلك الشخص (وهو دائماً من الرجال على قدر علمي) الذى يتفاخر بأنه يسير إلى عمله دون أن يرتدى معطفاً ، حتى ولو كان الطقس فى درجة الصفر .

لم تجمع حتى اليوم — على قدر علمي — أية حقائق علمية عن فائدة التعرض للهواء البارد . والواقع أنك لا تستطيع أن تصل إلى أية نتائج سليمة فى هذا الموضوع ، على أساس أقوال المؤمنين به . فالناس الذين يعتقدون اعتقاداً جازماً أن شيئاً ماسينعشهم — سواء أكان ذلك الشيء هو المشن «الدش» البارد ، أم النوم لتسع ساعات ، أم تناول بعض أقراص الفيتامينات — فإنهم سوف ينتعشون منه بالفعل . حتى لقد ثبت من إحدى التجارب المتقنة التى أجريت على المصل

المضاد لنزلات البرد ، أن الأشخاص الذين تطوعوا لأن يحقنوا بالمصل ، لكنهم حقنوا — دون علمهم — بالماء الملح بدلا منه ، قرروا أن مجموع فترات إصابتهم بنزلات البرد قد نقصت بنسبة ٧٥٪ تماماً كما كانت الحال بالنسبة للأشخاص الذين حقنوا بالمصل فعلاً .

لكني أعتقد أن هناك بعض الدلائل البسيطة — إن رغبت في تصديقها (ويمكنكم أن تلمسوا تصديقي لها) — على أن التعرض المعقول للهواء البارد له بعض الفائدة على أقل تقدير ؛ فالرجل الذي يقطع الأخشاب في الغابات ، والرجل الذي ينزلق على الجليد بانتظام ، والرجل الذي يذهب إلى عمله سيراً على الأقدام ، يوجد بأجسامهم نظام آلي لضبط الحرارة على درجة عالية ، تحفظ حرارة الجسم في الشتاء ، وتقيه القشعريرة في جميع الظروف عدا الحالات المتطرفة . أما الشخص الذي يمكنه باستمرار تقريباً في بيت دافئ ، فإن من السهل أن يصاب بقشعريرة البرد عندما يتعرض للهواء البارد في بعض الأحيان ، ما لم يكن مرتدياً الكمية المناسبة من الثياب . إذن فما دام من الضروري أن يخرج الأطفال الصغار والكبار في نزعات خارج البيت بين الفينة والفينة ، وما دام من المعتقد أن القشعريرة تلعب دوراً هاماً في بدء بعض النزلات ، فإن الخروج بالأطفال في نزعات منتظمة قد يكون فيه بعض الوقاية لهم من هذه النزلات .

وما من شك أن الأطفال والبالغين الذين يخرجون في الهواء الطلق بانتظام أثناء فصل الشتاء ، تكون خدودهم متوردة أكثر من غيرهم ، على حين أن الأطفال الصغار الذين يعيشون دائماً في بيوت شديدة الحرارة تكون بشرتهم شاحبة شحوباً واضحاً . لكنني لست أدري ما إذا كانت علائم الصحة التي تلوح على الخدود المتوردة تتجاوز سطح الجلد إلى داخل الجسم ، ومع ذلك فإن هذه الخدود تبدو رائعة للمناظرين .

كما أن الأطفال والبالغين الذين يخرجون من بيوتهم للرياضة البدنية — مهما تكن الحرارة — تكون « شهيتهم » للطعام أقوى من غيرهم . وقد شكت لى مئات الأمهات من أن أطفالهن الصغار ينتابهم الملل وحدة الطبع عندما يتحتم عليهم البقاء في البيوت أثناء الشتاء خوفاً من نزلات البرد ، وأن الحياة في البيت تصبح أبهج كثيراً بمجرد أن يسمح لهم آخر الأمر بأن يفرغوا طاقتهم الحيوية خارج البيت .

وفي اعتقادي أنه من المسمى والمفيد للأطفال الصغار أن يألفوا مناظر أخرى غير جدران البيت الأربعة ، وهم يحبون بطبيعة الحال أن تدفعهم أمهاتهم في عرباتهم ، أو حتى أن يرقدوا بداخلها في فناء البيت ، يرقبون الأغصان وهي تتمايل . (إذا كان الطفل ينام في غرفة باردة ، فسوف تتورد وجنتاه وتفتح شهيته للطعام على أية حال) . كما اعتقد أن الدواء الناجع الذي ينعش كثيراً من الأمهات ، لا سيما في الشهور الأولى المليئة بالمشاغل والأعباء ، هو أن يضطرهن أطفالهن إلى الخروج من البيت حيناً من الزمن كل يوم ، يمددن فيه سيقانهن ويملأن رئتاهن بالهواء ، ويرين الأصدقاء والغرباء .

* * *

ثمة نقطة أخرى بشأن النزعات خارج البيت ، وهي الثياب . فهناك نوع من الدوافع القهرية التي تكاد تتعذر مقاومتها ، تدفع الأمهات إلى إلbas الأطفال الصغار ثياباً أكثر من اللازم . ويраهم الطبيب حين يأتون إلى عيادته في عرباتهم الدافئة ، وهم ملفوفون في طبقات فوق طبقات من الصدرات الصوفية والقمصان والمعاطف والشيلاان والبطاطين والسراويل ، حتى إنهم أحياناً يتصببون عرقاً أو يظهر عليهم في عز الشتاء الطفح الجلدي الذي ينشأ عن الحرارة . إنى متأكد أن الطبيعة قد بثت فينا جميعاً شيئاً من القلق المتطرف — على الأقل — بشأن

تدفئة الطفل وإعطائه كفايته من الطعام . وأعتقد أيضاً أن الطبيعة قد أدركت — على مرّ العصور — أن بعض الأمهات يعوزهن النضج والإحساس بالمسئولية بعض الشيء ، وأدركت كذلك أن شعور الأمهات بشيء من الاهتمام والقلق بشأن تدفئة الأطفال وطعامهم ، في مقدمة النواحي الجوهرية للمحافظة على حياة الأطفال الصغار ، حتى يتسنى لهم أن يبدأوا في التعبير عن حاجاتهم ومطالبهم . ولكن المشكلة هي أن الأمهات الشابات ذوات الضمائر الحية اللاتي هن أقل الناس حاجة لهذا الحافز الطبيعي ، هن اللاتي يشعن به شعوراً في غاية الحدة .

على أننا من ناحية أخرى قد نجد أحياناً إحدى الأمهات تريد أن تثبت تحررها من العرف السائد وأن تثبت صلابة طفلها الصغير ، فتغطيعه بغطاء خفيف للغاية ، مما يبعث الرعب في قلب جده وجدته والجيران أيضاً .

إن قديمي الطفل الصغير ويديه تكون في العادة باردة إلا في الطقس الحار ، ومن ثم فهذه البرودة لا تدل على حاجته إلى مزيد من الغطاء . فحاجته إلى الغطاء — إن احتاج إليه — أقل من حاجة الطفل الأكبر سناً أو الشخص الراشد . ولأنه شعر بالبرودة أكثر من اللازم ، لأظهر هذا الشعور — كأي إنسان آخر — عن طريق الشكوى أو شحوب اللون .

أما بالنسبة للأطفال الذين بلغوا من السن ما يسمح لهم بالجري هنا وهناك ، فإن احتمال مغالة الأمهات في إلباسهم ثياباً ثقيلة أقل كثيراً منه في حالة الأطفال الرضع ، وذلك يرجع في اعتقادي إلى أنهم قادرون على العناية بأسر أنفسهم . وأظن أن طائفة قليلة جداً من الأطفال هي التي تلبس ثياباً خفيفة أكثر من اللازم أثناء الشتاء ، لا سيما في أيامنا هذه التي ظهرت فيها « بدلة الثلج » . غير أن إطلاق اسم « بدلة الثلج » على رداء معين لا يعني بالضرورة أنه يبعث على الدفء . إن « بدلة

« الثلج » المبطنة ببطانة جيدة من الصوف أو بأية مادة أخرى عازلة ، تعتبر كافية جداً في المناخ البارد ، وأسهل كثيراً في ارتدائها بالنسبة للطفل والأم من المعطف الخشن والأرجل المنفصلة التي كانت شائعة في الأزمنة الماضية . لكنني أحس بالقشعريرة حين أرى طفلاً صغيراً قد ازرقّ لونه من شعوره بشدة البرد ، وهو يرتدى « بدلة الثلج » المزعومة ، التي ليس لها سوى بطانة خفيفة من القطن « الفانلا » . إن مثل هذه البدلة قد تكون بطبيعة الحال ملائمة تماماً في مناخ أقل برودة من مناخنا .

ما هي الفترة الكافية للنوم ؟

« أنا نفسي أخطيء دائماً ، فأميل إلى
تشجيع زيادة فترة النوم قليلاً عن معدلها ،
أكثر من نقصانها بعض الشيء عن المعدل »

ما هي فترة النوم التي ينبغي أن يحصل عليها الطفل ؟ كنت أعتقد عندما بدأت أمارس مهنة الطب أن الإجابة عن هذا السؤال سهلة وقاطعة ؛ إذ كانت معظم مراجع طب الأطفال وكتب رعاية الطفل ، تقدم لنا نوعاً معيناً من الجداول التي تحدد ساعات النوم المناسبة . فأحدها على سبيل المثال ، يقول إن الطفل العادي يحتاج إلى — ومن المحتمل أن يحصل على — ساعات للنوم تتراوح ما بين ١٦ و ٢٠ ساعة في الأشهر الأولى ، وما بين ١٤ و ١٦ ساعة عندما يبلغ العام ، ثم ١٤ ساعة في سن الثانية ، ١٢ ساعة في سن السادسة ، ١١ ساعة في سن التاسعة ، ١٠ ساعات في الثانية عشرة (أى إنه يجب أن يذهب إلى الفراش في التاسعة مساءً إذا كان يستيقظ من نومه في السابعة صباحاً) .

ولكن كلما ازدادت خبرتي في ميدان الأطفال وجدت أنه من العسير على أن أقطع برأى في هذا الموضوع . فهناك عوامل كثيرة جداً تتحكم في النوم . يوجد اختلاف كبير في عدد الساعات التي ينامها مختلف الأطفال الصغار في الأسابيع الأولى من حياتهم . وقد يقول البعض إن هذا الاختلاف إنما يدل فقط على أن أحد الأطفال يحتاج بطبيعة تكوينه إلى ساعات للنوم تقل كثيراً عما يحتاج إليه طفل آخر . لكنني غير واثق على الإطلاق أن الاختلافات الفطرية تلعب الدور الرئيسي في الشهر الأول أو الثاني من عمر الطفل . فهذه هي السن

التي تنتاب فيها الطفل نوبات المغص ، وما أسميه الصراخ الانفعالى (فترات طويلة من الكدر لا سيما فى المساء) فضلا عن نوبات النكد المتقطعة . وهى أيضاً السن التى تظل فيها طائفة قليلة من الأطفال مستيقظة طوال النهار ، على حين يبقى غيرهم مستيقظاً نصف فترة الليل ، دون أن يتملكهم النكد فى هذه الفترة بصفة خاصة . على أنه فى معظم هذه الحالات ، يتضح أن اختلال نظام النوم ليس له صفة الدوام . فبالتوجيه العاقل المتزن تنام الغالبية العظمى من هؤلاء الأطفال العدد العادى من الساعات ، بعد أن يبلغوا الشهر الثالث من عمرهم .

ومع ذلك فهناك فئة قليلة من الأطفال الرضع ، لا يشقيهم شعور بالشقاء والكدر ولا تشذ حياتهم عن النمط المألوف ، غير أنهم ينامون ساعات تقل كثيراً عن المستوى العادى ، ويستمر عندهم هذا الاتجاه طوال مرحلة الطفولة . من المحتمل إذن أن يكون هناك نظام فطرى للنوم يولد فى الطفل ، ويختلف من واحد إلى آخر . فإذا كان مثل هذا النظام الفطرى موجوداً بالفعل ، فإنه لا يعنى بالضرورة أن الطفل الذى ينام ساعات أقل تكون حاجته إلى النوم أقل من غيره ، وإنما الأصح هو أن هذا الطفل له طبيعة أميل إلى اليقظة — وقد تكون أكثر توتراً — من غيره ، الأمر الذى لا يتيح له أن ينام المعدل العادى لساعات النوم . على أن أجهزة جسمه تكيف نفسها مع هذا الوضع ، وتحاول قدر استطاعتها أن تستفيد من فترات النوم التى يحصل عاينها . لعل أدق أكثر من اللازم فى معالجة هذه النقطة ، لكنى أفعل هذا لهدف أرمى إليه ، ذلك أن بعض الأمهات — فى اعتقادى — لا ينظرن إلى مسألة النوم نظرة جدية ، فيقررن بكل بساطة أن أطفالهن من النوع الذى لا يحتاج إلا إلى القليل من النوم ، ويتركن الأمر عند هذا الحد ، مع أن نفس هؤلاء الأطفال يمكن أن نحملهم بالتوجيه العاقل على زيادة ساعات نومهم ، مما يعود عليهم بالنفع .

وليس هناك كبير شك في أن الأطفال والراشدين يمكنهم — في خلال فترة من الزمن — أن يعتادوا النوم فترة تزيد أو تقل بعض الشيء عما اعتادوه من قبل . فعلى سبيل المثال ، قد يكون في حكم المستحيل أثناء رحلة أو زيارة أن نحمل الأطفال على الذهاب إلى الفراش في موعدهم العادي . إنهم يتنأبون كثيراً عندما يقبل موعد النوم في الأيام القلائل الأولى ، ثم يبدو أنهم يتكيفون مع الموقف تدريجياً ، إلى حد ما على الأقل . كما أن الكبار عندما يكونون في إجازة مريحة (خالية من شغب الأطفال) ، قد يجدون أنفسهم ينامون فترة تزيد ساعتين عما كانوا يعتقدون أنهم قادرون على نومها في يوم من الأيام .

منذ عدد من الأعوام ، انطبع في ذاكرتي مثال متطرف يدل على مدى إمكان تدريب الأطفال الكبار على زيادة ساعات نومهم . كان ذلك في إحدى مستشفيات النقاة الخاصة بالأطفال الذين كانوا مرضى بحمى روماتيزمية أصابت القلب . في تلك الأيام لم يكن هناك شيء من تلك العقاقير العجيبة التي تقضى على إصابات الحمى الروماتيزمية قضاء مبرماً . كان العلاج الوحيد المعروف حينذاك هو الراحة التامة . وكان نظام الراحة في هذا المستشفى ينفذ تنفيذاً صارماً ، وإجراءات النظام تطبق بدقة وحزم . وكان هناك أطفال تتراوح أعمارهم بين سن الخامسة والثامنة عشرة يتحتم عليهم جميعاً — حتى الذين في الثامنة عشرة — أن يذهبوا مبكرين إلى الفراش (وتطفأ الأنوار) وأن يأخذوا فضلاً عن ذلك إغفاءة قصيرة لمدة ساعتين بعد تناول الغذاء ، لا يسمح لهم في أثناءها بالكلام أو القراءة أو أى شيء آخر يصرفهم عن النوم . وقد ذهلت حين عرفت أن الجميع — حتى المراهقين منهم — اعتادوا بعد قضاء بضعة أسابيع بالمستشفى أن يذهبوا للنوم بعد الغذاء وأن يتوجهوا إلى الفراش مبكرين في المساء ، تماماً كما يفعل الأطفال في الثانية والثالثة من عمرهم .

قد يكون صحيحاً أن الأطفال يمكن أن يعتادوا النوم فترة تقل بعض الشيء عن المعدل دون أن يلحق بهم أى ضرر ملموس ، غير أن هذه العادة لها حدودها . فهناك على سبيل المثال مشكلات النوم التي تنشأ في العام الأول ، حين يتعلم الطفل الصغير أن يقاوم محاولات الأم لوضعه في الفراش بالليل (حتى إنه بدلا من أن يستقر في فراشه في السابعة مساء ، يصر على أن تمشي به أمه في البيت حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة) أو يعتاد أن يصحو من نومه مرتين أو ثلاثاً في أثناء الليل طالباً صحبة أمه ، لفترات تتراوح ما بين ثلاث إلى خمس ساعات في مجموعها . وتقرر غالبية الأمهات أن هؤلاء الأطفال الصغار لا يعوضون فترات النوم الضائعة بالإغفاء بعض الوقت أثناء النهار ، لذلك ينتابهم التعب وحدة الطبع والتوتر طوال اليوم . (علاج هذه المشكلات لن يستغرق سوى ليلتين أو ثلاث ، وهو أن تضع الأم طفلها الصغير في فراشه في موعد معقول ولا تعود إليه على الإطلاق) . وأحياناً ما يواجه المعلمون مشكلة الطفل الذي يظل شهراً بعد شهر يثئاب أثناء الدراسة ، ثم يكتشفون بالتحري عن حالته أنه يبقى مستيقظاً جانباً كبيراً من الليل ، بسبب اختلال نظام الأسرة أو إهمالها للطفل .

هناك أيضاً حالات شتى من التوتر الوجداني ، من المعروف أنها تعوق النوم . وسوف أعالج في أحد الفصول التالية مشكلة القلق الذي يترتب على انفصال الطفل عن أمه ، ومشكلات وقت النوم التي تنشأ في حالة كثير من الأطفال عندما يناهزون العام الثاني من عمرهم ، على أن النوم يمكن أن يضطرب في جميع مراحل الطفولة ، من جراء القلق أثناء النهار ، أو الخوف من الكابوس ، أو الشعور بالذنب بسبب بعض الأخطاء المستترة ، أو المنافسات الحادة بين الأطفال . وهذه الحالات لها دوافعها العميقة فضلاً عن أسبابها السطحية . لكنها إذا استمرت طويلاً ، فإنها تتطلب المساعدة من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة .

من المحتمل في اعتقادي أن يكون أبعد العوامل أثراً في كمية النوم التي يحصل عليها الأطفال ، هو نظام النوم الذي تربي عليه الآباء والأمهات أنفسهم . فالآباء يميلون في معظم الحالات لأن يطبقوا على أطفالهم نفس القواعد التي طبقت عليهم في الماضي . (غير أن قلة منهم تنمرد على هذه القواعد فتتجه إلى تقيضها) .

لقد تربيت في إحدى المدن الشرقية على أيدي أبوين من ذوى الضمائر الحية التي يورقها الشعور بالواجب ، كانا هما نفسهما يوضعان في الفراش مبكراً أثناء مرحلة الطفولة ، واعتادا أن ينظرا إلى القواعد الصحية الخاصة بالأطفال نظرة جدية للغاية . وعندما بلغت أنا وشقيقتي الثامنة أو التاسعة من عمرنا ، كنا لا نزال نتناول عشاءنا من الحبوب والفاكهة والكاكو على مائدة خاصة بالأطفال ، في الساعة الخامسة والنصف مساءً ، ثم نمكث بعد ذلك داخل البيت ، على أن نأوى إلى الفراش في الساعة مساءً ، حين يبدأ والدانا في تناول العشاء . (ومازلت أذكر حتى الآن هزيم صوت أوى ذى النبرات الخافتة ، وهمهمات صوت أمى ذات النبرات العالية ، التي كانت تتراعى إلينا في الدور الثاني من خلال سقف الحجر) ، ولم يكن أبى وأمى يعتقدان فقط أن الأطفال في طور النمو يحتاجون إلى الكثير من النوم ، بل كانا يؤمنان أيضاً بأن من حق الآباء والأمهات أن يستمتعوا بعشاء هادئ على ضوء الشموع ، حتى إن أحداً منا لم يمنح حق « الترقية » من مائدة الأطفال إلى مائدة العشاء الكبيرة بما تحويه من وجبات الكبار ، إلا بعد أن ناهز العام الثاني عشر من عمره .

وعندما بدأت أمارس طب الأطفال في مدينة نيويورك بعد عشرين عاماً ، كنت ما أزال أعتقد (ما دمت لم أر شيئاً آخر يختلف عن ذلك) أن جميع الأطفال الصغار الذين تحاط تربيتهم بالعناية والاهتمام ، يتناولون الحبوب والفواكه في الخامسة والنصف ، ثم يذهبون إلى الفراش في الساعة السابعة . والواقع أن غالبية

الأمهات اللائى كنت أسدى إليهن نصائحي فى تلك الآونة ، كن يسرن فى تربية أطفالهن على هدى نفس الاعتقاد .

وبعد خمسة عشر عاماً انتقلت إلى منطقة أخرى من البلاد ، حيث كانت الغالبية العظمى من الأمهات يؤمن بآراء مختلفة كل الاختلاف بشأن العشاء وموعد النوم . فقد اعتاد الأطفال هناك أن يتناولوا طعام العشاء فى وقت مبكر بصحبة آبائهم وأمهاتهم ، ثم يذهب الأطفال الصغار إلى الفراش قبل الأطفال الكبار فى العادة ، ولكن كانت هناك اختلافات عجيبة فى موعد النوم بالنسبة لكل سن ، فبعض الأطفال الذين لم يبلغوا سن الالتحاق بالمدرسة كانوا يذهبون إلى النوم فى السابعة ، على حين أن عدداً كبيراً منهم اعتاد أن يسهر حتى الثامنة أو التاسعة ، بل لقد كانت هناك طائفة قليلة منهم لا تأوى إلى الفراش قبل الساعة العاشرة ، أو حتى بعد ذلك . وقد صدمت لهذا الوضع فى نادى الأمر ، وتوقعت أن الذين يتأخرون فى النوم — ولو حتى باعتدال — سوف ترسم هالات سوداء تحت عيونهم وينتابهم التعب والإرهاق ويظلون يتشاءمون طوال اليوم . ومع ذلك فقد وجدت أن معظم أولئك الأطفال الذين لا يسرفون فى السهر لدرجة متطرفة ، تبدو عليهم أمارات الصحة بشكل معقول .

* * *

إن بعض الأمهات اللائى يؤمن إيماناً قوياً بأهمية النوم الكثير للأطفال ، يصادفن من المتاعب فى حمل أطفالهن على الذهاب إلى الفراش ما يزيد كثيراً عما تصادفه غيرهن من الأمهات ، فنحن قد نعتقد أننا نضع أطفالنا فى الفراش بطريقة عملية واقعية ، لمجرد أننا نعلم أنهم فى حاجة إلى النوم . غير أننا إذا تجاوزنا هذه النظرة السطحية ، نجد أن شتى الاتجاهات والنزعات تتداخل فى موعد النوم ، فأحد المتاعب التى تصحب فترة المساء هو أن الأم تكون عندئذ متعبة كالطفل

سواء بسواء ، وإذا كان الطفل قد اتبع معها كل وسائل « العفرتة » طوال النهار ، فإن من المحتمل أن تكون قد تراكت في نفسها كمية كبيرة من الغيظ والتوتر . لذا فإنها قد تنفس عن هذا الغيظ بكل جلاء ووضوح في نداءاتها للطفل كي يذهب إلى الفراش ، فنبرات صوتها تقول له : « يمكنني الآن بحق أن أسوى حسابي معك آخر الأمر . سوف أجعلك تكف عن فعل الأشياء التي تجبها ، وأرغمك على أن تفعل آخر شيء تميل إليه » . إن هذه النعمة إذا استخدمتها الأم بانتظام ، كفيلة في خلال أسبوعين بأن تحول الطفل الذي يحب الذهاب للفراش إلى طفل يناضل لعدم الذهاب إليه .

أو نجد أمًا ينتابها شعور مزمن بالتوتر ، غير أنها تحس بالذنب من جراء ذلك ، فتعوزها قوة السيطرة . هذه الأم تتراجع في موقفها إذا عارضها الطفل معارضة شديدة . فهي تقول له غاضبة : « كان ينبغي أن تكون في الفراش منذ نصف ساعة مضت — هيا أسرع » . وعلى الفور يجادلها الطفل الذي أصبح محامياً أريباً بحكم إدراكه لنواحي الضعف في أمه : « لقد سمحت لي بالسهر حتى الساعة التاسعة يوم السبت الماضي » . أو : « إنك لم تقرئي لي قصة » أو : « أريد الانتظار حتى يعود بابا إلى البيت » . فتسائل الأم نفسها عما إذا كانت قد تسرعت في تصرفها أو عاملته معاملة غير عادلة . وسواء قررت أن تقف موقفاً حازماً أو أن تتهاون معه ، فإنها تتردد المدة الكافية التي تشجعه على أن يعاود المحاولة في المرة التالية . وعندما يستمر هذا النوع من الجدل شهوراً عديدة ، فإن من الممكن بكل سهولة أن يستنفد ساعة كل مساء من الوقت المفروض أنه مخصص للنوم .

وأنا لا أعني بهذا الكلام أن بعض الأمهات ينجحن دائماً في فرض سيطرتهم فيما يختص بموعد النوم ، على حين أن غيرهن يحقق دائماً في هذا المجال . ولكننا جميعاً نصادف مواقف النجاح والفشل ، إذ أنها تتوقف على الطريقة التي نسير

بها أمورنا مع الطفل فى النواحي الأخرى ، وعلى مدى توفيقنا فى الحياة . كما أن الهفوات التى تحدث الفينة بعد الفينة ، لا تؤدى إلى القضاء على النظام الذى نرسمه للطفل . ومع ذلك فالأمر يتطلب منا قدراً معقولاً من الثبات والثابرة ، فضلاً عن خلق شعور أساسى بالصدقة مع الطفل ، كى يسير نظام مواعيد النوم بطريقة يسيرة هينة .

عندما نتحدث عن حصول الأطفال على كفايتهم من النوم — أو حصول الآباء والأمهات على كفايتهم من الراحة — يجب ألا تغيب عن بالنا مشكلة ساعة « اليقظة » ؛ فهذه فى اعتقادى إحدى المشكلات التى يثمر فيها التدريب المبكر . ففى بعض الأسر يضطر أحد الوالدين — على الأقل — إلى الاستيقاظ فى السادسة صباحاً ، لجرد أن الأطفال يكونون فى تلك الساعة قد استيقظوا تماماً وفى حاجة إلى الرعاية . على حين نجد فى أسرة أخرى ، أن جميع أفرادها يكونون لا يزالون فى إغفاءة النوم ، حين ينطلق جرس المنبه فى الساعة الثامنة . فماهى الأسباب التى تؤدى إلى هذا الاختلاف ؟ قد نرجعها فى بعض الحالات إلى ميل فطرى لليقظة يظهر عند بعض الأطفال منذ مرحلة الطفولة المبكرة ، أو على الأقل ميل إلى اليقظة عند طفل واحد فى الأسرة ، وهو الذى يوقظ الآخرين ، ولكن أغلب الظن عندى أن التدريب يلعب الدور الرئيسى فى هذه الناحية ، لاسيما تدريب الطفل الأول . فى الشهور الأولى تستيقظ الغالبية العظمى من الأطفال الصغار فيما بين الخامسة والسادسة صباحاً ، سواء أكان ذلك فى الصيف أم فى الشتاء ، وسواء أكانت الغرفة مظلمة أم مضيئة . وبعد أربعة أو خمسة أشهر ، يبدى معظمهم ميلاً تدريجياً إلى التأخر فى النوم عن هذا الموعد . ولكن إذا كانت الأم من ذوات الضمائر الحية التى يؤرقها الشعور بالواجب فتنام وقد أرهفت إحدى أذنيها ، وتقفز من الفراش عند أول صوت أو همهمة تبدر من

غرفة الطفل الصغير ، فإنها بهذه الطريقة قد تصل إليه دائماً قبل أن يفتح عينيه . وهذا الأسلوب يدربه على أن يستمر في الاستيقاظ مبكراً ، وأن يتوقع رعاية أمه منذ اللحظة الأولى التي يستيقظ فيها . أما إذا تناومت الأم عند مطلع الفجر في انتظار أن ترى هل سيعود الطفل إلى النوم ، أو — إن لم يفعل — هل سيقنع بعض الوقت على الأفل باللعب بيديه أو بإحدى لعبه ، فأغلب الظن أنها ستدهش وتبهج لدى التقدم الذي تحرزه مع الطفل بشأن موعد الاستيقاظ .

وإذا تدرب الطفل الأول على النوم حتى ساعة مناسبة من الصباح فإن هناك احتمالاً قوياً أن يثبت نفس النظام في الأطفال التاليين ، حتى لو اقنصت الظروف أن يشتركوا معاً في حجرة النوم .

وجدير بالذكر — ونحن نناقش مسألة التدريب — أن غالبية الأطفال الصغار يمكن تدريبهم على النوم في شتى أنواع الضجة المنزلية المألوفة ، حتى ولو لم يوجد باب مغلق يحول بين غرفة الطفل وهذه الضجة ، التي تتمثل في أصوات التليفون والتليفزيون ، ونداءات الأطفال الأكبر سناً ، وضحكات الضيوف الكبار في الأمسيات . على أننا من ناحية أخرى نجد أنه إذا سار أهل البيت على أطراف أصابع أقدامهم ، أو لجأوا إلى الهمس حين يكونون على مقربة من حجرة الصغير فإنه يتدرب على أن يستيقظ كلما حدثت ضجة من باب الخطأ . ولكن ليس جميع الأطفال يمكن تدريبهم على تحمل الضجيج بنفس السرعة . فالبعض منهم يكون بطبيعته متبلداً نسبياً منذ البداية . في حين أن هناك — على النقيض — بعض الأطفال الذين يكادون يقفزون من جلدهم ذعراً إذا ما سقط جسم على الأرض أو صفق باب على مقربة منهم ، في الأسابيع القلائل الأولى من حياتهم . ومع ذلك فحتى الأطفال ذوو الحساسية المفرطة يمكن أن يتحملوا بالتدريج

مزيداً من الضجة ، إذا أتحنا لهم الفرصة للتدريب على ذلك .

* * *

هل عقدت السؤال الخاص بالفترة التي ينبغي أن ينامها الطفل ، بدلا من أن أوضح الرد عليه ؟ أعتقد أني قد بينت في جلاء أنه لا يمكن أن تكون هناك إجابة واحدة محددة عن هذا السؤال ، فكمية النوم التي يحصل عليها الطفل أو يبدو أنه يحتاج إليها ، تتأثر بعوامل عديدة ، كالفرق الفطرية الطبيعية بين الأطفال (التي لم تثبت علمياً في الواقع) ، واضطرابات النوم التي تلازم الشهرين الأول والثاني من عمر الطفل ، وأفكار الأمهات بشأن النظام السليم للنوم ، ومدى لباقتهم وعزمهم في حمل الطفل على الذهاب إلى الفراش ، وحالات التوتر التي يحتمل أن تحرم الطفل من النوم .

ومع أني أعتقد أن الأمهات يجب أن يأخذن العوامل الفردية في اعتبارهن ، فإنني لا أظن أن تحديد موعد النوم ينبغي أن يترك أمره للطفل . لكنني أنا نفسي أخطئ دائماً ، فأميل إلى تشجيع زيادة فترة النوم قليلا عن معدلها ، أكثر من نقصانها بعض الشيء عن هذا المعدل . وأحسب أن هذا الاتجاه عندي يرجع إلى الطريقة التي نشئت عايتها ، وإلى أن الأطباء محافظون في تفكيرهم عادة ، وإلى شعوري بأن الأطفال الذين ينشأون على أيدي أمهات حريصات على العناية بأمرهم ، يكونون بوجه عام أكثر تمتعا بالصحة من غيرهم . ومن ثم فإنه بعد أن يبلغ الطفل شهره الثالث ينبغي لي — كأحد الآباء — أن أضع له جدولا من جداول مواعيد النوم التي ذكرتها في بداية هذا الفصل (على أن تشمل إغفاءة ما بعد الظهيرة حتى يبلغ الطفل عامه الرابع أو الخامس) . أما إذا كان طفلي يحصل على قدر من النوم يقل كثيراً عن الفترة المحددة ، فإنني في هذه الحالة أفضل مناقشة الأمر مع الطبيب ، كي أعرف أهذه صفة لا أهمية لها يتميز بها الطفل ؟

أم أن هذه الظاهرة ترجع إلى سوء سياستي في تدير أمورهِ ؟ لكنني بطبيعة الحال لا أدعو الأم إلى أن تجلب على نفسها وعلى طفلها الشقاء بالإصرار على اتباع جدول جائر لمواعيد النوم لا يتناسب مع طبيعته ، فهذا الاتجاه ضرره أكثر من نفعه . إنى أنوه فقط أنه في كثير من الحالات التي تقل فيها فترة النوم عن القدر المناسب ، قد توجد توترات في نفس الطفل ، أو مشكلات معينة لا يراها الوالدان ، يمكن علاجها إذا عولجت في الوقت المناسب . إن مرحلة الطفولة المبكرة هي المرحلة التي يسهل فيها تكييف نظام النوم عن طريق التوجيه السليم من جانب الآباء والأمهات . كما أن نظام النوم الذي يتبع في هذه المرحلة قد يستمر مدى الحياة .

الأسنان والحلوى

« من المستحسن أن نبعد الحلوى عن الأطفال
بقدر المستطاع ، ولأطول مدة ممكنة »

عندما كنت أعمل في « المركز الصحى للترسانة » بمدينة پيتسبرج كان الدكتور ميلتون نيكلسون من بين أفراد الهيئة الطبية هناك ، وهو أستاذ فى طب الأسنان يقسم ببعد النظر ويهتم اهتماماً شديداً بطب الأسنان الوقائى . وكنا — أنا وهو — دائماً ما نرى أحداً للآخر لما نصادفه من فشل فى إقناع الأمهات جميعاً — على قدر ما استطعنا أن نلص من خلال تجاربنا — بأن من المستحسن أن يبعدن عن الأطفال ، الحلوى والمياه الغازية والفطائر الدسمة وما إلى ذلك من الحلوى ، بقدر المستطاع ولأطول مدة ممكنة .

وأنت لا تستطيعين أن تبعدى الحلوى عن الأطفال إلى ما لا نهاية ، لأنهم عندما يكبرون فى السن ، يرتادون الحفلات ، ويذهبون إلى المدرسة ، مارين بمحال الحلوى . وعندئذ تضطر الأمهات الطيبات إلى السماح بها للأطفال فى بعض الأحيان — حتى ولو كن يحددن كميتها إلى حد بعيد — لأنهن لا يردن أن يسلكن مسلك العجائز العابسات المتعسفات .

على أية حال ، لماذا كنا — أنا والدكتور نيكلسون — نثير الضجة حول هذا الموضوع ؟ ذلك لأن هناك دلائل كثيرة على أن النشا والسكر هما السبب الرئيسى فى تسوس أو تآكل الأسنان . فالباحثون يعتقدون أن حامض اللبنيك يحلل قلب الأسنان من داخل الفجوات . وهذا الحامض تصفعه الميكروبات التى لا تعيش إلا فى النشا والسكر . كما أن الدراسات العلمية تؤكد أن مدى الفترة التى تحتك فيها المواد الكربوهيدراتية بالأسنان — ساعة بعد ساعة وعاماً بعد

عام — قد يكون هو العامل الرئيسى فى التسوس . لذلك فإن « المصاصات » التى تستغرق وقتاً فى امتصاصها قد تكون أكثر ضرراً من الحلوى التى تذوب فى الفم سريعاً .

كما أن « القراقيش » والفطائر التى تنحشر فى فجوات الأسنان وتلتصق بجوانبها قد تكون أسوأ أثراً من أصناف الحلوى شبه السائلة . فضلاً عن ذلك فإن تناول المواد الكربوهيدراتية فى خمس وجبات يومياً يضر بالأسنان أكثر مما لو تناولناها فى ثلاث وجبات فقط . ثم إن قضم الحلوى باستمرار فى جانب كبير من اليوم هو أسوأ هذه الأشياء جميعاً . غير أن صنوف الطعام التى تحتوى على كثير من المواد الخشنة مثل الفواكه الفجة « النيئة » والخضراوات واللحوم المتماكة تنظف الأسنان بعض الشيء ، وشرب الماء أو اللبن فى نهاية الوجبة يفسلها إلى حد ما ، أما خير وسيلة ناجعة فهى أن ننظفها « بالفرشاة » بعد كل وجبة وقبل الذهاب إلى الفراش .

وغالبيتنا نحن الآباء نعرف هذه الحقائق معرفة عامة ، ومع ذلك فإن معظمنا يبدو أنه لا يهتم بها كثيراً (فى أسرتى أنا أيضاً) ، مع أننا لا نهمل فى صحة أبنائنا من النواحي الأخرى ، فنستدعى لهم الطبيب فى حالة المرض ، ونأخذهم للتطعيم ضد الأمراض ، ونعطيهم فيتامينات غالية الثمن كي تنمو عظامهم قوية .

إن أحسن تفسير لهذه الظاهرة يقبدر إلى ذهنى ، هو أن هناك ارتباطاً وثيقاً جداً فى أذهاننا وقلوبنا بين الحلوى وبين الحب . فعندما كنا أطفالاً صغاراً ، كان آباؤنا كثيراً ما يظهرون إعجابهم بتصرفاتنا أو حبهم لنا بإعطائنا شيئاً من الحلوى : « لقد أكلت كل خضراواتك ، لذلك تستطيع أن تأخذ قطعة كبيرة من الكعك » . « لقد كنت ولداً مهذباً للغاية أثناء غياب ماما فى المدينة ، يمكنك أن تأخذ قطعة من الحلوى » . « إن ماما تغور بشجاعتك فى عيادة

الطبيب (أو حتى طبيب الأسنان!) ، لذا سنتوقف لشرب شيء من المياه الغازية في طريقنا إلى البيت » . بل إن الطبيب الذي يجب عليه من دون الناس جميعاً أن يعطي القدوة الطيبة ، قد يكافئ الطفل الذي يسلك سلوكاً حسناً في عيادته بإعطائه « مصاصة » .

ومن ثم فالشعور بأن الحلوى تدل على الحب يفرس فينا منذ الطفولة المبكرة ، ويرسخ عميقاً قوياً في نفوسنا ، وبعد أن نتجاوز مرحلة الطفولة ، يقدم الشاب منا إلى حبيبته عابة من الحلوى على شكل قلب تعبيراً عن حبه . بل إن المرأة الناضجة التي يورقها الشعور بالوحدة ومن عدم تقدير الرجال لها ، يمكنها أن تبعث في قلبها الكثير من الراحة والسوى ، بأن تشتري لنفسها علبة كبيرة من الشوكولاته ، فتلتهمها عن آخرها . كما أن من أحب الكلمات التي ندلل بها أحبابنا كلتي : « يا حلوة » و « يا شربات » .

وعندما يأتي اليوم الذي ننجب فيه أطفالاً من صلبنا ، فإننا لا نستطيع بسهولة أن نتجاهل هذا الاتجاه الراسخ في أعماقنا ؛ إذ نحس برغبة جارفة في أن نعبر لأطفالنا عن حبنا بنفس الطريقة التي كان آباؤنا يعبرون بها عن حبهم لنا . ورغم أننا قد نستمتع بأذناننا إلى كلمات طبيب الأسنان أو الطبيب الباطني أو إحدى المقالات التي تبين لنا أن الحلوى ضارة بالأسنان ، إلا أن هذه الكلمات لا تنفذ إلى ذلك الشيء الذي نسميه « القلب » .

وبعبارة أخرى ، إنني والدكتور نيكلسون وجميع الأطباء الآخرين الذين يحاولون وقف المد الزاحف على أطفالنا من المشروبات السكرية ، إنما نناضل في وجه قوة عاتية . إننا كالصيادين الذين يحاولون وقف هجوم الفيلة ببنادق الرش .

هل من الممكن أن نكونى أما عطوفاً ترضى الرغبات التى يشتهىها أطفالها بين الوجبات ، دون أن تضحى بأسنانهم غنيمة سائغة للميكروبات الكامنة فى حامض اللبنيك ؟

ابتداء من مرحلة الطفولة الأولى فصاعداً ، يمكنك أن تقدمى لهم « الحلو » بعد تناول الطعام ، من الفواكه المطبوخة التى لا تكون محلاة بالسكر أكثر من اللازم ، أو من الفواكه الفجة « النيئة » . ويمكنك أيضاً أن تعملى على أن يظل الأطفال فترة طويلة من الزمن يجهلون مذاق الكعك والفطائر ، بل إن فى وسعك بعد ذلك أن تجذبهم إغراءها بوسيلة فى غاية البساطة ، هى أن تحصى على ألا توجد مثل هذه الأصناف فى المطبخ ، ذلك إن لم يطلبها الكبار أنفسهم .

ويمكنك أن تبعدى الفواكه المسكرة عن البيت إلا فى القليل من المناسبات الخاصة . كما أنى أمتنع طفلى من شراء هذه المسكرات أو غيرها من الحلوى بانتظام فى أثناء عودته من المدرسة إلى البيت (أو فى أى وقت آخر) . والأهم من ذلك كله هو أن تتجنبى استخدام الفسكه المسكرة أو الحلوى كنوع من المكافأة أو الرشوة للطفل ، فإن هذا سيؤدى فقط إلى زيادة اشتهاه لها .

وإذا لم يبد على الطفل أنه فى حاجة إلى وجبة خفيفة (تصبيره) فى منتصف الصباح أو بعد الظهر ، فإن من الأفيد لأسنانه أن تتخلى عن هذه الوجبة . أما إذا كان من الضرورى أن يتناول شيئاً ما فربما كان أخف الأضرار بالنسبة لأسنانه هو تناول اللبن ، أو الفواكه ، أو عصير الخضراوات ، أو عصير الفاكهة .

* * *

رغم أنه لم يعرف بعد سوى القليل من المعلومات العلمية عما هى بالضبط

العناصر الغذائية التي تؤدي إلى تكوين أسنان تقاوم التسوس ، فقد ثبت بالدليل القاطع أن وجود الكمية المناسبة من فلوريد الجير في الماء الذي تستهلكه السيدات الحوامل والأطفال الصغار ، له قيمة كبرى في هذا المجال . فهو ينقص — بنسبة الثلثين — من تسوس الأسنان في حالات الأطفال الذين درجوا — منذ كانوا أجنة في بطون أمهاتهم — على تناول مثل هذا الماء (ذلك أن فلوريد الجير يجب أن ينفذ إلى الأجزاء العليا من الأسنان اللبن وهي بعد في طور التكوين ، أي قبل مولد الطفل) . وفوائد هذا الفلوريد لا تعود فقط على الأسر التي تحرص على أداء واجبها نحو أطفالها ، بل تعود أيضاً على جميع الذين يدرجون في مدارج النمو في مجتمع يتمتع بشرب الماء المزوج بفلوريد الجير .

وقد انتشرت عملية إضافة فلوريد الجير إلى مياه الشرب انتشاراً سريعاً في الأعوام الأخيرة ، ومع ذلك فما زال أمامها شوط طويل عليها أن تقطعه . ذلك لأن هذه العملية عندما تدرس لأول مرة في إحدى المدن ، يرغب الأهالي في التأكد من سلامتها ، مما يستنفد بعض الوقت في مناقشة الموضوع . لقد أجريت بطبيعة الحال تجارب في غاية الدقة والإتقان على مياه الشرب بعد إضافة فلوريد الجير إليها ، ولم يوص باستخدامها على الإطلاق إلا بعد أن ثبتت سلامتها وحازت رضا السلطات الصحية والطبية وأطباء الأسنان . والواقع أن فلوريد الجير يوجد دائماً بطريقة طبيعية في بعض أنواع مياه الشرب التي تمد بها المدن ، وقد اكتشفت قيمته لأول مرة من التجارب التي أجريت على هذه المياه . إنني أحس بالفخر لأنني قد عشت السنوات الأخيرة في مدن توافرها الإدراك السليم بحيث منحت أطفالها هذا النوع من الوقاية . فإذا ظهر اقتراح يدعو إلى تنفيذ هذا المشروع في مدينتك فعليك أن تعضديه بكل الوسائل .

ولفائدة الأطفال الذين لم يحصلوا على فلوريد الجير عندما كانت أسنانهم في

طور التكوين يستطيع طبيب الأسنان أن يطلى أسنانهم بفلوريد الجير القصديرى ..
كما أن نفس المادة تدخل الآن فى تركيب نوع من معجون الأسنان ، يمكن أن.
تكون له قيمته فى المحافظة على الأسنان إذا استخدم بانتظام .

ولكى نعطى أطفالنا الفائدة الحقيقية من تنظيف الأسنان بالفرشاة ، يجب.
أن نفرس فيهم عادة تنظيفها بمد كل وجبة وعند الاستيقاظ من النوم وقبل.
الذهاب إلى الفراش . كما عليك أن تتذكرى دائماً أن عملية تسوس الأسنان تحدث
أساساً فى أثناء الساعة أو الساعتين اللتين تعقبان تناول النشا والحلوى .

٢

مركز الطفل في الأسرة

الطفل الأكبر والأوسط والأصغر

« رغم أن مركز الطفل في الأسرة له أهميته ، فإن الأهم منه ، هو نوع الأسرة من ناحية روحها واتجاهاتها »

عندما تصفحت المقالات التي نشرها رجال علم النفس وعلماء الاجتماع والأطباء النفسيون ، لأرى ما جمعه من حقائق علمية عن أثر مركز الطفل في الأسرة على شخصيته وأخلاقه ، اعترتني الدهشة لأول وهلة ؛ إذ لم أجد سوى القليل جداً من الإحصائيات التي تثبت أن الطفل الأكبر ينحوي في اتجاه معين ، على حين ينحوي الأصغر في اتجاه آخر . فالإحصائيات الموجودة تبين أنه بوجه عام لا توجد فروق كبيرة وثابتة بين الطفل الأكبر والأوسط والأصغر ، من ناحية طبيعة الشخصية أو نوع المشكلات التي تحيط بالطفل .

لعلك تحسبن بالرغبة في أن تقولى : « كلام فارغ ! إنى أعرف جيداً أننى وإخوتى وأخواتى جميعاً قد تأثرنا تأثراً قوياً ، كل بوضعه كطفل أول أو ثان أو أصغر . وأنا أعرف مواقف مشابهة في أسر أخرى » . إنى أوافقك على هذا الرأى . وهذا هو السبب فى أنى أريد مناقشة هذا الموضوع . فمن البديهي أن هناك اتجاهات شتى ومختلفة تمام الاختلاف يمكن أن يتجه إليها الطفل الأكبر مثلاً . فاتجاه الطفل إنما يتوقف على ظروفه فيما إذا كان ولداً أو بنتاً ، ضخماً أو ضئيلاً ، نشيطاً أو هادئاً . على حين أن الإحصائيات تدل فقط على أنك إذا جمعت الأنواع المختلفة من الأطفال الأوائل ، وقارنت المتوسط فيها بالمتوسط فى الأنواع المختلفة من أطفال الوسط ، فإن النماذج الفردية التي نعرفها جميعاً بين الأطفال ، تتساوى بعضها مع بعض أو تضع معالمها فى الإحصائيات .

منذ أعوام مضت اعتادت هيئة التدريس بمدرسة الحضانة للملحقة بكلمة « ساره لورنس » — وكنت إذ ذاك أعمل بها جانباً من الوقت — أن تناقش حالات عدد من الأطفال الأوائل الذين انحرف مزاجهم أشد الانحراف عند مولد الأخت أو الأخ الأصغر منهم . فقد تحول عدد كبير من هؤلاء — مؤقتاً على الأقل — من أطفال مجدين متحمسين يتسمون بالود والمرح إلى أطفال هادئين يخيم عليهم الحزن والكآبة . وكنا نحن أعضاء هيئة المدرسة نتعاطف مع الأطفال الأوائل بصفة عامة، لشعورنا أن معظمهم يشق عليه أن يعزل من ركره كطفل وحيد في الأسرة . ثم حدث بعد ذلك أن قام أحد أفراد هيئة التدريس بمراجعة كل السجلات الخاصة بالأطفال الأوائل الذين التحقوا بهذه المدرسة — لعدة أعوام مضت — كي يرى مدى الزيادة التي طرأت على عددهم . ولدهشنا الشديدة ، تبين من الإحصائيات غير الرسمية أنه مقابل كل طفل بدت عليه علائم الانحراف والكدر بصورة واضحة عند مولد الطفل التالى ، يوجد طفل آخر لم ينظر إلى المولود الجديد على أنه عقبة في طريقه على الإطلاق ، بل ظل سعيداً في حياته كما كان من ذى قبل .

من المحتمل أن هؤلاء الأطفال الذين يتقبلون مقدم الطفل الثانى بهذا الأسلوب الناجح ، يتمكنون من ذلك بسبب شعورهم شعوراً خاصاً بالأمان والطمأنينة ، ينبع من مجرد إحساس الطفل بأنه الأكبر .

وبهذه المناسبة قلما يتكدر الطفل الأول بسبب مولد الطفل الثالث ، فالظاهر أنه — أو أنها — قد جرب كل ما أوتى من مشاعر الغيرة عند مولد الطفل الثانى ، ثم تظهر من هذه المشاعر على نحو ما فى محاولته التكيف مع الوضع الجديد . والواقع أن غالبية الأمهات يذّهان لدى ما يبديه الطفل الأول من شغف بالثالث ، حتى ولو كان قد أظهر غيرة شديدة من الطفل الثانى . فهو يبدو الآن كما لو كان قادراً

على أن يشعر نحوه شعور الأب المحب لا المنافس الغيور . وهذا النمط السلوكي هو أقوى الأدلة الماثلة أمامنا ، على أن مرحلة الغيرة ، إذا لم تكن طاغية أكثر من اللازم ، وإذا تمثلها الطفل وهضمها تدريجياً ، فإنها يمكن أن تكون في الحقيقة تجربة بناءة له ، وكأنما هي تحصنه وتقويه لمواجهة أية مشاعر من نفس النوع قد تهدده في المستقبل .

ورغم أن مركز الطفل في الأسرة عامل له أهميته ، فإن الأهم منه هو نوع الأسرة من ناحية روحها واتجاهاتها . فإذا كانت أسرة تأخذ الأمور ببساطة ويتقبل فيها الوالدان كل طفل على علاقته بطريقة طبيعية ، فالأرجح في هذه الحالة أن يشعر كل واحد من الأطفال بالارتياح في مركزه الخاص بين أفراد الأسرة ، أيًا كان هذا المركز . غير أن معظمنا نحن الآباء ينظر إلى أبنائه نظرة ناقدة لا تتسم بهذه البساطة ، فيبدى لهم من الاستهجان بقدر ما يبدى من الاستحسان ، ويميل في كلماته وتصرفاته إلى مقارنة أحد الأطفال بالآخر . لذلك فإن الأرجح في هذه الحالة هو أن ينزع الأطفال إلى التنافس ؛ إذ يشتد إحساسهم بمن هو الأكبر فيهم ، أو من هو الأقوى ، أو من هو أكثرهم وسامة ، أو أكثرهم تمتعاً بالامتيازات ، أو أكثرهم نجاحاً في حياته .

كما أن بعض الآباء والأمهات يسهل عليهم التعامل مع ذلك النوع من الأطفال الذي يتسم بالهدوء والخضوع منذ مولده ، على حين أن غيرهم يجد متعة كبرى في التعامل مع الأطفال الذين يتصفون بالجرأة والحوية . كما أن بعضهم يشتهون البنين — على الأقل — في مرحلة معينة من مراحل نمو الأسرة ، في حين يتوق غيرهم إلى البنات . وهكذا يمكنك أن تلمس أن تجاوب الآباء والأمهات مع الأطفال ، يمكن أن يكون أكثر أهمية في صياغة شخصية الطفل من مركزه كطفل أول أو ثان أو ثالث في الأسرة .

هناك ناحية أخرى لها بعض الصلة بهذا الموضوع ، ألا وهي عدد أفراد الأسرة . فبوجه عام ، كلما كانت الأسرة أكبر عدداً ، قلَّ الاحتمال أن يؤدي مولد طفل جديد إلى اختلال حالة التوازن التي وجدت قبل مولده . وما دام اهتمام الآباء والأمهات موزعا بين عدد كبير من الأطفال ، فإن هذك فرصة أكبر لأن ينمو كل واحد منهم في نمطه الطبيعي . على أن هناك — على النقيض — بعض الآباء الذين لا يتيسر لهم أن ينجبوا أكثر من طفل أو طفلين ، أو الآباء الذين يعقدون العزم مقدما على ألا ينجبوا سوى هذا العدد . ومن ثم فإن هؤلاء . في غالبية الأحيان يكون عندهم استعداد أكبر لتركيز اهتمامهم وآمالهم . وهو اجسهم على هذا الطفل أو الطفلين .

إن طبيعة تكويننا نحن البشر — إذا كانت شخصيتنا سوية إلى حد معتدل — تجعلنا ننظر إلى طفلنا ، لا سيما الطفل الأول ، لا على اعتباره إنساناً جديداً مستقلاً مجهول الشخصية ، بل على أنه تعبير عن ذاتنا . إننا بطبيعة الحال نعتبر أنفسنا من أبناء المدرسة الحديثة المستنيرين ، فنسدى بأقوال حكيمة عن رغبتنا في أن ينمو الطفل بطريقة الخاصة ، وأن يصوغ حياته على هواه ، ما دام يتمتع بالسعادة . ونحن إذ نقول هذا الكلام ، نقوله في إخلاص ، وسوف نحاول بالفعل أن نسير على نهجه . غير أن طبيعتنا الحقيقية — الطبيعة البشرية العاتية في أعماقنا — لا تتوافر عادة عندها النية لأن تتبع هذا الأسلوب اللين المتساهل في تربية الطفل . فالواقع أننا في بعض الأحيان لا ننتظر حتى يولد الطفل ، كي نبدأ في صياغته على نمط الشخصية التي تتخيلها . حتى لقد دهشت بعض السيدات اللاتي كن يمالجن علاجاً نفسياً في أثناء فترة الحمل ، حين عرفن من تحابل أحلامهن وأحلام يقظتهن أنهن يتوقعن بصورة محددة قاطعة أن تتوافر صفات

ميزة خاصة في المولود الذي ما زال في علم الغيب من جميع نواحيه ، حتى بالنسبة لجنسه ، ذكراً كان أم أنثى .

ونحن نميل بوجه عام إلى أن يكون طفلنا شبيهاً بنا ، بل ربما نفضل أن يفوقنا وسامة بعض الشيء ، وأن يتمتع بنفس اهتماماتنا وهواياتنا ، وأن يتذوق نفس الأشياء التي نجددها فكهة أو ملهمة ، وأن يوفق في مهنة من المهن التي نعجب بها .

على أن اهتمامنا لا يقتصر على النواحي الإيجابية فحسب ، بل إننا نخشى أيضاً أن ينشأ طفلنا ضعيفاً أو « شقياً » في ناحية من النواحي التي كنا نعتبر فيها ضعافاً أو « أشقياء » أثناء طفولتنا ، أو أن يفشل في مجال ما نحس أننا قد اقتربنا فيه من الفشل .

إن هذه المشاغل التي تشغل بال الآباء والأمهات ، لا تؤدي بالضرورة إلى إلحاق ضرر بالطفل . حقيقة أن الأب الذي يستبد به القلق من شدة لهفته على أن يلتحق ابنه بالكلية التي تخرج فيها هو ، وأن يمتحن نفس مهنته ، قد يؤثر فيه تأثيراً سيئاً ، إن كان غلاماً لم يخلق لهذا الاتجاه بطبيعته . كما أن البنت قد ترهق إرهاقاً شديداً إذا أصرت أمها الطموح على أن تجعلها تتلقى دروساً في الرقص ودروساً في الموسيقى ، بل ودروساً في السباحة . ومع ذلك فإن المطامح والآمال التي تراود الآباء والأمهات العقلاء ، دون أن يضغظوا على أطفالهم أكثر من اللازم ، يمكن أن يكون لها أثرها العميق في خلق صفات قيمة بالفعل ، يفيد منها الطفل والمجتمع .

لقد تحدثت حتى الآن وكأننا الآباء يركزون اهتمامهم دائماً على الطفل الأول ، ويمثلون أنفسهم فيه ، ويتركون طابعهم عليه . ومن البديهي أن هذا ليس صحيحاً بالضرورة في كل الحالات . فالكثيرون من الآباء والأمهات يعاملون

طفاهم الأول معاملة تنسم بالبساطة وعدم التهاوت لدرجة معقولة ، بل إن بعضهم يركز اهتمامه على الطفل الثاني أو الثالث . وهذا يحدث مثلاً في بعض الأحيان ، عندما ينتظر الوالدان إنجاب بنت على آخر من الجنين ، بعد أن يرزقا بـ اثنين أو ثلاثة من البنين . لذلك فإن البنت التي تأتي لها آخر الأمر ، قد تأتي قدراً كبيراً من اهتمامهما ورعايتهما ، وينتهي بها الأمر إلى تكوين شخصية أشبه بشخصية الطفل الأول أو الطفل الوحيد .



يبدو أن مركز الطفل الأوسط أو أطفال الوسط هو خير مركز يشرف فيه الطفل بالارتياح في عدد كبير من الأسر ؛ ذلك لأن الآباء يتعلمون دروساً كثيرة من خلال التجربة الشاقة مع الطفل الأول . ومن المحتمل أن يكونوا الآن أكثر ثقة بأنفسهم ، وأكثر راحة واسترخاء في تربية الطفل . وقد عبرت لي كثير من الأمهات عن دهشهن لهذه الظاهرة ، قائلات بنفس الألفاظ تقريباً : « إن تربية الثاني سهلة جداً . يبدو لي أنني لا أحمل له همّاً على الإطلاق . بل إنني لا أحتاج إلى أن أسأل نفسي عما ينبغي أن أفعله معه . كل ما في الأمر أنني أجد نفسي أفعل اللازم له ، ويتضح لي عادة أنني قد تصرفته التصرف السليم . عجباً ! بل إنني لا أترث لأسائل نفسي هل ينبغي أن أعاقبه أو أتقاضى عن شقاوته . وإذا عاقبته بالفعل فإن هذا العقاب يصفى الجو بيننا دائماً ، فأنا لا أحس بالذنب لأنني عاقبته ، وهو لا يلبث أن يستعيد مرحه بعد العقاب . وأحياناً نساأل أنفسنا ، أنا وزوجي ، عما إذا كنا نعامله بإهمال ، فنحن نهتم به اهتماماً ضئيلاً للغاية . ولكن إذا كان هذا إهمالاً منا بالفعل ، فالظاهر أنه يزدهر ويزدهش من هذا الإهمال . إنه يشغل نفسه بشئ المهام ، ويفغره شعور بالسعادة معظم الوقت . أما إذا رغب في شيء من الصحبة ، فإن شخصيته جذابة للغاية ، لدرجة

أن أحداً لا يستطيع مقاومة إغرائه ، حتى الغرباء في الشارع . كما أنه يجد متعة في أن يحتضنه الناس ، على عكس الطفل الأكبر .

بطبيعة الحال ، ليس كل الأطفال الثواني يبدون حياتهم هذه البداية السهلة الهينة . فالأمهات اللاتي يتحدثن على هذا النحو في وصف أطفالهن ، إنما يبرزن ناحية واحدة فقط من الصورة . على أن هذا النوع من الاسرخاء من جانب الأم في تربية الطفل ، كفيل بأن يحمي شخصيته من المغالاة في الاعتماد عليها ، أو على غيرها من الناس في ميدان الحياة . فهذا الطفل يستطيع في العادة أن يشق طريقه بنفسه دون أن يرزح تحت وطأة القلق والارتباك .

والطفل الثاني ، أو الذي يليه من أطفال الأسرة ، يكون في الغالب أكثر استعداداً من الطفل الأول لأن يتعلم منذ بداية حياته كيف يتعامل مع الأطفال الآخرين ، تعاملًا إيجابيًا أو سلبياً على السواء . كما أنه يجد متعة في اللعب العنيف والهرج والمرج مع الأطفال ، عندما يمارسه بطريقة طبيعية في السنة الأولى . أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة من عمره . (على حين أن الطفل الأول أو الوحيد ، إذا أتت له بعض الفرص القليلة لمصاحبة غيره من الأطفال في السنين الأولى ، فإنه يجدهم في العادة غرباء عنه ويحس أن بهم شيئاً من النزق والعنف ، على عكس الكبار المهذبن الذين اعتاد صحبتهم) . وفي غالبية الأسر ، نجد أن الطفل الثاني أو الذي يليه ، لا يلبث أن يكتشف كيف يدافع عن نفسه دون تردد أو توان . إنه في الشهر التاسع أو الثاني عشر ، قد يصرخ ويحفل زعراً ، إذا اضطهده أخوه الأكبر . أما عندما يبلغ شهره الثامن عشر ، فالأرجح أنه سيتمكن من التسبب بمقتنياته كعزرائيل الموت ، ويدافع عن نفسه كالنمر الضاري . بل إن من المذهل أن الطفل الأصغر كثيراً ما ينتهي به الأمر إلى فرض سيطرته على طفل آخر يفوقه إلى حد بعيد في السن والجسم والقوة البدنية . ولعل السبب الأساسي في

أن هذا الطفل أقدر على العراك في جرأة وشجاعة من أخيه الأكبر ، هو أنه لا يعاني من الشعور بالذنب الذي يبشه الوالدان عادة في الطفل الأكبر ، إذا حاول أن يؤذي الطفل الصغير .

ومع ذلك فإن الحياة قد تكون شاقة عسيرة بالنسبة للطفل الثاني أيضاً . فمن بين أسباب التوتر عند كثيرين من الأطفال — لاسيما إذا لم يكن هناك سوى طفلين في الأسرة ، كلاهما من الأولاد أو البنات — أن الطفل الثاني قد يكافح كفاحاً عنيفاً مستمراً كي يسير على قدم المساواة مع الطفل الأول ؛ يكافح لأن يتسلق الشجرة كلما تسلقها أخوه ، ويكافح للحصول على قبعة جديدة إذا حصل أخوه على قبعة جديدة ، ويكافح للسهر إلى وقت متأخر مثل أخيه ، ويلعب مع أصدقاء أخيه حتى ولو اضطر إلى إهمال أصدقائه . هذه المنافسة الشديدة قد تؤدي وقد لا تؤدي إلى شعور الأخ الأصغر بالكدر والشقاء ، ولكنه في غالبية الأحيان يظل محتفظاً بروحه المرحّة خلال هذا الكفاح الدائب ، وإن كان من المحتمل أن تجعله هذه المعركة نحيل الجسم متوتر الأعصاب دائماً ، كما أنها قد تسبب غيظاً شديداً لأخيه الأكبر . وأحياناً ما يؤدي هذا النوع من التطلع والطموح إلى خلق صفات قيادية بالغة القوة في الطفل الثاني ، يتميز بها بين أفراد جماعته ، وتكون عادة من النوع البناء . لكنني صادفت مرتين حالة طفل ثان كان يبدي براعة فائقة في اقتياد أخيه الأكبر أو أحد الأطفال الآخرين إلى المتاعب . كما أن المنافسة المتطرفة قد تؤثر تأثيراً عميقاً في البنت الصغرى في حياتها بعد مرحلة الطفولة ، فتدفعها مثلاً إلى عقد خطبتها أو إلى الزواج أو إلى إنجاب الأطفال ، بمجرد أن تفعل أختها ذلك . أو قد تؤثر في الولد الأصغر ، فتدفعه إلى اختيار نفس المهنة التي يتجه إليها أخوه الأكبر ، حتى ولو كانت شخصيتاهما مختلفتين تمام الاختلاف . والنتائج التي تترتب على المنافسة بين الأطفال ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ،

إنما تتوقف على طبيعة هذه المنافسة ، أهى من القوة بحيث تعمى الطفل ؟ أم أن هناك ما يوازنها من قدرة عادية على التمييز السليم ؟

بالرغم من أن الغالبية العظمى من الأطفال الشوائى يتوافقون توافقاً سليماً مع الطفل الأول فحسب ، بل مع الطفل الثالث أيضاً بين أفراد الأسرة ، فإن بعضهم يقع أحياناً فى مأزق شديد من الناحية النفسية . إذ يخيم عليهم التشاؤم والخوف من أنهم لن يتمكنوا يوماً من الوصول إلى مستوى إخوتهم الكبار (لا توجد سوى فرص ضئيلة لأن يتفوق الطفل الثانى على الطفل الأول أثناء مرحلة الطفولة ، لكن هذا لا يثبط من عزيمته غالبيتهم) . وعند ما يولد الطفل الثالث ، يحس الثانى أن الهجوم ينصب عليه من ناحية هذا المولود أيضاً . ويحتمل فى هذه الحالة أن يتوقف هذا الطفل عن محاولة الظهور بمظهر الكبار ، ويفقد معظم قدرته على المبادأة ، ويطلب الكثير من المساعدة من الكبار ، بل إنه قد يتردد إلى طريقة الأطفال الصغار فى الكلام ، ويعود إلى مص إبهامه والتبول فى الفراش ، على أن هذه الأعراض لا تدل على حالة خطيرة ، إذا كانت مجرد رد فعل مؤقت لمقدم الطفل الثالث ، لكنها إذا استمرت طويلاً ، فإنها تدل على أن الطفل الأوسط فى موقف عصيب ، ويحتاج إلى الكثير من المساعدة من جانب الأبوين أو المتخصصين . وترجع هذه الحالة فى بعض الأحيان إلى تخلف الطفل الأوسط تخلفاً واضحاً عن أخيه الأكبر ، أو الأصغر من ناحية الحجم ، أو القوة البدنية ، أو حسن السمات ، أو الصحة الجسمانية . كما نلمس هذه الحالة أيضاً عندما يكون الوالدان قد رزقا ببنتين وينتظران إنجاب ولد بفارغ الصبر ، فيرحبان بمولد الطفل الثالث الذ ذكر ترحيباً حاراً ، لا يمكن إخفاؤه عن البنت الثانية ، مهما تكن لباقة الوالدين .

أما بالنسبة للطفل الأصغر في الأسرة ، فإن الأمر يختلف كثيراً . وقصة التوراة عن يوسف الصديق الذي كان أحب الأبناء إلى قلب أبيه مما أثار حقد إخوته عليه لكنه وفق في حياته آخر الأمر ، تعتبر نموذجاً للقصاص والأساطير التي تدل على مدى اهتمام الجنس البشري بمصير الطفل الأصغر . والحقيقة أن الغالبية العظمى من الأطفال الصغار — شأنهم في ذلك شأن أطفال الوسط — لا تظهر عليهم سمات بارزة ، تنشأ عن مركزهم في الأسرة . غير أننا كثيراً ما نلاحظ على طائفة قليلة منهم ، نزعتين متناقضتين بعض الشيء : نزعة إلى الكفاح الدائب للحاق بالطفل الأكبر والتفوق عليه من ناحية ، أو نزعة إلى البقاء باستمرار في وضع الأطفال الصغار من ناحية أخرى .

وهناك اتجاه طبيعي بين معظم الآباء والأمهات إلى التراخي تدريجاً في تطبيق النظام على أطفالهم ، كلما تقدمت بهم السن وتوالى إنجازهم للأطفال ، ذلك لأنهم يزدادون إدراكاً على مر السنين أن نمو الأطفال ونضجهم إنما يرجعان لدرجة كبيرة إلى غرائزهم الفطرية وتقليدهم لأبائهم ، وأنه لا داعي لتدخل الآباء أكثر من اللازم في شئون أبنائهم . كما أن الآباء في هذه المرحلة يكونون قد أرهقوا بعض الشيء من تربية الأطفال . وإذا تبين لهم عندئذ أن هذا الطفل قد يكون طفلهم الأخير ، فإن من البديهي في هذه الحالة أن تراودهم الرغبة الطبيعية في الاستمتاع بطفولته أطول مدة ممكنة . هذه العوامل مجتمعة غالباً ما تعني أن الطفل الأصغر تفرض عليه مطالب أقل من المطالب التي تفرض على إخوته . حتى إن الآباء أحياناً ما يتفاوضون عن لحظات نزقه ويتحملون نزعاته الطفلية — أكثر كثيراً مما يمكن أن يتحملوه من أطفالهم الأكبر سناً — بل إنهم قد يشجعونه على هذا « الدلع » . ومن الطبيعي إزاء هذا التدليل ، أن يصبح الطفل — مهما تكن سنه — ميالاً إلى الاعتماد على الآخرين ، مركزاً حول نفسه ،

«مغالياً في مطالبه . وعندما يثير هذا التدليل غيظ الإخوة والأخوات الكبار ، فإن غيظهم قد لا يبعث في نفس الطفل الأصغر شعوراً بالخجل يدفعه إلى التخلي عن امتيازاته الخاصة ، بل إنه بدلاً من ذلك قد يتخلى عن محاولة كسب رضاهم . ويبدل جهداً أكبر لإثارة اهتمام والديه . هذه بعض الخطوات التي تحيل طائفة قليلة من الأطفال الصغار إلى مخلوقات مدللة بعض الشيء ، لا ترغب في العمل الشاق ، لا من أجل نفسها ولا من أجل الآخرين . وقد تبين من أحد البحوث الطبية الطريقة التي أجريت على طائفة من المرضى أصيبوا بالعجز الدائم لأنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً في التغلب على المرض ، أن نسبة كبيرة منهم كانوا أصغر الأطفال في أسرهم .

على أننا نجد من ناحية أخرى أن شغف الآباء والأمهات بأصغر أطفالهم وتغاضيهم عن بعض أخطائهم (إن لم يصحبه تدليل أكثر من اللازم) ، قد يبعث في الطفل الأصغر ثقة مثالية بنفسه ، مما يتيح له استغلال جميع قدراته إلى أبعد مدى . وإذا كان هذا الطفل قد نمي في نفسه قدرة كبيرة على المنافسة من خلال الرغبة في اللحاق بإخوته وأخواته الكبار ، فإن امتزاج هذين العاملين — الثقة بالنفس والقدرة على المنافسة — قد يخلق منه شخصاً ناجحاً طموحاً بشكل -خارق للعادة في ميدان الحياة .

المركز الخاص الذى يشغله الطفل الأول

« طفلنا الأول هو ذاتنا »

المزاييا والعيوب

أود مناقشة سمات معينة فى شخصية الطفل الأول ، تلمسها فئة قليلة من الأمهات فى هذا الطفل ، ويا من أنفسهن عليها تحت وطأة الشعور بالذنب .
إليكن أولاً خليطاً من الشكاوى والاعترافات التى سمعتها من الأمهات
عشرات المرات :

« إن طفلنا الأول لا يتمتع بالسعادة كما ينبغى ... يمتلكه شىء من الخجل والرهبة حين يتعامل مع الأطفال الغرباء أو مع أولاد الحى الذين يفوقونه خشونة . لكنه من ناحية أخرى يستطيع أن يفرض سيطرته تماماً على الأطفال الذين يصغرونه فى السن . إن له أصدقاءه ، لكنه يثير أحياناً عداؤهم بسبب سلوكه الأمانى فيما يتصل بابعقه الخاصة ، أو بسبب إصراره الشديد على أن يوجه اللعب على هواه . ومع ذلك تجرح مشاعره جرحاً عميقاً ، عندما يولونه ظهورهم بعد أن يستخدم بينهم الجدل ، لكنه بالطبع يلقى اللوم عليهم دائماً ، وهو يجب أن يهتم به الكبار ، لكنه غالباً ما يفشل فى جذب اهتمامهم . وإذا لم يلتفتوا إليه ، فإنه قد ينجح إلى العبوس أو الوقاحة . إن مستوى عمله المدرسى متوسط ، لكن معلمته تقول إنه يستغرق كثيراً فى أحلام اليقظة ، وإنه لا يعمل قدر طاقته . أما فى البيت فهو يبدى غير شديدة من أخته الصغرى التى تليه فى السن ، حتى إنه كان فى نادية الأمر بعمد إلى إيذاؤها ، ولم يسمح لها قط أن تلعب بأشياءه الخاصة .

« لقد كانت تعوزنى دائماً الثقة بنفسى لأعرف كيف أسوسه وأسير أموره ، ومع ذلك فإنى أحس بأنى أفهمه أكثر من بقية الأطفال جميعاً ، ربما لأن طبيعتنا متشابهة إلى حد بعيد . عند ما أنجبته لم أكن أفقه شيئاً عن رعاية الطفل ، لذلك كان يعوزنى الشعور بالأمان والطمأنينة ، فكنت أضطر للرجوع إلى الكتاب أو لاستدعاء الطبيب فى كل كبيرة وصغيرة . وفى الأشهر الثلاثة الأولى ، دأب عني الصراخ والضجيج ، فلم تكن بداية طيبة ، ولم يكن يجب أن يحتضنه أحد على الإطلاق . كما أنى وجدته صعب القياد فى عامه الثانى أيضاً ؛ إذ أصبح مشكلة فى تغذيته ، فدأبت على مطاردته كى يتناول الطعام ، رغم علمى أنه لا ينبغي أن أفعل ذلك . إنه لم يبد قط رغبة فى تنفيذ ما أريده منه . وكنت أجادله وأناقشه بالمنطق ، لكن كثيراً ما كان يحن جنونى وأصرخ فى وجهه ، بل إنى كنت أنهال عليه بالصفعات فى بعض الأحيان ، غير أن هذه الوسيلة لم تشمر على الإطلاق . وكلما غضبت منه وثارث تأثرتنى عليه ، ينتابنى شعور بالذنب بعد ذلك ، فأعاهد نفسى كل صباح على أن أكون أكثر صبراً فى معاملته ، ولكن الظاهر أنه يستغل صبرى ، وسرعان ما أعود فأغضب منه .

« إن طفلى الثانى والثالث لا يسببان لى أى عناء بالنسبة لى ، فأى شيء أؤديه لهما ، وأى عقاب أوقعه بهما ، يحقق الهدف المنشود على خير وجه . ومع ذلك فإن معرفتى كيف أسوسهما وأدير أمورها ، لا تعيننى على تربية طفلى الأول » .

هذا بطبيعة الحال مجرد سرد سريع لخليط من الأقوال التى تدلى بها بعض الأمهات . كما أن نفس هذه الحالة من التوتر — بين الأم وطفلها الأول — قد توجد فى عائلات أخرى ، ولكن بدرجة أقل كثيراً فى حديثها . ومع ذلك فهناك أسر أخرى عديدة لا تنطبق عليها هذه الصورة على الإطلاق . ومن

البديهي أيضاً أن هذا التوتر قد لا يوجد بين الأم وطفلها الأول ، بل بينها وبين الثاني أو أى طفل آخر يليه في السن . لكنني فقط أعتقد أن هذا التوتر أكثر شيوعاً في حالة الطفل الأول ، وأنه يلقي ضوءاً على بعض صور الضغط التي تعاني منها الأمهات في أول عهدهن بالأطفال .

ونقص التجربة له في حد ذاته أثر واضح في سلوك الأم ، لا سيما في حالة الأمهات ذوات الضمائر الحية اللائي يؤرقهن الشعور بالواجب ، وفي نفس الوقت تموزهن الثقة الشاملة بأنفسهن . هؤلاء الأمهات يداخلهن الشك في قدرتهن على أداء هذا العمل الجديد ، لذلك فإنهن يغالين في التهييب تارة وفي تأكيد سلطتهن تارة أخرى على التوالي ، شأنهن في ذلك شأن الناس الذين يركبون الجياد لأول مرة ، فتكون أعصابهم متوترة مشدودة (الأطفال) — كالجياد — سرعان ما يلهسون شعور أمهاتهم بعدم الاطمئنان . كما أنني أعتقد أن الأمهات اللائي تلقين قدراً كبيراً من التعاليم ، غالباً ما ينتابهن الشك بشأن قدرتهن على تربية الطفل ، أكثر من الأمهات الأقل تعليماً ، ذلك لأنك في الدراسة الجامعية إما أن تكون ماماً بدروسك وإما غير ملم بها ، فإن كنت غير ملم بها لا بد وأن يكشف جهلك حتماً . على أية حال ، سواء أكانت الأمهات مثقفات أم جاهلات ، فإن قلة قليلة منهن هي التي تتلقى أية دروس على الإطلاق في تربية الطفل قبل أن يحين أوانها . (حتى الآن ، بعد ثلاثين عاماً من تخرجي في كلية الطب ، ما زلت أرى في منامي أحلاماً مزججة تدور حول دخولي امتحاناً لم أستهعد له مطلقاً) .

* * *

ربما كانت أهم العوامل التي تؤثر في سلوك الأمهات حديثات العهد بالأمومة ، هو وجود بعض المشاعر — النافعة أو الضارة — التي ترسبت في نفوسهن من أيام الطفولة . لذلك فإن أسهل السبل لأن تصبحي أمّاً ناجحة في تربية أطفالك ،

هو أن تكونى قد قضيت طفولة ممتعة بصحبة أبوين محبين يلتزمان جانب العدالة ،
يسيران على خطة ثابتة فى التربية ويتصفان بالحزم ، دون أن يستبد بهما الغيظ
والانفعال . غير أن معظم الناس لا يتاح لهم آباء وأمّهات على هذا القدر من الهدوء
والسكينة .

ذلك أن مشاعر الغضب والإحساس بالذنب التى كنا نحسها فى لحظات معينة
تجاه آبائنا وأمّهاتنا ، والخوف الذى كان ينتابنا فى بعض الأحيان من أن نفقد
مكانتنا فى البيت والمدرسة ، والغيرة التى كنا نحسها نحو إخوتنا وأخواتنا ، كل
هذه المشاعر قد خلقت رواسب عميقة فى نفوس معظمنا . وهذه الرواسب قد
تتحرك فى نفوسنا عندما نتجيب أطفالاً من صلبنا ، لا سيما فى حالة الطفل الأول
أو فى حالة أى طفل بعده تكون له أهمية خاصة لدينا .

هل مثل هذه التوترات فى نفوس الآباء والأمّهات تحدث أثراً سيئاً فى
الأطفال ؟ إنها بلا شك تضايق الوالدين والطفل فى الأعوام الأولى . لكنها
إذا لم تكن بالغة الحدة منذ البداية ، وإذا ظهرت دلائل على أنها تحف تدريجياً
على مرّ السنين ، فإن أثرها فى الطفل فى نهاية فترة المراهقة وفى بداية مرحلة
البلوغ ، قد يكون أثراً مرضياً فى غالبية النواحي ، ومرضياً للغاية فى بعض
النواحي .

لقد دهشت وسررت سروراً بالغاً ، حين بلغنى من أمّهات عديدات فى
الأعوام الأخيرة أن أطفالهن الأوائل الذين كنا منذ خمس عشرة أو عشرين سنة
نناقش حالتهم بجد واهتمام فى عيادتى ، فتبدى لى الأمّهات أشد القلق بشأنهم
ويوجهن إلى أنفسهن اللوم على فشلن فى معالجتهن ، أن هؤلاء الأطفال قد
أصبحوا الآن لا يتمتعون بالسعادة فى حياتهم لحسب ، بل إنهم أيضاً قد أحرزوا

نجاحاً خارقاً للعادة في مجالات تتطلب إدراك ظروف الآخرين والتعاطف معهم ،
كالمعلم والتدريس والخدمة الاجتماعية والأبوة .

كيف يمكن أن نفسر هذه الظاهرة ؟ أظن أن الطفل الذي يكون حساساً بطبيعته فيواجه بعض الصعوبات في تعلم طريقة التعامل مع والديه وإخوته وأخواته وأصدقائه ، هذا الطفل إذا نجح في التغلب على هذه الصعوبات ، قد يبدي اهتماماً بالناس ورغبة قوية في العمل من أجلهم ، أكثر من أى طفل آخر لم يضطر في يوم من الأيام إلى التفكير في علاقاته بالناس . ولا أعنى بذلك أن من الأفضل للطفل أن يعاني بعض الشقاء في أيام طفولته ، بل أعنى أن من الممكن أن يوجد في حياته ما يعوضه كثيراً عن الشعور بالشقاء ، إن لم يتجاوز هذا الشعور الحد العادي .

ولعله ينبغي أيضاً أن أضيف في هذا المقام ، أنى لا أريد أن يفهم من كلامي أن الطفل الأول يمكنه أن يتغلب على سوء تكيفه مع البيئة مهما كانت درجته ، أو أن سوء التكيف يؤدي إلى نتائج طيبة في نهاية الأمر . فالطفل — أياً كانت مكانته في الأسرة — الذي يبدأ حياته وهو يحس بشيء من الشقاء ، لا يمكن أن يحصل على السعادة إلا بالجهد والمساعدة . ومن حق هذا الطفل أن يحصل على شتى أنواع المساعدة التي يستطيع الوالدان والمعلمات ومرشدات المدرسة وأطباء الأطفال النفسانيون والمتخصصات الاجتماعيات أن يقدموها له .

ثمّة ناحية أخرى تبعث على التفاؤل في حالة الطفل الأول ، تلك أن تفاني الوالدين وقلقهما الشديد عليه ، رغم أنه قد يكون متطرفاً إلى درجة تبعث على الضيق ، قد يخلق في الطفل في الوقت نفسه — بل إنه غالباً ما يخلق فيه — شعوراً أساسياً بأن مركزه له أهمية خاصة بين أفراد الأسرة . وعند ما يشب عن الطوق ، فإن هذا الشعور عنده قد يتحول إلى شعور بأن له رسالة هامة ينبغي أن

بحققها فى الحياة . كما أنه فى أثناء مرحلة الطفولة ، قد يتغلب على شعور المنافسة مع إخوته وأخواته الآخرين ، بأن يعتبر نفسه والدًا ثالثًا لهم ، بدلاً من أن يكون منافسًا يتعارك معهم . وهذه المشاعر — أن له أهمية خاصة عند الوالدين وأن له أهمية خاصة مثل الوالدين — قد تكون هى السبب فى ذلك الشعور بالتغاول وتلك الطاقة الدافعة وذلك الإحساس بالمسؤولية التى تتميز بها طائفة كبيرة جداً من الأطفال الأوائل .

ومن الطريف أن نذكر فى هذا الصدد ، أنه قد ثبت من دراسة حالات ١٠٠٠ من مشاهير الأمريكيين الذين تبوءوا مناصب « رفيعة » ، أن عدد الذين أحرزوا هذا النجاح الباهر من بين أكبر الأبناء ، يبلغ ضعف عدد الذين أحرزوه بين من يشغلون مراكز أخرى فى أسرهم . وهذا لا يعنى أننا — أنت أو أنا — نعتقد أن هذا هو بالضرورة خير مقياس للنجاح فى الحياة . غير أنه مما يبعث على الطمأنينة فى قلوب الآباء والأمهات الذين يعتقدون أنهم يغالون فى الاهتمام بأطفالهم الأوائل ، أن يدركوا أن هذا الاتجاه عندهم قد يؤدى إلى نتائج مفيدة تعود بالنفع على المجتمع .

تجنب الاعتماد المتطرف

يعلق كثير من الآباء ، بعد أن ينجبوا عديداً من الأطفال ، على مدى استقلال أطفالهم الآخرين ، بالمقارنة مع الطفل الأول . فهم يقولون مثلاً إن الأول يجد دائماً صعوبة أكثر من إخوته فى التعرف بالغرباء وفى الاستمتاع بالألعاب العنيفة مع الأطفال ، أو يقولون إنه يتهيّب مواجهة المواقف الجديدة ، أو إنه يتعلق دائماً بالوالدين ويطلب منهما الكثير من الرعاية والاهتمام ، أو إنه طفل مدلل مفسود . على أن هذه المقارنة لا تنطبق بطبيعة الحال على جميع الأسر ،

بل ولا على الغالبية العظمى منها . . كما أنه في بعض الأحيان قد يكون الطفل الثاني أو الثالث هو الأكثر اعتماداً على أبويه ، أو قد لا توجد هذه النزعة في أي من الأطفال . ومع ذلك فمن السليم أن نقول إن هذه النزعة إلى الاعتماد المتطرف — إذا ظهرت على أحد الأطفال في الأسرة — فإن الأقرب إلى الاحتمال هو أن تظهر على الطفل الأول .

عندما تنمو هذه النزعة إلى الاعتماد في نفس أحد الأطفال ، فإنها تكون في العادة عملية تدريجية بحيث لا يلاحظها الوالدان في مبدئها . وإذا كان الطفل المعتمد هو الأكبر بين الأطفال ، فإن من المحتمل ألا يلمس الوالدان هذا الاتجاه فيه إلا بعد أن ينجبا طفلها الثاني الذي يتميز باستقلال الشخصية بالمقارنة مع الأول .

هناك شعوران أساسيان يعتلمان في نفوسنا نحن الآباء ، غالباً ما يدفعاننا إلى التهافت على الطفل الأول ، وبذلك نشده إلينا برباط وثيق . الشعور الأول هو القلق . ذلك لأن معظمنا عادة ما تنقصه الخبرة عند ما يبدأ تجربته مع طفله الأول ، فيستبد به القلق عليه في كل كبيرة وصغيرة : الزغطة ، درجة الحرارة ، الوزن ، التنفس .. الخ . بل إن أول سقطة يسقطها الطفل على الأرض ، تسبب لنا ذعراً شديداً ، فيطغى علينا الشعور بالإثم . وعندما يصاب الطفل بالزكام للمرة الأولى ، يبدو لنا هذا الزكام كما لو كان أحد الأمراض الخطيرة . وهذا القلق المتطرف فينا ، يلوح في وجوهنا وأصواتنا ، ويتمثل في السرعة الخاطفة التي نستجيب بها لصراخه ، فيسرى شيء من هذا القلق إلى نفس الطفل . على أن مخاوفنا بشأن سلامته الجسمانية تخف وطأتها في العادة بمرور الشهور . لكن هذا القول لا ينطبق على مخاوفنا وقلقنا بشأن سلوكه العام وبشأن قدرتنا على التحكم فيه . فهذا القلق تزداد وطأته أثناء العام الثاني ، حين لا يعود الطفل مجرد دمية لطيفة ذكية تخضع

لرغباتنا ، فيبدأ فى إظهار مجموعة كاملة من الصفات التى تعودنا منذ نعومة أظفارنا أن ننظر إليها نظرة القلق والجزع : صلابة الرأى ، العناد ، التحدى ، حدة الطبع ، العدوان ، التهيب . والطريف أن الأم والطفل عندما يدخلان أحدهما مع الآخر فى مشاحنات متعددة — بشأن تناول الطعام أو ارتداء الثياب (المندام) ، وبشأن أداء شتى المهام الأخرى التى ينبغى أن يؤديها ، أو عدم أداء شتى الأشياء التى لا ينبغى أن يفعلها — فإن هذه المشاحنات تشدهما أحدهما إلى الآخر برباط أوثق ، رغم الخلاف الذى بينهما .

كيف إذن يتأتى لمعلمنا نحن الآباء أن نتقبل أخطاء السلوك الهينة بطريقة أكثر تساهلاً وبساطة فى حالة أطفالنا التالين ؟ أظن أن جزءاً من الإجابة عن هذا السؤال ، هو أننا نتعلم من خلال تجربتنا مع طفلنا الأول ، أن فى مقدورنا السيطرة عليه بطريقة أو بأخرى ، سواء باللين أو بالعنف . وبهذا الشعور بالثقة . فى قدرتنا ، نعالج الطفل الثانى بطريقة أكثر هدوءاً ، وبالتالى أبعداً أثراً وأكثر فاعلية . إننا على أقل تقدير لا نتصيد المتعصب ، بمعنى تأديب الطفل فى كل كبيرة وصغيرة ، ذلك لأننا نفترض أن كل تصرفاته تخضع لسيطرتنا التامة ، حتى يثبت العكس . لذا فإن كثيراً من المشكلات المحتملة الحدوث لا تنشأ على الإطلاق ، وكنيجة لذلك ، تكون حالة الطفل المزاجية أقل تأثراً وحساسية ، عندما نضطر إلى التدخل فى تصرفاته .

كما أن شعورنا بالفرح والبهجة الذى قد نحسه إحساساً طاعياً ونحن نشئ طفلنا الأول ، عامل هام فى شدة إلينا برباط وثيق ، لا يقل فى أهميته عن شعورنا بالقلق والاهفة عليه . فنحن حين يفتر ثغره عن أول بسمه حقيقية ، نطمع فى المزيد من البسمات ، وحين نستمتع إلى أول ضحكة يضحكها من أعماقه ، يصبح من العسير علينا ألاّ نعالى فى دغدغته . كما أننا نشاركه بكل جوارحنا فى اكتشافه .

لأصابع قدميه ، ونجاحه في التصفيق بيديه ، وشعوره بالزهو حين يبدأ في المشي ، ودهشته العميقة حين يسمع صوت أبيه ينبعث من مسماع التليفون ، وافتتانه بأول كلب أو قط يصادفه في حياته . وعند ما يكبر قليلا في السن ، يصبح على أحر من الجمر لأن نريه حديقة الحيوان وحلبة السيرك ، وأن نريه « وابور الزلط » وهو يؤدي عمله . بل يحتمل أن يشتري له أبوه القطارات الكهربائية قبل أن يثين أوانها بحوالى سنتين ، وأن يشرح له في حماسة بعض النماذج التي قد لا تتلاءم مع مداركه إلا بعد خمس سنوات .

إن جميع الآباء ينزلون إلى مستوى أطفالهم الفينة بعد الفينة ، فيلعبون معهم ويرينهم عجائب الدنيا . وهم لا يعتبرون آباء مثاليين إذا عجزوا عن مسيرة أطفالهم ، فهذه الناحية تفيد الآباء والأمهات كما تفيد الأطفال على السواء .

بيد أن المشكلة التي تواجه معظمنا حين نقرب من مرحلة الأبوة أو الأمومة لأول مرة في حياتنا ، هي أن الكثير من المشاعر الحبيسة تتراكم في نفوسنا أثناء انتظارنا لمولد الطفل — القلق والخيرة والتوقع المفعم بالفرح والبهجة — حتى إن هذه المشاعر تنطلق كالفيض من الجارف للترحيب بمقدم طفلنا الأول . وبعبارة أخرى ، إننا نحس إلى حد ما كما لو كنا على وشك أن نبدأ حياتنا من جديد من خلال طفلنا الأول ، حياتنا بكل ما فيها من عوامل القلق التي نمت فيها أثناء طفولتنا (من جراء شعورنا بنقائصنا وشقاوتنا) ، وبكل ما فيها من آمال ومطامح حققناها في أنفسنا أو لم ننجح في تحقيقها ؛ ذلك أن طفلنا الأول هو ذاتنا ، لذا يتعذر علينا أن نأخذ ببساطة ، مثلما يتعذر علينا أن نأخذ أنفسنا ببساطة ، فلا عجب إذن أن نشعر عند مولده بشيء من التوتر . (هذا الشعور في أسوأ حالاته أشبه بشعورك عند ما تعيد الامتحان للحصول على رخصة قيادة السيارة بعد رسوبك في جزء من هذا الامتحان في المرة الأولى) .

لقد اقتصر هذا الحديث حتى الآن على مناقشة الموضوع من الناحية النظرية دون أن نقدم الكثير من المساعدة العمالية فى هذا المجال . لكننى لا أعتقد أن هناك أية وسيلة سحرية تمكنك من تربية الطفل الأول بنفس الراحة التى قد تحصلين عليها فى حالة الثانى أو الثالث . فالظاهر أن القلق يلزم تعلم الإنسان لأى شىء جديد عليه ، حتى إننا لم نعتد مطلقاً على وسيلة نعلم بها طلبة الطب بغير أن ينتابهم القلق فى مرحلة أو أخرى من مراحل الدراسة ، ولا بد أن نفس الحالة تنطبق على الطلبة الذين يدرسون القانون أو اللاهوت أو الطيران أو صناعة السيارات أو التدريس ، وبقية الطلبة جميعاً . ربما كانت خير وسيلة تريحننا فى تعلم أى شىء جديد ، هى أن نتلقن هذا الشىء فى جرعات صغيرة ابتداء من مرحلة الطفولة ، ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى أن أبناء الفلاحين يقتفون غالباً خطى آبائهم ، أكثر مما يفعل أبناء المشتغلين بالمهن الأخرى . وقياساً على ذلك ، فإن نشأة الطفلة مع عدد من الأطفال الصغار وسط أمرة يحوطها السرور والبهجة ، هى خير وسيلة تتعلم بها رعاية الطفل ، غير أن هذا الوضع لا يتاح للأطفال فى كل الحالات .

على أية حال ، أعتقد أن هناك عدداً من الخطوات العملية تستطيع الأمهات الحديثات العهد أن يضمنها نصب أعينهن ، فيقللان من احتمالات اعتماد الأطفال الصغار عليهن اعتماداً متطرفاً . ومن حسن الحظ أن الأطفال الصغار فى الأشهر الثلاثة الأولى لا يكادون يشعرون : هل أمهاتهم متوترات الأعصاب أو لا ؟ وفى هذه الفترة يكون الأطفال مشغولين تماماً بمشاعرهم الداخلية : الشعور بالجوع أو النعاس أو المفص .

لكنهم — ابتداء من الشهر الثالث — يبدون اهتماماً أكبر بالعالم الخارجى . وعادة ما تكون نوبات المفص قد توقفت تقريباً فى هذه الفترة ، حمداً لله ، فلا تضطر

الأم إلى حمل الطفل طوال فترة المساء . أما إذا كانت قد تكونت عنده عادة توقع حمل أمه له ، فإن من الممكن دائماً أن تكسر الأم هذه العادة بأن تتركه يصرخ فترة وجيزة في ليلتين متواليتين . وقلما يستغرق هذا الصراخ أكثر من عشرين دقيقة في الليلة الأولى ، وخمس دقائق في الثانية . قد يكون هذا التصرف أليماً لنفوس الأمهات ، لكنهن سوف يقتنعن بأنه تصرف سليم لا غبار عليه ، عندما يلمسن كيف أنه يحقق الهدف المنشود على خير وجه . فهذه التجربة الناجحة في الانفصال عن الأم ، تعلم الطفل الصغير أنه ليس بحاجة إلى كل هذا الاعتماد على أمه وأبيه ، كما أنها تحرر الوالدين من رغبتهما الجارفة في فرض حمايتهما عليه أكثر من اللازم .

كما أني أفضل أن يعتاد الطفل تناول الرضعات في مواعيد منتظمة نسبياً ، على الأقل بعد أن يبلغ شهره الثالث . وتستطيع الأم في كل الحالات تقريباً أن تدرب جهازه الهضمي على هذه المواعيد رويداً رويداً ، بأن توقظه من نومه إذا اقتضى الأمر عندما يحين موعد الرضاعة ، وأن تمد الفترة بين الرضعتين إلى أربع ساعات بانتظام ، إذا كان الطفل معتاداً على تعدد الرضعات منذ البداية . وأنا لا أعنى بهذا — على الإطلاق — أن تعدد الرضعات بغير انتظام ، يؤدي دائماً إلى اعتماد الطفل اعتماداً متطرفاً على أمه . فالعامل الهام في هذه الناحية هو حالة الأم النفسية . لذلك فإني أعتقد اعتقاداً جازماً أن الأم التي لا تحس بالأمان والطمأنينة قهرع لإرضاع طفلها كلما تحرك في مكانه ، لا تجعله يعتاد تعدد الرضعات وعدم انتظامها فحسب ، بل إنها تعلمه أيضاً أن يحتاج إليها سريعاً كلما داخله أقل شعور بالضيق وعدم الارتياح . لذا تظل هذه الأم شهوراً عديدة تحيط الطفل بحمايتها أكثر من اللازم . وهذا يفسر لنا السبب في أن بعض الأطفال الصغار يبدأون على الاستيقاظ لتناول رضعتين في أثناء الليل حتى أواخر عامهم الأول ، وهو أمر لا داعي له من

الناحية الغذائية بطبيعة الحال . أما عندما تعتاد الأم والطفل اتباع مواعيد ثابتة للرضاعة بعد الشهر الثانى أو الثالث ، فإن هذا يخلق فى كل منهما شعوراً بالاطمئنان إلى اعتماده على الآخر ، كما ينمى فى كل منهما نوعاً من الاستقلال عن الآخر .

وفى اعتقادى أن النصف الثانى من العام الأول هو الفترة الحرجة التى تنمو فيها نزعة الطفل إما إلى الاستقلال عن أمه وإما إلى الاعتماد عليها ؛ ذلك لأنه فى هذه السن يستطيع الجلوس ، ثم لا يلبث بعد قليل أن يتمكن من الحبو والوقوف على قدميه . ويتجه ميله الطبيعى فى هذه الفترة لأن يمسك بمختلف الأشياء : الشخصيات وعقود الخرز وأدوات المطبخ واللعب والمجلات . كما تزداد ساعات صحوه فتصبح ساعات عديدة فى النهار ، يقضى معظمها سعيداً فى استكشاف الأشياء هنا وهناك ، أو فى إخراج لعبه من خلال الفتحات ثم استعادتها مرة أخرى ، إذا كان داخل حظيرة اللعب . وهو يحب أيضاً أن ينقل الأشياء من إحدى يديه إلى الأخرى ويتذوقها فى فمه أو يعمل أسنانه فيها . كما أنه فى هذه السن يجد شيئاً من المتعة فى مصاحبة أمه ، فيميل لأن يحبو من آن لأن نحو الحجرة التى توجد فيها ، كما لو كان يستمد من أمه شحنة جديدة من الشعور بالأمن والطمأنينة . ومن المألوف أن تشكو الأم من طفليها الأول عندما يناهز سنة ، لأنه يدأب على البكاء كلما خرجت من الحجرة ، وهذا يبين لنا كيف أنه من السهل أن يلتقط الطفل الصغير من أمه شيئاً من قلقها الشديد عليه ، يتمشى مع شىء من اعتماده المتطرف عليها .

كما أن بعض الأطفال الذين اعتادوا من ذى قبل أن يناموا نوماً عميقاً طوال الليل ، يبدؤون فى إظهار ميل إلى اليقظة فى حوالى منتصف السنة الأولى . قد يبدأ هذا الاتجاه عند الطفل من جراء نزلة برد شديدة أو التهاب فى الأذن ، يزعج

والوالدين ويجعاهما يسارعان إلى حمله في ليالٍ متتالية ، كلما نشج بالبكاء أو تحرك في مكانه . وأحياناً يكون مجرد التسنين هو السبب في بقطة الطفل . على أن الطفل إذا أدرك أنه يستطيع عن طريق البكاء أن يحمل أمه على رفعه من مهده وإعطائه « البرازة » وقضاء بعض الوقت بصحبته ، وإذا تبين له أنه يستطيع عن طريق الإكثار من مطالبه أن يستبد بوالديه فيدفعهما إلى إطالة الفترة التي تستغرقها « حفلة منتصف الليل » ، فقد ينتهى به الأمر إلى إيقاظ والديه لمدة ساعة ونصف ساعة مرتين أو ثلاث مرات كل ليلة ، مما يرهق الجميع إرهاقاً شديداً . إن تسلسل التطورات في هذا الموقف هو : أن تعب الطفل أو مرضه يثير قلق الوالدين . وقلق الوالدين الذى يبدو في مسارعتهما إلى حجرتة لحمله من مهده ، يدفع الطفل إلى الاعتقاد بأنه حقاً فى ميسس الحاجة لأن ينقذه والداه من البقاء وحيداً فى المهد . كما أن خضوع الوالدين لرغبته يغذى فيه الميل إلى المغالاة فى مطالبه ، وإن يطول الوقت بالوالدين حتى يحسا بالاستياء والغضب من الحياة الشاقة التى يسببها لهما الطفل ، غير أنهما لا يدركان بالضبط ما هو الشيء الذى يلومانه عليه ، فيحسان بالجل لشعورهما بالغضب ، ويزدادان خضوعاً واستسلاماً له .

إن استيقاظ الطفل أثناء الليل ، يمكن علاجه فى ليلتين لا أكثر ، إذا اقتنع الوالدان بأنه ليس فى صالح الطفل ، وليس فى صالحهما على حد سواء . عليهما أن يتوقفا عن الذهاب إليه فى حجرتة ، ولو مرة واحدة . وبذلك يدرك الطفل ، بعد بضع دقائق من الصراخ العالى ، أنه لن يجنى شيئاً من الصراخ ، فيستغرق فى النوم . كما أن عدم مجيء الوالدين إلى الحجرة ، سوف يطمئنه إلى أنهما لا بد يعتقدان أنه ليس ثمة ما يدعو للخوف عليه بأى حال من الأحوال .

أما نزع الطفل إلى الاعتماد على أمه فى أثناء النهار ، فإنها قد تطفى على الأم

التي تجد متعة جارية في اللعب مع طفلها باستمرار ، أو التي تعوزها الثقة بنفسها بحيث تعجز عن رفض مطالبه . ومن الجائز أن تتحول أم من النوع الأول إلى أم من النوع الثاني في خلال بضعة أسابيع أو أشهر . فما إن يستيقظ الطفل من نومه بعد الظهر حتى تشترك معه الأم في ألعاب شتى ؛ مثل الركوب على ظهرها ، أو « الاستغاية » ، أو التصفيق باليدين المصحوب بالغناء ، أو الرقص على أنغام الموسيقى ، أو مجرد حمله بين ذراعيها هنا وهناك ، ويدور بينهما حديث شبه متصل في تلك الأثناء. لذلك يحتمل ، بعد انقضاء بضعة أسابيع في هذا اللعب ، أن يفقد الطفل معظم قدرته على تسليته نفسه بنفسه. وعندما تحاول أمه — وقد نال منها التعب — أن تنزله على الأرض ، فإنه ينشج بالبكاء على الفور ويمد إليها ذراعيه . فإذا عجزت الأم عن مقاومة توسلاته ، فإنها تبدو في هذه الحالة كما لو كانت تقول له : « إنك على حق ، فأنت تحس بالوحشة ، وربما يحيق بك الخطر ، عندما تكون في أى مكان آخر غير ذراعى أمك » . كما أنى أعتقد أن الشعور بالاستياء الذي يتراكم في نفس الأم — من جراء اضطرارها لأن تكون أمًا للطفل — قد يسرى منها إلى الطفل ، فيبعث فيه شعوراً بالضيق والقلق ، غير أن هذا الشعور يستفزه فيدفعه لأن يعود فيستبد بأمه ثانية .

من البديهي أن كل أم ترغب في أن تلعب أحياناً مع طفلها وأن تتحدث إليه أثناء أدائها لأعمالها المنزلية . على أنه من الأجدى بوجه عام لو أنها وفرت معظم هذا اللعب بعضهما مع بعض حتى نهاية فترة صحو الطفل . أما إذا لاعتبه في أوقات أخرى ، فإن من الضروري أن تكون واثقة بنفسها بحيث تستطيع أن تعود إلى عملها أو إلى قراءة كتابها دون أن تعتذر له . وإذا شرع في الصراخ والبكاء ، فما عليها إلا أن تذكر نفسها بأنه ليس ثمة ما يدعوها إلى الشعور بالقلق أو الإحساس بالذنب ، ثم تصرفه عنها وهي منبسطة الأسارير .

وعندما يصبح الطفل الصغير شديد الاعتماد على أمه ، فإن عملية تحرير الاثنين أحدهما من الآخر قد تكون ألوية للغاية وطويلة المدى ، ومع ذلك لامناس منها . وقد تحتاج الأم إلى بعض المساعدة من الطبيب النفساني أو من إحدى المؤسسات الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة . كما أن عليها أن تقوى أعصابها حتى يمكنها أن تتجاهل عويل الطفل حينما تصر على الاستمرار على أداء عملها . ومن الوسائل العملية المجدية في هذا المجال ، أن تجالس الأم طفلها على الأرض عندما يتوافر لديها فعلا بعض الوقت للعب معه . فإذا حدث أن اعتراه الملل من الوقوف في حجرها ، فإن في إمكانه في هذه الحالة أن يحبو مبتعداً عنها . أما إذا رفعته من على الأرض ، فسوف يثير لها المتاعب عندما تنزله على الأرض ثانية .

كما أن الطفل في سنته الثانية يكون أقرب إلى مفترق الطرق بين الاستقلال عن الأم والاعتماد عليها . فهو في هذه السن يستطيع أن يمشي على قدميه ، ويصبح لديه حافز قوي لأن يستكشف الأشياء من حوله في مجالات يتسع نطاقها يوماً بعد يوم . كما يزداد اهتمامه بالأشخاص والأطفال الآخرين كشخصيات منفصلة عنه لها كيانها الخاص ، فيرغب في الاقتراب منهم والتصادق معهم بأسلوب ساذج بسيط (يمد إليهم الأشياء ثم يسحبها ، أو يكس أشياء لا حصر لها في حجورهم) ، على أنه من ناحية أخرى يزداد شعوره بالاعتماد على أمه من أجل سلامته ، فيهرع إليها عندما يصيبه أذى أو يفتابه شعور بالخوف . أما بالنسبة للغرباء ، فلا بد أن يستغرق بعض الوقت في قياسهم بعينه للحكم عليهم قبل أن يقترب منهم . فإذا تسرعوا وضغطوا عليه قبل الأوان ، فإن هذا السلوك يدفعه للعودة إلى أمه كي يتعلق بطرف رداثها .

وما من شك أن من العوامل الهامة في نمو نزعة الطفل إلى الاستقلال ، ألا يشترك مع أمه في بعض مشكلات التغذية ، أو بعض مشكلات النظام ؛

أو يشتبك معها فى صراع حول تدريبه على قضاء الحاجة فى « التواليت » ؛ ذلك أن الاصطدامات الجدية العنيفة فى هذه المجالات تربط الأم والطفل أحدهما بالآخر برباط وثيق معقد ، فيه شىء من العدا ، و شىء من الشعور بالقلق ، و شىء من الإحساس بالذنب . فهما لا يستطيعان أن يسيرا معاً فى وئام ، ومع ذلك لا يستطيع أحدهما أن ينسى الآخر أو يتركه فى حاله .

أما إذا كانت المشكلة أبسط من ذلك فإن هناك وسيلتين تستطيع الأم أن تضعهما نصب عينيهما ، لا سيما إذا لمست فى نفسها ميلاً إلى المغالاة فى فرض حمايتها على الطفل : أولاهما أن تقاوم الحافز الذى يدفعها إلى القفز من مكانها لنجدة الطفل كلما ورط نفسه فى حركات تنطوى على شىء من الخطر الهين ، كالتسلق فوق المقاعد أو الزحف إلى داخل الدواليب . فلو أن الطفل ترك لنفسه ، لاستطاع فى العادة أن يحل هذه المشكلات . أما إذا هرعت الأم لنجدة فى جزع وقلق ، فإن هذا المسلك منها يحمله على الاعتقاد بأن هناك أخطاراً تحيط به من كل جانب ، وأنه فى حاجة إلى انتباه أمه المستمر للبقاء على قيد الحياة .

أما الوسيلة الثانية فهي أن تصحبه أمه — إن أمكن ذلك — إلى حيث يلعب مع غيره من الأطفال الصغار . فهذه الوسيلة يمكنه أن يعرف أن هناك أنواعاً عديدة من الناس فى الجنس البشرى ، وأن الأطفال رغم أنهم يثيرون الكثير من الصخب ويتسمون بالخشونة ويميلون غالباً إلى الإيذاء على عكس الكبار ، فإن صحتهم مسلية وممتعة للغاية . على أن الأم التى تميل إلى فرض حمايتها على طفلها ، قد تجد أنها فى هذا الموقف أيضاً ، تراقب الطفل باستمرار وتقفز من مكانها لحمايته ، إذا بدا لها أن طفلاً آخر يتهدهده بالخطر . من البديهي أنها ينبغي أن تتدخل فى الأمر ، إذا تهدد الطفل خطر حقيقى أو إذا أضره به طفل . مشاغب عدوانى إرهاباً متزايداً ، بل إنها قد تضطر فى هذه الحال لأن تختار

ملعباً آخر تصحب الطفل إليه . لكن ينبغي لها أولاً أن تعطيه فرصة معقولة لأن يتعلم كيف يدافع عن نفسه في المشاجرات البسيطة . وسوف ترى الأم أن هذا هو الأسلوب الذي تتبعه غيرها من الأمهات مع أطفالهن ، كما أنها هي نفسها سوف تتقباه بطريقة طبيعية عندما تنجب طفلها الثاني .

لكني أعتقد أن الغالبية العظمى منا ستظل دائماً تميل لأن تجعل الطفل الأول معتمداً عليها بعض الشيء ، لأن هذه هي طبيعة تكويننا . ومع ذلك فإننا قد نستطيع أن نضغط هذه النزعة فينا إلى الحد الأدنى ، إذا أدركنا بعض العثرات الشائعة .

المولود الجديد والطفل المعزول

« من الممكن أن تكون الغيرة تجربة بناءة »

أعتقد أن غالبية الأمهات كن في الماضي يعتبرن شعور الطفل الصغير بالغيرة من المولود الجديد خطيئة ، بل إن بعضهن ما زلن ينظرن إلى الغيرة هذه النظرة . فعند ما كنت أسأل بعض الأمهات كيف يتقبل طفل الثانية مقدم الوليد الجديد ، كم كان يذهلني أن الأم غالباً ما تقول في نبرات احتجاج : « آه يا دكتور ! إنه مولع بها ، فهو يرغب دائماً في أن يربتها ويحتضنها ، لكنه في بعض الأحيان لا يدرك مدى عنفه حين يفعل ذلك معها ، فيدفعها إلى البكاء » . وكان ذلك يشعرني كما لو كنت رجلاً شريراً التفكير ، لأنني أعتقد دائماً أن هذا السلوك من الطفل يحمل في طياته شيئاً من الغيرة ، على حين أن كل هؤلاء الأمهات يصرون على تسميته حباً خالصاً ألفاً في المائة . بل إنني عند ما سألت أمي منذ عدة سنوات قلت : كيف كنا أنا وإخوتي وأخواتي كل بدوره يتقبل مولد الطفل الذي يليه ، فإذا بها تنبئني للدفاع عنا قائلة : « الحمد لله أن أحداً من أطفالي لم تبد عليه الغيرة » . غير أنه من العسير عليّ أن أصدق هذا الرأي الآن .

ذلك أني عند ما ذكرت كلمة « خطيئة » لم أكن أمزح في الواقع ، وإنما كنت أعني بها أن غالبية الأمهات كن يشعرن بأن غيرة الطفل من المولود الجديد خطأ فادح ، حتى إنهن لم يستطعن الاعتراف بهذه الغيرة — حتى لأنفسهن — فكان لزاماً عليهن أن يسميها تعلقاً عاطفياً حاراً أو طيشاً من جانب الأطفال .

من البديهي أن الأطباء والمربين الذين يشيرون إلى تفشي الغيرة ، لا يهدفون من ذلك إلى ذم الأطفال . فنحن نعرف جيداً مدى الضرر البالغ الذي نلحقه

الغيرة ببعض الأطفال ، ونريد أن تدرك الأمهات أن هذه الغيرة شعور طبيعي. وشائع ، حتى يتسنى لهن مساعدة أطفالهن في التغلب عليها .

لقد كان من أصعب المهام في الماضي ، حين كان عدد كبير من الآباء والأمهات يحاولون إنكار وجود الغيرة في أطفالهم ، أن نجعلهم يدركون مدى الشعور المدمر الذي يمكن أن تسببه الغيرة للطفل الأول إن كان صغيراً جداً في السن ، لأن مثل هذا الطفل لا يستطيع أن يستغرق في قراءة الكتب ، أو أن يمضي بعيداً عن البيت بحثاً عن النسيان ، ولا يملك عملاً يمكنه أن يتحول إليه كي يسرى عن نفسه . وليست له مجموعة منتقاة « شلة » من الأصدقاء المخلصين . يستطيع أن يستمد منهم السلوى ؛ ذلك أن كل حياته تنحصر في بيته ، وكل شعوره بالأمن والطمأنينة يستمد من والديه اللذين يشعر أنهما قد انصرفا عنه بعد مقدم المولود الجديد .

إن أحسن تشخيص لحالته الأليمة سمعته في حياتي ، قدمته طبيبة نفسانية كانت تاتي محاضرة في جمعية « دراسات الطفولة » بمدينة نيويورك . قالت الطبيبة للأمهات المجتمعات : « تصوري ما يمكن أن تحسبه لو أن زوجك عاد من عمله إلى البيت بعد ظهر أحد الأيام ، يقتاد في يده امرأة فاجرة متبهجة وقال لك : « لقد قر رأي على أنه ما دام من الممتع أن يكون للمرء زوجة ، فمن الأفضل بلا شك أن تكون له زوجتان . إني أحب هذه الفتاة « مارلين » وأعلم أنك أيضاً سوف تحبينها » . من المحال طبعاً أن يتبادر لأذهاننا أن الزوجة يمكن أن تسعد مع هذه الغريبة ، لجرد أن زوجها يتوقع منها ذلك . ومع ذلك فهذا هو بالضبط ما نتوقعه من الطفل الصغير الغض إزاء المولود الجديد .

وأنا أعتقد من خلال تجربتي أن معظم الأطفال الصغار يظهرون مزيجاً من مشاعر الحب والغيظ نحو المولود الذي يعزلهم من مركز الطفل الأصغر في الأسرة .

وحتى إذا لم يبد عليهم الغيظ والحنق في الظاهر ، فإن من الحكمة في رأي أي أن نفترض أنهم يحسون على الأقل ببعض وخزات الغيظ في أعماقهم الفينة بعد الفينة . على أن نسبة السرور أو النور تتفاوت تفاوتاً جسيماً من طفل إلى آخر ، فهي تتوقف على طبيعة الطفل ومركزه في الأسرة ، فنحن نجد بوجه عام أن الطفل الذي تظهر عليه أشد حالات التوتر ، هو الطفل الأول الذي ظل طوال حياته يفترض أن والديه ملاك له وحده ، غير أن هذا لا ينطبق بطبيعة الحال على كثير من الحالات الفردية . على حين أن الطفل الذي مارس كثيراً من الخبرات مع الأطفال الآخرين ، والطفل الذي يتمتع باستقلال نسبي عن أمه ، قد يكونان أقل كدراً من غيرهما إزاء المولود الجديد . أما بالنسبة للطفل الذي بلغ الرابعة أو الخامسة من عمره ، فإن هناك احتمالاً بسيطاً أن تظهر عليه أعراض اختلال جسيم في السلوك ؛ ذلك لأنه يحس أنه أكبر كثيراً من المولود ، وأقل اعتماداً على رعاية والديه .

إن على الأمهات - بطبيعة الحال - أن يواجهن حقيقة الغيرة من المولود ، حتى في الأيام الأولى حين تتخذ هذه الغيرة مظهرًا منطقيًا لا يعوقه عائق : كأن يعمد الطفل إلى الهجوم المباشر على المولود بجسم ثقيل ، أو يدفعه دفعاً عامداً ، أو يقرصه في غل وحقد . ولكني أظن أن الأمهات يمكنهن في العادة أن يتقبن الغيرة التي يعبر عنها الطفل في شكل كلام مهذب . والمثال التقليدي الذي نسوقه في هذا المجال ، هو تلك العبارة التي تصدر عادة عن الطفل بعد يومين من مجيء المولود إلى البيت ، إذ يقول لأمه : « والآن يمكنك أن تعيديه إلى المستشفى » . كما أن بعض الأمهات يعتقدن أنه ما دام الطفل لا يعي مدى حدة مشاعره نحو المولود ، فإن في وسعه أن يتقبن غيرته بابتسامة على وجوههن .

في حالة كثير من الأطفال الصغار نجد أن رد الفعل لشعورهم بأنهم عزلوا من مركزهم في الأسرة ، لا يتخذ مظهر العداء للمولود بقدر ما يتخذ المظهر الذي يسميه الأطباء النفسانيون « النكوص » . وهذا يعني ارتداد الطفل إلى مرحلة أكثر طفولة من مراحل النمو ، في محاولة جاهدة للحصول على الراحة والشعور بالأمن هناك . ومن الأمثلة الشائعة في هذا المجال ، رغبة الطفل في العودة إلى تناول البرازة ، والتبول على نفسه بالليل أو بالنهار ، أو حتى التبرز على نفسه ، والارتداد إلى طريقة الأطفال الصغار في الكلام ، والرغبة في أن تعود أمه فتطعمه بنفسها . على أننا نجد من ناحية معينة أن رد الفعل عن طريق النكوص ضار بالطفل ، أكثر مما لو انتابه الشعور بالغضب ، وعرف على وجه التحديد من الذي يثير فيه هذا الغضب ، وحاول أن يسوى حسابه معه . فهو في الحالة الأخيرة يرفض أن يستسلم للمولود الجديد ، ويقوم بعمل إيجابي للدفاع عن حقوقه . على حين أنه في حالة النكوص يكون قد فقد شيئاً من توازنه تحت وطأة الصدمة ، فأصبح في حالة تراجع إلى الوراء . والواقع أن الأعراض العادية للنكوص شائعة بين الأطفال ، تكون عادة أعراضاً مؤقتة ليست لها صفة الدوام ، بحيث ندرك أنها لا تدل على حالة خطيرة في مثل هذه الظروف . ولكنها عند ما تكون أعراضاً حادة ودائمة ، يتصرف الطفل كما لو كان رضيعاً تلوح عليه أمارات الكآبة طوال اليوم ، فإن هذا هو الوقت الملائم لأن نسارع إلى نجدة ، بمساعدة الطبيب النفساني إذا تطلب الأمر .

والآن بعد أكثر من عشرين عاماً ظل خلالها الأطباء والمربون يلفتون الأنظار إلى مشكلة الغيرة ، انتهت غالبية الآباء والأمهات إلى الاعتقاد بأنها ظاهرة طبيعية ، فعملوا بإخلاص على مساعدة أطفالهم في التغلب عليها والرضا بالأمر الواقع ، مدركين أن هذا هو أقصى ما يمكن أن يتوقعوه منهم . فلم تعد في

هذه الأيام سوى نسبة ضئيلة من الأمهات هي التي تحاول إنكار وجود الغيرة . على أن طاقة قليلة من الأمهات الأخريات يورطن أنفسهن في متاعب لا داعي لها في اعتقادي ، بأن يربين في أنفسهن شعوراً متطرفاً بالخوف من الغيرة . وقد يحملن هذا الخوف على المغالاة في الاهتمام بالطفل المعزول، والسماح له بامتيازات غير معقولة ، والتغاضي عن كثرة إلحاحه في مطالبه أوحى عن سلوكه الوقح . فإذا ضبط الطفل أبويه وما يستمتعان بصحبة المولود ، فإنهما في هذه الحالة قد يحفلان مذعورين وقد لاحظت عليهما أمارات الشعور بالذنب وكأنهما مجرمان ضبطا في حالة تلبس . وهو أسلوب خاطيء ، فما من طفل يمكن أن يظل متمتعاً بالسعادة أو الشعور بالأمن إذا لمس الخضوع والاستسلام في أبويه . كما أنهما حين يتصرفان معه كما لو كانا قد أساءا إليه ، فإن ذلك المسلك يحمله على الاعتقاد بأنهما لا بد قد فعلا ذلك ، مما يزيد من شعوره بالغيرة . وفي اعتقادي أن الخوف المتطرف من الغيرة أساسه فرضان خاطئان : أن الغيرة شعور حاد في العادة ، وأنها شر خالص . وربما كان تركيزنا الشديد ، أنا وغيري من الكتاب ، على هذه الناحية — بإصرارنا على أنها سائدة بين الأطفال جميعاً وأنه ينبغي معالجتها — هو السبب في ذلك الخوف منها الذي تولد في نفوس بعض الآباء والأمهات ، لاسيما أولئك الذين يتسمون بالحساسية الفائقة والضمير الحى ، فضلاً عن أولئك الذين عانوا أشد العناء من الشعور بالغيرة في مرحلة طفولتهم .



على أية حال ، أود أن أشير إلى بعض الآثار البناءة التي يمكن أن يحدثها مولد الرضيع في الطفل ، وهو عادة ما يحدث هذه الآثار بالفعل ، ذلك أن مقدم المولود الجديد يمكن أن يدفع عملية نضج الطفل ويسرع بها ويدعمها . وهناك مثال واضح في غاية البساطة يدل على ذلك — أعترف أنه لا يحدث

كثيراً — وهو أن الطفل الذى ناهز الثانية قد يفاجئ أمه عند مقدم المولود الجديد بأن يتقبل على حين فجأة التدريب على استخدام المرحاض « التواليت » أو يكف عن التبول على نفسه بالليل ، أو يتخلّى عن البزازة . ومرد ذلك أن البون الشاسع بينه وبين المولود — من ناحية الحجم والقدرات والسلوك — يبدو أنه يجعله يدرك فجأة مدى ما أحرزه من نمو ، ويضفى عليه فخراً بهذا النمو ، ويحفزه إلى مزيد من التقدم فى هذه السبيل . ومثل هذه الحالات ، على ندرتها ، ينبغى أن تذكرنا بأنه حتى الطفل الذى يقاوم أثر المولود الجديد بالطريقة الطفولية المعتادة ، فيرتد إلى تناول البزازة أو إلى التبول فى الفراش ، حتى هذا الطفل لا بد وأنه قد أصبح يدرك إدراكاً جيداً مدى بعد المسافة التى تفصل بينه وبين مرحلة الرضاعة . وبعبارة أخرى ، إن الطفل وحيد أبويه يحس معظم الوقت بأنه ثابت فى موقف واحد لا يتغير ، وهو يسمع من الآخرين أنه سيكبر يوماً ما ، لكنه لا يستطيع أن يلمس تغيراً كبيراً فى حالته من يوم إلى يوم أو من شهر إلى شهر . غير أن مقدم المولود الجديد يلقى ضوءاً جديداً ساطعاً على حياة هذا الطفل ، فيدرك فجأة أن هناك طريقاً طويلاً يمتد من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة البلوغ ، وأنه قد قطع مسافة تدعو إلى الدهشة من هذا الطريق الطويل . حقيقة أن رغبته المؤقتة فى الشعور بالأمن تخلق فيه نزعة قوية لأن يندفع عائداً أدراجه طول هذا الطريق ، لكنه فى نفس الوقت يزداد شعوراً بأنه يجب أن يتجه إلى الأمام فى نفس الطريق .

واعتقد أن الأم يمكنها أن تنمى فى الطفل الشعور بالزهو والتحدى ، بأن تلقت نظره أحياناً — فى نبرات مشفقة رقيقة — إلى أن المولود لا يمكنه الجلوس والمشي والجري والكلام والفهم ، ولا يمكنه استخدام المعلقة والقدح والمرحاض « التواليت » . ولا يستطيع الخروج من البيت واللعب بلعب الأطفال ،

المولود الجديد والطفل المعزول

١٢٣

وما إلى ذلك ، وأن كل ما يستطيع أن يفعله هذا المولود هو أن يمتص اللبن الدافئ ويطلق صوته بالصراخ . كما أن الأم يمكنها في بعض اللحظات الأخرى أن تتحين الفرص كي الملائمة تزجى المديح للطفل على أعماله ومهاراته الجديدة ، وتطلب منه في أسلوب ناضج مهذب أن يساعدها بين الفينة والأخرى ، ثم تبدى تقديرها لمساعداته القيمة بنفس الأسلوب الناضج ، وتمنحه بعض الامتيازات الجديدة — مهما تكن تافهة — نتيجة لازدياد قدرته على أداء بعض الأعمال وزيادة اعتمادها عليه ، وتذكره بأن هناك مهارات وامتيازات أخرى في طريقها إليه . إن هذا البرنامج المزوج ملائم تماماً للطفل ، إذا نفذته الأم في صدق ولباقة . فالهدف منه هو أن يساعد الطفل على الاحتفاظ بتوازنه ، وأن يساعده أيضاً على تذوق متعة الشعور بالنضج ، في وقت يحتمل أن تؤدي به عوامل التوتر إلى نسيان كلتا الناحيتين .

وفي بعض الأحيان يعقد الطفل مقارنات مباشرة بينه وبين المولود ويطلب من والديه الموافقة على أنه أكثر وسامة أو قوة منه . وفي رأي أنه ليس هناك ما يمنع الوالدين من موافقته على ذلك أحياناً ، وتستطيع الأم أن تضيف إلى ذلك قولها بأنها كانت ستعاني أشد العناء في رعاية المولود ، لو أنها لم تحصل منه على كل هذه المساعدة التي يقدمها إليها . لكنني أعتقد اعتقاداً جازماً أن الأم لا ينبغي أن تعقد مقارنات مباشرة بين طفلها ، فتبدى وجهة نظرها الخاصة ، كما لو كانت تقدر أحدها أكثر من الآخر ، أو تكن لأحدهما حباً يفوق حبها للآخر ؛ ذلك لأن التعبير الذي تبديه الأم في مجال المقارنة أو المفاضلة ، يزيد من حدة المنافسة بين الأطفال ، كما أنه يخلق في الطفل شعوراً بأن الأم تلعب « لعبة الأطفال المفضلين » . فحتى لو بداله دائماً بأنها تعتبره طفلها المفضل ، فإن هذا سيؤدي فقط إلى تذكيره بأن من الممكن أن يفقد حظوته لديها ، وأن من الضروري أن يطمئن نفسه دائماً إلى أنه ما زال يحظى بهذه

الخطوة . على حين أن البرنامج الذى أدعو إليه ، يقوم على تذكير الطفل بالعيوب السكامة فى مرحلة الرضاعة من وجهة نظره الخاصة ، فضلاً عن تذكيره بالمباهج والمتع التى تترتب على كونه أكبر سناً من الرضيع من وجهة نظره أيضاً .

ويجدر بي أن أذكر تحذيراً آخر بشأن هذا البرنامج . فلو أن الطفل الذى استبدت به الغيرة من المولود لاح عليه أنه يميل إلى النكوص لمرحلة الرضاعة أكثر من ميله إلى الشعور بالزهو لأنه أكبر سناً من الرضيع ، ولو أن الوالدين بالغوا فى الإصرار على وصف كل شيء يرغب الطفل فى ممارسته بأنه من أعمال الصغار ، وعلى وصف كل شيء لا يرغب فيه بأنه من أعمال الكبار ، فإن هذا الأسلوب سيؤدى فقط إلى زيادة اقتناع الطفل بأن حياة الرضيع هى بالضبط الحياة التى يرغب فيها . وبعبارة أخرى ، لا بد أن تظهر بعض الدلائل التى تشير إلى أن الطفل يستجيب لدعوة النضج ، كي يحقق هذا البرنامج الفائدة المنشودة .

* * *

ثمّة ناحية أخرى تساعد الطفل الصغير على التقدم فى عملية النضج بعد مقدم المولود الجديد ، وهى أن نشجعه على أن يتقمص — إلى حد ما — شعور الوالدين . على أن هذه الناحية وإن كانت تمثل حقيقة مظهراً آخر من مظاهر النضج ، إلا أنها ناحية فى غاية الدقة . فهى لا تنطوى على مجرد شعور الطفل بالزهو لأنه أكبر حجماً ومقدرة من المولود ، فهذا الشعور يلازم كل مرحلة تالية من مراحل الطفولة ، بل إنها تعنى قفزة واسعة إلى الأمام يقطع بها الطفل كل المسافة التى تفصل بينه وبين مرحلة البلوغ . فالأولاد والبنات ، لا سيما بين سن الثالثة والسادسة ، يستهويهم عادة أن يمثلوا دور الآباء والأمهات ، حتى ولو لم يأت مولود للأسرة . وفى اعتقادى أن هذه الرغبة هى أقوى الحوافز عند الأطفال فى هذه

المولود الجديد والطفل المزول

١٢٥

السن ، لذا فهي تحقق الهدف المنشود دون أدنى تشجيع من جانب الوالدين . ولكن إذا أدى مقدم المولود إلى خلق حالة نكوص عند الطفل وإلى إعاقة عملية نموه بعض الوقت ، فإن الأم تستطيع في هذه الحالة أن تعيد إليه توازنه بأن تستثير فيه الخافز الذي يدفعه للقيام بدور الوالدين . فالطفل يميل بطبيعته إلى الهروب من الموقف الأليم الذي يخلقه شعوره بالمنافسة مع المولود ، عن طريق التظاهر بأنه قد تجاوز مرحلة الطفولة تماماً ، ويقنع نفسه بأنه لا ينتمى مطلقاً إلى نفس الفئة التي ينتمى إليها الرضيع ، بذلك ينظر إليه من زاوية جديدة تماماً ، فيتعامل معه كما لو كان والدًا ثالثاً له . وعلى هذا النحو تتحول مشاعر الغيرة التي تعتل في نفسه إلى مشاعر ناضجة تقسم بحب الغير والعمل من أجلهم .

والكثير من الأمهات يعرفن جيداً مختلف الأساليب التي يمكن أن تنتهجها الأم في هذا المجال : كأن تسمى المولود « طفلنا الصغير » وأن تشجع الطفل على أن يؤدي دور المسئول عن إحضار البزازة من الثلاجة أو الكافولة من كومة الكوافيل ، وأن تسمح له بأن يساعدها في تجفيف المولود بعد الحمام ، وأن تطلب إليه ملاحظة المولود عندما تكون مشغولة بالعمل خارج الحجرة ، وأن تكلفه باصطحاب بعض الزوار إلى حجرة المولود كي يريهم محاسنه . والأم اللبقة يتمخض ذهنها كل يوم عن عشرات الوسائل التي يمكن عن طريقها أن تخلق في الطفل شعوراً بأنه يعمل معها جنباً إلى جنب في سبيل هدف مشترك ، حتى ولو كانت المهام التي يؤديها تسبب فعلاً في تعطيلها بدلاً من أن تساعد على أداء عملها . فبعد فترة من الزمن قد يتضح لها أن المساعدة التي يقدمها إليها الطفل ، لها بعض الفائدة بالفعل . كما أن الطفلة الصغيرة قد تجد — بطريقة غير مباشرة — نفس الشعور بالرضا في العناية بدميتها بطريقة تقلدها أمها تقليداً دقيقاً ، في أسلوبها وروحها .

على أن هذا الأسلوب في معالجة الطفل له حدود عديدة غنية عن البيان . فالأم مثلاً لا تجرؤ على السماح للطفل بأداء مهام معينة ، كأن يحمل المولود هنا وهناك في أرجاء البيت . غير أننا نجد من ناحية أخرى أن اللفتة إلى حمل المولود شعور جارف عند الأطفال الصغار ، لذا أعتقد أنه مما يستحق تحمل بعض المشقة إلى جانب شيء من المخاطرة البسيطة ، أن نرتب للطفل والمولود مكاناً يجلسان فيه معاً على أريكة أو على الأرض ، حتى إذا سقط المولود لا يكون سقوطه من مكان عال .

ثمة حد آخر لهذا الأسلوب ، ذلك أن نزعة الطفل إلى القيام بدور الأم وتقمص شعورها ، تقل بشكل واضح بين الأطفال دون سن الثالثة . غير أننا لا نستطيع القول بأن هذه النزعة توجد دائماً بنسبة ضئيلة في سن الثانية والنصف ثم تصبح هذه النسبة متوسطة في سن الثانية وتسعة أشهر ، فهي تتفاوت تفاوتاً كبيراً بين مختلف الأطفال ؛ إذ تتوقف على جنس الطفل وحالته المزاجية ، كما تتوقف أيضاً على مدى سهولة التعامل بينه وبين أمه .

على أن أهم الحدود بلا شك ، هو مدى المتعة التي يجدها الطفل في القيام بدور الأم ؛ إذ ليس هناك ما يدعو لأن تفرض الأم هذا الدور على طفل ينفر منه بطبيعته . إذا لم يحس الطفل بمتعة في الأمومة ، فإن المهام التي تلقى على عاتقه لن تؤدي إلا إلى زيادة نفوره من المولود ، أو على الأقل إلى شعوره بأن هذا المولود يتسبب أساساً في مضايقته وإزعاجه . كما أنه لا ينبغي أن نحث الولد أو البنات على القيام بدور الأم طوال النهار . بل يجب أن نترك له — أو لها — كثيراً من الفرص لأن يكون طفلاً مرحاً مجرداً من المسؤوليات ، يتمتع باللعب مع أصدقائه .

كما أنى أعتقد أن الأم لا ينبغي أن تركز كل اهتمامها على المتعة التي يجدها الطفل فى العناية بالمولود ، لأن الطفل الذى تتملكه الغيرة ، يفضل فى كثير من الأحيان أن يمثل دور الأم التى تميل إلى اللوم والتحكم ، وهذا الطفل الذى يهرب من الشعور بالغيرة لجرد أن يصبح أماً غضوباً مستبدة ، لا يعتبر أنه قد أحرز تقدماً كبيراً فى التغلب على مشكلته ، بل إنه فى المستقبل سوف يصبح غصة فى حلق أصدقائه وإخوته وأخواته الصغار .

* * *

وثمة ناحية أخرى يمكن أن تكون فيها الغيرة تجربة بناءة ؛ فالطفل إذا لم يفحرف مزاجه إلى مرحلة خطيرة من أثر الشعور بالغيرة ، وساعده والدان بحبان يتسمان بالباقعة على تجاوز هذه المرحلة تدريجاً ، فإن من الممكن فى اعتقادى أن تنتهى به هذه التجربة إلى تكوين شخصية أقوى من شخصيته فى الماضى . فهو يظل فترة من الزمن يتوهم أن المولود سيكون حائلاً بينه وبين والديه ، ويخشى ألا يمنحه والده من حبه ما كانا يمنحانه له من قبل ، لذا فإنه قد يحس بالغىظ والحقد على المولود أكثر من شعوره بالحب نحوه . لكنه يقتنع على مر الأسابيع والشهور بأن أبويه يتفانيان فى حبه كمهدما دائماً . وإذا بيعث هذا الاقتناع الطمأنينة فى قلبه ، تزداد قدرته على الاستمتاع بالنواحي الطيبة فى المولود الجديد ، وينمو فى قلبه ولع به يزداد يوماً بعد يوم . على أن الأمر لا يقتصر على مجرد عودته إلى نفس الحالة التى كان عليها قبل أن يسمع بالمولود على الإطلاق . فنادام قد خاض أزمة حقيقية ولم تهزمه هذه الأزمة ، فلا بد وأنها قد صلبت عوده . لذا فمن المؤكد أن تنتهى به هذه التجربة إلى أن يصبح أكثر ثقة فى حب والديه ، وأكثر تسامحاً مع الأطفال الآخرين ، وأكثر اطمئناناً إلى الحياة وإلى قدرته على مواجهتها . إن نفس الشيء يحدث مع الجندى بعد أن يخوض معركة الأولى

بنجاح ، ومع الأم بعد أن تمر بحالة الولادة الأولى في حياتها ، ومع الطفل بعد أن يجتاز إحدى العمليات الجراحية . « فالنصل تشجذه النار » وفي اعتقادي أن هذا هو السبب في أن الطفل الأول غالباً ما يبدي أكبر قدر من الحب وأقل قدر من الغيرة نحو الطفل الثالث بين أطفال الأسرة .

* * *

قد كتبت إلى كثيرات من الأمهات خطابات ينوهن فيها إلى أن النصائح التي غالباً ما يسديها الأطباء — بشأن إعداد الطفل لاستقبال المولود الجديد — لا تنطبق إلا بدرجة محدودة على الأطفال دون سن الثالثة ، وتكاد لا تنطبق مطلقاً على الأطفال دون الثانية . وإنني أوافقهن على هذا الرأي . فهما تحاولي في صبر وأناة أن تشرحي الحدث القادم للطفل ابن السنة ، فإنك تشعرين بأنه لا يعي الكثير مما تقولين له . قد يستطيع ترديد كلماتك ، وقد يستطيع تكوين صورة ذهنية باهتة عن الموقف في أثناء إعداد مهد المولود وجهازه ، وقد يتمتع أن يتصفح كتاباً مصوراً عن المولود الجديد . لكنه بطبيعة الحال لن يكون مستعداً نفسياً للمشاعر التي ستعتمل في نفسه حين يرى أمه تعني فعلاً بالمولود . لذا أعتقد أن الأم لا ينبغي أن تبذل جهداً أكثر من اللازم في هذا السبيل . على أنه مما يستحق الاهتمام أن تجرى التغييرات اللازمة في ترتيب البيت قبل موعد الولادة بشهور كيلا يحس الطفل بأنه قد أقصى من مكانه حين يظهر الغريم . ولكن الأمهات يجب أن يعتمدن في الغالب على لباقتهم وتقديرهن لظروف الطفل بعد مقدم المولود الجديد . فجوهر المسألة هو أن تتجنب الأم التحمس المتطرف للمولود ، والانشغال الدائم بأمره ، وهو أمر من العسير تنفيذه ، لأن هناك شيئاً في طبيعة المولود ، يبدو أنه يثير هذه النزعة الواهية التي عادة ما يبيديها نحوه الوالدان والجدان وأصدقاء الأسرة . على أنه ليس ثمة ما يدعو إلى تجاهل المولود تجاهلاً

تماماً. فالطفل حتى في سن سنة ، في وسعه أن يشعر بشيء من الحب نحوه ، فضلاً عن أن تقمصه لشخصية الأم المحبة الحنون يساعد على تنمية هذا الشعور فيه. كما أنه لا داعي لأن يحاول الوالدان إعطاء الطفل جرعات ضخمة من الاهتمام « المتكلف المقتضب ». فأكثر ما يبعث الطمأنينة في قلبه هو أن يدرك طوال اليوم أن أمه وأباه لا ينسيانه ، بل يتحدثان إليه ويقدمان إليه المساعدة ويشاركانه في اللعب أحياناً ، وينسجمان معه بنفس الطريقة الوائقة المستريحة التي اعتادها منهما .

ما من شك أن من واجب الوالدين أن يمنعا الطفل ابن السنة أو السنتين أو الثلاث من إلحاق الأذى بالمولود كما وجد إلى ذلك سبيلاً . وذلك عن طريق السهر على المولود بعين اليقظة ، ونهى الطفل نهياً حازماً صارماً ، والتدخل السريع لمنع الأذى ، ووضع المولود — إذا استدعى الأمر — في غرفة مغلقة حين يكون مستغرقاً في النوم أو تكون الأم مشغولة بالعمل . ورغم أن الطفل الصغير قد لا يستطيع مقاومة الحافز الذي يدفعه إلى إيذاء المولود ، فإنه يحس إحساساً شديداً بالذنب إن نجح في ذلك . لذا فإنه — شأنه شأن المولود — في حاجة لأن نحمله من مشاعره العدائية .

ثم أقول في النهاية : إن كل ما تعلمناه من عملنا في ميدان إرشاد الأمهات ، يعزز اقتناعنا الراسخ بأن من الأشياء التي تساعد الطفل في هذه الأزمة أن نتيح له فرصة الحديث عن مشاعر الغيرة التي تعتمل في نفسه (وهذا شيء يختلف تماماً عن السماح له بوضع هذه المشاعر موضع التنفيذ) . فحين يحاول الطفل إلحاق الأذى بالمولود ، أو حين تلاحظ أمه أنه يشعر بالغضب أو السكابة ، فإنها تستطيع في هذه الحالة أن تذكره بأنها تعرف أنه يشعر بالغضب من المولود في بعض

الأحيان ، وتعرف أنه يميل أحياناً لأن يبتعد المولود عن البيت ، كي يبقى هو بمفرده مع « بابا وماما » . إن هذا الأسلوب يؤدي عادة إلى تحسن مؤقت في روحه المعنوية ، ثم إلى تحسن دائم بمرور الزمن . كما أنه يجنب الطفل الإحساس بالذنب إحساساً لا يطاق ، ويجعله يحس بأنه لا داعي لأن يخفي شعوره بالعداء في أعماق أعماقه ، حيث يحتمل أن يستقر هذا الشعور مدة أطول ويلحق بشخصيته ضرراً أفدح ، فضلاً عن أن هذا الأسلوب يبين للطفل بطريقة مقنعة للغاية أن أمه ما زالت تفكر فيه وتكن له الحب ، الأمر الذي يساعده على المدى البعيد في التغلب على شعوره باليأس .

مشاجرات الأطفال

«إن السبيل السليم الذى يجب أن تسلكه الأم هو أن تتعامل مع كل واحد من أطفالها على أنه فرد له كيانه المستقل» .

يحمل إلى البريد أسبوعياً خطاباً على أقل تقدير ، بشأن المشاحنات والمعارك التى تدور بين أطفال الأسرة . والأمهات اللاتى يعانين من مشكلة إلى الحد الذى يدفعهن لكتابة الخطابات ، يلوح لى أنهن يعانين شعوراً بالخيبة والإرهاق . لقد كنت أزور أحياناً أسراً لا ينقطع فيها العراك بين الأطفال ، حتى إننى كنت أحس بالتعب والتوتر بعد انقضاء عشرين دقيقة من بدء الزيارة . وكنت أعتقد دائماً أنه عندما تصل الأمور إلى هذه الحالة من الفوضى (ما بين الصيحات وصرخات الاستغاثة بالأم والطرق وأصوات التخطيم والمويل والشكاوى إلى الأم ثم الشكاوى المضادة طوال النهار) ، فإن هذا النمط فى السلوك لا يتغير مطلقاً ، بل يظل ثابتاً فى الأسرة على الدوام . ولكنى أذكر جيداً ما اعتزانى أنا وإحدى الأمهات من ذهول ذات مرة ، حين لمسنا مدى السرعة التى يمكن أن تتغير بها معالم الصورة . فقد استقر رأى هذه الأم هى والأب — وهما يحسان بشيء من الشعور بالذنب — على قضاء إجازة لمدة أسبوعين بعيداً عن البيت ، بغير أن يصطحبها معهما أطفالهما الثلاثة الذين لا يكفون عن العراك ويميلون إلى الفوضى (تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والثامنة) ، ثم تصادف أن وفق والودان فى التعاقد مع مربية لها سمعة ممتازة فى السيطرة على الأطنال أثناء غياب ذويهم . وبعد يومين من غيابهما ، اتصلا بالبيت تليفونياً كي يعرفا هل المربية والأطفال لا يزالون على قيد الحياة أم لا ، فدعايهما صوت فرح مرح ينبئهما أن الجميع على خير ما يرام . كان من العسير عليهما تصديق ذلك ، غير أن النبأ تأيد فى خطاب

أرسلته إليهما الجدة ، التى اعتادت أن تزور البيت مفاجأة كل يوم كى تتفقد حال الأطفال . لقد كان الجميع يستمتعون بوقت طيب للغاية ، حتى إن الوالدين قررا مد إجازتهما أسبوعاً آخر . وعند ما عادا إلى البيت ، شملهما الدهول مرة أخرى ، فقد وجدا الأطفال فى غاية المرح والانشراح ، يتعاملون فى ود بعضهم مع بعض ، يتعاونون مع المربية ، ويعاملونها فى أدب جم . حتى لقد قالت الأم إن منظرهم وهم قابعون معاً على الأريكة يصفون إلى قصة تقرأها لهم المربية ، ذكرها بالعبارة القائلة : « إن الأسد سوف يرقد جنباً إلى جنب مع الحمل » .

هناك عوامل عديدة تخلق الرغبة فى العراك عند الأطفال ، وهى تتفاوت كما وكيفا باختلاف الأسر . ولنبدأ بعرض نوعين من الأنواع الشاذة الخطيرة . هناك الطفل الذى تتأصل النزعة العدوانية فى نفسه ، فلا يضطهد إخوته وأخواته فحسب ، بل يضطهد أيضاً أى طفل فى الحى ، إذا وجد أن فى استطاعته أن يفعل ذلك دون عقاب . وعادة ينشأ التوتر شديد بين هذا الطفل وبين والديه ، يرجع إلى مرحلة طفولته المبكرة . هذا النوع من الأطفال يحتاج فى العادة إلى مساعدة إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية ، لتقويم سلوكه . هناك نوع آخر يعانى أيضاً من حالة مزمنة متأصلة ؛ ذلك هو الطفل الذى يدفعه شعوره بالسداء إلى البحث عن المتاعب ، غير أنه بطبيعة تكوينه يعمل على استفزاز الأطفال الآخرين فيدفعهم إلى اضطهاده ، ودائماً ما ينتهى به الأمر إلى الظهور بمظهر الضحية الجنى عليها . مثل هذا الطفل يحتاج إلى مساعدة المتخصصين أكثر من الطفل العدوانى الذى يضطهد غيره من الأطفال ، لأن احتمال أن يتحسن هذا الأسلوب التعس فى السلوك تلقائياً كلما تقدم الطفل فى السن ، أقل منه فى حالة الطفل الآخر .

ومن العوامل البالغة الأهمية فى هذا المجال ، مدى مثابرة الأمهات على إبداء

مشاجرات الأطفال

١٣٣

رغبتهم في أن يسود الهدوء أرجاء البيت . قد يقبدر إلى ذهرك أن جميع الأمهات
يرغبن في الهدوء . فكل الأمهات يعتقدن بطبيعة الحال أنهن يرغبن في ذلك ،
غير أن بعضهن لا يفعل شيئاً سوى التظاهر بإصدار الأوامر إلى أطفالهن بالتوقف
عن الشجار والعراك . ولكن نبرات أصواتهن لا تحمل طابع الإقناع أو السلطة ،
كما أنهن لا يتابعن تنفيذ الأوامر إلى النهاية ، ومن ثم لا يصلن مع الأطفال
إلى أية نتائج فعالة . فما يتوهم أنه أوامر يصدرنها إلى أطفالهن ماهو إلا شكوى
من مشاجرات الأطفال . والواقع أن مثل هؤلاء الأمهات يتوقعن نشوب العراك
بين أطفالهن ، كما أنهن على ما يبدو يحصلن ، لا شعورياً ، على شعور شاذ بالرضا
والارتياح من هذا العراك . بل إنهن يكدن يتفاخرن بهذا الشغب والضوضاء
في حديثهن إلى الجارات — أحياناً في حضور الأطفال أنفسهن — أو يتسمن
في فتور ، ويهززن أكتافهن بغير اكتراث . هذه الحالة عند بعض الأمهات
تمثل نوعاً من الاستسلام الفاضل للشعور بالكدر ، تحمله الأم عادة في أعماقها
منذ أيام طفولتها التي كانت كذلك مليئة بالصخب والضجيج . فالآباء والأمهات
الذين لا يحبون العراك بالفعل ، يمكنهم في القليل أن يعملوا على أن تقلل المشاجرات
بين الأطفال دون مستوى الضجيج الهادر ، حتى ولو استمر الأطفال في تبادل
النظرات الحاققة وفي الزججة بأصوات خافتة . إننا جميعاً بطبيعة الحال نمر بأيام
يفلت فيها الزمام منا ، فنتخلى عن بعض سيطرتنا على أطفالنا ، ونترك العواصف
تهدر في عنف . أما الآباء والأمهات الذين لا يتمكنون مطلقاً من الإمساك
بزمام الأمور ، فإنهم بلا شك في حاجة إلى مساعدة المتخصصين ، ويمكنهم
الإفادة منها في تربية أطفالهم .

ونمة عامل آخر منفصل بعض الشيء عن موضوع سيطرة الوالدين على
الأطفال ، ألا وهو شعور الوالدين بالتوتر . وفي اعتقادى أن معظمنا قد أحس
في مناسبة أو أخرى أنه عندما يكون مزاجنا معتدلاً (لأن الأمور تسير على

ما برام في المكتب ، والحياة الاجتماعية تبعث على الرضا ، ولا توجد عوامل شاذة تدعو إلى القلق على الأطفال أو الصحة أو المال) ، فإن نسبة العداء بين الأطفال تقل بشكل ملحوظ ، على حين أن العوامل التي تخلق عندنا استعداداً للغيظ والتوتر ، قد تؤدي إلى زيادة المشاجرات بين الأطفال . وبعبارة بسيطة : إذا أحس الطفل أن إنساناً ما يضطهده ، لكنه لا يستطيع الانتقام منه مباشرة ، فإنه يشعر بحافز لا يقاوم ، يدفعه لأن يضطهد بدوره إنساناً آخر يكون صغير الحجم بحيث يمكنه أن يسيطر عليه ، (شأنه في ذلك شأن جميع المخلوقات البشرية) .

* * *

لكني أعتقد أن عامل الغيرة هو أقوى العوامل التي تؤدي إلى للمشاجرات العادية بين الأطفال ؛ ذلك أن أقوى العلاقات في مرحلة الطفولة هي بطبيعة الحال العلاقة بين الطفل وأبويه . فالطفل يريد إلى حد ما أن يكون حب والديه خالصاً له وحده ، ويحاف أن ينتقص الحب الذي يمنحانه لإخوته وأخواته من حبهما له . وهذا الخوف يجعله يشعر بالشك فيهم والحنق عليهم . غير أن درجة هذا الشعور تتفاوت تفاوتاً جسيماً بين مختلف الأطفال ، فهي تتوقف على ظروف الطفل والأشياء التي اعتادها في حياته . فالطفل الأكبر الذي ظل وحيد أبويه لمدة سنتين وظل يفترض كقضية مسلم بها أن كلا أبويه ينتميان إليه وحده لا شريك له ؛ مثل هذا الطفل يحتمل أن يتكدر لمقدم المولود الجديد ، أكثر كثيراً من الطفل التالي الذي اعتاد منذ بداية حياته أن يشاركه غيره في حب والديه . إن حالات مختلفة شبيهة جداً بهذه الحالة ، كثيراً ما تنشأ في دوائر العمل عندما ينضم شخص جديد إلى هيئة الموظفين ، أو قد تنشأ في مجالات الصداقة أيضاً .

بيد أننا يجب أن ندرك أن عنصر الغيرة والتملك في الحب ليس مجرد عيب يؤسف له في شخصية الإنسان ، بل إنه جزء لا يتجزأ من جوهر تكويننا البشري . إنه جزء من ذلك الشيء الذي يجعلنا نرتبط ويتعلق بعضنا ببعض كأزواج وزوجات وكأسر ، وكأى جماعات متماسكة أخرى . ولولا ذلك لأصبحت العلاقات بيننا مجرد علاقات عارضة كالعلاقات بين الحشرات .

إن الأطفال المتقاربين في السن أكثرهم ميلاً إلى العراك والشجار بعضهم مع بعض ، لأن الأصغر سنًا يعزل التالى الذى يكبره في السن من مركز الطفل الأصغر في الأسرة ، وهو مركز يشق على الطفل — من نواح عدة — أن يتخلى عنه . وإذا شرع الأكبر في اضطهاد أخيه الأصغر ، فإن يطول الوقت بالآخر حتى يكتشف من هو غريمه بالذات بين أطفال الأسرة . على أن هناك بطبيعة الحال أسباباً أخرى تدفع الأطفال المتقاربين في السن إلى العراك أكثر من غيرهم ، فهؤلاء الأطفال يوضعون دائماً جنباً إلى جنب في ترتيبات الأسرة ، كما أنهم يهتمون بنفس اللعب ونفس الرفاق .

ويتوقف الكثير في هذه المشكلة على شخصية الطفل وبنيان جسمه . فإني أعتقد أن بعض الأطفال يولدون وعندهم ميل إلى اللطف والسماحة ، على حين أن البعض الآخر يميل إلى تأكيد ذاته . والأطفال الميالون إلى تأكيد الذات هم في اعتقادى الذين يحتمل أن يثيروا ضجة أكثر من غيرهم إذا أحسوا بأنهم قد فقدوا مكانتهم في الأسرة . كما أن الطفل بطيء التفكير وسط أسرة لمالحة متوقدة الذكاء ، والبنت البسيطة بين مجموعة من البنات الفاتنات ، والطفل القصير بين الإخوة طوال القامة ، والبنت التى ينجبها أبوان يفضلان البنين ، كل هؤلاء قد ينتابهم شعور جارف بالغيرة ، إذا كانت الظروف الأخرى في الأسرة تساعد على احتدام المنافسة بين الأطفال .

ينبغي أيضاً أن ندرس طبيعة الأثر الذي تحدثه اتجاهات الأمهات نحو الأطفال على شعورهم بالغيرة . قد نبادر في التوّ ونسرع في الحكم قائلين إن عدم التكافؤ في حب الأم لاثنتين من أطفالها ، من العوامل التي تولد المنافسة . فهذا هو الرأي الذي تبينه كثير من قصص الأطفال والروايات الخيالية ، ويردده عديد من الناس . لكني لا أعتقد أن المسألة بهذه البساطة ؛ ذلك أنها تثير لنا سؤالاً مكرراً : « هل يوجد بالفعل شيء يمكن أن نسميه الحب المتكافئ » ؟

في اعتقادي أن الأمهات الطيبات يتفانين في حب أطفالهن جميعاً على قدم المساواة ، غير أنه من المحال أن تستمتع الأم بصحبة اثنتين من أطفالها ، أو أن تفتناظ من تصرفاتهما بنفس الطريقة تماماً في كلتا الحالتين ، لذلك لا ينبغي أن تحاول الأم معاملة الطفلين نفس المعاملة بالضبط ، فتعطى كلا منهما نفس لحظات الاهتمام ، ونفس عدد البسمات ونفس عدد التجهيزات . فالأطفال والبالغون على حد سواء ، لا يندفعهم الاتجاهات المقتضية المتكلفة . فهم على المدى البعيد لا يحبون في الحقيقة أن تعقد مقارنات بينهم وبين غيرهم ، سواء أكانت المقارنة في صالحهم أم في غير صالحهم . إن أكثر ما يرغب فيه الطفل — في رأيي — هو أن يحبه أبواه ويستمتعا بصحبته لذاته هو . فإذا تأكد في أعماقه أن له مكانة طيبة في قلب أمه ، فإنه لا يبالي كثيراً بالمكانة التي يشغلها إخوته وأخواته في قلبها ، ما لم تدأب الأم على عقد المقارنات بين مكانة الأطفال عندها ، أو التهديد بأن تنبذ أحدهم من مكانه في قلبها . هذا في رأيي هو جوهر المشكلة الخاصة بمعالجة الغيرة أو منعها بين الأطفال .

إن أسهل السبل التي تثير بها الأم غيرة الطفل ، هي أن تدأب على المقارنة بينه وبين أخيه ، مؤثرة أخاه عليه . فهذا سلاح ذو حدين ، إذ أنه يثير في الطفل إحساساً قاطعاً بأنه منبوذ من الأم ويخلق فيه شعوراً بالحقنق على أخيه ، لأن أمه تجاهر بإيثارها له . غير أن غالبية الأمهات يدركن هذه الحقيقة ، وعندهن من اللباقة ما يحول دون استخدام مثل هذا الأسلوب في تقويم سلوك الطفل

مشاجرات الأطفال

١٣٧

ومع ذلك يبدو لي أن كثيراً من الأمهات المخلصات ذوات الضمائر الحية ، يلجأن إلى نوع آخر من المقارنات على اعتقاد أنه يمنع الغيرة ، مع أنه يثيرها في الواقع . فهن يحاولن قدر طاقتهم أن يقدمن نفس الهدايا بالضبط ويمنحن نفس الامتيازات بالضبط لأطفالهن جميعاً بلا استثناء ، أو على الأقل لأولئك المتقاربين منهم في السن . وفضلاً عن ذلك ، فإن من المحتمل أن يوجهن نظر الأطفال إلى هذه المساواة في المعاملة . فإذا حصل أحد الأولاد على سيارة زرقاء (لعبة) ، يحصل الآخر على سيارة زرقاء . وإذا حصلت إحدى البنات على معطف جديد للشتاء ، تحصل الأخرى على مثله ، حتى ولو لم تكن في حاجة إليه بالفعل . وإذا خرج أحد الأطفال مع أمه لشراء بعض الحاجات من السوق ، أو خرج في رحلة مع أبيه ، فإن الوالدين لا يفوتهما أن يدبرا نفس الميزة لكل واحد من الأطفال الآخرين ، ويعلنانه بها في الوقت الملائم . وما زلت أذكر تلك الأم المهمومة القلقة التي كان أطفالها الصغار الأربعة يتعاركون عراكاً وحشياً على أيهم سيجلس بحوارها على المائدة ، مما اضطرها إلى أن تحتفظ بخريطة دقيقة تبين الترتيب الذي يغير به الأطفال أماكن جلوسهم حولها ، في الوجبات الثلاث كل يوم ، في أيام الأسبوع السبعة .

بيد أن السؤال الذي يجب أن نوجهه في حدة إلى مثل هؤلاء الأمهات هو : « هل يقلل مثل هذا الأسلوب «الشرعي» في العدل بين الأطفال من حدة المنافسة بينهم ؟ » في رأيي الخاص أنه لا يقلل منها بالطبع . بل إن الأمهات اللاتي لجأن إلى هذا الأسلوب ، أو أرغمن عليه تحت ضغط مطالب أطفالهن ، هن أول من يعترف بأن هؤلاء الأطفال لا يكفون عن مراقبة بعضهم البعض طوال النهار ، وعن مراقبة آبائهم وأمهم ، كي يتأكدوا أن أحدهم لم يأخذ أو لم تعط له ميزة معينة في الخفاء ، وأنهم لا يكفون عن المشاحنات الصاخبة .

إن هذه الاحتياطات التي تتخذها الأمهات درءاً للظلم بين الأطفال تذكر الطفل دائماً بأن هناك قطعاً خطراً حقيقياً يهدد الناس بالظلم ، ما لم ينتبهوا له جميعاً . كما أن تعاون الوالدين في اتخاذ هذه الاحتياطات يوحى إلى الطفل بأنهما يخشيان أن تراودها نفساها على إلحاق الظلم به . وفي اعتقادي أن عقدة المسألة تكن في الآتي : إن الآباء والأمهات الذين تدفعهم مناورات الأطفال إلى انتهاج هذا الأسلوب «الشرعي» ، تعوزهم فعلا الثقة الكافية بقدرتهم على التزام الحيدة بين أطفالهم . وربما كانوا يحملون في أعماقهم من أيام طفولتهم شعوراً حاداً بالذنب من أثر مشاعر الغيرة التي كانوا يحسونها نحو إخوانهم وأخواتهم ، لذا فهم يخشون أن يستاء منهم أحد أطفالهم ، إذا أظهروا — سهواً — أي نوع من المحاباة لطفل آخر ، مثلما كانوا يستاءون هم أنفسهم حين يبدو لهم أن آباءهم أو أمهاتهم يحابون شقيقاً أو شقيقة لهم . ولهذا السبب فهم يبذلون قصارى جهدهم لإرضاء رغبات أطفالهم جميعاً .

إنني أقول للأم التي تحاول محاولة مضنية أن تلتزم جانب العدالة بكل دقة وأمانة : لا تحسى أنك مضطرة لشراء نفس اللعب للغلامين (ما لم تكن هناك أسباب قوية من الناحية العملية) ، فإذا رفعا صوتيهما بالتذمر والشكوى ، فقل لهما إنك سترجمين كلتا اللعبتين إلى الحل لو سمعت كلمة أخرى تبدر منهما . ولئن اعترضت ابنتك لأنك لم تشتر لهما معطفاً جديداً مثل أختها ، فما عليك إلا أن تذكرها بأنها ليست في حاجة بعد إلى معطف جديد . وإذا احتدم الجدل بين الأطفال على أما كن جلوسهم أثناء تناول الوجبات ، فقل لهم إن كل فرد في الأسرة سوف يستمر في الجلوس حيث اعتاد أن يجلس دائماً . على أن النغمة الشرسة التي يبدو أني أضفيها على نبرات الأم ، ليست ضرورية في الواقع . فالشيء الوحيد الضروري هو أن تبين الأم لأطفالها أنها ليست خائفة على الإطلاق من أن تتمهم بالتفرقة بينهم في المعاملة ، وأنها لن تقبل أن يستبدوا بها

قيدفوها إلى التصرف معهم كما لو كانت تفرق فعلا بينهم . إن السبيل السليم الذى يجب أن تسلكيه هو أن تتعامل مع كل طفل على أنه فرد له كيانه المستقل . امتدحيه أو قوّمى سلوكه ، أو امنحيه هدية ، أو اشترى له معطفاً ، أو حددى موعد نومه ، أو كافيه ببعض الواجبات ، أو توقى منه الدرجات المدرسية ، حسبما يتلاءم مع طبيعته الخاصة . وفي هذه الحالة أخرجى أطفالك الآخرين من نطاق الجدل ، ومن نطاق تفكيرك .

هناك ناحية واحدة أخرى متفرعة من هذا الموضوع ، لها فى نظرى أهمية كبرى من الناحية العملية ، ألا وهى : كيف تعالج المشاجرات ذاتها ؟ إن الأمهات ذوات الضمائر الحية غالباً ما يحاولن أن يقفن من هذه المشاجرات موقف القضاة : من البادى ؟ من فعل — ماذا — بمن ؟ من الذى يعتبر المذنب ؟ ما العقوبة المناسبة ؟ لكننى أعتقد شخصياً أن هذا القضاء ، هو أحد مواطن الزلل التى يستحسن أن تتفادها الأمهات العاقلات ما استطعن إلى ذلك سبيلاً . فلئن كنت مصيباً فى قولى إن الغيرة هى أحد الحوافز الرئيسية التى تدفع الأطفال إلى التشاجر بعضهم مع بعض ، إذن فاستعداد الأب والأم لأن يتدخلوا كالقضاة كلما تشاجر الأطفال معاً ، إنما يؤكد ويثبت عامل الغيرة . فالطفل يدرك أن كل مشاجرة ما هى إلا فرصة سانحة كي يثبت ظافراً أن أمه أو أباه يستحسن تصرفاته ويستهن بتصرفات أخيه ، ومن ثم يصبح للشجار هدف أكبر واستمراء أكثر فى نظر الطفل ، لكنه يعرف بطبيعة الحال أنه لا يستطيع أن يبدأ المعركة علانية وإلا اعتبر الطرف المسىء المتجنى . غير أن الطفل الغيور يحس دائماً أن الطرف الآخر هو المعتدى فى الحقيقة . فسا عليه إذن ألا أن يحصى عليه تصرفاته فى ارتياب ، متربصاً لأية دلائل توحى بالعدوان (فى وسعه أن يجد أو يتخيل

عشرات المعاذير كل يوم) ، ومن ثم يلتحم معه في المعركة على اعتباره الجنى عليه . وبعبارة أخرى ، إن نيل الخطوة لدى الأب أو الأم يصبح جائزة ينشدها المتعاركون ، ويصبح باعثاً جديداً لكل مشاجرة ، ومن ثم يصحى حافزاً يدفع الأطفال إلى مزيد من المشاجرات .

ولكن ألا ينبغي للآباء والأمهات أن يوقفوا هذه المشاجرات ؟ ينبغي ذلك في بعض الأحيان ، ولا ينبغي في أحيان أخرى . فمثلاً عندما يشبك أحياناً طفلان صغيران متعادلان تقريباً في القوة الجسمانية (قد يكونان متفاوتين تماماً في الحجم والسن) ، فإنني أعتقد أننا لو تركناها يصفيان المشكلة بينهما عن طريق الجدل أو الشد ، والجذب أو الضرب ، فإنهما غالباً ما يزدادان دراية بكيفية التعامل أحدهما مع الآخر . إنني أفضل أن تجرب الأم هذه الطريقة بضع مرات على أقل تقدير . أما إذا كان أحد الطفلين يسحق الآخر دائماً ، ويزيد من شعوره بالخوف والتهيب ، فإنها طريقة خاطئة في هذه الحالة .

كما أن نسبة الشجار بين الأطفال من العوامل التي تتحدد ما إذا كان يجدر بالآباء والأمهات أن يسمحوا بحدوثة أم لا . وهناك بالطبع اختلاف في الرأي حول هذه النقطة . فعالية الآباء والأمهات يؤثران التفاضل عن بعض المشاجرات البسيطة كل يوم ، وعن معركة عنيفة بين الفينة والفينة ، لكن معظمهم لا يسمح عن طيب خاطر بأن يتعارك أطفالهم معظم ساعات اليوم ، سواء أكان ذلك من أجل صالح أطفالهم ، أم من أجل راحتهم الشخصية .

وإذا تطلب الأمر أن يتدخل الآباء بالفعل ، لأن أحد الأطفال يستبد بالآخر ، أو لأن المشاجرات كثيرة أو ضارية أو صاخبة بشكل لا يبعث على الراحة ، فإنني أعتقد أنهم يستطيعون أن يفعلوا ذلك بنفس المقدرة والكفاية دون أن يلجأوا إلى إصدار الأحكام أو الانحياز إلى أحد الجانبين ، هذا الأسلوب

مشاجرات الأطفال

١٤١

سوف يؤدي على المدى البعيد إلى نقص عدد المشاجرات بدلا من زيادتها .
وما على الآباء إلا أن يصروا على توقف العراك بين الأطفال ، وأن يرفضوا
الإصغاء إلى الشكاوى . فإذا كانوا جادين في ذلك فعلا ، وعملوا على أن يفض
الأطفال عرا كهم ، وإذا عادوا إلى التدخل فوراً في حالة استئناف المعركة ، فإن
الأطفال سوف يقتنعون بهذا الأسلوب ويدعنون للأوامر ، مثلما يخضعون لجميع
النواهي التي يبدي فيها الآباء والأمهات إصراراً ومثابرة .

٣

التنزيبُ والمصاحبة

كيف أحمله على إطاعة الأوامر

«ينبغي للآباء والأمهات أن يسيروا على خطة ثابتة إلى حد معقول ، وأن يتصرفوا كما لو كانوا يتوقعون الطاعة من أطفالهم»

كيف أحمله على إطاعة الأوامر ؟ هذا هو السؤال الذى غالباً ما تردده بعض الأمهات . والواقع أنه ليس سؤالاً بالمعنى المفهوم ، لأنهن فى الحقيقة لا يتوقعن إجابة عنه من القريب أو الطبيب أو المعلم الذى يتحدثن إليه فى هذا الصدد . إنه بالأحرى شكاية له — من أن الطفل جامع لا يمكن السيطرة عليه — ورجاء إليه أن يبدى تأييده للأم وتعاطفه معها . إننا جميعاً بطبيعة الحال نفقد السيطرة على أطفالنا فى بعض الأحيان ، لكننى أريد أن أتحدث هنا عن طائفة قليلة من الآباء والأمهات المساكين ، الذين يبدو أنهم لا يملكون أى نوع من السيطرة على الإطلاق ، لأننا نستطيع أن نلمس المشكلة بصورة أوضح من خلال هذه الحالات المتطرفة .

من الممكن أن نجيب مثل هؤلاء الأمهات بسؤال آخر : « هل تكوين جادة حقاً حين تطلين إلى طفلك أن يستجيب لأوامرك ؟ » بطبيعة الحال سوف ترد الأم بالإيجاب فى صدق وإخلاص . غير أن هذا الرد لا يحمل سوى جانب من الحقيقة . فلو أننا — أنت وأنا — راقبنا تصرفات هذه الأم أثناء إحدى أزمات الإخلال بالنظام فى البيت (ونقل إليها الأم ، لا لأن الآباء لا يواجهون مثل هذه الأزمات ، بل لأن من الأيسر علينا أن نقول «هى» فى الحديث عن الأم ، ونزعم أن جميع الأطفال سيئى السلوك «هم» من الأولاد) — أعود فأقول لو أننا راقبنا تصرفات هذه الأم ، فمن المحتمل أن نتمكن على الفور من تحديد سبب المتاعب (لو أن هذه الأم رأته أو رأتى ونحن نواجه بعض المتاعب مع

أطفالنا ، لاستطاعت أن تلمس موطن الخطأ في سلوكنا ، فنحن دائماً يتضح لنا
الخطأ في حالة الآخرين) .

وإليك بعض الأمثلة التي لمستها بنفسى :

السيدة « أ » لا يبدو أنها نلتفت إلى طفلها الصغير حين يعبث بكوب
اللبن الخاص به ، فهي لا تنقظ للأمر إلا بعد أن يسكب الكوب عن آخره .
السيدة « ب » تصيح بالطفل : « لا تعبث باللبن » بمجرد أن تراه يشرع في
ذلك ، ثم تنصرف عنه بعدئذ ، رغم أنه ليس ثمة ما يدل على أن الطفل قد
استجاب لأمرها . إنها لا تعود فتلتفت إليه مرة أخرى إلا بعد أن يسكب
اللبن .

السيدة « ج » تصفع ابنها عندما تضبطه وهو يتسلق حاجز الاصطدام
في السيارة ، لكنها حين تراه يكرر نفس الفعلة بعد دقيقتين لا تقول أو تفعل
به شيئاً .

السيدة « د » حين يعود طفلها فيتسلق حاجز الاصطدام مرة أخرى ،
تقول لإحدى صديقاتها على مسمع منه : « هانتذى ترين أنى لا أستطيع أن
أفعل معه شيئاً » .

السيدة « ه » يسمع الجيران صيحاتها وهي تهدد الطفل طوال النهار :
(سوف أضعك في الفراش ، سوف أنادى رجال البوليس ، سوف أعطيك
« علكة ») . ولكن على قدر ما يلمسه الجيران ، فإن هذه التهديدات
لا تجدى نفعاً على الإطلاق ، لأن السيدة لا تنفذ قط أى تهديد منها .

السيدة « و » تشرع في توبيخ ابنها (لأنه يؤذى أحد الجيران) ، فينقلب
ساعياً صائحاً : « لا يهمنى كلامك أيتها البلهاء ، » والعجيب أنها لا تتصرف معه

كيف أحمله على إطاعة الأوامر

١٤٧

كما لو كانت قد صدمت من كلمته ، أو تلحق به العقاب ، بل تظل هي وهو يرفعان صوتيهما ، كل يحاول أن يعلو صوته على الآخر ، وهما يتبادلان الصيحات ، حتى ينتاب أحدهما السأم ، فينصرف مبتعداً عن الآخر .

السيدة « ز » حين تترك ابنها في مدرسة الحضانة للمرة الأولى في حياته ، تقول للمعلمة على مسمع من الطفل : « إنه جنّ مصور » . (على أن المعلمة لا تصادف أية متاعب مع الطفل) .

السيدة « ح » يدخل ابنها البالغ من العمر سنة واحدة غرفة الجلوس دون أية نية سيئة ، فتقول له على الفور : « لا تلمس جهاز التليفزيون » ، والواقع أن هذه الفكرة لم تراوده على الإطلاق ، لكنه الآن إزاء هذا التحدى يخطو ببطء نحو الجهاز ، على حين تجلس أمه ساكنة تحملق فيه ، ثم تتحول إلى إحدى الزائرات قائلة : « هل فهمت قصدى من تحذيره ؟ » .

السيدة « ط » كان أبوها من مدمنى الخمر ، لذا فإنها حين يعود ابنها البالغ ست عشرة سنة من إحدى الحفلات ، تسأله في ارتياب : « هل تناولت شيئاً من الشراب ؟ » (الواقع أنه لم يفعل) .

أما المثال التالى والأخير فهو مختلف بعض الشيء ، لكنه يدخل في نطاق مناقشتنا . يؤتى للسيدة « ك » بمولودها الأول كي تراه للمرة الأولى في المستشفى ، وقد وضع المولود إبهامه في فمه ، فإذا بها تقول : « يا له من طفل شقي ! » — تقولها في غضب لا على سبيل المزاح ! .

من المحتمل أن يكون قد اتبأكم الفيظ والتونر من أثر هذه الأمثلة السبئية المتتالية ، وربما اعتقدتم أنى أبالغ فيها أكثر من اللازم . إنها بالفعل أمثلة متطرفة ، لكنها جميعاً مستمدة من الواقع بحذاخيرها ، وهى تبرز لنا كثيراً من

العوامل التى تعوق تهذيب الأطفال . فالآباء والأمهات فى مثل هذه المواقف التى ذكرتها ، يظنون أنهم يحاولون حث أطفالهم على اتباع السلوك الجيد ، وأنا واثق أنهم من الناحية الشعورية يرغبون فى ذلك . لكن يمكننا أن نلمس أن البعض منهم — فى أحسن حالاته — لا يبذل سوى نصف محاولة فى هذه السبيل ، على حين أن غيرهم لا يحاول شيئاً على الإطلاق ، بل إن بعضهم يوحى لأطفاله بسوء السلوك على غير قصد منه .

ويتضح لنا أيضاً من هذه الأمثلة أن الأمهات يتوقعن — إلى حد ما — سوء السلوك من أطفالهن (حتى منذ مولدهم !) ، ولا يتوقعن فى الحقيقة أن تكون عندهن القدرة للسيطرة عليهم . ومثل هذه الاتجاهات عند الأمهات يصعب علينا تصديقها وفهمها لأول وهلة ، على أن العمل فى عيادات توجيه الأطفال النفسية غالباً ما يبين لنا — كما يمكن أن نتوقعن — أن موقف الأم فى أيام طفولتها كان شبيهاً ببعض الشيء بموقف طفلها . فكثيراً ما وصفاً أبواها بأنها سيئة السلوك ، وتوقعاً منها أن تكون سيئة السلوك ، وسمحاً لها بأن تكون سيئة السلوك . (سيئة السلوك بمعنى الشقاوة الطفلية) .

لذا فإنها عند ما تصبح هى نفسها أمّاً ، تنتهج نفس أساليب أبويها ، وتحمل فى نفسها كل المشاعر التى تتمشى مع هذه الأساليب : عدم الثقة بطفلها منذ البداية ، عدم الثقة بقدرتها على أن تعرف ماهو الصواب كى تعلمه لطفلها ، عدم الشعور بأن من حقها أن تحصل على احترامه ، فضلاً عن استعدادها للشجار معه ، بل وشعورها بنوع من المتعة الخفية فى هذا الشجار .

حسناً ، فى هذا الكفاية من هذه الأمثلة المؤسفة . على أن الأمهات اللائى تهن عزيمتهن تماماً بشأن قدرتهن على تسيير أمور أطفالهن ، يحتجن إلى المساعدة من إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الطفل والأسرة ، أو من

إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، أو غيرها من الهيئات التي تبذل المشورة للأمهات ، كي يدركن الجذور الدفينة لمشكلتهن .



أما بقيتنا نحن الآباء فلا تنهن عزاً منا إلا في بعض اللحظات العابرة . بيد أننا جميعاً في أيام طفولتنا كان يسمح لنا أحياناً بسوء السلوك «العيب» دون عقاب ، وكنا نتهم أحياناً بسوء السلوك ، فتتخلف في نفوسنا مشاعر غامضة مضطربة بشأن بعض المواقف بين الأطفال والآباء . لذا فإننا حين نتعرض لمواقف مشابهة مع أطفالنا — لا سيما عند ما تكون حالتنا المعنوية سيئة من أثر عوامل التوتر الأخرى — فإننا نتخلى عن دورنا كقادة وموجهين يعرفون نوع السلوك الذي ينشدونه في أطفالهم ، ولا نفعل سوى أن نقشاجر معهم على مستواهم ، كما لو كنا جميعاً أطفالاً سيئى السلوك .

أما عند ما تكون حالتنا المزاجية معتدلة ، وننتهج الأسلوب السليم ، فإننا نجد أن في استطاعتنا السيطرة على أطفالنا دون تفكير عميق أو جهد كبير . والواقع أننا في هذه الحالة نلجأ إلى مجموعة كبيرة متباينة من الأساليب الدقيقة المتقنة في تربية الطفل ، ولكن دون كبير اكتراث ، شأننا في ذلك شأن الشخص الذي يجلس إلى البيانو ويعزف مقطوعة موسيقية تدرب عليها منذ عشر سنوات مضت . فالطفل هو الذى يؤدي جانباً كبيراً من المهمة ، ونحن ندرك أننا نستطيع في غالبية الأحيان أن نعتمد على رغبته في إرضائنا ، لأنه يحبنا مثلاً محبة ، فهو يحاول منذ أن يبلغ سنة واحدة من عمره ، ثم يحاول بكل قوة ما بين الثالثة والسادسة ، أن يبدو كبيراً ناضجاً مثلاً ، من ناحية الأدب والمهارة وخدمة الآخرين . كما أنه في سنى المدرسة يبذل جهداً كبيراً كي يساير مستوى أصدقائه ومستوى الأطفال في المدرسة .

إننا بوجه عام نسير أمور أطفالنا فى السنوات الأولى من أعمارهم ، عن طريق القدوة الطيبة والإيحاء الإيجابى ، وعن طريق صرف انتباههم عن مواطن الضرر والأخذ بأيديهم ، واستغلال رغبتهم فى الظهور بمظهر الكبار ، ونقلهم من مكانهم بالقوة إذا استدعى الأمر . أما فى السنة الثانية عند ما يتوافر للطفل شىء من الإدراك لما نريد وما لا نريد منه ، فإننا فى هذه المرحلة نبدأ جميعاً فى الاعتماد بالتدريج على المطالب والنواهى الكلامية ، ونحن ندرك — بما يتوافر فىنا من صفات القيادة — أننا ينبغي أن نسير مع الأطفال على خطة ثابتة إلى درجة معقولة (فنحن لا ننشد الكمال لحسن الحظ) ، وأن نحس نحوهم وتحدث إليهم وتنصرف معهم ، كما لو كنا نتوقع منهم الطاعة ، على أن نخطبهم بلهجة فيها — على أقل تقدير — شىء من الود والصدقة ، كاللهجة التى نعمل إليها حين نطلب مطلباً من أحد أصدقائنا . وهذا الأمر الأخير هو أصعب شىء يشق على الوالدين المثابرة عليه خلال ساعات النهار الطويلة ، فنحن نحمل فى أعماقنا — من آثار نشأتنا — رغبة شديدة فى اللوم والاستنكار ، بحيث تتورط بسهولة فى لهجة الغيظ والانفعال ، تلك اللهجة التى تبدو كما لو كانت تقول للطفل : « لا أظن أنك ستطيع أوامرى » ، أو : « لقد تملكى الغضب منك ، لذا فإنى الآن سوف أسوى حسابى معك » ، بأن أطلب إليك أن تفعل شيئاً تكرهه (أو تكف عن شىء تستمتع به) .

وعندما يعرف أطفالنا نوع السلوك الذى تتطلبه منهم ، ويعرفون أننا جادون فيما نقول لهم ، وأننا نقوله لسبب وجيه ، فإن من الممكن فى هذه الحالة أن نخضعهم للنظام ، فى غالبية الأحيان ، عن طريق التوجيهات والكلمات المقتضبة التى تذكرهم بواجبهم .

نستطيع أن نعب عن هذه الجوانب البناءة من مشكلة التهذيب بطريقة

أخرى ، فنقول بعبارة بسيطة : إن الأم تدرك بالفطرة أن مهمتها الرئيسية هي أن توجه أطفالها توجيهاً إيجابياً . والصورة المثالية لهذا التوجيه هي أن تبادر بالتدخل السريع كي تمنع سوء السلوك ، عندما ندس أن الأمور قد بدأت تنحرف عن اتجاهها السليم (فهي تنمى في نفسها حاسة سادسة كالإدراك ، لا تكف عن العمل طوال النهار ، حتى ولو كان أطفالها على بعد مئات الأمتار منها) . وبهذا الأسلوب ، قلما تضطر الأم لأن تتهم طفلها بسوء السلوك ، لأنه قلما يجد الفرصة لأن يسلك سلوكاً رديئاً .

مشكلة العقاب

« العقاب هو الوسيلة التي تستخدم بدلا من الوسائل الأخرى في حالة الضرورة القصوى ، عندما يفشل الأسلوب المعتاد في التهذيب »

ما من مرة أقيمت فيها محاضرة بإحدى جمعيات الآباء والمعلمين وجاءت فترة توجيه الأسئلة من المستمعين ، إلا وجدت رجلا وقورا في الصف الخامس تقريبا ، ينهض واقفاً على قدميه في تؤدة ، ثم يتنحى ويسألني في لهجة متأنية كلمهجة المحامين : « ما رأيك يا دكتور في مشكلة العقاب ؟ » فكنت أشعر دائماً أن هذا الرجل قد ظل منذ مولد طفله الأول يحاول إقناع زوجته بضرورة العقاب العادل في تربية الطفل ، وأن زوجته ظلت تعارضه في ذلك بحزم وإصرار ، وتمنعه من توقيع العقاب في غالبية الأحيان ، لذا فإنه يبحث هنا أو هناك عن أناس آخرين يمكن أن ينجازوا إلى رأيه .

وأنا لا أعنى بهذا المثال أن الآباء يؤيدون فكرة العقاب دائماً ، على حين تعارضها الأمهات . ففي بعض الأحيان نجد أن العكس هو الصحيح . غير أنه غالباً ما يشترك الأب والأم في نفس الرأي ، ولكن حتى لو التقت وجهات نظرهما تقريباً ، فقد يوجد بينهما رغم ذلك من الاختلاف في الرأي ما يثير بعض الجدل .

ما من شك أن الصحف تعتبر مسألة العقاب — لاسيما العقاب الجسدي — من الموضوعات الجذابة المثيرة دائماً وأبداً . فما من مرة يلتقي فيها أحد رجال التربية أو علم النفس أو الأطباء محاضرة دقيقة مستفيضة عن مشكلة السيطرة على الأطفال ، ويشير فيها إشارة عابرة إلى أن عقاب الطفل بين الفينة والفينة أمر طبيعي ، إلا وتظهر هذه الملاحظة العابرة في العناوين الكبرى بالصحف على أنها : « أحد المتخصصين يؤيد العقاب البدني » . فالظاهر أن أهم مشكلات

رعاية الطفل، في نظر طائفة من الناس، هي: هل نلجأ إلى الضرب أم لا. وهذه الفكرة التي تسيطر على عقول هؤلاء الناس إنما تدل على اتجاه غير سليم عندهم. فالواقع أن هذا التركيز المغالى فيه على مسألة العقاب ليس له معنى على الإطلاق. فلو أننا وقفنا نتفكر في أسلوب التربية الذي نشأ عليه زملاؤنا في المدرسة وأصدقائنا وأقرباؤنا، ونحن أنفسنا، لوحدنا أن بعض الذين كانوا يتعرضون للعقاب كثيراً قد نجحوا في حياتهم، على حين فشل الآخرون، ولوحدنا أيضاً أن أولئك الذين لم يكونوا يتعرضون للعقاب إلا نادراً — إن كانوا قد تعرضوا له على الإطلاق — قد تفاوت نصيبهم من النجاح والفشل بنفس الطريقة.



إن العامل الهام حقاً في تهذيب الطفل تهذيباً حسناً، هو شعور الوالدين نحو الطفل، وشعور الطفل نحو الوالدين، وما هما إلا وجهان لشعور واحد، أما أساليب العقاب — إن وجدت — فهي مجرد تفصيلات عارضة.

فنحن نعرف أن أهم العوامل الحيوية في هذا المجال، هو حب الوالدين للطفل، بمعنى تفانيهما في شخصه، ورغبتهما في نجاحه، واستمتاعهما بصفاته الطيبة (لا السيئة). فحرارة حبهما له هي التي تغذى فيه حبه للناس وحب الناس له. وبعبارة أكثر تحديداً، فإن الطفل يعامل الناس معاملة لطيفة في معظم الأحيان، لا لسبب إلا لأنه يحب الناس (فهو يميل إلى اللطف أكثر من ميله إلى النفور). وفضلاً عن ذلك، فإنه يسلك سلوكاً حسناً كي يحتفظ بحب الناس له؛ إذ يدرك مدى الشعور بالارتياح الذي يبعثه فيه حبه لهم، كما يدرك على النقيض من ذلك مدى الشعور بالضيق الذي يبعثه فيه عدم استحسانهم له. والظاهر أن هذين العاملين الأساسيين في مشكلة التهذيب من الأمور البديهية الواضحة في نظر معظمنا، حتى إنه يسهو علينا أن نضعهما في اعتبارنا.

ثمة عامل ثالث له أهميته الحيوية أيضاً ؛ ذلك أن الطفل — خاصة ما بين سن الثالثة والسادسة — يعبر عن نفانيه في شخص والديه بأن يصوغ نفسه على صورتهم ، لا بمعنى أن يقلدهما في المهارات والعمل وطريقة الكلام فحسب ، بل إنه يحاول محاولة مغلصة أن يكون دمث الأخلاق مسئولاً عن تصرفاته مثلهم . ومن هذه السبيل يكتسب الغلام جانباً كبيراً من رغبته في أن يتعاون مع الناس ، وأن يبدى بسالة في لحظات الخطر ، وأن يعامل النساء في لطف ودماثة ، وأن يخلص في أداء عمله ، مثل أبيه تماماً . كما أن هذا هو الذى يوحى للبنات بأن تساعد في الأعمال المنزلية ، وأن تتفانى في خدمة الأطفال الصغار (الأطفال الآدميين والدمى) ، وأن تمنو على أفراد الأسرة الآخرين ، مثل أمها تماماً . وبعبارة أخرى ، فإن الأطفال الذين يتمتعون بالحب ، يؤدون كمية هائلة من العمل ، فتتمو بذلك شخصياتهم ، ويزداد احترامهم للنظام من تلقاء أنفسهم .

ولكن — حسبما يعلم كل الآباء والأمهات — ما زال أمامهم الكثير مما يجب عليهم أدائه بأنفسهم . فهما تكن نوايا الطفل طيبة ، فإنه رغم ذلك تنقصه التجربة وتتحكم فيه أهواؤه ويسهل تضايقه . وعلى الأم أن تظل تردد في كل ساعة من كل يوم : « حينما تسمح لأختك بالركوب في عربتك ينبغى أن تجذب العربية بلطف » : « يجب أن تحضر الآن لتناول الغداء فهو جاهز على المائدة » « تذكر أنه يجب ألا تغير أسطوانات الحاكي ، فهذا من شأن ماما » . « لا تعبر الشارع ما لم يكن معك أحد الكبار » .

وفضلاً عن ذلك ، فهناك بعض الفترات التى يأبى فيها الطفل أن يسلك سلوكاً حسناً ، حين يستاء من شيء فعله أو لم يفعله الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت أو الصديق . وهذه الفترات العاصفة تحتاج إلى نوع من الحزم يقوم على الدراية والخبرة .

لقد رأينا كيف أنه من الضروري أن يكون هناك قدر معقول من الثبات والإخلاص في النواحي المتصلة بتوجيه الأطفال لاتباع قواعد النظام . وهذا لا يعنى أن الأطفال ليست عندهم القدرة على التكيف مع التغييرات التي تطرأ على القواعد المرسومة — في المواقف المختلفة ومع مختلف الراشدين — ففي الواقع أن عندهم قدرة مذهلة على التكيف . وإنما ذلك يعنى أن من واجب الراشد أن يحس حقيقة إحساس إنسان يحمل المسؤولية على عاتقه ، وأن يتوقع السلوك السوى من الطفل ، ويتأكد من أنه يسلك سلوكاً سوياً . أما الوالد الذى تعوزه الثقة في نفسه كرائد للطفل ، وتعوزه الثقة في إثارة الطفل للسلوك السوى ، فإنه ينجح للهبوط إلى مستوى الطفل ، فيهدد ويصرخ ويضعف دون اقتناع بما يفعله ، بل إنه قد يستفز مشاعر الطفل بطريقة خفية مبهمة ، فيدفعه إلى سوء السلوك .

حسناً ، لقد بدأت حديثي عن مشكلة العقاب ، غير أنني اضطررت أن أستنفد بعض الوقت كما أوضح أن التأديب يعتمد على عوامل أخرى غير العقاب ، فليس العقاب هو العامل الرئيسى الذى يردع الطفل عن سوء السلوك ، كما أنه ليس العامل الرئيسى الذى يردعنى أو يردعك عن السرقة أو القتل أو الحرق العمد ، بل إنه وسيلة تحل محل الوسائل الأخرى في حالة الضرورة القصوى ، حين يفشل الأسلوب المعتاد في تهذيب الطفل . وحتى في هذه الحالة ، فإنه لا يجدى كثيراً ، ما لم تكن وراءه شخصية سوية وعلاقة حب قوية ، كما ثبت من جميع حالات المجرمين معتادى الإجرام .

ماهى الأسباب التي تؤدي إلى تداعى النظام في بعض الأحيان ؟ إن طفلك قد تراوده نفسه على العبث بشيء محظور عليه ، يبدو له اليوم أكثر استهواء

مما كان في الماضي (ربما لأنه في هذه الفترة قد كبر بما فيه الكفاية لأن يلمس في هذا الشيء احتمالات للتسلية لم يكن يلمسها فيه من قبل) ، وهو يتمتع فرصة أنك لم تكوني جادة تماماً حين حظرت عليه لمسه في المرة الأخيرة ، فبعث به على اعتقاد أنه لن يتلفه على أية حال ، أو قد يحطم شيئاً عزيزاً عليك بسبب إهماله ليس إلا ، أو قد يثور عليك لأنك تبدين له الغضب بغير وجه حق ، أو لأنك تحابين أخاه ، أو قد يعاملك في شيء من الوقاحة حين تكونين متوترة الأعصاب لسبب آخر سواه ، أو قد يفلت بمعجزة من أن تدهمه سيارة وهو يجري وراء الكرة في الشارع . في كل هذه الحالات يحيش في نفسك شعور بالغضب أو الغضب له ما يسوغه ، فتوقعين به العقاب ، أو على الأقل تراودك الرغبة في عقابه .

إن من المحال أن تملكى زمام الطفل في يسر وسهولة ، بحيث لا تثور ثائرتك عليه في بعض الأحيان . وهذه الثورة عليه لا ينبغي أن تثير في نفسك شعوراً بالذنب ، عند ما يملكك الغضب منه ، فإني أعتقد أنه لا يهم كثيراً ما إذا كنت تصفعينه على وجهه أو تنبذينه في حجرته أو مجرد أن تنظري إليه شذراً .

كما أني أعتقد أن عقاب الأم أو عدم عقابها للطفل ، وضربها أو عدم ضربها له ، إنما يتوقف في الغالب على ما إذا كانت الأم قد تعرضت لنفس النوع من العقاب في أيام طفولتها .

فأولئك الآباء والأمهات الذين نشئوا دون عقاب إلا في النادر أو دون عقاب على الإطلاق ، لأنه كان في مقدور آبائهم وأمهاتهم المحافظة على النظام في البيت عن طريق التوجيه الإيجابي والحزم لا أكثر ، مثل هؤلاء الآباء والأمهات يستوعبون في العادة نفس الاتجاهات في أسلوب التوجيه والريادة ، ولا يجدون العقاب لازماً إلا في النادر .

أما الناس الذين كانوا أيام طفولتهم يعاقبون لأسباب وجيهة في بعض الأحيان فإنهم بطريقة تلقائية يتبعون نفس أسلوب العقاب مع أطفالهم . فإذا كانت علاقة الأم مع الطفل سايمة بوجه عام ، وإذا كان مسوغ العقاب واضحاً ، وإذا كان العقاب نفسه مناسباً لهذا الطفل بالذات ، فإن الأثر يكون مفيداً وناجحاً في العادة ، ذلك لأن الطفل يدرك أنه قد جر على نفسه العقاب ، ويشعر بالتأديب والتقويم أكثر من شعوره بالغضب والاستياء . كما أن هذه الطريقة التأكيدية تذكره بأن أمه كانت تعنى ما قالته بالفعل . فضلاً عن أن الأم تفرغ — بهذه الوسيلة — شحنة الغضب والغضب التي تجيش في نفسها . وإذا كان العقاب في محله ، فإن الجو يصفو بينها وبين الطفل ، ويسلك سلوكاً حسناً من هذه الناحية (التي عوقب عليها) لفترة طويلة إلى حد معقول .

وغنى عن البيان أنى قد استخدمت كثيراً من الجمل الشرطية في الفقرة السابقة ، لكنى رغم ذلك سوف أضطر إلى إضافة بعض الجمل الشرطية الأخرى إذا اضطرت الأم إلى عقاب الطفل في كثير من الأحيان ، وإذا كانت العلاقة بينه وبينها متوترة دائماً ، وإذا كانت العقوبات تخلف في نفسه شعوراً بالرعب أو الحنق (أو تخلف في نفس الأم شعوراً دائماً بالذنب) ، وإذا لم تؤد هذه العقوبات إلى تحسن في سلوكه ، فهي إذن عديمة الجدوى تماماً . ولا بد أن هناك خطأ ما في النظام الأساسي الذي يطبقه الوالدان على الطفل ، أو في حياة الطفل نفسه ، وكلتا الحالتين تتطلبان المساعدة من مرشد عاقل يتميز بحسن إدراكه للأمور : طبيب نفساني ، أو أخصائي في إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، أو معلم يقسم بالعقل والحكمة ، أو أحد رجال الدين .

عند ما نلجأ إلى العقاب ، هل ينبغي أن نوقعه بالطفل على الفور ؟ أو نؤجله إلى وقت آخر ؟ في بداية هذا القرن عندما كان الاعتقاد السائد بين الناس هو أن الآباء يمكنهم أن يختاروا نظرية في تربية الطفل ثم يطبقوها بقوة الإرادة وحدها (متجاهلين بذلك المشاعر العميقة التي تعتمل في نفوس الآباء والأطفال) ، كان البعض يقولون : إن العقاب لا ينبغي مطلقاً أن يوضع موضع التنفيذ في حالة الغضب ، بل يجب أن ينفذ فيما بعد في جو من الإدراك السليم الهادئ . وهذا رأى بعيد عن الواقع تماماً ؛ إذ يفوته أن الآباء والأمهات — حتى أشدهم عقلاً وازدناً — يدفعهم حافظ قوى إلى عقاب الطفل حين يتملكهم شعور بالغضب له ما يسوغه . وعلى أية حال ، فهذا لا يعنى أنه لا توجد بعض المناسبات التي يفضل فيها الأم أو الأب — عن حق — أن يتروى في الأمر ، وربما تشاور فيه مع شريكه الآخر . ومع ذلك فإنى أرى أن من الأفضل بوجه عام أن يطبق العقاب على الفور وبشكل لا يطول مداه . فمن العذاب الأليم للطفل أن ينتظر ساعات طوالاً حتى يواجه أباه ، كما أن من الشاق على الأب الذى يعود إلى بيته متطاعماً إلى الراحة والاسترخاء أن يجد لزماً عاياه أولاً أن يقوم بدور المؤدب العباس المتجهم ، لذلك أحس شخصياً أننا يجب أن نتجنب تأجيل الحكم على الطفل وعقابه ، ما لم تكن الحالة خطيرة أكثر من المعتاد . أضف إلى ذلك أن العقاب الذى يمتد أسبوعاً أو أسبوعين في بعض الأحيان ، يسبب الشقاء لجميع أفراد الأسرة .

وإذا كنتم ستسألوننى : « ما هو أفضل أنواع العقاب ؟ » فسوف أعيد إليكم سؤالكم ؛ إذ ليست هناك إجابة واحدة عليه ، تماماً كما أنه ليست هناك إجابة واحدة على من يسأل : « أيهما أفضل ، شرائح اللحم المحمر أم الآيس كريم ؟ » أو : « أى اللونين أجمل : الأحمر أم الأزرق ؟ » فالعقاب المناسب هو الذى يبدو مناسباً في نظر الأم ، ويحقق الهدف منه ، فالأمر كله يتوقف على طبيعة الأم ، وعلى طبيعة الطفل ، وعلى طبيعة الخطأ في سلوكه .

إن صفة على اليد أو على الإلية ، لها فعل السحر بالنسبة لإحدى الأمهات مع طفلها ، على حين أن أمّاً أخرى تظل ساعات بعدها فريسة الشعور بالندم ، كما أن طفلاً آخر قد يستبد به غضب جنوني من أثر هذه الإهانة . كذلك نجد أن عزل أحد الأطفال فترة وجيزة في غرفته يبين عريكته في خلال خمس دقائق ، على حين يسبب طفل آخر الشقاء والكدر لأفراد الأسرة بصراخه الذي يستمر زهاء ساعة . كما أن توقيع الغرامات وسحب الامتيازات يلائمان الأطفال في سن المدرسة أكثر من غيرهم . وهذه العقوبات عندما تكون عادلة ولا تضيع في الأرض هباء ، فإنها تخاطب في الطفل الشعور بالعدالة . غير أنها في بعض الحالات تفقد قيمتها الأخلاقية ولا تؤدي إلا إلى تسجيل الأخطاء في الدفاتر وإثارة الجدل العقيم .

وهكذا يتضح أنه لا يوجد أسلوب معين في العقاب يتميز بالدقة والبراعة ، أو يؤتي نفس الأثر بالنسبة لأسرتين مختلفتين ، أو يحقق الهدف المنشود بطريقة آلية .

والعقاب وحده لن يحول إنساناً سيئ السلوك إلى إنسان حسن السلوك ، بل إنه لن يضمن استمرار السلوك الحسن ولو بصفة مؤقتة .

فالتهديب السليم يقوم أساساً على الحب والاحترام المتبادلين بين الطفل والوالدين ، ويجب تعزيزه في مرحلة الطفولة عن طريق التعليم والحزم وتذكرة الطفل بواجباته . وما العقاب إلا وسيلة واحدة من وسائل التذكرة ؛ وسيلة عنيفة تستخدم عند الضرورة القصوى — وتنطوي عادة على مشاعر قوية — كي تعيد الطفل إلى الطريق السوي . أما إذا لم يكن هناك طريق سوي في سلوكه ، فالمهمة في هذه الحالة أكبر من أن يؤديها العقاب وحده . بيد أن الواجب الحقيقي الذي يقع على عاتق الأم ، هو أن تجنب طفلها المتاعب ، بأن توضح له

دائماً نوع السلوك الذى تتطلبه منه ، و بأن تتدخل تدخلا حازماً منذ البداية
عندما يبدأ فى الانحراف عن الطريق السليم ، بدلا من أن تترك له الحبل على
الغارب حتى يفلت منها الزمام ، ثم يتحتم عليها بعد ذلك أن تحدد ما إذا كان
عليها أن تعاقب الطفل وكيف تعاقبه ، ومع ذلك فإن تقويم الطفل مهمة تقصم
ظهور الأمهات فى غالبية الأحيان ، فكلما زاد الجهد الذى تبذله فى تقويم
الطفل ، ازدادت سورة غضبك فى لحظات الفشل ، وإنى لوائق أن هذه كانت
الحال دائماً فى جميع الأسر الطيبة منذ العصور الأولى للجنس البشرى .

دور الأب في تأديب الطفل

« يرتاح الأطفال إلى الآباء الذين يلعبون دوراً إيجابياً في تأديبهم » .

ما هو الدور الذي ينبغي أن يلعبه الأب في تأديب الأطفال ؟ وأنا لا أعنى بكلمة « التأديب » مجرد العقاب ، بل أعنى بها مسألة أشمل من ذلك كثيراً ، وهي مسألة تدبير أمور الطفل وتوجيهه توجيهاً ناجحاً . وسوف أقتبس كلمات اثنتين من الأمهات ، كي أبين نوعين متناقضين من المشكلات . تقول الأولى : « إن زوجي — وهو أب رائع — يريد من الطفل أن يذعن لجميع الأوامر على الفور ، قائلاً إن هذا الأسلوب قد ينقذ حياة ابننا لو أنه واجه موقفاً يحف به الخطر . أما أنا فأكثر ميلاً إلى الرفق واللين ؛ إذ أحس أن الطفل الصغير (طफलنا سنه ١٤ شهراً) لا يمكنه بعد أن يستجيب للأوامر على الفور » . أما الأم الأخرى فتقول : « ابننا الصغير سنه سنتان . والمشكلة هي ولعه بضرب الآخرين ، لاسيما والده . ويقول زوجي إنه لا يجد متعة في اللعب معه لأنه دائماً ما يصفعه على وجهه ، أو يضع أصابعه في عينيه ، أو يضربه على رأسه بأية لعبة في متناول يده . وهو لا يفعل ذلك وهو غاضب ، بل إنه يفعله وهو يقهقه في مرح شديد » .

قد تقلن على الفور إن هذه المشكلات ليست مقصورة على الآباء فحسب ، بل إن بعض الأمهات أيضاً يعانين منها . وهذا صحيح ، لكنني مع ذلك أعتقد أن هذا النوع من المشكلات بالذات غالباً ما ينشأ مع الآباء أكثر من الأمهات .

قبل أن نركز حديثنا على مشكلة الآباء ، جدير بنا أن نفكر في الأدوار المختلفة التي يلعبها الآباء والأمهات في تأديب الأطفال وتهذيبهم . وما عليك

إلا أن تتطلعن حولكن لتلمسن أن الأمر يختلف بعض الشيء من أسرة إلى أخرى ، فهو يتوقف على نشأة كل من الوالدين وشخصيته ، وعلى طبيعة كل واحد من الأطفال ، وهذا شيء طبيعي بلا ريب .

إن عدداً يبعث على الدهشة من الأمهات ، قد ذكرن لي أن أزواجهن يسيطرون على الأطفال خيراً ممنهن . ومما يثير نائرة هؤلاء الأمهات أن أزواجهن يتدخلون تدخلاً هيناً عند عودتهم في نهاية اليوم ، ومع ذلك يسهل عليهم السيطرة على الأطفال أكثر ممنهن . وهذا لا يرجع في الغالب إلى قدرة سحرية عند الآباء ، بل يرجع أساساً إلى أن أسلوب الأم في التأديب والتهديب قد أصبح عديم الأثر ، لأنها تضطر إلى استخدامه ساعة بعد ساعة طوال اليوم .

ربما كان هناك سبب آخر ؛ وهو أن الرجال يتعاملون منذ مرحلة الطفولة المبكرة أن يكبحوا نزعاتهم العدوانية عن طريق التدريب المستمر على اتباع قواعد السلوك : « عليك أن تلعب طبقاً للقواعد المرسومة » . « لا تفقد أعصابك عند الهزيمة » . « لا تضرب رجلاً بعد أن يسقط على الأرض » . « لا تبدأ بالضرب ، ولكن لا مانع من أن ترد اللطمة التي تكال لك » . وأظن أن هذا التدريب الطويل يجعل الرجال أكثر قدرة من النساء على أن يحددوا قواعد السلوك لغيرهم من الناس بطريقة مقنعة توحى بالسلطة والسيطرة . أما البنات فإنهن بوجه عام أقل عنفاً وشراسة من الأولاد ، لذا يمكن السيطرة عليهن بطريقة أقل حدة وصرامة ، كما أنهن ينشأن وقد استقر عندهن اقتناع راسخ بأن في وسعهن التعامل مع غيرهن عن طريق الإقناع الشخصي ، بدلاً من قواعد السلوك المجردة ، بل إنهن يملن إلى الاعتقاد بأن الكثير من القواعد والقوانين التي يضعها الرجال سخيفة ولا معنى لها .

جدير بنا أن نذكر أيضاً أن تهذيب الأطفال في غالبية الأسر يجري بطريقة

أكثر يسراً — وفي نفس الوقت أكثر ليئلاً ورققاً — بين الجنسين المختلفين . فالآباء في معظم الأسر لا يلتزمون مع بناتهم نفس الحزم الذي يعاملون به أبناءهم ، ومع ذلك فقد تبدى البنات استعداداً لطاعتهم أكثر من البنين . كما أن الأمهات قد يتغاضين عن بعض أخطاء أولادهن . ومع أننا كأباء لا نعترف بأننا نفرق بينهم في المعاملة ، فإن أطفالنا غالباً ما يتمكنون من تحديد اتجاهاتنا نحوهم في حديثهم بعضهم إلى بعض . غير أنه ليس هناك سر غامض أو نزعة مريضة في هذه التفرقة . فالحلوقات البشرية قد خلقت لتستهوى الجنس المناقض لها وتتنافس إلى حد ما مع نفس جنسها ، شأنها في ذلك شأن الكثير من الحلوقات الأخرى . وهذا يبدو صحيحاً في غالبية الأسر ، حتى ولو كان الآباء والأبناء يحبون بعضهم بعضاً حباً عميقاً ، وكانت الأمهات والبنات يحملن لبعضهن البعض نفس الحب العميق . فأننا لا أكاد أعرف أبى حين أسمع وصف شقيقائى له ، فهن يؤكدن أنه كان شخصية ممتعة تنسى بالسماحة وتميل إلى المرح والفكاهة ، على حين أنى أذكره كرجل في منتهى الحزم والصرامة ، وإن كان يتفانى في أداء واجبه ويلتزم العدالة المطلقة . ولا يقتصر الأمر على أن الأب قد يكون أكثر تدقيقاً في معاملة أبنائه ، بل إن الأبناء أنفسهم يرونه مهيباً أكثر مما هو في الحقيقة ، نتيجة شعورهم بالتنافس معه .

ثمة تفسير آخر يوضح لنا السبب في أن الآباء عادة ما يكونون أكثر حزمًا مع أبنائهم ؛ ذلك أن الآباء قد اعتادوا في أيام صباهم أن يحاولوا الارتفاع إلى مستوى الرجال ، وكثيراً ما انتقدهم آباؤهم وانتقدوا هم أنفسهم حين كانوا يخفون في أن يسلكوا سلوك الرجال . ونحن عندما نتقدم في السن ، نميل ميلاً شديداً لأن نتقد نفس الأشياء التي كنا نتعرض بسببها للنقد في أيام طفولتنا ، حين نلصقها في أطفالنا وأطفال الآخرين . وكذلك الأمهات ، وقد

ظلل بنات صغيرات لسنوات عديدة ، يعرفن تمام المعرفة نوع السلوك الذى يتطلبه من بناتهن .

* * *

والآن لقد حان الوقت الملائم لأن نعود إلى مناقشة المشكلات الخاصة التى يواجهها بعض الآباء . فلنناقش أولاً مشكلة ذلك الأب الذى يتوقع الطاعة على الفور من ابنه البالغ أربعة عشر شهراً . وإذا سمعته لى بشيء من التخمين ، فإنه يأخذ أن هذا الغلام هو الطفل الأول فى الأسرة (فنحن نكون عادة أكثر استرخاء فى تربية طفلنا الثانى أو الثالث) ، وأخذ أيضاً أن هذا الأب قد نشأ من تربية تنقسم بالحزم والصرامة أكثر من المعتاد ، مع التركيز بصفة خاصة على أهمية إطاعة الأوامر على الفور . وهذا الأسلوب فى التربية لم يحدده نمطاً معيناً فى السلوك أو يخلق فيه عادة معينة فحسب ، بل إنه تغلغل فى مشاعره إلى أبعد من ذلك بكثير ، فنحن جميعاً حين كنا أطفالاً وكان يوبخنا آباؤنا توبيخاً صارماً على تصرفات معينة يقولون إنها سيئة أو وخيمة العاقبة ، كان يتولد فى نفوسنا قلق حقيقى من هذه العواقب الوخيمة ، وحتى ولو لم نبذل اهتماماً كبيراً بالأمر فى حينه . وهذا هو السبب فى أننا — حين نكون آباء حديثي العهد — نفقض على أطفالنا بعنف شديد ، قبل أن نتيح لأنفسنا فرصة التفكير والتأنى . فالأب الذى نحن بصددده لا بد أنه خائف حقاً من أن يتعرض ابنه للمتاعب فى حياته المستقبلية ، لو أنه لم يكتسب منذ نعومة أظفاره عادة إطاعة الأوامر على الفور — مهما يبدو هذا الاتجاه بعيداً عن العقل والمنطق فى نظرك وفى نظرى — فهذا الاتجاه قد نشأ عند الأب من أثر مشاعر القلق العميقة التى ترسبت فى نفسه عن طريقة تربيته . كما أن عدم إحساس زوجته بهذا الخطر الذى يحيق بالطفل ، يزيد من شعوره بالقلق عليه . على أن معظمنا بوسعه أن ينظر إلى الطفل ابن السنة

نظرة أكثر هدوءاً واثزاناً من هذا الأب ، لإدراكنا أن مثل هذا الطفل مستعد فقط لتلقى بعض الدروس الأولية البسيطة في الخضوع للنظام ، وأن هناك وسائل عديدة إلى جانب الطاعة يمكن بها أن نجنبه مواطن الخطر ونحميه من سوء السلوك .

كما أن الصرامة قد تشدد وطأتها ، حين يحس الزوج لأى سبب من الأسباب المختلفة أن زوجته تحبب الابن على حسابه أو تنحاز إلى جانبه ضده . وهذا الاتجاه يظهر بصورة مجسمة في القصص التي تدور حول زوج الأم الحقود الذى يحنق على ابن زوجته لأنه قد تمتع بحب الأم من قبله بأمد بعيد . غير أنه من الممكن أن يشعر الأب بنفس الشعور نحو ابنه ، إذا كان هو نفسه يعانى دائماً من عدم الشعور بالأمن والطمأنينة (ربما منذ أيام طفولته حين كان يحس بأن أمه تؤثر أخاه الأصغر عليه) أو إذا كانت زوجته تكن له العداء والنفور ، وتستغل — لا شعورياً — علاقتها الوثيقة مع ابنها في إثارة المشاجرات معه .

لقد كانت بعض العوامل التي تؤدي إلى مغالاة الأب في الشدة والصرامة ، تظهر بصورة جلية حين يعود أحد الآباء إلى بيته من الحرب العالمية الثانية ، التي كان يتحتم عليه أثناءها أن يخضع لاستبداد النظام العسكري ؛ يعود فيجد ابناً في الثانية أو الثالثة من عمره ، يتمتع بكل وسائل الراحة في البيت ، ويبدو أنه يستنفد معظم وقت الزوجة واهتمامها ، ولا يلوح عليه أن لديه أدنى فكرة عن أى نوع من النظام . وما يزيد الأمر سوءاً على سوء أن الغلام قد يبدى من جانبه استياء عنيفاً من هذا المارد الذى اقتحم عليه بيته وحاول أن يتصرف فيه كما لو كان يمتلك أمه الحبيبة .

ولئن حاولت زوجة الأب الصارم أن تعوض الابن عن عنف الأب

وشدته ، فإن هذا السلوك منها يزيد من خشية الأب أن ينشأ ابنه مدلاً .
ومن ثم يميل إلى أخذه بمزيد من الشدة . كما أن جهود الأم لحماية الابن تزيد
من عداوة الأب لـ كليهما على المدى البعيد ، وهذا يثبت في الغلام شعوراً بأنه .
هو وأمه عدوان لأبيه ، وهو شعور ضار من جميع النواحي .

فإن استطاعت الأم أن تكبح جماح الحافز الذي يجعلها تنبرى للدفاع عن
الغلام ، وأمكنها أن تتواري عن الأنظار حين يقوم الأب بتأديبه ، فإن هذا
الأسلوب يخلق في العادة أحسن موقف يستطيع فيه الأب والابن تصفية العلاقة
بينهما . وإذا استطاعت الأم أيضاً أن تبدى فهماً عميقاً قائماً على التعاطف لما يعمل
في نفس زوجها من قلق على شخصية الغلام ، فإن هذا قد يساعد على إنقاص
عامل الوهم في شعور الأب بالجزع والقلق . أما إذا كانت الأمور قد تجاوزت
المرحلة التي تجدى فيها هذه الوسائل ، فإن المشكلة في هذه الحالة تستحق أن
يناقشها الأب مع ناصح أمين يوليه ثقته ، كالطبيب أو أحد رجال الدين .

* * *

ولنتقل الآن إلى النموذج الثاني : الأب الذى يصفه طفله ابن السنتين وهو
مفرق في الضحك . إنه يبدو على النقيض من الأب الشديد الصارم ، لكنه
ليس على نقيضه تماماً . فلو أنك سألت مثل هذا الأب عن شعوره ، فإنه في
الغالب سيجيبك قائلاً : « لقد كنت أعامل معاملة في غاية الشدة أيام طفولتي .
ولا أريد أن يحنق على ابني يوماً مثلاً كنت أحنق على أبي في كثير من
الأحيان » . وهكذا نرى أن كلا الاتجاهين ينشآن من أثر التربية الصارمة .
غير أن الأب في الحالة الأولى ينحاز إلى جانب الجِد — أبيه — في خوفه من
العواقب التي تترتب على عدم تهذيب الطفل وتأديبه ، على حين أن الأب في
الحالة الثانية يخاف من العواقب التي تترتب على المغالاة في التأديب والتهذيب ..

وهذا الاتجاه عنده قد يجعله خائفاً من تأكيد ساطته ، أو حتى الدفاع عن نفسه ، لدرجة أنه يكاد يشجع الطفل على الاستبداد به .

إن كل طفل عندما يناهز السنة من عمره ، يبدأ في الاهو بإيذاء الآخرين ، حين تتملكه نزواته وأهواؤه ، فهو يشد شعر أمه أو ينشب أسنانه في خد أبيه . غير أن الأب الذي لا يخشى اتخاذ موقف الحزم لإدراكه أن الطفل يحتاج إلى التوجيه المستمر ، يكبح جماح طفله الصغير على الفور ، ويبدى له على ملامح وجهه شيئاً من الاستنكار لهذا السلوك ، فإذا عاود الطفل المحاولة ، يعود الأب تلقائياً فيكبح جماحه مرة أخرى . إن هذا الدرس الهادىء — الذى يبين للطفل أن الأب لا يحب أن يؤذيه أحد ولا ينوى السماح لأحد بإيذائه وسوف يمنع الطفل من إيذائه — هذا الدرس يرسب رويداً رويداً في عقل الطفل الصغير ، حتى ولو كان ابن سنة واحدة . قد لا يستوعب الطفل هذا الدرس تماماً من أول مرة ، لكن تكراره بضع مرات قلائل سوف يحقق الهدف المنشود على وجه معقول .

أما إذا كان الأب يخشى إبداء حزمه للطفل (الواقع أنه يخشى إبداء شعوره بالغضب) ، حتى إنه يسمح له بالهجوم عليه دون عقاب ، فإن هذا الأسلوب يفرى الطفل بتكرار المحاولة . والشئ المذهل أنه حتى الطفل ابن السنة يدرك أنه ليس من الصواب أن يستسلم له الأب كل هذا الاستسلام ، وأنه ليس من الصواب أن يتمكن من السيطرة على أبيه بهذه السهولة ، بل إن إيذائه للأب أو الأم دون عقاب يبعث فيه شعوراً بالقلق والضيق . وحين تقول الأم إن طفلها ابن السنتين يمهقه في سرور عند إيذائه لأبيه ، لا يمكننى أن أصدق أنه سعيد حقاً ، وأظن أن مشاعر الطفل في هذه الحالة تكون مزيجاً من الانفعال اللئيم والشعور بالذنب . بل إنى سوف أتمادى إلى أبعد من ذلك ، فأخن أن

الطفل يرجو من أبيه شيئاً من الكبح والقمع ، حتى يقسنى له أن يستمتع حقيقة باللعب معه .

إن الصورة التي رسمتها لنا هذه الأم عن طفلها ليست من الصور المألوفة على الإطلاق ، حتى لقد يتبادر إلى أذهانكم أنها لا تنطبق على كثير من الأسر . غير أن هناك مشكلة أخرى تردها الأمهات في طائفة قليلة من الأسر ، إذ تقول الأم : « إن شكايتي — أساساً — هي أن زوجي يترك لي كل كبيرة وصغيرة فيما يتصل بتأديب الأطفال وتهذيبهم ، حتى أثناء وجوده بالبيت في المساء وفي عطلات نهاية الأسبوع » . وهناك أعذار عديدة يسوقها مثل هذا الأب لتسويق هذا السلوك ، كأن يقول إنه يكون مجهداً في نهاية اليوم ، أو إنه يريد أن يستمتع فقط بالراحة والاسترخاء في عطلات نهاية الأسبوع ، أو يقول إن الأم هي التي تدبر أمور الأطفال معظم ساعات اليوم على أية حال ، ومن ثم فهو لا يدرى شيئاً عن قواعد السلوك التي تطلب منهم اتباعها . ولكن هذه المعاذير ضعيفة واهية بلا شك . كما قد يشكو الأب — وله في ذلك عذر أقوى — من أن زوجته تضرب بتعليماته عرض الحائط حين يحاول الاشتراك معها في تدبير أمور الأطفال ، وأنها كثيراً ما تستبد بالأطفال وتفرض عليهم أوامرها بلا مسوغ ، ثم تتوقع منه أن يساندها في ذلك . من البديهي أن مثل هذه الاختلافات الثانوية في وجهات النظر بين الأب والأم تحدث في غالبية الأسر بين الفينة والفينة ، ولكنها تصبح مصدراً دائماً للشكوى في بعض الأسر . والظاهرة المميزة في هذه الأسر هي أن الأم تحمل العبء الأكبر في تسيير أمور الأطفال ، على حين يكون الأب متساهلاً أو متباعداً نسبياً ، وهذا الأب قد يكون شخصية قوية بالغة الأثر في ميدان عمله .

إن المشكلة الهامة هي : ما هو الأثر الذي يحدث في الأطفال حين لا يسهم

الأب إلا إسهماً ضئيلاً في تأديبهم وتهذيبهم ؟ لقد ذكرت من قبل أن السبب الحقيقي الذى يدفع الأب إلى اتهاج هذا الأسلوب و الغالب هو أنه يخشى أن ينفر منه أطفاله — لا سيما الأولاد — إن هو غالى فى الحزم والصرامة ، لذلك فهو يبذل قصارى جهده لإرضاء رغباتهم . ولكن البحوث التى تقوم بها عيادات توجيه الأطفال النفسية ، تبين لنا فى جلاء أن الأطفال لا يزداد حبهم للأب واستمتاعهم بصحبته ، إن هو وقف جانباً بمعزل عنهم ، دون أن يؤدبهم إلا فى القليل النادر . والواقع أن الحقيقة التى يستخلصها الطبيب النفسانى من قصص الأطفال الوهمية ومن أحلامهم المزعجة ، هى أنهم غالباً ما يشعرون بالخوف من الأب المنطوى على نفسه . ولعل أحد التفسيرات لهذا الشعور ، هو أن نقول إن الأطفال جميعاً يدركون — بما عندهم من دهاء بدائى — أن كل الآباء يحسون بالغضب فى دخيلتهم حين يسئ الأطفال سلوكهم ، لذلك يزداد خوفهم من الغضب الذى لا يجاهر به الآباء إلا نادراً أو لا يجاهرون به على الإطلاق ، إذ يسألون أنفسهم عن مدى فظاعة هذا الغضب الدفين . ولنعكس الوضع فنقول : إن الطفل الذى يسئ السلوك يدرك أنه ينبغى تقويمه ، ويرغب فعلاً فى هذا التقويم ، كما يحس أنه قد عاد إلى الطريق السوى . فإذا لم يبدأ بوه أى تردد فى استخدام الحزم والتوبيخ المناسبين ، فإن شعور الطفل بالذنب تخف وطأته . كما يدرك الطفل هذه المرة أيضاً أن غضب أبويه يبعث على الطمأنينة ، فهو يكدره لكنه لا يؤدى إلى موته ، بل إنه كلما احتك بأبيه ثم وجد أنه ما زال سالماً آمناً بعد هذا الاحتكاك ، ينمو عنده شعور معين بالثقة بنفسه . فهذا الموقف بينه وبين أبويه يث فيه الشجاعة لمواجهة الأولاد والرجال الآخرين الذين سيضطر لمواجهةهم بقيمة حياته ، دون أن يستبد به الخوف من غضبهم .

ويمكننا أن نلخص هذا الموضوع بأن نقول عن الأب الذى يحجم عن

المساهمة في تأديب أطفاله تأديباً معقولاً : إنه ليس هناك ما يدعو للخوف من حنقهم واستيائهم ، وإنما على العكس سوف يزدادون حباً له وارتياحاً إليه واستمتاعاً بصحبته إن هو أكد سلطته بالأسلوب الأبوي المعتاد . كما أن زوجته تستطيع مساعدته في هذا المضمار ، لا بأن تحثه على تأديب الأطفال عندما تعتقد هي أن الموقف يستلزم التأديب ، بل بالأعترض عليه عندما يحس هو أن الموقف يتطلب الحزم منه ، وبأن تظهر للأطفال في جلاء أنها تحترم تقديره السليم ومكانته في الأسرة .

مصاحبة أطفالك

« لا داعى لأن تكون هذه المصاحبة على كره منك »

ما مدى أهمية مصاحبة الآباء والأمهات لأطفالهم ؟ إن هذا السؤال يقاق بصفة خاصة أولئك الأمهات اللاتي يبدى أزواجهن ميلا قليلا للعب مع الأطفال ، أو لا يوجدون بالبيت ، والأطفال مستيقظون ، إلا فترات محدودة للغاية .

وفى اعتقادى أن جانباً كبيراً من الاهتمام السائد فى أمريكا بشأن ضرورة اقتراب الأب من أطفاله ، إنما نشأ نتيجة للمقالات والأحاديث المستمدة من تجارب الأطباء فى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، والتي تشير إلى أن بعض الأطفال قد ساءت قدرتهم على التوافق مع البيئة ، من أثر علاقة التبعاد التي لا تبعث على الرضا بينهم وبين آبائهم . ومما أثار الاهتمام أيضاً أن نسبة الرجال المشتغين بالتعليم فى المدارس الابتدائية الأمريكية نسبة ضئيلة للغاية ، على عكس الحال فى كثير من البلاد المتحضرة الأخرى ، حتى إنه يقال إن النساء فقط هن اللاتي يحطن بأطفالنا وينشئتهم .

على أن طائفة قليلة نسبياً من الأمهات — فيما يبدو لى — هن اللاتي يساورهن القلق حول ما إذا كان يحذرهن تخصيص فترة من الوقت يلعبن فيها مع الأطفال . وهذا يرجع فى رأى إلى أن الأمهات ينفقن اثنتى عشرة ساعة أو أكثر مع أطفالهن . وهذا الجهد لا يخلف لمعظمهن سوى القليل من الطاقة للعب والمزاح ، كما أنه يخلف فيهن شعوراً براحة الضمير لأنهن لايهملن أطفالهن . ومن الطريف أن السيدة التي تحس أن زوجها بنبنى أن يمضى مزيداً من

وقته مع الأطفال ، غالباً ما تعبر عن ذلك بقولها له : « اللعب معهم » أو « اشترك معهم في عمل بعض الأشياء » . إن هذه الكلمات تضي على صاحبة الأطفال طابعاً متكلفاً فيه شيء من الإكراه ، كما لو كان من واجب الأب أن يتوقف عن أداء الأشياء الأخرى التي يحس أن من واجبه أداءها ، وأن يكف عن ممارسة هواياته الخاصة ، كي يعطى الأطفال حقهم . وأظن أن هذا التكلف الذى ينمى في اختلاق « شيء نفعه مع الأطفال » هو أحد العوامل في العناد المستمر الذى يبدية بعض الآباء من هذه الناحية ، لأن الكثير من الآباء الطيبين يعتبرون أن تخصيص فترة من الوقت يكرسونها تماماً لمصاحبة الأطفال شيء يبعث على السأم .

على أن الآباء في غالبية المجتمعات البدائية ، لا يضطرون إلى ابتكار أشياء يؤدونها مع أطفالهم في أيام العطلة ، كي يعوضهم عن غيابهم في المكتب أو في الطريق أو في اجتماعات اللجان طوال الأسبوع ، لأن عمل الأب — في صيد الحيوانات أو صيد الأسماك أو فلاحه الأرض — قد يكون على مقربة من بيته ، مما يتيح له أن يمكث جانباً كبيراً من الوقت في البيت . وفي كثير من أنحاء العالم التى لا توجد بها مدارس نظامية عادة ما تكون مسئولية الأب — وموطن نفه — أن يعلم ابنه مهارات الرجال التى سوف يكسب منها رزقه ، فيصطحبه معه إلى العمل بمثابة « صبي » له يساعده ويتعلم منه الحرفة ، بمجرد أن يصبح الابن قادراً على ذلك .

ونحن عندما نراقب الأطفال عن كثب ، كى نرى نوع المشاركة التى ينشدونها من آبائهم ، نجد أنهم وإن كانوا يريدون أحياناً أن يلعب الأب معهم على مستواهم الطفلى ، فإنهم في غالبية الأحيان يفضلون أن يلعبوا لعبة تقليد الكبار ، سواء اشترك الآباء في اللعب معهم أو لم يشتركوا . فالبنات الصغيرات

يرغبون في أداء بعض الأعمال المنزلية الحقيقية وفي رعاية المولود إلى جانب أمهاتهم، كما أن الأولاد الصغار يرغبون في أداء بعض أعمال النجارة وفي تشذيب الحضيرة وفي قيادة السيارة مثل آبائهم . وهذه هي الوسيلة الرئيسية التي تزداد بها معلومات الأطفال وتنمو شخصياتهم .

يبد أن هناك أنواعاً شتى من الآباء الطيبين : الآباء الذين يتسمون بالهبة والجلال ، والآباء الذين يميلون إلى اللعب والمزاح ، والآباء ذوي المهارة اليدوية الذين يحبون صنع الأشياء بأيديهم ، والآباء المرتبكين «اللاخمة» الذين يكرهون كل الهوايات اليدوية ، والآباء الذين يحبون الألعاب الرياضية ، والآباء الذين يجلسون في المقاعد طوال الوقت ، والآباء الذين يتمتعون بخيال خصب ، والآباء الذين يفكرون تفكيراً حرفياً مترمناً . وكل واحد من هؤلاء الآباء تربطه بأطفاله علاقة مختلفة ويؤثر فيهم تأثيراً مختلفاً عن الآخرين . وهذا أمر طبيعي ما دام العالم يتسع لأنماط لا حصر لها من الناس . على أنه من الممكن أن يكون هؤلاء جميعاً آباء مثاليين ، لو أنهم بثوا في أطفالهم شعوراً عميقاً بأنهم يتقبلونهم ويستمتعون بصحبتهم ويكونون لهم الحب . ومن ثم فلا أساس للقول بأن كل أب ينبغي أن يلعب مع ابنه بطريقة معينة ، أو ينبغي أن يخصص عدداً معيناً من الساعات لمصاحبته كل أسبوع . فهذا الأسلوب ما هو إلا عذاب أليم لبعض الآباء والأمهات ، وفي بثل هذه الحالات يتضح أنه مصدر ألم لأطفالهم أيضاً .



إذا كان الأب من النوع الشيطاني الودود الذي يحب لعب كرة القدم ، وكان أطفاله لا يستمتعون بشيء قدر استمتاعهم بالاشتراك في مباراة معه بعد ظهر يوم العطلة ، فإن هذا الشيء رائع لهم جميعاً . ولكن فلنأخذ مثلاً آخر : إذا كان

الأب شديد اللهفة على أن يجعل ابنه بطلا من أبطال الرياضة ، لاعتقاده أن هذا هو السبيل إلى الرجولة وإلى النجاح في الحياة الجامعية ، فإن ابنه قد ينتهى به الأمر سريعاً إلى الشعور بالخوف من فترات التدريب الرياضى المشحونة بالتوتر ، التى تفرض عليه فرضاً ، بل إن من المحتمل أن يتولد عنده شعور بالنفور من كل ضروب الرياضة .

قبل أن نبتعد عن موضوع الأب المولع بالرياضة ، أود أن أذكر كلمة موجزة بشأن الألعاب العنيفة . إن طائفة قليلة من الآباء تعتقد أن الألعاب البهلوانية والعراك والدغدغة وتمثيل دور الغول أو الحيوانات المتوحشة ، هى خير الوسائل الطبيعية لتسلياة أطفالهم واللهو معهم . كما أن غالبية الأطفال يستجيبون لهذه الألعاب فى حماسة ، مما يدفع الآباء إلى التماهى فيها . على أن العمل فى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، يبين لنا أن هذه الألعاب تثير انفعالات الطفل أكثر من اللازم — فى بعض الحالات على الأقل — لاسيما الطفل الصغير الذى لا يستطيع بعد أن يميز بين التمثيل والحقيقة . وقد ثبت أن بعض هذه الألعاب يبعث خوفاً طائغاً فى قلوب الأطفال ، وأن بعضها يثيرهم إثارة شديدة مشحونة بالمثقة الجارفة ، لدرجة قد تضر بصحتهم النفسية . لذلك ينبغى أن تمارس هذه الألعاب بحكمة وتعطى للأطفال فى جرعات صغيرة .

ومن بين المشكلات التى تنشأ فى بعض الأحيان ، أن أحد الآباء المتحمسين قد يستهويه اللعب بالمكعبات الخشبية أو القطارات أو مجموعات تكوين نماذج المباني الخاصة بابه ، فإذا به — دون قصد منه — يتولى تصميم النماذج بدلاً من الطفل نفسه . وقد يخطط تصميمها يتجاوز قدرة الطفل ، ثم يدربه على كيفية تنفيذة تدريباً عنيفاً ، بل إنه كثيراً ما يبدى ضجره من بقاء الطفل فى إنجاز النموذج ، فلا يلبث الطفل أن ينسحب من هذه المهمة ، متجهاً إلى مهمة أخرى

يمكنه أن يسير فيها على مهل ، ويحصل منها على شعور بالرضا لأنه قد حقق شيئاً بجهده الخاص ، تاركا لأبيه مهمة تنفيذ النموذج الأصلي بنفسه .

ولذا كان الأب من النوع الذى يستطيع أن يحى مباحج طفولته من خلال الخبرات التى يتيحها لأطفاله ، فيحب أن يصطحبهم إلى المتاحف والاستعراضات العسكرية وحدائق الحيوان وحلبات السيرك ، فإن هذا يكون شيئاً ممتعاً للجميع . أما إذا كان يقوم بهذه الرحلات لمجرد أن الأسرة ناكفته حتى أكرهته عليها ، فإن العبوس الذى يرسم على وجهه أثناءها لن يفيد فى تنمية العلاقة بينه وبين أطفاله .

ومن الأوقات المثلى التى يمكن أن يصاحب فيها الأب ابنه ، ذلك الوقت الذى يمضيه معه فى أداء عمل ، يجد فيه الأب متعة حقيقية ، فى حين يجد الابن نفس المتعة فى أدائه معه ، سواء أكان ذلك بعض أعمال النجارة فى « بدروم » البيت أم صيد الأسماك أم مشاهدة مباراة فى الكرة . إذ ليس هناك أى تكلف أو ادعاء فى مثل هذه المواقف ، بل إن فيها متعة مشتركة ، متميزة بالتعليم والتثقيف ، وكلاهما من العوامل القيمة فى تنمية العلاقة بين الطفل والأب . على أن هناك الكثير من العثرات ، حتى فى التسلية المشتركة التى تبشر بكل خير فى ظاهرها ، كما يعلم جميع الآباء المحربين ، لذا ينبغى أن ننبه إليها الأب الذى تعوزه التجربة ، ذلك أن فترة تركيز الانتباه عند الأطفال عادة ما تكون طويلة المدى حين يتابعون هواياتهم الخاصة ، لكنها تكون قصيرة الأمد حين يتصل الأمر باعتبارات لا يقدرها سوى الكبار وحدهم . فالغلام دون سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة ، قد لا يلتقى بصره إلى الجوانب الرائعة فى إحدى المباريات الرياضية بعد انقضاء نصف ساعة من بدء المباراة ، بل يتحول انتباهه إلى بائعى الهدايا التذكارية والمشروبات الخفيفة . (ما هو السبب يا ترى فى

أن الأطفال ، حتى صغاف « الشهية » منهم ، يقرصهم الجوع على الفور في الأماكن العامة ؟ ولماذا يصرون جميعاً بلا استثناء على التوقف في الطريق لتناول زجاجة من المشروبات في نهاية رحلة من الرحلات ، بدلا من الرضا بالانتظار عشرين دقيقة حتى يحصلوا على نفس الزجاجة من الثلاجة في البيت ؟) وفي أثناء المباراة يظل الطفل يوجه أسئلة إلى أبيه عن الطريقة التي تعمل بها لوحة تسجيل الأهداف ، وعن الفرقة الموسيقية ، وعن الشخصيات المضحكة التي تجلس في المنصة الرئيسية ، وعن كل شيء يخطر بالبال ، عدا المباراة . وهذا النقص في قدرة الطفل على تذوق متعة المباراة الرياضية ، يثير غضب الأب غير المجرب وضجره في المرات الأولى ، ثم يدرك بالمرآة أنه اتجاء طبيعي عند الطفل ، فيحاول أن يصل إلى حل وسط يرضى الطرفين : كالأب يصطحب الطفل معه إلا عندما يأنس في نفسه قدرة على الصبر أكثر من المعتاد ، أو لا يصحبه معه إلا عندما تكون المباراة زهيدة الثمن أو قليلة الأهمية ، أو يذهب جماعة مع أب آخر وابنه كي يتسنى لكل منهما أن يشارك قريبه في السن في الاهتمامات التي تناسب سنه .

كما أن الأب الحكيم الفطن يتوقع سلفاً أن الغلام الذي يدعى الحماسة لصيد السمك ، قد ينصرف عن الصيد سريعا إلى إلقاء الأحجار في مجرى الماء ، أو بناء سد من الطين .

وعندما يبدي أحد الأبناء رغبة في العمل إلى جانب أبيه في أعمال النجارة ، فإن الأمر يتطلب من الأب قدراً كبيراً من اللباقة والدبلوماسية ؛ ذلك أن الغلام قد يريد الاشتراك في تنفيذ مشروع يقوم به أبوه ، ويحتمل أن يصيبه بالتأف ، أو قد يستقر عزمه على تنفيذ مشروع من بنات أفكاره ، لكنه مشروع معقد بدرجة لا تتناسب مع سنه ، أو قد توجد بالمكان معدات خطيرة أو معقدة التركيب أو قابلة للكسر ، بحيث لا تصلح لأن يستخدمها غلام صغير

السن ، لكنه سوف يحس بإهانة بالغة لو أننا أفهمناه هذه الحقيقة بطريقة تنتقص من قدره وكرامته .

إن خير وسيلة مجدية في هذه الحالة ، هي أن يضع له الأب بضع قواعد يسير على هديها منذ البداية . كأن يقول له : « يمكنك أن تستعمل هذه المعدات دون مساعدة من أحد ، لكني سوف أساعدك حين ترغب في استخدام هذه الأداة . أما هذه فيمكنك استعمالها عند ما تكون أكبر سنًا » ثم يدع الغلام يختار المشروع الذي يروق له ، ويتركه يدرس تفصيلاته بنفسه ، دون أن يقدم له سوى أقل قدر من المقترحات والانتقادات . والعجيب أن غالبية الأطفال يكشفون عن تقدير سليم في « تقييم » قدراتهم ، ويسعدون في العادة سعادة غامرة بالنتائج التي يحققونها بأنفسهم ، حتى ولو كان إنتاجهم بعيداً عن الإتقان والتناسق من وجهة نظر الكبار .

هناك الكثير من المهام العادية يستطيع الرجال والأولاد أداؤها معاً هنا أو هناك في أرجاء البيت مثل : قطع الحشائش من الحضيرة ، جمع أوراق الأشجار بالجرفة ، غسل السيارة ، تنظيف الخزن ، أعمال السباكة والطلاء . لكني أعتقد أن الأب يميل في بعض الأحيان إلى إعفاء ابنه من هذه المهام عندما يكون حدثاً صغير السن ، ثم ياقمها على عاتقه فيما بعد . غير أنه من المفيد للغلام أن يحس بأنه يسهم في عمل نافع ، حتى ولو كان في سن تجعل إسهامه في العمل مصدراً للمتاعب ، لا يستأهل الجهد الذي يبذله فيه . كما أنه من خلال المشاركة على أداء بعض المهام كل عام ، يكتسب مزيداً من الصبر والجلد شيئاً فشيئاً .

وحين يبلغ الغلام السن التي يستطيع فيها القيام بمثل هذه المهام بمفرده ، يستحسن ألا يكف الأب عن مشاركته في أدائها . وليس هذا بهدف مصاحبة الغلام فحسب ، بل لأن من العسير على معظم الصبية أثناء مرحلة المراهقة ألا يتلصكوا

ويسوفوا في أداء المهام الملقاة على عاتقهم ، أو يتخلوا عنها قبل أن ينجزوها تماماً ، ما لم يصحبهم أحد الكبار ويعطهم شيئاً من التوجيه والإرشاد .

وهكذا نرى أن التسلية المشتركة والعمل المشترك بين الآباء والأبناء لهما فائدة جمة ، إن وجدت الفرصة الملائمة ، وتوافر الميل عند الطرفين . غير أنه من المهم ألا يغيب عن بالنا أن العلاقة الطيبة بين الأب والابن تتوقف أساساً على الروح التي يتعاملان بها معاً في ماجريات الحياة اليومية : عملية الاستيقاظ من النوم في الصباح ، تناول الوجبات ، أشقات الأحاديث المتناثرة حول الأخبار العامة والأحوال في المدرسة ، تحديد الواجبات والمهام للطفل وأدائه لها ، تعنيف الأب له على أخطاء السلوك . فإذا كان الأب والابن يحترمان أحدهما الآخر ، ويحبان أحدهما الآخر ، ويرتاحان أحدهما إلى الآخر ، فليست هناك حاجة ماسة في هذه الحالة لأن يعتمد الأب افتعال أشياء يؤديها مع ابنه . فهناك بالطبع بعض الآباء الذين لا تسمح لهم ميولهم وارتباطاتهم بأن « يفعلوا شيئاً » على الإطلاق مع أبنائهم ، ومع ذلك فإن لهم أثراً فيهم يبعث على الرضا التام . وأنا إذ أقول هذا لا أنكر قيمة المصاحبة الخاصة بين الآباء والأبناء ، فعندما يعمل اثنان من الناس معاً في مهمة ما ، أو يشتركان معاً في رحلة ما (سواء أكانا أباً وابنه ، أم زوجاً وزوجته ، أم اثنين من الأصدقاء) ، فإنهما قد يكتشفان في بعض البعص صفات واستجابات ومشاركات وجدانية ، لا يمكن على الإطلاق أن تتكشف لهما بهذا الوضوح في خضم الحياة اليومية . ومثل هذه المناسبات قد يذكرها المرء طوال حياته وتضيف أبعاداً جديدة إلى علاقته بالناس .

* * *

يبدو لي أن الحياة في أمريكا تتيح يومياً فرصاً طبيعية للغاية لأن تصاحب الأمهات بناتهن ، أكثر من الفرص التي تتاح للآباء لمصاحبة أبنائهم ؛ ذلك لأن غالبية الأمهات مرتبطات بالبيت لأداء الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال .

وهذه صور من النشاط تبدو هامة في نظر البنات الصغيرات ويحسبن عليها أمهاتهن ، لاسيما في الفترة التي تسبق دخول المدرسة . والأم الحكيمة هي التي يمكنها أن توجه ابنتها التوجيه السليم — عن طريق الإرشاد والتقدير والود — حتى تتحول المساعدة المزعومة التي تقدمها البنت لأُمها في بعض الفترات القصيرة إلى مساعدة حقيقية تتأبر عليها طوال مرحلة الطفولة والمراهقة . فالمشاركة في عمل البيت تفيد الطفل نفسيا ، وتضع أساساً متيناً لأسلم صور المصاحبة بينه وبين والديه . (في بعض الأسر يعتبر إعداد الوجبات وتنظيف المائدة بعد الأكل من المهام التي تلائم الأمهات والبنات فقط ، على حين يعتبر العمل في الحديقة والورشة والجراج من مهام الرجال والأولاد . وفي بعض الأسر الأخرى يقوم الذكور أيضاً بغسل الصحاف « الأطباق » وتجفيفها . فالشيء الوحيد الهام في هذا المجال هو أن يحس الجميع بأنهم يؤدون نصيبهم في العمل) .

ومن بين المناسبات التي تحصل فيها الأم وابنتها غالباً على صحة ممتعة إحداها للاخرى ، تلك الفترات التي تقضيانها معاً أثناء تجوالهما في السوق لشراء السلع المختلفة ، لاسيما الثياب .

إن العلاقات بين الأمهات وأبنائهن ، وبين الآباء وبناتهم ، لها أثر عميق في شخصيات الأطفال واتجاهاتهم وزواجهم في المستقبل . لأن شخصية الطفل واتجاهاته تنمو أثناء مرحلة الطفولة ، نتيجة للاتصالات والاحتكاكات اليومية العادية في حياة الأسرة ، أولاً وقبل كل شيء . فالأم هي التي تطعم أبناءها وتريحهم « وتهندمهم » وتؤدبهم وتروى لهم القصص ، لاسيما في الأعوام الأولى من حياتهم ، مثلما تفعل مع بناتها تماماً . كما أن الأب أثناء وجوده في البيت يمكن أن يكون المحدث والمؤدب والرائد وللاعب المباريات وقائد الرحلات بالنسبة لبناته وأبنائه ، على حد سواء . غير أننا كأباء لا نرسم لبناتنا بـ برامج خاصة بعيدة

المدى لمصاحبتهم وتنقيفهم بأنفسنا ، كما أن الأمهات لا يفعلن ذلك مع أبنائهن . وهذا اتجاه طبيعي لا غبار عليه . فالواقع أن الأم أو الأب الذي يحاول أن يكون رفيقاً خاصاً وصديقاً حميماً أكثر من اللازم لأحد أطفاله من الجنس الآخر ، يحتمل أن يقف حجر عثرة في سبيل نمو الطفل بدلاً من أن يدفعه إلى الأمام . وأنا لا أعني بهذا الكلام أن الأب ينبغي أن يأخذ ابنته على علاتها ، أو أن يميل إلى الابتعاد عنها . فهي في حاجة لأن تحس أن أباه يقدرها كفتاة ويقدرها كفرد له كيانه . في إمكان الأب مثلاً أن يبدى لها هذا الشعور بأن يرحب إليها كلمة إطراء حارة ، عندما تخبز كعكة شهية في الفرن ، أو عندما تهندم نفسها فتبدو جميلة للناظرين . يمكنه أيضاً أن يبدى هذا الشعور نحوها ، بأن يظهر استمتاعه بالقصص التي ترويها له ، وبأن يشترك معها في بعض ألعاب التسلية بعد قضائه فترة من الوقت مع إخوتها في مكان ما خارج البيت . أما الأم فيمكنها أن تنمي علاقة الود والصدقة مع ابنها ، بأن تقرأ له بعض الكتب وتصفى إلى القصص التي يرويها لها عن الأعمال الباهرة التي قام بها ، وبأن تطلب إليه أن يؤدي لها بعض أعمال السباكة في البيت ، أو أن يشرح لها كيف يمكنه التمييز بين أنواع السيارات المختلفة . لكن ليس من شأنها - حتى ولو كانت أرملة - أن تعلمه كرة القدم ، وليس من الفطنة أن تجذبه إليها ، عن طريق إثارة اهتمامه بزخرفة البيت وتنسيقه من الداخل . ويمكننا أن نعبر بطريقة أخرى عن الحدود الطبيعية لهذه العلاقة ، فنقول : إن الأب إذا كان يبدى اهتماماً بابنته يفوق كثيراً اهتمامه بابنه ، أو يجد متعة في مناقشة مشكلات عمله وهو ابنته أكثر من المتعة التي يجدها مع زوجته ، وإن الأم إذا كانت تميل إلى صحبة ابنها أكثر من صحبة ابنتها أو زوجها فإن هذه الحالة توحى بأن هناك توترات نفسية في الأسرة تعارض مع النمط الطبيعي السوي الذي ينبغي أن تكون عليه العلاقات بين الزوج والزوجة والأب والابن والأم والابنة .

ما الذى ينبغي عمله حين يفشل أحد الوالدين فى إيجاد أساس يمكن أن تقوم عليه علاقة المودة ، أو حتى الشعور بالارتياح مع أحد أطفاله ؟ إن الأمر فى هذه الحالة يستحق أن يبذل الوالد جهداً عادماً كي ينمى هواية مشتركة بينه وبين الطفل ، على أمل أن يترتب على هذه الهواية نمو الصداقة بينهما تلقائياً ، وهى أشبه بعملية صب المساء فى المضخة قصد إعدادها للعمل . ولكن إذا لم تؤد هذه الوسيلة إلى أية متعة أو أى تقدم فى العلاقة ، فلا داعى لأن نحاول الوصول إلى نتيجة بالإكراه . ومن الأفضل فى هذه الحالة أن يستشير الوالد - إذا أمكن - إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية ، أو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، كي تعينه على اكتشاف أسباب المشكلة . فأحياناً يكون السبب سوء تفاهم دفيناً ، أو شعوراً بالحنق والاستياء من جانب الطفل ، يجعله يعامل الأب أو الأم فى نفور وجفاء ، كالتنفذ النافر الذى ينشر أشواكه من حوله . وفى أحيان أخرى قد ترجع أسباب المشكلة إلى مرحلة الطفولة فى حياة الوالد نفسه ، إلى توتر معقد فى مشاعره نحو أخيه أو أبيه ، مما يعوق الآن استمتاعه بصحبة طفله . لذا فإنه مما يستحق الجهد أن نزيل مثل هذه العقبات ، لا لجرد أن نجعل حياة الأسرة أكثر بهجة وسروراً فى الحاضر ، بل لى نقال أيضاً من احتمال أن ينقل الطفل النافر هذه المشكلة إلى أطفاله بدورهم فى المستقبل .

ثمة ناحية واحدة أخرى فى مشكلة المصاحبة ، قد يكون من المفيد أن نذكرها ، تلك أن بعض الآباء والأمهات الذين يحسون أن آباءهم كانوا يعاملونهم معاملة فى غاية الشدة والصرامة ، يتخذ رد الفعل عندهم لهذه المعاملة ، طابع الرغبة فى أن يصبحوا أساساً رفاقاً وأصحاباً لأطفالهم . لذا نجدهم يستخفون فى مرح بجميع الأنظمة المتبعة فى البيت ، ويحاولون أن يتحاشوا فى تربية أطفالهم ، لا لجرد الغضب

والعقاب فحسب ، بل الحزم والتوجيه أيضا . إلى أحبذ بكل جوارحى أن نجعل الحياة العائلية سارة ومبهجة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا . وأعتقد أن أنجح الآباء والأمهات — مع أسعد الأطفال وأحسنهم سلوكا — لا يلجأون إلى العبوس أو التجهم على الإطلاق ، لأن من الواضح أنهم وأطفالهم يجدون متعة في الحياة بعضهم مع بعض . لكنك إذا راقبت سلوك هؤلاء الآباء والأمهات عن كثب ، تجد أنهم يقومون بدورهم كآباء أولا وقبل كل شيء . فهم لا يخشون على الإطلاق أن يوجهوا أطفالهم التوجيه اليومي المألوف ، وأن يلجأوا بين الفينة والفينة إلى التقويم الحازم الذى يحتاج إليه الأطفال جميعا ، فضلا عن ذلك فإن في وسع هؤلاء الآباء أن يعاملوا أطفالهم معاملة في غاية الود والصدقة ، لأنهم آباء محبوبون تفيض قلوبهم بالحنان من ناحية ، ولأنهم بأسلوبهم في تربية أطفالهم قد جعلوا منهم أطفالا لطاف المعشر يبعثون على الحب من ناحية أخرى . أما عندما يحاول بعض الآباء والأمهات أن يكونوا مجرد أصدقاء لأطفالهم لا أكثر ولا أقل ، خشية أن ينفر منهم الأطفال لو أنهم قاموا بدورهم كآباء ، فإنهم أحيانا ينتهى بهم الأمر إلى خلق أطفال مدللين مفسودين ، لا يبدون نحوهم أى شعور بالاحترام ، وحتى بالود والصدقة . وأنتن حين تتأمان الأمر مليا ، تجدن أن المصاحبة السليمة تقوم عادة على الاحترام المتبادل ، سواء أكانت هذه المصاحبة داخل نطاق الأسرة أم خارجها .

٤

مشكلات سلوك الطفل الصغير

الطفل العدواني

« إن معظم الحالات تبدأ بتوترات
نفسية في داخل الأسرة » .

تسأل الأمهات : « ما العوامل التي تجعل الطفل عدوانياً ؟ وما الذي يمكن عمله في هذه الحالة ؟ » توجد إجابات عديدة شتى لهذا السؤال . فالإجابة عنه تتوقف على المعنى الذي نقصده من كلمة « عدواني » ؛ لأن ما نعتبره إحدى الأمهات سلوكاً عدوانياً مزعجاً ، قد نعتبره أم أخرى نشاطاً يدل على الصحة والحيوية .

وكثيراً ما يسأل دارسو التربية والطب وعلم النفس : « هل العدوان نزعة طبيعية في الإنسان ؟ » والواقع أن الطبيعة قد وهبت كل إنسان القدرة على أن يسلك سلوكاً عدوانياً تحت وطأة الشعور بالخطر على مختلف صوره ، أو ردّاً على عداء الآخرين له . فأكثر الأمهات رقة وعذوبة لا تتردد في الهجوم على كلب يهدد طفلها . كما أن الرجال الذين تجيش قلوبهم بالشفقة والرحمة ، يمكن أن يتدربوا على القتل بين صفوف الجيش في أثناء الحرب ، حيث يكون البديل الوحيد للقتل هو أن يقتلوا على أيدي الأعداء .

إن غالبية علماء النفس يستخدمون عبارة « نزعة العدوان الطبيعية » لتشمل الحافز أو القوة التي يفرغها الناس العاديون في مجالات النشاط اليومي كالمباريات الرياضية والكفاح في ميدان العمل . من هذه الزاوية لا توجد أية نزعة شاذة في العدوان ، ما لم يتطرف فيتجاوز حدود الموقف .

وأعتقد — شأني في ذلك شأن أكثر المشتغلين بعلم النفس وأكثر الآباء

أيضاً — أن الأطفال يولدون وعندهم نسب متفاوتة من الحافز أو النزعة إلى العدوان ، وإن كان من الممكن أن تتغير هذه النزعة كثيراً من أثر الخبرات التي يمر بها الأطفال في مراحل النمو التالية . فالأمهات يعلقن أحياناً على النشاط المفرط الذي يتميز به أحد أطفالهن وهو بعد جنين في الرحم ، ثم يستمر عليه في أثناء مرحلة الطفولة . وغنى عن البيان أن أحد الأطفال الصغار يبدو عايه الرضا والوداعة منذ الشهور الأولى ، على حين أن طفلاً آخر يبدي طبيعته النشطة وفقد صبره منذ بلوغه شهراً واحداً من عمره ؛ فهو يجاهد بكل قواه كي يرفع رأسه الثقيل فوق رقبتة الصغيرة الواهنة ، كلما استيقظ من نومه في طلب الطعام . وبعد شهرين ، يجاهد كي يشد جسمه للجلوس بمجرد أن تسمى يديه .

لقد كان من الأنسب لو أننا سمينا الطفل الوديع « الطفلة الوديمة » لأنني أشعر أن البنات يمثان الجانب الأكبر من الأطفال الذين يتسمون بالرفقة والوداعة .

* * *

تتفاوت النزعة الطبيعية إلى العدوان ، وكذلك صور العدوان المتطرفة ، في مختلف مراحل النمو . ويبدو لي أن من بين النواحي الساحرة التي تستهويننا في السنتين الأولى والثانية من عمر الطفل ، أنه وإن كانت تثور ثائثرته في بعض الأحيان ، فإنه لا يصبُّ جام غضبه على الآخرين في العادة . بل إنه عند ما يبلغ سنة ونصف سنة ، ويدرك على وجه التحديد من هو الشخص الذي يثير ثائثرته (حين تمنع عنه أمه شيئاً قابلاً للكسر أو شيئاً ذا ضرر له) ، فإنه يفرغ غضبه في نفسه وفي أرض الحجر ، بأن يدق عليها بذراعيه وساقيه ورأسه ، كما لو كان عنده رادع فطري يمنعه من الهجوم على الناس ، ولا يمكنه أن يتغلب على هذا الرادع إلا بالتدريج ، كلما ازدادت خبراته في هذه الحياة العنيفة القاسية ، كما أن

الطفل في سن ستة أو ثمانية أشهر يحرص عادة على ألا يعض حلمة ثدي أمه أثناء الرضاعة ، في الوقت الذي يشقيه التسدين ، فيحاول أن يعض سياج مهده ، كي يحطمه تحطيا . أما إذا استسلم لإغراء العض في بعض اللحظات ، فإن من الممكن في غالبية الحالات أن تردعه أمه عن ذلك بكلمة حادة أو بأية وسيلة أخرى من وسائل التقويم . بل إن صغار القطط والكلاب يبدو في سلوكها نفس الرادع الفطري الذي نلمسه في الطفل الصغير ، فهي تحب أن تلهو وتلعب كما لو كانت ستمزق بعضها بعضاً ، أو ستمزق أيدي الناس إرباً إرباً ، ولكن العجيب أنها تحرص على ألا تغالى في هذا اللهو .

على أن الطفل الصغير عند ما يناهز سنة من عمره ، يجرب إيذاء الآخرين برفق ، فهو في فترات كدره يسدد إلى عيني أمه نظرات حاققة ، ويشرع في مد يديه نحوها ليشد شعرها ، أو يقترب من خدها رويداً رويداً وقد ففر فيه لبعضها . فيبدو في هذه الحالة كما لو كان يحس بحافز يدفعه إلى الإيذاء ، لكنه في نفس الوقت يدرك أن هذا السلوك يجافي طبيعته . والأم العاقلة تذكر طفلها على الفور بأنها لا تحب منه هذا السلوك ولن تسمح له به ، بأن تتراجع إلى الوراء ، أو بأن تردع يده أو فمه ، إن هو عاد إلى المحاولة . على حين أن أمّاً أخرى قد يكون في مشاعرها شيء من الانحراف ، وعندها استعداد لأن تلعب مع طفلها الصغير لعبة « تؤذيني وأؤذيك » فتدعه ينشب فيها أسنانه ، ثم لا تفعل شيئاً سوى أن ترسم على وجهها أمارات اللوم ، أو تتظاهر بالبكاء والنحيب . فيعود الطفل إلى تكرار فعلته بطريقة أعنف في المرة التالية ، وهو يتسم ابتسامة تكشف عن أسنانه ، في شيء من « السادية »^(١) .

(١) السادية صورة من صور الشذوذ الجنسي تقسم بحب القسوة ، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى الكونت دي ساد .
(المترجم)

هكذا يمكنكم أن تلمسوا أنى أو من بنظرية مؤداها أن الطفل دون سن الثالثة لا يهاجم الآخرين هجوماً عنيفاً ، ما لم يلقنه أحد هذا السلوك ، أو يشجعه عليه . وكثيراً ما شكت إلى بعض الأمهات من أن طفلهن الأول يكون في سن الثانية عاجزاً عن الدفاع عن نفسه ، حين يخطف الأطفال الآخرون لعبه أو يوقعونه على الأرض . وتبدو عليه في هذه الحالة أمارات الحيرة والارتباك ، أو ينخرط في البكاء ويهرع إلى أمه ، فيداخل الوالدين شعور بالقلق ، خيفة أن ينشأ الطفل خائراً مغلوباً على أمره . على أن الأمهات يقررن في غالبية الحالات أن هذا الطفل حين يبلغ الثالثة من عمره ، يكون قد تعلم بالتجربة المريرة كيف يدافع عن نفسه .

لكنى لا أذكر أنى قد سمعت يوماً شكوى من هذا النوع بشأن الطفل الثانى في الأسرة . فهذا الطفل عندما يبلغ الشهر الخامس عشر أو الثامن عشر من عمره ، يكون في العادة قد تلقى كفايته من العقاب على يدى الطفل الأكبر الغيور ، بحيث يعرف عند الهجوم كيف يتشبث بمقتنياته كملوت العباس ، أو يضرب بها أخاه ، وهو يطلق صوته بالصراخ طوال الوقت ، في طاب النجدة من أبيه أو أمه .

يبدو أن الطفل يميل بطبيعته إلى العض في سن سنة أو سنتين كوسيلة أولى للدفاع أو الهجوم . غير أن دفع الغريم لإيقاعه على الأرض ، أو ضربه بجسم ثقيل ، من الأساليب الشائعة أيضاً في هذه السن . وبعبارة أخرى ، فإن النزعة إلى العدوان التي تظهر في مرحلة الطفولة المبكرة ، تتخذ مظهراً بدائياً ومباشراً . أما عند ما يبلغ الطفل الثالثة أو الرابعة من عمره ، فإنك تلمسين في سلوكه لأول مرة آثار المدنية والنضج . ففي هذه السن ، نجد أن الأطفال ذوى القلوب الطيبة غالباً ما يلجأون أولاً إلى الاستفسار أو التفسير أو الاحتجاج ، بدلاً من أن يعمدوا إلى الهجوم على الفور . والأهم من ذلك هو أن المشاعر العدوانية تتخذ

مظهر اللعب . فالطفل يمثل عادة دور راعي البقر الذى يطلق النار على الفتي الشرير ، أو دور المارد الذى ينقض على البيت فيحطمه تحطياً (البيت مصنوع من المكعبات الخشبية) ، أو يمثل دور رجل البوليس (يقود موتوسيكلًا) وهو يطارد اللص . وهذا اللعب يمكن أن نسميه بكل بساطة « صمام الأمان » الذى يقي الطفل من الشعور بالعداء ، فهو تنفيس عن مشاعر الغضب التى كان من الممكن أن تتراكم فى نفسه نحو أبيه أو أخيه . كما أن هذا اللعب أبعد أهمية من ذلك ، فهو تدريب للطفل فى السيطرة على مشاعره ، كى تتمشى هذه المشاعر مع القواعد المتبعة فى عالم الكبار الذى قد بدأ يتولد عنده شعور بالاحترام نحوه .

على أن بعض الآباء والأمهات من ذوى الضائير الحية يقلبون هذا الوضع ، فلا يشجعون اللعب بالمسدسات والبنادق فى الفترة ما بين سن الرابعة والثامنة ، خشية أن يؤدي هذا اللعب إلى أن يتبع أطفالهم أسلوب رجال العصابات أو يسلكوا سلوكاً وحشياً فى حياتهم ، عندما يشبون عن الطوق . على حين أن اللعب بالمسدسات فى هذه المرحلة من عمر الأطفال ، إنما يمثل فى الحقيقة محطة على الطريق الذى يقطعونه أثناء تقدمهم نحو الحضارة .

والمرحلة ما بين سن الثالثة والسادسة هى الفترة التى يتعامل فيها غالبية الأطفال معاملة طيبة نسبياً مع آبائهم وأمهاتهم ، إذ يزداد إدراكهم لمدى الحب الذى يكنونه لهم ، وتتملكهم رغبة جارفة فى أن يكونوا مثلهم . على أن الغلام فى هذه المرحلة يشعر عادة نحو أمه شعوراً خاصاً بالحب الخيالى القائم على الرغبة فى التملك ، — كما تشعر البنت نحو أبيها — مما يؤدي إلى نشوء تيار خفى من المنافسة بين الابن والأب وبين البنت والأم . ولكن هذه المنافسة لا تطفو على السطح بطريقة ملموسة فى غالبية الحالات ، لأن الطفل يبذل قصارى جهده لكبت هذا

الشعور ، ولأن الوالدين يحافظان على العلاقة السليمة أحدهما مع الآخر ومع كل واحد من أطفالهما ، الأمر الذى لا يشجع كثيراً على احترام هذه المنافسة . غير أننا فى طائفة قليلة من الأسر التى اختلت فيها موازين الأمور ، نجد أن الأم قد تستبد بها الحيرة ، حين ترى ابنتها فى الرابعة أو الخامسة من عمرها ، وقد أصبحت تظهر لها العداء بصورة تبعث على الدهشة ، دون ما سبب واضح . (قد تحس الأم بطريقة مشابهة أنها قد أصبحت سماً زعافاً فى فم ابنتها أثناء مرحلة المراهقة ، التى يشتد فيها الشعور بالمنافسة حتى عن ذى قبل) . على أن الشعور بالعداء الذى يكتنه الأبناء لأبائهم بسبب المنافسة ، لا يطفو على السطح كثيراً مثلما يحدث فى حالة البنات ، لأن الظاهر أن الأبناء بوجه عام يهابون آباءهم أكثر مما يهاب البنات أمهاتهن .

أما بعد سن الثامنة أو التاسعة ، فإن التمثيل الساذج لأدوار العداء يفقد شيئاً من سحره بالنسبة للأطفال ؛ وفى هذه المرحلة تدخل حياتهم المجالات الفكاهية وأفلام السينما والتليفزيون . كما أن أفلام رعاة البقر وقصص الجرائم تطلق العنان للخيال ، فتصور شتى أنواع العدوان الوهمية ، ثم تخضع المعتدين لعقوبة القانون فى نهاية القصة .

والفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة هى المرحلة التى نجد فيها أن طبيعة الطفل الآخذة فى النضج ، تجعله يحاول قمع الحوافز والنوازع التى يحس أنها خاطئة . فيسيطر سيطرة حازمة على رغبته فى التعبير السافر عن شعوره بالعداء ، لا سيما نحو والديه ، حتى ولو اتخذ هذا التعبير مظهر اللامب . فى حين أن الفلام ابن الرابعة قد يصوب مسدساً وهمياً نحو أمه ، ويكشر عن أسنانه قائلاً لها : إنه سيقتلها رمياً بالرصاص . لكنه حين يبلغ التاسعة من عمره ، يكون ضميره قد أصبح حازماً فى ردعه ، لدرجة أنه يدفعه لأن يتخطى أى شق يصادفه فى طوار

الشارع ، لو أن مثل هذه الفكرة — فكرة قتل أمه — عبرت خاطره في لحظة خاطفة .

وفي هذه المرحلة لا يعود الطفل يحس بأن له مطلق الحرية في الهجوم على أحد إخوته أو أخواته ، ما لم يتحرش به . إن الطفل في هذه السن قد يحمل في أعماقه شعوراً بالعداء يكاد يكون نفس شعوره في الماضي ، ولكنه رغم ذلك لا يشتبك في معركة مع الآخرين إلا خطوة خطوة ، فيستفز خصمه بطريقة خفية كي يدفعه إلى هجوم مضاد عليه ، مما يحمل الطفل على الاعتقاد بأنه إنما يدافع عن حقوقه في كل مرحلة من مراحل المعركة .

* * *

والآن نأتى إلى المشكلة الأكثر تعقيداً ، مشكلة الدور الذى تلعبه البيئة المحيطة في التغيير من طبيعة النزعة العدوانية ودرجة شدتها . إن أهم العوامل بطبيعة الحال هو التوافق بين طبيعة الطفل وشخصية الأب والأم .

ذلك أن الوالدين يجب أن يتوافقا مع طبيعة الطفل الذى يرزقانه ، تماماً مثلما يجب عليه أن يتوافق معها . غير أن بعض الآباء والأمهات يألفون البنات أكثر كثيراً من البنين ، على حين أن غيرهم يألفون البنين . كما أن البعض منهم بارع في معالجة الطفل الخشن العنيف ، على حين أن غيرهم ينجح بصفة خاصة في تربية الطفل الخجول الحريص بطبيعته . بل إنى لم أتمحدث قط إلى إحدى الأمهات ، إلا وجدت أن أحد أطفالها يحيرها في تربيته أكثر من طفلها الآخر .

إن الطفل الذى يتميز بنشاطه المفرط غالباً ما يغرى أمه باتباع أساليب في معاملته تزيد من نشاطه الزائد . وأذكر الآن طفلاً نشيطاً ابن سنة ونصف سنة ، مكثت أراقبه وهو يلعب في إحدى الحدائق العامة ذات صباح ، فكان بين

الفينة والفينة يهيم على وجهه متجهاً إلى الطريق العام ، أو يورط نفسه في مواقف تعتقد أمه أنها تهدده بالخطر . لذا ظلت الأم تندفع وراءه ، وتجذبه بعنف عائدة به إلى الأمان ، وكان من الممكن أن تلمس كلما تقدم الصباح ، أن الطفل قد أصابه ضرب من الهوس من جراء كبتها المستمر له ، ففقد اهتمامه بكل شيء ، ما عدا شيئاً واحداً سيطر على تفكيره تماماً ، هو أن يندفع مبتعداً عنها ويتجه إلى الطريق . وبطبيعة الحال ، يمكنك أن تلمس في هذا الموقف ، لا مجرد حالة طفل يتدفق بالنشاط ، وأم تكبح جماحه ، بل يمكنك أن تتبين أيضاً أن هناك نزعة مريضة بعض الشيء في استعداد الأم للبقاء ساعتين في ذلك المكان ، تاركة الموقف يتدهور إلى هذا الحد الذي بعث شعوراً بالخيبة والإحباط في نفسها ونفس طفلها .

وكان فرويد هو أول من بين لنا أن الصراع الذي يطول مداه بين الطفل والأم حول التدريب على استعمال المرحاض « التواليت » في الفترة ما بين سنة وثلاث سنين ، يمكن أن يخلق كثيراً من الشعور بالعداء في نفس الطفل سريع التأثر ، وقد يؤدي هذا الصراع في بضع حالات إلى خلق طفل تظهر عليه النزعة العدوانية . على أنه في غالبية الحالات نجد أن العلاقة السليمة التي تنشأ بين الأم والطفل في النواحي الأخرى ، فضلاً عن اعتزاز الطفل بحب أمه له ، وشعوره بالذنب حين يتجدها ، كل هذه العوامل تجعله يسيطر على شعوره بالعداء نحوها (ويسيطر على أمعائه أيضاً في نهاية الأمر) . ومن ثم فالأقرب إلى الاحتمال في هذه الحالة هو أن ينتهي الأمر بالطفل إلى تكوين شخصية تجمع بين العناد المتطرف والشعور الحاد بالذنب ، بدلا من تكوين شخصية تجاهر بالعداء بصورة سافرة .

وقد كتبت لي إحدى الأمهات خطاباً ، بشأن الصعوبات التي

تعانيها في تربية طفلها الثالث ، وهو غلام في الرابعة من عمره . لقد كان طفلهاها الأول والثاني من البنات ، إحداها الآن في الرابعة والعشرين ، والأخرى في الثانية والعشرين ، وكانت تربيتها سهلة ، بل ممتعة لها . وهي لا تتذكر أنها قد صادفت يوماً أية مشكلات خاصة في محيط الأسرة . ولكن ينبغي أن نأخذ كلامها هذا بشيء من التحفظ ، حيث إن الزمن يسدل ستاراً وردياً على مشكلات الماضي . ومع ذلك فلا بد أن البنيتين قد اختلفتا بوجه عام لإبلافاً حسناً مع البيئة ، بدليل أنهما أحرزتا نجاحاً رائعاً في المدرسة والكلية ، سواء من الناحية الأكاديمية أو من الناحية الاجتماعية . على أن الأم في خلال السبع عشرة سنة التي تلت مولد ابنتها الثانية ، راودها شيء من الشك في بادية الأمر ، ثم بالتدريج أصبح الشك يقينا ، أنها لن تنجب أطفالاً آخرين على الإطلاق . وعند ما تجاوزت الأربعين من عمرها ، كانت راضية كل الرضا عن حياتها المليئة بالنشاط الاجتماعي ، فضلاً عن مصاحبتها لزوجها في رحلات العمل التي يقوم بها إلى بعض الأماكن النائية . ولم تكن هي وزوجها يريان ابنتيهما إلا أثناء « الإجازات » ولفترات محدودة ، (كما يعرف معظم أولياء أمور طلبة الكليات) . وحين أنبأها طبيبها وهي في الثانية والأربعين أنها حامل ، لم تصدقه في بادية الأمر ، ثم استولى عليها شعور بالقنوط والاستياء . لكنها كإنسانة واقعية استطاعت آخر الأمر أن تكيف تفكيرها وخططها بحيث تتلاءم مع الوضع الجديد . غير أنها في أعماق مشاعرها ، لم تستطع قط — مهما حاولت — أن تتحمس للمولود القادم ، مما أضاف الشعور بالذنب إلى متاعبها الأخرى . ثم تبين لها أن المولود من أولئك الأطفال الذين يستبد بهم النكد بحيث يجعلون أشد الأمهات فرحاً وهناءة يشعرون بالفيظ والنفور . وكلما تقدم المولود الجديد في مرحلة الرضاعة ، صار من الجلي أنه سيصبح من النوع القلق المتبرم اللحوح الذي لا يعرف التعب أو الكلل .

وبعد سنة ، حين دخل الطفل المرحلة التي يزداد فيها استقلاله عن أمه ، وجدته ينزع إلى الشقاوة والعصيان بصورة متزايدة . وهي تقول : إنها ظلت تواليه بالتوجيه ، وتجرب معه وسائل عديدة في التأديب والتهذيب ، دون جدوى . وتقول أيضاً إنه أصبح مفرط النشاط في سن الرابعة ، يسلك في البيت سلوكاً وقحاً مليئاً بالتحدى في كثير من الأحيان ، ويخرب ممتلكات الجيران في بعض الأحيان ، ويلحق الأذى بالأطفال الآخرين . إن هذه الحالة تنطوي على عوامل شاذة عن المألوف ، ولكنها تعطينا مثلاً واضحاً يبين لنا أن الأطفال يسببون متاعب لأبائهم ، على قدر المتاعب التي يسببها لهم آبائهم . فإني أعتقد أن هذا الطفل قد ازداد سلوكه العدواني لأن أمه تستفزه وتثير غيظه بسرعة انفعالها وحدة طبعها ، فضلاً عن أن شعورها بالذنب يمنعها من ممارسة سياسة ثابتة في السيطرة عليه . وعلى أية حال ، فقد اتخذت هذه الأم قراراً حكيماً ، بأنها في حاجة إلى بعض المساعدة من المتخصصين النفسانيين . فربما استطاعت أن تستفيد هي وطفلها من هذه المساعدة .

* * *

كما أن النزعة العدوانية قد تثيرها في الطفل بعض العلاقات الأخرى في محيط الأسرة . فعالية الآباء الذين أنجبوا طفلين أو أكثر ، قد لمسوا أن الغيرة التي يحسها الطفل الصغير نحو المولود الجديد ، تثير فيه النزعة إلى العدوان . والطفل دون سن الثالثة عرضة بصفة خاصة لأن يظهر شعوره بالعداء بصورة سافرة ، ويوجهه إلى المولود في شكل ضرب أو قرص أو ضغط عليه . لكنني أذكر قصة محددة واضحة المعالم تبين لنا كيف أن هذا الشعور بالعداء يمكن أن ينحرف إلى خارج نطاق الأسرة . كانت هناك طفلة عمرها سنتان ونصف سنة ، تذهب إلى إحدى مدارس الحضانة ، وهي مدرسة لا تسير على النظام المألوف ،

إذ تقبل أطفالاً دون سن الثالثة . وعند ما ولد أخ للطفلة ، لم تبد نحوه أى عدااء ظاهر فى البيت ، لكنها بدأت على الفور تشن هجمات مفاجئة على الطفلين الوحيدين الأصغر منها سناً فى المدرسة . فعند ما كان أحدهما يقترب على بعد خطوات منها ، إذا بها تنقض عليه كالنهد ، وتفرس أسنانها فى ذراعه ، مما حدا بالمدرسة إلى تعيين إحدى الحاضنات « الدادات » للبقاء بجوارها ، لا لشيء سوى أن تمنعها من شن هذه الهجمات على الطفلين . ولكن كان لا مناص من أن يتحول عنها انتباه الحاضنة آجلاً أو عاجلاً ، فتحدث عملية العض مرة أخرى .

وأنت بين الحين والحين قد ترين طفلاً تعتريه نزعة إلى العدوان بصفة مؤقتة ، من أثر ضغط متطرف يقع عليه خارج البيت ؛ كأن يتعرض مثلاً لاستبداد مستمر من أحد أطفال الجيران ، أو يعاني من عجز شديد عن القراءة فى السنة الأولى بالمدرسة ، مما يجعله يحس فجأة بالقصور والغيظ ، وبأنه موضع الهزاء والسخرية .

على أن غالبية حالات العدوان تبدأ من جراء توترات نفسية فى داخل نطاق الأسرة ، وينبغى إيجاد حل لها بالتخفيف من حدة هذه التوترات . فى بعض هذه الحالات يحار الآباء تماماً فى معرفة موطن الداء ، وفى حالات أخرى يعتقدون أنهم يدركون جوانب المشكلة ، ومع ذلك فإن وسائل العلاج التى يطبقونها لا تجدى نفعاً . والتفسير الطبيعى لهذه الظاهرة هو أن السبب الرئيسى للمشكلة لا يتضح للآباء ، وهذه هى الناحية التى يستطيع متخصص خارج نطاق الأسرة أن يساهم فى إلقاء ضوء عليها ، لأنه لا يعيش فى قلب المشكلة .

إن خير الوسائل المباشرة لحل مشكلات السلوك هو أن تستشير الأم أحد أطباء الأطفال النفسانيين فى عيادته الخاصة ، أو تستشير إحدى عيادات توجيه

الأطفال النفسية ، لكن هذه الوسائل الميسرة لا تتاح إلا في المدن الكبرى ، وأحياناً توجد بهذه العيادات قوائم بأسماء المرضى الذين ينتظرون دررهم في العلاج . على أن هناك وسيلة أخرى ، وهي استشارة إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة . (يمكن الحصول على اسم الجمعية المناسبة من مكتب الخدمات) ؛ ذلك لأن تدريب الإخصائية الاجتماعية وخبرتها يؤهلانها لأن تمنح الأمهات المساعدة التي يحتجن إليها في حل معظم هذه المشكلات . أما إذا وجدت الإخصائية الاجتماعية أن الحالة تتطلب نوعاً مختلفاً من العلاج ، فإنها بحكم عملها تستطيع مساعدة الأم في العثور على طبيب نفساني ، أو إحدى عيادات التوجيه النفسي ، للقيام بالمهمة . وفي حالة تلاميذ المدارس غالباً ما توجد بالمدرسة أو بالمنطقة التعليمية وحدة للخدمات النفسية تبذل النصائح للأمهات .

الطفل المتلصق.

« كلما أحس الطفل بالضغط عليه ، تهادى في البطء » .

حين تشكو الأمهات من ظاهرة التسويف والتلصق في الأطفال ، فإن أوصاف المشكلة غالباً ما تكون واحدة . وقد لمست من خلال خبرتي أنه وإن كان هناك بعض البنات المتلصقات ، فإن عدد المتلصقين من البنين يفوقهن كثيراً . كما أن الأمهات هن اللاتي يحن جنونهن من هذه الظاهرة أكثر من الآباء في الغالب . ومع أن بعض الأطفال يظهرون ميلاً إلى التلصق والتواني في السنين التي تسبق التحاقهم بالمدرسة ، فإن المشكلة تزداد سوءاً في العادة في السنين الأولى من دخول المدرسة .

وهذه حالة تمثل المشكلة خير تمثيل : أم تتحدث عن ابنها البالغ من العمر تسع سنوات . إنها تبدأ حديثها بوصف المتاعب التي تلاقها في فترة الصباح . وهذه هي الفترة التي تحتاج فيها الأسرة إلى الإسراع بقدر الإمكان ، وهي أيضاً الفترة التي يكون فيها الطفل المتلصق في أسوأ حالاته ، إذ تقول الأم : إنها تضطر للتردد على حجرته مراراً كي تحثه على النهوض من الفراش . كما أنها تضطر أثناء إعدادها لطعام الفطور إلى مراجعته باستمرار كي تتأكد من أنه يرتدى ملابسه . وغالباً ما تجد أنه لا يرتديها ، فتذكره في لهجة تزداد عنفاً شيئاً فشيئاً ، بأن يسرع في حركته . فإذا ما حان موعد الفطور ، فربما تجده جالساً على حافة الفراش ، عارياً تماماً من ثيابه . والظاهر أنه قد بدأ منذ حين في ارتداء أحد جوربيه ، ولكنه تجمد في هذا الوضع ، وعكف على قراءة كتاب فكاهي .

وعند ما يصل إلى المائدة ، يكون قد تأخر طويلاً عن موعد الفطور ،

لكفك لا تلهس من سلوكه أنه يحس بهذا التأخير ، فهو يستغرق في أحلامه . بين الفينة والفينة ويتناول طعامه بمحركات متأنية بطيئة ، فتخبره أمه في ثورة عارمة أنه سيتأخر عن موعد المدرسة ، أو قد تفوته سيارة المدرسة ، ومع ذلك لا يبدو عليه أنه قد سمع شيئاً مما تقول . وإذا كان له إخوة وأخوات يضطرون لانتظاره كي يذهبوا معاً إلى المدرسة ، فإنهم يضيفون إلى صياح الأم تحذيراتهم الصاخبة من التأخير . ولئن خرجوا من البيت بدونهم ، أو رأى أن سيارة المدرسة قد وصلت ، فإنه قد يصطنع شيئاً من السرعة المفاجئة في اللحظة الأخيرة .

ويتكرر نفس الموقف في فترة الغداء . كما تنشأ المتاعب أيضاً في فترة ما بعد الظهر أو في عطلة نهاية الأسبوع ، إذا كانت هناك مهام يجب على الطفل أدائها في البيت ، أو مواعيد ينبغي للأسرة المحافظة عليها . فحين تكون الأسرة ذاهبة إلى مكان ما ، يأخذ الجميع أماكنهم في السيارة قبل أن يصل هذا الطفل المتلكي ، ويأخذون في ندائه كي يسارع بالحي . وعادة ما تنشأ متاعب أخرى في موعد النوم ؛ لأن الطفل المتلكي لا بد من حثه أكثر من المعتاد كي يفتسل . في الحمام ، ثم لا بد من الصياح به مراراً كي يخرج من الحمام . بل إنه في بعض الأحيان قد يتحصن داخل الحمام لفترات طويلة ، مما يبعث على الغضب . أما إذا كان يحب القراءة ، فإنه قد يستغرق تماماً في قراءة الكتب كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، كما لو كانت الكتب ملجأ يلوذ به من شتى صور الضغط التي يفرضها عليه المجتمع .

* * *

ما هي العوامل التي تؤدي إلى التلكؤ والمماطلة ؟ من الجائز أن المزاج الفطري للطفل يلعب دوراً في هذه المشكلة ، لكن هذا الرأي لم يثبت بصفة قاطعة . وتنشأ المشكلة أحياناً أثناء فترة التدريب على استعمال «التواليت» ، ذلك .

لأن الكثيرين من الأطفال الصغار يدركون على حين فجأة ، في وقت من الأوقات ما بين الشهر الثاني عشر والثامن عشر من عمرهم ، أن برازهم — الذى ظلوا حتى ذلك الحين يودعونه المرحاض أو « القصرية » دون تفكير عميق — يدركون أن هذا البراز إنما هو مسألة شخصية تخصهم وحدهم ، فهو نتاج تبرزه أجسامهم . ويمكن القول بأن الطفل يكتشف برازه ، مثلما يكتشف أجزاء أخرى من جسمه ، ويداخله شئ من الزهو به والشعور بملكيتته له ، حتى إنه قد لا يعود مستعداً للتفریط فيه ، فيحتجزه في أمعائه ، على الأقل ، طوال الفترة التى تحملها فيها أمه على الجلوس فوق مقعد «التواليت» . فإذا دأبت الأم على متابعته باستمرار في عملية التبرز ، فإنه قد يتعلم بالمرآة أن يحتجز البراز ساعات بل أياماً . وعلى هذا النحو تتكون عنده عادة مقاومة الضغط عن طريق التسويف والمأطلة . فإذا ظلت أمه شهوراً عديدة تطالبه دائماً بالتبرز ، وقد استولى عليها الحنق والغضب ، وآثر هو أن يستمر في عناده بنفس الطريقة ، فإن أسلوب التسويف والمأطلة قد يصبح نمطاً دائماً في سلوكه ، ويمتد إلى مواقف أخرى في حياته ، إلى جانب الموقف الخاص بقضاء الحاجة في «التواليت» .

على أن النزعة إلى التلصق والمأطلة قد تتولد عند طفل آخر ، دون أن يمر بأى صراع سافر مع أمه حول التدريب على استعمال «التواليت» . والظاهر أنه مما يساعد على نمو هذه النزعة ، اجتماع أم نشيطة ضجرة بطبعها مع طفل بطيء متأن بطبعه . لكن هذا الوضع لا يسبب متاعب في أثناء السنة الأولى التى لا تفرض فيها أية مطالب على الطفل الصغير بأى حال من الأحوال . أما عندما يبلغ سنة أو سنتين من عمره ، فإن والديه يتوقعان منه أن يأتى إلى المائدة في مواعيد الوجبات ، وأن يطعم نفسه بنفسه ، وأن يسير خطى أمه حين تمشى به إلى الملعب أو تتجول به في أرجاء السوق . وهذه هى السن التى تكون فيها

حركات الطفل بطيئة ويتشتت انتباهه في شتى الاتجاهات ، الأمر الذى يستنفد صبر الأم . والأهم من ذلك أنها السن التى فيها تلج عليه طبيعته أن يظهر استقلاله عن أمه ؛ إذ يحس أن من الواجب عليه أن يؤكد كرامته وحقوقه كفرد له كيانه ، لذا فهو يقول : « لا » كلما وجد أمامه موضوعاً للجدل ، حتى ولو كان هذا الجدل حول أشياء يجب أن يفعلها . كما أنه بطبيعة الحال يأبى أن يسيطر عليه الآخرون سيطرة صريحة سافرة ، ويصر على أن يحاول أداء حاجاته بنفسه — مثل ارتداء الحذاء — وإن كان من الجلى أنه لا يملك المهارة اللازمة لأدائها . بل إنه إذا تخلف كثيراً عن أمه أثناء سيرهما على الطوار وتوقفت كي تناديه ، فإنه قد يتوقف أيضاً عن المسير ، لكنه يتظاهر بأنه لم يلحظ وقوفها . فإذا بدأت تعود أدرجها لتمسك به ، فإنه قد يتحرك مقلداً منها في الاتجاه المضاد .

إن الأم يستبد بها الغيظ من تلكؤ الطفل ، وتملكها رغبة حادة في حثه على الإسراع . على أن هذه المرحلة من عمر الطفل تقل مشقتها كثيراً بالنسبة لبعض الأمهات عنها بالنسبة لغيرهن . فالأم التى تأخذ الأمور ببساطة ، لا تحاول أن توجه الطفل حسب مشيئتها طوال اليوم ، ولا تقلق نفسها كثيراً بشأن صياغة شخصيته . فإن من طبيعة هذه الأم أن تعيش وتدع غيرها يعيش ، لذلك لا توجد مناسبات عديدة تدعوها إلى الاشتباك مع المتمرّد الصغير . كما أن الأم التى تشق طريقها فى الحياة بسحرها ولباقتها ، تجد متعة فى استخدام ذكائها ومهارتها لتحمل طفلها على تلبية رغباتها . أما الأم التى لا تحس أنها ملزمة بالسيطرة على مشاعرها ، فإنها تنفجر فى طفلها الصغير العنيد بين الفينة والفينة عند ما يستبد بها الغيظ منه ، ثم تشعر بالراحة بعد ذلك وتتركه فى حاله .

وفى اعتقادي أن الأمهات اللائى يتسمن بنفاد الصبر وحب السيطرة أكثر من المعتاد ، ولكنهن فى نفس الوقت يحاولن محاولة مخلصه السيطرة على أية

نزعة عدوانية يلمسها في أنفسهم ، هؤلاء الأمهات هن بصفة خاصة أكثر الأمهات عرضة لأن يوالين أطفالهن بالحث والضغط ، وبذلك ينمى فيهم النزعة إلى التلصق . وفي بعض الأحيان نجد أن الأم التي تحس في أعماقها بالرغبة في نقد تصرفات الرجال والتنافس معهم (ربما نتيجة توترات نفسية مع أب أو أخ أثناء مرحلة الطفولة) هي التي تكون أشد الأمهات ضجراً في معاملة ابنها .

ومهما تكن الظروف التي تنشأ منها المشكلة ، فإن الأم الضجيرة تراودها الرغبة في حث الطفل عند ما يتلصقاً . وكلما أحس الطفل بالضغط عليه ، تبادى في البطء . وهي طريقة بارعة في الدفاع عن نفسه ورد الهجوم ، فهو يؤكد بها حقه في مقاومة السيطرة ، وفي نفس الوقت يرد هجوم أمه عليه بطريقة تثير غيظها بصفة خاصة ، دون أن يضطر إلى انتهاج السبيل الخطر ، سبيل تمحدي أمه تمحدياً سافراً (وهو السبيل الذي قد ينتهجه طفل آخر تكون سيطرة والديه عليه أقل حزمًا وصرامة) ، فيبدو الموقف بينه وبين أمه كما لو كان كلاهما خائفًا من المجاهرة بالعداء السافر ، فالأم خائفة بسبب ضميرها الحي وسيطرتها على نفسها ، والطفل خائف لأنه يخشى أن يفقد حب أمه ، لذا فإنهما بدلا من ذلك يتفقان اتفاقاً صامتاً ضمناً على أن يشتبكا في معركة محدودة الأثر ، فهي لا تؤدي إلى الموت قط ، لكنها لا تنتهى أبداً .

* * *

إن الوقاية أسهل كثيراً من العلاج ، ففي حالة ذلك الطفل ابن السنة ونصف السنة الذي عقد عزمه على أن يحتجز برازه في أمعائه — حتى ينهض من فوق مقعد «التواليت» على أقل تقدير — قد تعتقد أمه الحائرة أنه ليس أمامها سوى سبيلين لا ثالث لهما : إما أن تكف لأجل غير مسمى عن جهودها في تدريبه على استعمال «التواليت» — وهو أمر لا يطاق من وجهة نظرها — وإما أن تبتقي

الطفل جالساً على «القصرية» أطول مدة تحتملها الضرورة وتحته على التبرز في لهجة جادة أو حادة . إن الوسيلة الثانية أصدق تعبيراً عن مشاعر الأم من الأولى ، اكن العيب فيها هو أن أضعف الأطفال عزيمة يمكنه دائماً أن ينتصر على أمه في هذه المباراة . على أية حال ، هناك وسيلة ثالثة لعلاج المشكلة ، هي أن تقول الأم للطفل كل يوم في لهجة متفائلة مستبشرة ، وهي تنظف آثار الحادثة : «من الجائز أنك ستخبر ماما غداً حين ترغب في قضاء حاجتك ، كي تفعلها في التواليت كالأولاد الكبار » . وهذا ليس إصراراً منها على انتزاع شيء منه ، ولكنه مجرد اقتراح أنه يوماً ما سيرغب في أن يسلك مسلك الكبار . على أن هذا الأسلوب لن يغير من تفكيره على الفور ، ما من شيء يمكن أن يغير من تفكيره على الفور . لكنه على أية حال سوف يؤدي إلى نتيجة أسرع مما لو ألحت عليه الأم في لهجة حادة عابسة . ومع أن هذه النصيحة تبدو منطقية إلى حد بعيد ، فإن من العسير تنفيذها على أولئك الأمهات اللاتي يعتبرن أن عناد الطفل وتبرزه في ثيابه هما أسوأ تصرفات تثير الغيظ في سلوكه .

أما في حالة الطفل ابن السنتين الذي يدأب على التلصق في الطريق إلى السوق ، فإن هناك وسائل عديدة لعلاج ، بدلا من حثه على الإسراع . لو أن الأم مضت قدماً في طريقها إلى الأمام ، فإن الطفل يتبعها في العادة رغم كل وقفاته وجولاته الجانبية ، تماماً كما تتبع صغار البط البط الأم . غير أن هذا النوع من المسير يثير بصفة خاصة شعوراً بالخيبة والإحباط في نفوس بعض الأمهات ، لذا فإن الوسيلة العملية في هذه الحالة ، هي أن تضع الأم طفلها على حين فجأة في عربته الصغيرة ، وتدفعه بسرعة على طول الطريق ، مرجئة جولة المشي إلى وقت آخر من اليوم لا يكون فيه ما يدعو إلى العجلة ، أو تتركه مع إحدى الجارات .

ولكن لنفرض أنه قد سبق السيف العذل ، بمعنى أن الطفل قد بلغ الآن السابعة أو الثامنة من عمره ، وأصبح عريقاً في الماطلة والتلكؤ ، ذلك أن كفاح الطفل في الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة للحصول على مزيد من الاستقلال عن والديه وتدير أمور حياته بنفسه ، يبدو أنه يثبت فيه النزعة إلى استخدام الماطلة كسلاح يشهره للدفاع عن نفسه في كل الظروف . وفضلا عن ذلك فإن ضرورة النهوض من الفراش وتناول الفطور ، والذهاب إلى المدرسة ، تثير له كل صباح — في خمسة أيام من الأسبوع — أزمة لا يمكنه أن يتفادها بنفس الطريقة التي اعتاد أن يتفادى بها بعض المواقف المزعجة في المرحلة التي سبقت التحاقه بالمدرسة .

إن خير خطة أعرفها لعلاج هذه الحالة (ولا أعنى بذلك أنها ستحقق الهدف يقيناً) تتكون من شقين :

الشق الأول : هو أن يتجنب كلا الوالدين التدخل في الموقف بقدر الإمكان . كي يتيجا بذلك الفرصة المثلى لأن يصبح شعور الطفل بالواجب وإحساسه بالزهور بشأن الذهاب إلى المدرسة في الميعاد ، هو الحافز الذي يدفعه إلى الإسراع . على أن الآباء والأمهات الذين ظلوا شهوراً عديدة يحثون أطفالهم ويتوعدونهم بالويل والثبور دون جدوى ، يؤكدون تأكيدهم قاطعاً أن الطفل لا يراوده مطلقاً أى شعور بالعجلة بشأن الذهاب إلى المدرسة . لكن هذا ليس صحيحاً في جميع الحالات . فنحن نجد أن تسعة وتسعين في المائة من الأطفال الذين نشأوا وسط أسر تخلص في أداء الواجب ، يهابون القوانين المدرسية إلى حد بعيد ، وعندهم حساسية شديدة من ناحية استهجان رفاقهم في الفصل لتصرفاتهم . واستهزائهم بهم في حالة التأخير عن موعد المدرسة . لكن السبب في أن هذه الظاهرة لا تبدو في حالة الطفل المتلکىء ، هو أن الشد والجذب بينه وبين .

والديه ، والضجة التي تثار في البيت كل صباح ، يشغلان باله تماماً ، بحيث لا يكاد يجدا ، حتى اللحظة الأخيرة ، فسحة من الوقت للتفكير في موعد المدرسة .

وعند ما يستقر الرأي على أن يفتح أفراد الأسرة صفحة جديدة في حياتهم ، فإن من الحكمة في هذه الحالة أن يحاولوا الإفادة من هذا الموقف إلى أقصى حد ، عن طريق عقد اجتماع ودي بينهم . تستطيع الأم أن تقول فيه للطفل : « لقد وجدت أن من المحاقة أن أظل ألاحيك » أناقرك « وأنا كفك في كل لحظة بشأن النهوض من الفراش والاستعداد للمدرسة . لابد أن هذا المسلك مني يثير غيظك ويدفعك إلى التمدد في البطء ، كما أنه يرهقني أنا كذلك بطبيعة الحال . لذلك سوف أحاول أن أهتم بعملى فقط وأدعك أنت تهتم بعملك . سوف أناديك مرة واحدة فحسب ، ثم أدعك أنت تقوم ببقية المهمة » . على أن هذا الأسلوب لا يؤدي في معظم الحالات إلى إصلاح حال الطفل بين عشية وضحاها ؛ فالواقع أن الطفل الذى تطورت فيه نزعة التلصق والماطلة إلى درجة حادة ، لابد في العادة من أن يختبر نوايا والديه إلى الحد الأقصى ، لذا فإن « الصبغيات » القلائل الأولى التي تعقب إبرام الاتفاق بينه وبينهما ، ستكون عذاباً ألماً لهما . ولزماً على الأب أو الأم الأمل إلى الصبر أن يقدم التشجيع المعنوى لرفيقه النافذ الصبر ، كما أنه قد يضطر في الواقع إلى كبح جماحه — أو جماحها — باستخدام شيء من العنف الرقيق الرفيق . ومن المحتمل في الأيام الأولى أن ينزل الطفل مهرولاً إلى الطابق السفلى ، لمغادرة البيت في اللحظة الأخيرة بالضبط . وهذا في حد ذاته نجاح كبير للخطوة كنقطة البداية . ولكن لنفترض جدلاً أن سيارة المدرسة فاتته ، فما الحل في هذه الحالة ؟ الحل هو أن أدعها تفوته ، وأحرص على ألا أوجه إليه لوماً أو تعنيفاً ، بل إنى بدلا من ذلك أحاول أن أبدى تعاطفى معه ، لأن الهدف من الخطوة هو الأخذ بيده لا الأخذ بالثأر منه . (أظن أن هذا شيء عسير عليك في أول الأمر ، لأنك معتادة أن تذكره

بواجبه دائماً) . ولئن توسل إلى أن أحجبه إلى المدرسة في سيارتي الخاصة ، فإنني أوافق على ذلك في التو ، لكنني أذكره في نفس الوقت بأنه لو اعتمد على اصطحابي له في السيارة كل يوم ، فإن هذا لن يساعده قط على أن يتعلم كيف يدبر شئون حياته بنفسه .

فالأمل المعقود على هذه الخطوة هو أن الطفل سيقتنع بمرور الأيام أن الضغط قد رفع عنه ، فيمكنه بالتدريج أن يتخلى عن الهدف الذي ينشده من هذا الصراع .

فلنتنقل الآن إلى الشق الثاني من الخطوة ، ومن الممكن أن يطبق جنباً إلى جنب مع الشق الأول ، أو أن يحل محله إذا لم يكن هناك ما يدل على أن الوسيلة الأولى تحقق الهدف المنشود . ويتوقف هذا الجانب من الخطوة على أن يتولى الأب أو الأم الأمل إلى الصبر معالجة أمور الطفل المتلصق في المواقف التي تكون فيها المشكلة هي التلصق والمماطلة . وبطبيعة الحال ، فإن هذه الوسيلة لن تجدى نفعاً إذا كان كلا الوالدين قد فقدوا صوابهما من جراء مسلك الطفل ، أو إذا وجد الوالد الذي يتولى المهمة أن صبره سرعان ما يتلاشى من أثر استفزاز الطفل . على أنه في معظم الأسر ، يستطيع أحد الوالدين أن يتشبث بمزيد من الصبر ، ويتجاهل ملاحظة الطفل وتلكأه . وفي هذه الحالة قد يستطيع الوالد أن يغير من طبيعة الجلو الذي يسود البيت في فترة الصباح ، عن طريق « الدردشة » مع الطفل من غرفة إلى غرفة ، أثناء ارتدائه لملابسه وتناوله لطعام الإفطار .

هل من السليم أن نمنح الطفل جائزة شهرية مقابل أن يسجل رقماً قياسياً في السرعة ؟ قد يتضح أن هذه الوسيلة من مواطن الزلل ، إذا أصبحت مجرد ذريعة جديدة بتذرع بها الوالدان لحث الطفل على الإسراع : « تذكر أنك لن تحصل على جائزتك إذا تأخرت عن موعدك » ومع ذلك فقد رأيتها تستخدم بنجاح ،

إلى جانب غيرها من الوسائل الأخرى ، على أيدي بعض الآباء والأمهات الذين لا يتسمون بالصبر .

كما أنى أعرف بعض الأسر التى يسبب فيها تلكؤ الأطفال أثناء تناول الطعام كدرأ شديداً لأحد الوالدين ، بحيث ثبت أنه مما يستأهل الجهد أن تقدم الوجبات للأطفال على انفراد ، مهما يكن فى ذلك من تعب ومشقة .

أما إذا استمرت المشكلة فترة تتجاوز الحدود المعقولة ، رغم كل الجهود التى تبذل لمعالجتها ، فإن من الأفضل أن يطلب الوالدان المساعدة من أحد المتخصصين فى سبيل راحتها وراحة الطفل على حد سواء .

الطفل كثير العويل « البكاء »

« إن الطفل والأم يتخبطان
معاً في حلقة مفرغة »

أعتقد أن ظاهرة العويل أكثر شيوعاً في حوالى سن السنتين أو الثلاث السنين من عمر الطفل . لكنى أذكر حالتين من الحالات السيئة ، لمستهما في طفلين صغيرين دون سن السنة . كما أن هناك قلة من الناس يبدأون على العويل حتى في سن الشيخوخة .

من الجدير بنا أن نحاول أولاً تفسير ظاهرة العويل في هذين الطفلين الصغيرين ، لأن المفروض أن نفسية الطفل الصغير أقل تعقيداً من غيره . ففي حالة الطفل الأول — وهو غلام — نجد أن الوالدين قد استبد بهما الفرح حين رزقا به ، لأنهما ظلا سنيين عديدة يتشوقان إلى إنجاب طفل . فبدأ به — حين رزقا به — على حمله وملاعبته معظم ساعات يقظته ، لذا أعتقد أنه كان هناك شيء من التدايل البسيط في تربيته منذ البداية ، فقد اعتاد الطفل أن يسليه والداه باستمرار ، ومن ثم فقد شيئاً من قدرته على تسلية نفسه بنفسه . لكنه عند ما ناهز سنة من عمره ، بدأ يطالبهما بألوان من التسلية أكثر تشويقاً وإمتاعاً — لساعات أكثر أثناء النهار — بحكم ميله إلى البقاء مستيقظاً لفترات أطول من ذي قبل ، فضلاً عن تطور اهتماماته ، فبدأ هذا الاتجاه عنده يستنفد صبر الأم . على أن هناك عاملاً آخر أدى إلى نفاذ صبرها ، ذلك أن الحافز الذى يدفع الوالدين إلى تدليل الطفل والتدله في حبه ، يتناقص تدريجياً كلما كبر الطفل فتجاوز حالة العجز التام التى تلازم مرحلة الطفولة المبكرة . وإذا لم يكن ذلك كذلك ، لظل

الآباء والأمهات يتحدثون حديثاً طفلياً إلى أطفالهم ، ويربتونهم بلطف تحت ذقونهم ، ويطعمونهم من زجاجات الرضاعة ، ويحملونهم على أكتافهم من مكان إلى آخر ، حتى بعد أن يباغوا السنة الثانية والثالثة من أعمارهم .

وقد اعتاد هذا الطفل الصغير ، حينما كان جالساً ، أن يمد ذراعيه إلى أعلى ويأخذ في العويل ، كي تحمله أمه ، فتحاول الأم أن تتجاهله ، غير أن حالة الغيظ والنكد التي تنتابه ، تجعلها بعد برهة تحس بعدم الارتياح ووخز الضمير ، فتحمله وتلاعبه بضع دقائق ، ثم تحاول أن تنزله مرة أخرى ، فيعود إلى مد اليدين والعويل على الفور . وبالتدريج ضعفت قدرة الأم على الاحتمال ، وأحست في أعماقها بالحنق والاستياء من مفالاة الطفل في مطالبه . لكنها كانت حية الضمير — وتنقصها التجربة — بحيث تعذر عليها أن تعترف بشعور العداء الذي كان ينمو في أعماقها ، ولذلك ظلت تكبت هذا الشعور دائماً وتخضع لرغبات الطفل .

وفي اعتقادي أن الطفل الصغير — حتى في سن عشرة أشهر — يلمس شعور أمه بالغیظ رغم محاولتها إخفاء هذا الشعور عنه ، مما يبعث فيه شعوراً بالغضب والقلق . وهذا المزيج من مشاعر الغضب والقلق يدفعه إلى مطالبتها بالمزيد من الانتباه والاهتمام به . كما أنه يدرك أيضاً مدى الساطة التي يفرضها عليها ، بمعنى أنه يعرف إحساسها بأنها ليس من حقها أن تعترض على مطالبه المتطرفة ، مما يشجعه على التمدد في طغيانه . وهكذا تتخبط الأم والطفل معا في حلقة مفرغة ، فهو لا يتمالك نفسه من الاستمرار في مناكفتها ، وهي لا تستطيع أن ترفض مطالبه ، لكنها في نفس الوقت لا تستطيع أن تشعر نحوه بالود .

أما الحالة الثانية فهي حالة طفلة في الشهر الثامن من عمرها ، كانت قصة حياتها أكثر تعقيداً من قصة الطفل الأول ؛ فقد ولدت هذه الطفلة بعد سنة

واحد فقط من زواج والديها ، ولم يلبث أبوها أن جند في الجيش بعد مولدها مباشرة ، في أثناء الحرب العالمية الثانية ، فظلت أمها — وهي إنسانة قلقة بطبعها — تعيش شهورا عديدة على مقربة من معسكرات الجيش ، وقد استبد بها الخوف من اليوم الذي يرحل فيه زوجها إلى ما وراء البحار . وبعد أن رحل زوجها ، عاشت مع طفلتها حياة مغلقة منطوية على نفسها ؛ إذ لم يكن لها من أقرباء يناسب أن تعيش معهم .

كان رد الفعل عند الطفلة لكل هذا التوتر في محيط الأسرة ، أنها أصبحت إنسانة قلقة تعالى في مطالبها أكثر من المعتاد ، وتحمل سياء عجوز شطاء يتملكها القلق والغضب والنكد ، فكانت أمها تضطر إلى حملها طوال النهار وإلى ساعة متأخرة من المساء ، حتى وهي تطهو الطعام وتقوم بغسل الثياب وكيها . وكانت الطفلة تأبى أن تلمسها إحدى مرافقات الأطفال ، أو أن تدع أمها تغيب عن ناظرها ، حتى يغلبها النوم آخر الأمر في حوالى العاشرة أو الحادية عشرة مساء . لذا لم تكن الأم تحظى قط بلحظة تنعم فيها بالراحة ، لأن عويل الطفلة وإن كان خافتا شاردأ في بعض الأحيان ، وعالياً مستبداً في أحيان أخرى ، لم يكن يتوقف لحظة على الإطلاق .

وأغلب ظنى أن الأم قد راودها منذ البداية شعور واضح بالاستياء من هذه الطفلة التي خرجت إلى الحياة بهذه السرعة ، وعقدت لها حياتها الزوجية التي لم تستمر سوى أمد قصير . ولا بد أن الأم قد راودها أيضاً شعور حاد بالاستياء من استبداد الطفلة المتزايد ، لكنها أحجمت عن أن تعترف بهذا الشعور ، وأذعنت لجميع رغباتها دون اعتراض .

إن هذه الحالة الثانية أكثر تطرفاً من الأولى ، لكنى أعتقد أنها تبين لنا بصورة أوضح نفس النموذج الذى نلمسه في كثير جداً من حالات العويل :

نموذج الطفل الذى يدأب دائماً على مطالبة أمه بمطالب أكثر مما يمكنها أن تستجيب له ، فتحس الأم بالاستياء فى دخیلة نفسها ، لكن شعورها الحاد بالذنب يمنعها من الاعتراض عليه . كما أن إدراك الطفل لشعور الغيظ الذى ينتابها ، وإدراكه لمدى سلطته عليها ، يدفعانه إلى التمدى فى وخزها بمطالبه .

على أن الموقف قلما يكون بهذا العنف فى حالة الطفل الذى بلغ الثانية أو الثالثة أو تجاوزها ؛ ذلك لأن هذا الطفل يمكنه أن يمدى بنفسه إلى بعض الأمما كن دون مساعدة من أحد ، وتلبيه جانباً من الوقت الأشياء المختلفة المنتشرة فى أرجاء البيت ، ومجالات النشاط هنا وهناك ، فضلاً عن صحبة الأطفال الآخرين خارج البيت . لذا فإننا فى هذه السن نرى حالات العويل الهينة التى لا تنشأ إلا فى ظروف خاصة ؛ كحالة الطفل الذى لا يحس بأنه محتاج إلى المزيد من اهتمام أمه إلا عند ما يجدها مستغرقة فى حديث مع أحد الناس فى الطريق أو فى حديث تليفونى ، أو الطفل الذى يدأب على العويل فى الأيام الممطرة ، أو ذلك الذى يعول لأنه يفقد صديقاً من خيرة أصدقائه يكون قد رحل بعيداً ، أو ذلك الذى يردد دائماً : « لا يوجد شيء أفعله » . أو : « ماذا أفعل الآن ؟ » .



وفى اعتقادی أن عويل الأطفال يسبب نوعين من رد الفعل عند الأمهات ، مع شيء من التداخل بينهما . فهناك أم يتجلى فيها ضبط النفس والشعور الحاد بالواجب . ومثل هذه الأم تستطيع دائماً الاحتفاظ بطابع الود على قسماً وجهها ونفمة الصبر فى نبرات صوتها ، حتى بعد أن يستفزها الطفل ساعات طوالاً . على حين أن أما أخرى قد يبدو عليها الكدر ، بل الغضب من جراء عويل الطفل ، ومع ذلك ، يمكنك أن تتبينى أنها لا تظهر أى نوع من السيطرة فى محاولة

وقف هذا العويل . ومن ثم فالاختلاف بين هذين النوعين من الأمهات هو —
أساسا — اختلاف في درجة ضبط النفس .

أذكر أننى منذ أعوام مضت ذهبت مع أسرة غير أسرتى في رحلة استمرت طوال اليوم ، فكدت أفقد صوابى من جراء العويل المستمر الذى دأب عليه ابنهم البالغ من العمر خمس سنوات ، بل وزاد من توتر أعصابى تلك الطريقة الصابرة التى انتهجتها الأم في السماح للطفل بالاستمرار في هذا العويل ، مع أنها لم تكن بطبيعتها من الأشخاص الضعاف المتهاونين أو الذين يصبرون على الشقاء طويلا ، في علاقاتها الأخرى مع الناس . بل إنها في الواقع كانت تسيطر سيطرة كاملة على ابنها وابنتها الآخرين ، وتحملهما على إطاعة أوامرهما بمنتهى الدقة ، وتحرص على ألا يسببا أى مضايقة للآخرين . كان من الجلى أن هناك خطأ ما في العلاقة بينها وبين طفلها البكاء دون غيره من أطفالها ، مما كان يمنعها من إبداء أى شعور بالاستياء من سلوكه ، ويجعلها تتأثر في صبر عجيب على إجابة مطالبه التى تقسم بالأنانية ، والرد على شكائاته السخيفة التى لا معنى لها . وكان من السهل علينا أن نرى أن هذه المطالب لاتهمه كثيراً في الواقع ، لكنه يختلقها اختلاقا مضايقة أمه . كما كان من الجلى أيضاً أن علاقة العويل تربطه بأمه فقط دون غيرها ؛ إذ لم يظهر شيئا منه نحو أبيه أو أخته أو أخيه .

إن المعنى الضمنى الذى أشير إليه في هذه الأمثلة ، هو أن أى أم يمكنها أن توقف الطفل عن العويل على جناح السرعة ، ما لم يشل قدرتها على العمل — أو يعم بصيرتها — نوع من الشعور بالذنب . قد أكون مبالغا في هذا الرأي ومغاليا في تبسيط المسألة بعض الشيء . بل إنى واثق من أنى أبالغ في الواقع ، ومع ذلك فإنى بوجه عام أتمسك بهذا القول . فجميعنا نحن الآباء ندع طفلنا يعول شاكياً لنا ، أو بنا كفتنا في بعض الأحيان ، لأننا قد نرفض له مطلباً

بشأن رحلة ما ، أو متعة ما ، أو امتياز ما ، يرغب فيه ، ثم نبدأ بعد ذلك نسائل أنفسنا عما إذا كنا قد تسرعنا في هذا الرفض ، فيحس الطفل على الفور أننا نشك في سلامة تصرفنا ، ويشرح في العمل على تحطيم مقاومتنا . أو أننا قد نتعنت في معاملة الطفل دون وجه حق ، ربما بسبب ثورتنا على شخص آخر أو على أنفسنا ، ومن ثم نسمح له — دون أن نعي — بأن يبكي معولا برهة من الزمن ، أو أن يسلك سلوكا وقحا ، أو أن يعصى بعض الأوامر .

أما عندما نكون متزنين وواثقين في دخیلة نفوسنا بأننا نمنح أطفالنا كفايتهم من الحب ، وأننا نعاملهم معاملة عادلة ، فإننا في هذه الحالة نسيطر عليهم دون كبير عناء ؛ إذ يكون أسلوبنا معهم وديا ولكنه حازم في نفس الوقت ، وهذا الأسلوب يبعث فيهم شعورا بالارتياح والرضا ، ويخلق عندهم الرغبة في إرضائنا . ومن ثم فإننا حين نضطر لتنبيههم إلى ما ينبغي وما لا ينبغي عماء ، تبدو أوامرنا عادلة في نظرهم ، لأن نبرات صوتنا لاتم عن رغبة دفينية في الإيذاء أو شعور كامن بالذنب ، كما أنهم حين يشرعون في العويل على أمل أن نخضع لهم في مطلب غير معقول ، ثم نقول لهم : « إننا لا نريد شيئا من هذا العويل » فإنهم يدركون من اللهجة الواثقة المطمئنة التي نعمل إليها في كلامنا ، أن من الأفضل أن يوفروا على أنفسهم الجهد الذي يبذلونه في العويل .

أما عندما تتأصل نزعة العويل في الطفل شهرا بعد شهر ، فإن الأم التي تبحث عن حل للمشكلة ينبغي أن تضع في اعتبارها احتمال أن يكون إحساسها اللاشعوري بالذنب والغضب هو الذي يمنعها من السيطرة على الطفل بطريقة معقولة . وهو أمر يدعو إلى الأسف الشديد ؛ لأن هذه المشاعر تحرم الأم والطفل من الاستمتاع بالحب المتبادل بينهما الذي من حقهما أن يستمتعا به .

وبصعب كثيراً على الأم أن تكتشف أصل هذه المشاعر ، عند ما تكون .

متأصلة في نفس الطفل ، مما لو كانت مجرد مشاعر مؤقتة ليست لها صفة الدوام ، ذلك أن جنورها في هذه الحالة قد ترجع إلى بعض المشكلات في مرحلة الرضاعة ، كما رأينا في حالة الطفل الصغير الذي أفسدته فرحة أمه بمولده إلى جانب نقص خبرتها في تربية الأطفال . بل إن هذه الجذور قد تمتد إلى أبعد من ذلك ، إلى مرحلة الطفولة في حياة الأم نفسها ، إلى شعور بالتوتر بينها وبين أمها أو أخيها أو أختها أثناء هذه المرحلة . وأنسب مكان يمكن أن تنتج إليه الأم في طلب المساعدة على حل هذه المشكلة — شأن أى نوع آخر من مشكلات الأسرة التي يستعصى حلها — هو إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة .

والآن دعوني أعد برهة إلى اعترافى بأنى قد غالبت في تبسيط الموضوع . لقد كنت أشرح لكم نمط السلوك الذى أعتقد أنه يسبب ظاهرة العويل في غالبية الحالات . على أن هناك اضطرابات انفعالية أخرى يمكن أن تسبب هذه الظاهرة . كما أن لها أيضاً أسباباً جسمانية في بعض الحالات ، إذ قد تنشأ مثلاً عن مرض السيلياك (celiac) (يسمى أحياناً عسر الهضم للنشويات) ، وهو مرض مزمن يبدأ في حوالى سن السنة من عمر الطفل ، يتميز بالبراز المائع كريه الرائحة ، وعادة ما يصحبه تهيج انفعالى .

لذا يستحسن أن أنهى حديثى حول هذا الموضوع ، بنصح الأمهات أنه إذا أصبح الطفل كثير العويل ، فإن عليهن بحث الحالة من الناحيتين الجسمانية والانفعالية على السواء .

الطفل ضد « الشهية »

« إن مشكلة التغذية لا تخضع للعقل والمنطق »

كُتبت إلى إحدى الأمهات تقول : « إن مشكلتي متعلقة بمسألة تناول الطعام ؛ تلك المشكلة التي اكتشفت خلال واحد وعشرين شهرا قضيتها كاماً ، أنها تقلق بال طائفة كبيرة جداً من الأمهات ، على اعتبار أنها أسوأ مشكلة يطول مداها وتثير الفيض ، من بين المشكلات العديدة المتصلة بتربية الطفل . لأن طفلي ما كاد يتجاوز سنته الأولى حتى تحول فجأة تحولا شاملا ، فبعد أن كان يتناول كل شيء وأى شيء يستوعبه فيه الصغير ، أصبح كل ما يتناوله من طعام في هذه الأيام لا يزيد إلا قليلا عن شيء من اللحم والفواكه والخبز . لقد سمعت أن بعض الأطفال الصغار يسرون على خطة ثابتة لا تتغير ، فلا يأكلون سوى صنف معين من الطعام لمدة أيام بل أسابيع متصلة . ولكن طفلي قد سار على هذه السياسة ما يزيد عن ثمانية أشهر حتى الآن ، ورغم أنه يتناول فقط الفيتامينات يوميا ، فأني أسأل نفسي : إلى أى مدى سوف يمكنه أن يظل محتفظا بصحته وعافيته وهو لا يتناول سوى هذا الغذاء المحدود » .

« ما هو واجب الأم في هذه الحالة ؟ هل يجب عليها أن تحرص قبل كل شيء على أن تكون فترة الأكل فترة سعيدة بالنسبة للطفل الصغير ، فلا تقدم إليه سوى صنوف الطعام التي يستسيغها ؟ أو ينبغي لها أن تصر (عن طريق التوسل تارة وإبداء الغضب تارة أخرى) على أن يتذوق على الأقل صنفا جديدا بين الفينة والفينة ؟ » .

أظن أن هذه الأم صاحبة الخطاب إنما تقتبس منى بعض كلماتي — في شيء

من الغيظ والسخرية — حين تقول : « يجب على الأم أن تحرص قبل كل شيء على أن تكون فترة الأكل فترة سعيدة بالنسبة للطفل الصغير ، فلا تقدم إليه سوى صنوف الطعام التي يستسيغها » . وأنا أوافقها على أن الأم حين يرضيها القلق بشأن الغذاء الهزيل غير المتوازن الذي يتناوله طفلها ، فإنها لا تكون في حالة مزاجية تؤهلها لخلق جو من السعادة في أثناء فترة تناول الطعام ؛ إذ لا يقتصر الأمر على شعورها بالقلق والتهمة ، بل إنها أيضاً لا تتمالك نفسها من الغضب . فهي تشتري طعاماً لذيذاً شهياً وتطهوه وتقدمه للطفل ، ثم يأتي هذا « المفعوص » الصغير صلب الرأى فيشيخ بوجهه عنه يوماً بعد يوم . وهي تعلم أنه لا يعاني من حساسية بالنسبة لكل هذه الصنوف من الطعام ، ولا يحمل لها كراهية فطرية ، إذ كان يقبل على تناولها في سعادة منذ شهور معدودات .

ومن الجائز أن شعورها بالقلق لا يقتصر على صحة الطفل وسلامته — وفيهما الكفاية من دواعي القلق — بل إنها تحس أيضاً بالقلق مما قد يقوله زوجها وأنها وطيبها وجيرانها ، وما قد يظنونه بها ، حين يرون الطفل يزداد نحافة على مر الأيام . فهذا الطفل يمكنه أن يجعل منها موطناً للهزاء والسخرية ، لجرد أنه يشيخ بوجهه عن الطعام في هدوء تام قائلاً : « لا » . وما من شيء في الواقع يمكنها أن تفعله كي تحوله عن رأيه ، فرغم أنها قد تحس بالرغبة في أن تنقض عليه ، وتهزه هزاً عنيفاً ، وتعطيه « علقة طيبة » على ردفه ، أو على الأقل أن تصيح في وجهه غاضبة ، إلا أنها تدرك من خلال تجربتها السابقة — أو من مجرد فكرة عندها — أن هذا الأسلوب لن يجدى معه نفعا على الإطلاق ، بل إنه سيزيده سوءاً على سوء . لذا فإن كل ما تفعله الأم في بداية الأمر ، هو أن تتأخر على أداء واجبها ، كي تحمله على تناول الطعام . غير أن الموقف بينها وبين الطفل يتعقد بمرور الزمن من جراء الشعور بالذنب الذي يتولد عندها بسبب ثورتها عليه ثورة سافرة أو دفيئة .

لطالما رددت مرارا وتكراراً أن الفترة ما بين سن السنة والسنتين ، هي أسوأ مرحلة من مراحل الطفولة ، يمكن أن تنشأ فيها مشكلات التغذية . وقد يرجع بعض السبب في هذه الظاهرة إلى أن الزيادة المطردة في وزن الطفل تقل تدريجاً في حوالى هذه الفترة من عمره . ذلك أن الطفل العادى يزيد وزنه نصف كيلو جرام أو أكثر شهرياً في خلال الشهور الخمسة الأولى ، ويزيد حوالى نصف كيلو جرام شهرياً حتى يبلغ الشهر الثانى عشر ، ثم لا يزيد سوى ربع كيلو جرام في الشهر أثناء السنة الثانية . وهكذا يمكنك أن تتبينى أن المهمة الأساسية للطفل الصغير في أثناء سنته الأولى ، هي أن يزداد في الحجم والقوة الجسمانية ، وذلك بفضل الزيادة المطردة في وزنه ، وبفضل نومه لفترات طويلة المدى . على أن عملية النمو الجسمانى تقل أهميتها بعد أن يتجاوز الطفل سنته الأولى . فهناك الآن أشياء أخرى عديدة تفوقها أهمية إلى حد بعيد ، مثل الاستكشاف والتعلم وتأكيذ الذات . كما أن شراهة الطفل لتناول الطعام في سنته الأولى ، يجب أن تخف حدتها شيئاً فشيئاً ، ولا تحول إلى وحش جبار كاسر .

من الجائز أيضاً أن التسنين يلعب دوراً في مشكلة ضعف «الشهية» عند بعض الأطفال . فأنا أعتقد أن التسنين الذى يستمر خلال الأشهر القلائل الأولى من عامه الثانى ، ويؤدى إلى بروز أربع أضرار في نفس الوقت تقريباً ، هو أفسى مراحل التسنين التى يعانى منها الطفل أشد العناء .

غير أن أهم العوامل في هذه المشكلة ، هو الشعور بالذات الذى يهبط دفعة واحدة على غالبية الأطفال في السنة الثانية من عمرهم . فهم يدركون في هذه السن أن لهم رغبات خاصة يمكن الإعراب عنها ، وأن لهم كرامة يجب المحافظة عليها . وهم لا يؤكدون ذاتهم في اختيار الأشياء التى تهمهم فحسب ، بل إنهم أيضاً يثيرون مشكلات حول أشياء لا تساوى في الواقع قلامة ظفر في نظرهم .

إن تأكيد الطفل لذاته من أجل تأكيد ذاته ، يبدو للأب أو الأم كما لو كان مجرد انحراف أو شذوذ في سلوكه ، مع أنك لو تريثت للتأمل فيه ، لوجدت أنه خطوة أساسية في عملية نموه ، لأن الطفل الصغير لن يصبح قط شخصاً له شأنه في الحياة ، ما لم يكن عنده هذا الدافع القهرى لإقناع أبويه وإقناع نفسه بأنه فرد له كيانه .

بيد أنى أشك أن حالة الطفل الميمنة في رسالة الأم ، تدل على مجرد ضعف «الشبهة» وزيادة العناد الذى يظهر عادة في الطفل ابن السنة . فمن الواضح أن هذا الطفل قد تولد فيه شعور حاد بالنفور من معظم أصناف الطعام . ومثل هذه المشكلة من مشكلات التغذية قد تنشأ من التأفف من تناول الطعام الذى يبيده الطفل ابن السنة في العادة ، غير أن من الجائز أن هذا التأفف قد قوبل بشحنة من القلق والغيظ تفوق المعتاد من جانب الأم . وأحياناً يتضح أن الأم نفسها كانت مشكلة من مشكلات التغذية في طفولتها ، وما زالت تذكر اشمئزازها من الطعام وغضب أمها عليها وقت تناول الوجبات ؛ ذلك أن الآباء والأمهات الذين كانت لهم مشكلات طويلة المدى في طفولتهم — سواء أ كانت للمشكلة متاعب في المدرسة ، أم تمرداً على التدريب على استعمال التواليت ، أم ميلاً إلى النعومة والرخاوة ، أم صراعاً مع الأب . . هؤلاء الآباء والأمهات يجدون أحياناً أنهم مهما صمموا على معالجة هذه المشكلات بطريقة أكثر تعقلاً مع أطفالهم فإنهم بدلاً من ذلك سرعان ما يستولى عليهم التوتر والقلق والفضب والشعور بالذنب . وأنا لا أعنى مطلقاً أن هذا يحدث دائماً . غير أن حدوثه في بعض الأحيان إنما يبين لنا مدى قوة المشاعر التى تتخلف في نفوسنا من آثار الصراع الذى يسبب بيننا وبين الآخرين في أيام طفولتنا . فما من شك أن هذه المشاعر من القوة بحيث تكتسح أمامها كل النوايا العاقلة . (رغم إدراكى أن هذا أسلوب حاطل* في التربية ، فقد اعتدت أن أثور ثورة عارمة على ابنى ، حين كان يميل

إلى أنه طفل كثير البكاء في سن الثالثة والرابعة من عمره ، حتى إنه ظل يذكر تورتى عليه بعد انقضاء عشرين سنة) .

إن الطفل حين يبلغ السنة الأولى من عمره ، يكون في سن تؤهله لأن يدرك مشاعر أمه عند ما ينتابها التوتر . وهذا الإدراك عند الطفل قد يجعل للطعام مذاق السم في فمه ، في حالة نشوب صراع بينه وبينها حول تناول الطعام . ولكي تدركي ما أعنيه ، فكري في شخص ما ، يبعث في نفسك شعوراً بالضيق وعدم الارتياح من جراء توتره النفسي ، ثم ضغني هذا الشخص إلى خمسة أضعاف حجمه الطبيعي ، وأجلسيه بجوارك (دون أن يكون معك شخص ثالث تلجئين إليه في طلب العون) ثم تخيلي أن هذا الشخص يحاول حملك على تناول أصناف من الطعام لا تروق لك ، وقد استولى عليه شعور بالغضب يزداد لحظة بعد أخرى ، بل ولن يغير من الوضع كثيراً أن هذا الشخص قد يحاول كبت شعوره بالغضب .

قد يساعد الأم على مواجهة المشكلة ، أن ننبهها مقدماً إلى أن « شهية » الطفل يحتمل أن تصبح متقلبة ، لاسيما بالنسبة للخضراوات والحبوب واللبن ، عند ما يناهز عمره السنة . أما الفواكه واللحوم ، فإنها تظل محبوبة في العادة ، سوى أن اللحوم يجب أن تفرى فرياً دقيقاً ، خصوصاً للأطفال ضعاف « الشهية » ، لأن قطع اللحم الكبيرة تجعلهم يحسون بغصة في حلقهم . ومع ذلك فإن معرفة الأم مقدماً بأن من المحتمل أن تضعف « شهية » الطفل في هذه السن ، لن تضمن لنا أن هذه الأم سيكون في وسعها أن تتجاهل هذه المشكلة .

فما أيسر أن أقول للأم التي كتبت إلى بشأن هذه المشكلة : إن محاولة حمل الطفل المتأفف على تذوق صنوف من الطعام غير التي تروق له ، لن تجدى نفعاً على الإطلاق ، لكنها تعرف هذه الحقيقة بالفعل من خلال خبرتها السابقة مع

طفلها . أما السؤال الذى جاء فى سياق خطابها ، فلا يعدو أن يكون تعبيراً عن غيظها وغضبها من سلوك الطفل غير المعقول . وقد يسرى عن هذه الأم بعض الشيء أن تعرف أن غالبيتنا نحن الآباء طاملاً عانينا مثلها من الشعور بالغضب والحنق من جراء تصرفات أطفالنا (الطفل الأول بالذات فى غالبية الأحيان) .

على أن خير وسيلة عاقلة لمعالجة المشكلة ، هى أن نطمئن هذه الأم إلى أن غذاء طفلها ، وإن كان شاذاً عن المألوف ، إلا أنه يشمل جميع العناصر الأساسية . فالقواكه والخبز المصنوع من القمح الخالص واللبن (هذه الأم لم تذكر اللبن ، ولكن من الجائز أنها لم تحص سوى الأطعمة الجافة فى خطابها) ، إلى جانب مركب من مختلف الفيتامينات ، يمكن أن تكون غذاء مناسباً تماماً للطفل ، إذا أعطيت له بكميات معقولة . حقاً إن هذا الغذاء لن يضمن حصول الجسم على ضعف الكمية المطلوبة من جميع المواد الضرورية — الذى يحصل عليه من غذاء أكثر تنوعاً — ومع ذلك فإنه أفضل كثيراً من الغذاء الذى يحصل عليه الأطفال فى مناطق عديدة من العالم . كما أن من واجب الطبيب أو إخصائى التغذية ، فى مثل هذه الحالة ، أن يستعرض غذاء الطفل ، ويقدر ما إذا كانت تنقصه بعض المواد الأساسية ، كى يقترح بديلاً لها (مثل أقراص الكلسيوم حين يرفض الطفل تناول اللبن) .

وهذه الأم يمكنها أن تطمئن أيضاً إلى أن الأطفال الذين لا يتناولون سوى كميات صغيرة من المواد الأساسية ويزداد وزنهم زيادة بطيئة ، ليسوا أكثر عرضة من غيرهم لنزلات البرد وغيرها من أمراض الأطفال الشائعة . غير أن الصعوبة فى محاولة طمأنة الأم على أساس من العقل والمنطق ، هى أن مشكلات التغذية لا تخضع للعقل والمنطق . فالطفل ضعيف « الشهية » يشير قلق أمه ، حتى ولو كان يحصل على جميع المواد الأساسية .

هناك أيضا كلمة مقتضبة ينبغي ذكرها بشأن زيادة وزن الطفل في المرحلة التي تسبق التحاقه بالمدرسة ، وفي السنين الأولى من حياته المدرسية . إن معدل زيادة الوزن في هذه المرحلة يبلغ حوالى كيلو جرامين في السنة . وهى نسبة ضئيلة موزعة على الاثنى عشر شهرا . كما أنها ، على ضآلتها ، تبدو أكثر ضآلة في نظر الأم التي يستبد بها القلق على طفلها . فما من مرة أخبرت فيها إحدى الأمهات بالوزن الحالى لطفلها الذي لا تحس بالرضا عن غذائه ، إلا وصاحت في قنوط : « عجبا ، إنه نفس وزنه منذ ستة أشهر مضت » . وفي غالبية الحالات يتضح من مقارنة الوزن الحالى بالوزن السابق ، أن الأم واهمة ، وأن الطفل قد زاد وزنه كيلو جرام أو كيلو جرام ونصف كيلوجرام . إن هذا التشاؤم جزء من الحالة الذهنية التي تتميز بها الأم حين يكون طفلها مقلا في تناول الطعام .

والوسيلة الوحيدة لمعالجة مشكلات التغذية الخطيرة ، هى ألا نقدم للطفل — لمدة ثلاثة أشهر على الأقل — سوى أصناف الطعام الصحية المفيدة التي تروق له في الحاضر . والخطوة الأولى في هذا السبيل هى أن نستعرض بالتفصيل قائمة بجميع أصناف الطعام المألوفة ، بحثا عن بضعة أصناف تروق له . فلو أنك اكتفيت بسؤال الأم : « هل يحب أى نوع من اللحوم ؟ » لأجابتك في استمزاز : « كلا ! » لكنك إذا أحصيت جميع أنواع اللحوم في قائمة واحدة ، فقد تجددين مثلا أنه يجب منها « السجق » أو لحم البقر المفرى . إن مثل هذه القائمة بصنوف الطعام التي يجبها ، حتى ولو كانت تحتوى على خمسة أنواع فقط ، يجب أن تكون هى غذاء الطفل (بالإضافة إلى الفيتامينات وغيرها من العناصر المعدنية الأساسية إذا أمكن) . والهدف من ذلك هو أن ندع الطفل يستمتع بوجباته فترة من الزمن قد تستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر ، حتى تبدأ « شهيته » تتفتح للطعام . ولأعنى بذلك أن على الأم أن تبدأ في حثه على تناول أصناف أخرى من الطعام بهدوء

انقضاء ثلاثة أشهر ، بل أعنى أن معدة الطفل قد تبدأ عندئذ في طلب هذه الأصناف من تلقاء نفسها .

وإلى لوائح أن هذه الوسيلة سوف تحقق الهدف المنشود ، إذا استطاعت .
الأم أن تضبط نفسها وتتبع تعليمات الطبيب ، ولو أنها مهمة عسيرة عليها . إن أسوأ مشكلات التغذية التي سمعت بها في حياتي ، كانت حالة طفلة في الثانية والنصف من عمرها ، لم يكن بوسعها — وهي مستيقظة — أن تطيق منظر أو رائحة أى نوع من الطعام أو الشراب ، بل لقد كانت في الواقع تعثرها حالة من الرعب حين يقترب موعد تناول الطعام . لكنها لم تكن تمنع في شرب اللبن من البرازة أثناء نومها . ولكي تسير أمها على قاعدة عدم إعطائها أى طعام لا يروق لها ، كان لزاما عليها أن تمتنع عن إعطائها أى نوع من الطعام في أثناء النهار ، وتعطيها برازتين من اللبن المقوى بالبيض والحبوب والقشدة والفيتامينات في أثناء نومها . وفي خلال شهرين أصبحت الطفلة تتوسل إل أمها في طلب الطعام ، ثم في خلال ثلاثة أشهر أصبحت تتناول الطعام على خير ما يرام .

التبول في الفراش

« إن الظاهرة في حد ذاتها أقل أهمية
من الاضطرابات التي تكمن وراءها »

أريد أن أتناول في هذا الفصل المشكلة العسيرة المتعلقة بالتبول في الفراش
(يسمى المن في علم الطب) فأعالج بإيجاز أنواع الحالات الأكثر شيوعا ،
والأسباب التي تؤدي إليها .

يكف غالبية الأطفال عن التبول في الفراش بالليل ما بين سن الثانية والثالثة
من عمرهم . غير أن طائفة قليلة منهم تظل تتبول في الفراش على فترات متباعدة
حتى سن الثالثة والنصف أو الرابعة . على حين أن فئة أخرى قليلة العدد تكف
عن ذلك قبل سن الثانية . وفي بعض الحالات النادرة يكف الطفل الصغير —
وهو في العادة من البنات — عن التبول في الفراش بالليل عند ما يبلغ سنة واحدة
من عمره ، أي قبل أن تبذل الأم أى جهد على الإطلاق في تدريبيه أثناء النهار .
وهذا أبلغ دليل على أن عدم تبول الطفل في الفراش بالليل ، إنما يحدث تلقائيا ،
كجزء من عملية النمو ، لا نتيجة لجهود الأمهات أساسا .

هناك أسباب عديدة شتى ، تؤدي إلى تبول الطفل في الفراش . فبعض
الحالات تنشأ عن شذوذ جسماني في الطفل ، أو عن مرض من الأمراض . وفي
مثل هذه الحالات عادة يجد الطفل صعوبة في ضبط عملية تبوله أثناء النهار أيضا
(على سبيل المثال ، قد تسيل منه كل بضعة دقائق قطرات من البول لا يمكنه
السيطرة عليها ، أو قد يجد صعوبة في بدء عملية التبول ، أو قد لا يتمكن من
تفريغ مثانته تماما) أو يحس بحرقه أثناء التبول ، أو يتبول مرات عديدة ،
أو يوجد صديد في البول . ومن البديهي أن الطفل الذي تظهر عليه أعراض

مرضية في عملية التبول أثناء النهار ، أو لا يكف بعد بلوغه السنة الثالثة عن التبول على نفسه أثناء الليل ، يجب عرضه على الطبيب .

على أنه في غالبية حالات التبول في الفراش ، لا توجد بالطفل أية متاعب جسمانية ، وتكون عنده القدرة الطبيعية على ضبط نفسه في أثناء النهار (ولو أنه قد يبلل سراويله بعض الشيء ، لأنه يؤجل الذهاب إلى المرحاض « التواليت » أكثر من اللازم) .

أما حالات التبول في الفراش التي تنشأ عن بعض الظروف النفسية ، فإن لها أسباباً شتى ، فمن الحالات الشائعة — وإن لم تكن أكثرها شيوعاً — حالة الطفل ابن السنتين أو السنين الثلاث الذي يكف عن التبول في الفراش عدداً من الشهور ، ثم يعود إلى التبول على نفسه عند مقدم الوليد الجديد ؛ إذ يحس عندئذ بعدم الأمن والطمأنينة فترة من الزمن ، فيتراجع التهورى إلى مرحلة أكثر طفولية في التفكير والسلوك ، شأننا جميعاً حين نتناوبنا هذه الحالة المزاجية . وهذا الطفل قد لا يبلل فراشه فحسب ، بل إنه قد يتأدى في مص إبهامه ، أو يلزم أمه كظلمها . كما أنه قد يتوق ، لاشعورياً ، لأن تغير له أمه ثياب النوم المبللة مثلما تغير كواويل المولود الجديد . ومن المحتمل أنه يتبول على نفسه — لاشعورياً في أثناء النوم — بسبب ثورته على أمه ، لأنها جاءت بهذا المولود إلى الفردوس الخاص به وحده . وقد حدث في بداية الحرب العالمية الثانية ، عند ما رحلت جموع غفيرة من أطفال مدينة لندن إلى الريف ، بعيداً عن الأسرة والأصدقاء والمحيط الذي تعودوه ، أن ارتد كثير منهم — حتى المراهقون — إلى التبول في الفراش . وقد يكون السبب الرئيسى في ذلك ، هو ارتدادهم إلى مرحلة الطفولة في أثناء النوم بسبب عدم الشعور بالأمان والطمأنينة .

وعلاج مثل هذه الحالات هو أن نحاول أن نعيد إلى الطفل الشعور

بالاطمئنان إلى مركزه بين أفراد الأسرة ومكانته في قلب والديه . وما دام من المؤكد أنه سيحس بالخجل من فراشه المبلل — حتى ولو لم يكشف عن هذا الشعور في الظاهر — فإن من الحكمة أن تؤكد له في عطف أنه لن يلبث أن يتمكن ثانية من ضبط نفسه بالليل .



على أن أكثر حالات التبول شيوعا ، تختلف عن الحالة السابقة . وهي تحدث عند الأولاد في الغالب ، لذا فإن مشكلة الأولاد هي التي سأناقشها أولا: إن غالبية هؤلاء الأولاد لا يكفون كلية عن التبول في الفراش بالليل ، بل يبدأون على ذلك في معظم الليالي ، حتى يبلغوا السنة السادسة أو الثامنة أو العاشرة أو الاثنتي عشرة من عمرهم . وفي مثل هذه الحالات ، غالبا ما تكون الأم قد واجهت صعوبة تفوق المعتاد في تدريب الولد على استعمال المراض « التواليت » أثناء النهار عندما كان ابن سنة أو سنتين ، لأنه كان يقاوم جهودها في تدريبه ، فتشور عليه في بعض الأحيان .

ويعتقد أطباء الأطفال النفسانيون الذين درسوا هذه الحالات (وقد قامت المرحومة الدكتورة مرجريت جيرارد بعمل طليعي في دراسة هذه المشكلة) أن في معظمها — لا كلها — يوجد شعور بالتوتر بين الأم والابن . وفي معظم الحالات أيضا ، تكون الأم قوية الشخصية ميالة إلى النقد واللوم بطبعها ، كما أنها تكون وثيقة الصلة بابنها ، تركز نفسها لإسعاده ، لكنها في نفس الوقت تبدى شيئا من الضجر بالخشونة والجلبية والفوضى وسلاطة اللسان التي تتمثل في سلوك ابنها ، وهي من مظاهر الصبا التي تستطيع غيرها من الأمهات أن ينظرن إليها نظرة فلسفية . أما الغلام فإنه يكون في العادة حساسا بطبيعة تكوينه ؛

من النوع المتهيب الذى تسهل إثارة الرعب في قلبه . ومن المحتمل أنه كان يعتمد تماماً على أمه في مرحلة الطفولة المبكرة ، تتمسكه الهيبة في كثير من المواقف ، ويرى كثيراً من الأحلام المزعجة في أثناء نومه . كما أن هذا الغلام لا يمكنه أن يتجاهل استنكار أمه لتصرفاته ، مثلما يفعل كثيرون غيره من الأبناء ، بل إنه يبدى استعداداً شديداً للاقتناع بأنه قاصر يعوزه النضج . وتبدو أمه في نظره على أنها شخصية طاغية تميل إلى الغضب والسيطرة .

ومع ذلك فإن هذا الغلام لا يلجأ إلى الخضوع والاستسلام ، كي يتحاشى مزيداً من المتاعب مع أمه : بل إنه يعتاد الحصول على لذة شاذة خفية من غضب أمه حين تتكدر من تصرفاته ، فيعمل لاشعورياً على استفزازها بحيل صغيرة تبعث على الغيظ . ورغم أنه يجد لذة في الخضوع والاستسلام أحياناً ، فإنه أيضاً يخشى هذا الخضوع ويكافح للتغلب عليه . فشكلته الأساسية يحددها الطيب النفساني على أنها صراع عميق بين الرغبة المريضة في الخضوع السلبي ، وبين الرغبة السوية في أن يكون إيجابياً وفعالاً .

والواقع أن مثل هذا النوع من الأولاد الذين يتبولون على أنفسهم ، لا يبلل فراشه بسبب عدم تدريبه على ضبط نفسه ، أو بسبب امتلاء مثانته أكثر من اللازم ، أو بسبب استغراقه العميق في النوم ، بل إن تبوله في الفراش يحدث كل ليلة أثناء حلم يرى فيه أنه تحت سلطة ، أو تحت رحمة شخص ما ، أو حيوان ما ، أو قوة من قوى الطبيعة . وعادة ما يكون شعوره في أثناء الحلم مزيجاً من القلق واللذة . ومن ثم يمكن القول بأن التبول في الفراش في هذه الحالة ، ما هو إلا رد فعل لنوع خاص من الانفعال المثير . (كانت عندنا في وقت من الأوقات كلبة صغيرة ، يستبد بها الانفعال عند عودتنا إلى البيت ، فتتمرغ على ظهرها في وضع يدل على الخضوع ، ثم يفيض بولها على أرضية

الحجرة) . وبصورة أعم من ذلك ، يمكن القول بأن التبول في الفراش إنما يدل على اتجاهين آخرين في لاشعور الطفل ؛ فهو يدل على إحساسه بأنه مازال طفلاً صغيراً ، ويدل في نفس الوقت على تحديه الطفلي لأمه التي يحس أنها تسيطر عليه وتستنكر تصرفاته أكثر من اللازم .

وأريد هنا أن أوضح تماماً أن الغلام لا يعي هذه المشاعر المضطربة الدفينة في عقله الباطن ، ولا يدرك العلاقة بينها وبين تبوله على نفسه ، بل إنه من الناحية الشعورية يحس بحجل شديد من التبول في فراشه ، وهو عادة يبذل جهوداً شاقة لضبط نفسه . لذا فإن من الخطأ الذي يؤدي إلى عكس الهدف المنشود ، أن تنصرف الأم مع الغلام كما لو كان قادراً على الكف عن التبول على نفسه ، إن هو رغب في ذلك . فهو لا يستطيع تغيير أحلامه ، أكثر مما تستطيع أنت أو أنا أن نغير أحلامنا .

وما دامت المشكلة الأساسية لهذا النوع من الأولاد الذين يقبولون في الفراش ، هي أنهم يشعرون بالعجز ويحاولون لاشعورياً استفزاز أمهاتهم كي يفرضن سيطرتهم عليهم ، فإنك تستطيعين أن تتبينى السبب في أن بعض أساليب السيطرة التي تنتهجها الأمهات ذوات الضمائر الحية ، لا تجدي نفعاً في علاج المشكلة .

هل نوقظه في أثناء الليل ونقوده إلى المرحاض متعثراً في خطاه ؟ هذا لا يعدو أن يكون دليلاً آخر على أنه لا يستطيع أن يعنى بأمر نفسه ، وأن والديه لا يثقان بقدرته من هذه الناحية . هل نحمله على غسل ملابسات سريرته ونشرها خارج البيت أمام الناس ؟ تصرف مهين فيه إهدار لكرامة الطفل أكثر من سابقه ، إذ يتمسكه في هذه الحالة شعور بالرعب في أن يكشف الأغراب عاره ، لا سيما

الأولاد الآخرون . هل نحدد كمية السوائل التي يشربها في المساء ؟ هذه الفكرة قد تبدو منطقية إلى حد بعيد . بيد أن هذا التحذير في تناول السوائل قبل النوم ، لن يؤدي في الواقع إلا إلى شعوره بالظلمة على الفور ، كما يمكن أن يؤدي معك أو معي ، فيظل يتوسل إلى أمه في طلب شيء يشربه ، وتضطر هي إلى المشاركة على رفض طلبه في ضجر ، وهذا ضار به وبها . هل نبعث به إلى أحد المعسكرات ؟ لا نفعل ذلك إلا إذا وجد الغلام أن في وسعه الامتناع عن التبول في الفراش وهو بعيد عن البيت ، ورغب في التجربة من تلقاء نفسه . بل إننا في هذه الحالة لا نبعث به إلى المعسكر إلا إذا كان المشرفون عليه من النضيج والخبرة بحيث يمكنهم أن يتفهموا مشكلة الغلام ، ويبدوا استعداداً لحمايته من الغلمان الآخرين ، ذلك لأن المعسكر العادي يمكن أن يكون عذاباً أليماً للغلام الذي يقبول على نفسه .

ما هو إذن التصرف البناء الذي يمكن اتخاذه في سبيل حل المشكلة ؟ رغم أن التبول في الفراش يبدو كما لو كان هو المشكلة الحقيقية — في نظر الطفل والوالدين — فإنه ليس أهم المشكلات على المدى البعيد . ففي الغالبية العظمى من الحالات ، يكف الغلام عن التبول في الفراش ، قبل أن يبلغ مرحلة المراهقة ، أو عندما يبالغها ، لكن الاضطرابات الكامنة وراء هذه الظاهرة — الشعور بالعجز ، الصراع الدائب للتغلب على السابية ، الرغبة الماحقة في الاستفزاز — لا يمكن التغلب عليها بهذه السهولة . على أن الوسيلة المثلى للوصول إلى جذور هذه الاضطرابات ، هي التحليل النفسي الدقيق للطفل عدة مرات في الأسبوع ؛ أما الوسيلة التي تليها في الفائدة ، فهي علاج الطفل مرة في الأسبوع بإحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية . ويتطلب الأمر هذه الأنواع من العلاج النفسي

بصفة خاصة عند ما يكون الاختلال في شخصية الطفل من الخطورة بحيث يؤدي إلى توتر مستمر بينه وبين أفراد الأسرة ، ويسبب له كابوساً بالليل ومخاوف بالنهار ، ويبعث في قلبه الوجل من الأولاد الآخرين ، أو الرغبة في استفزازهم .

وتسأل بعض الأمهات عن الجهاز الكهربى الذى يمكن شراؤه أو تأجيره ، والذى يحدث رنيناً ويلقى ضوءاً كاشفاً فى اللحظة التى يتل فيها الفراش . إن هذا الجهاز يعلم الطفل بالتدريج — فى نسبة معينة من الحالات — أن يمنع نفسه من التبول فى الفراش ، على الأقل بصفة مؤقتة . وكما يمكن أن تتخيان ، فإن غالبية الأطباء النفسانيين لن يرضوا عن هذه الوسيلة التى تقضى على أعراض المرض دون أن تصل إلى أسبابه الكامنة على الإطلاق . هل يسبب هذا الجهاز أى ضرر للطفل ؟ أظن أنه لن يسبب ضرراً ، بل إنه قد يحقق بعض الفائدة ، إذا استخدم مع غلام تكيف تكيفاً سليماً مع البيئة ، يكون قد بلغ الثامنة من عمره . أو تجاوزها ، واشترك مع والديه فى اتخاذ القرار الخاص بتجربة الجهاز . فمثل هذا الغلام يمكنه أن يدرك طبيعة الموقف إدراكاً كاملاً ، وإذا نجح الجهاز فى القضاء على ظاهرة التبول عنده ، فإن هذه الخطوة فى حد ذاتها سوف تنمى ثقته بنفسه . ومع ذلك فإن هذه الوسيلة لن تحل المشكلة الأساسية فى شخصية الغلام . كما أنى . أعتقد أن هذا الجهاز الكهربى قد يسبب ضرراً ، إذا استعمل لطفل صغير يملكه الخوف ويفتقر إلى النضج . فحتى لو بث الجهاز الرعب فى قلبه فامتنع عن التبول على نفسه ، فإنه قد يفرس فى عقله أفكاراً مريضة أخرى .

وسواء استطاعت الأمهات أن يحصن لأطفالهن على علاج نفسى أم لا ، فإن هناك إرشادات معينة قد تنير أمامهن السبيل . تستطيع الأم أن تتحاشى التحقير من شأن الغلام ، وأن تعبر له عن ثقها بأنه سيتمكن من ضبط نفسه

إن آجلاً أو عاجلاً ، وأن تتجنب الفرص كي تنمي ثقته بنفسه . وإذا كانت الأم قد ظلت تطارده طويلاً بشأن تبوله على نفسه ، فإن في استطاعتها أن تعبر له في حديث ودي معه عن عزمها على أن يفتح صفحة جديدة في هذه المسألة ، فنقول له : « أعتقد أنني كنت مخطئة في مطاردتي لك بشأن تبولك على نفسك في الفراش . ولابد أن أسلوبى هذا قد أثار غيظك كثيراً . لكنى أدركت الآن أن عدداً كبيراً من الأولاد يعانون من نفس المشكلة ، غير أن جميعهم تقريباً ينجحون في ضبط أنفسهم آجلاً أو عاجلاً . وأظن أنك أنت أيضاً لن تلبث أن تصل إلى نفس النتيجة سريعاً ، إذا عملت على معالجة المشكلة بنفسك . أتمنى لك حظاً سعيداً » . كما أن من واجب الوالدين أن يحاولا قدر جهدهما ألا يفاكفا الفلام بشأن عشرات المشكلات التافهة التى تنشأ في البيت يومياً ، ولو أن هذا سيكون عسيراً عليهما في بادئ الأمر ، بسبب تصرفاته التى تبعث على الغيظ ، لكنهما رغم ذلك يجب أن يمسكا بزمامه في المسائل الهامة . كما أن عليهما أن يتحيفا الفرص لتدعيم شخصيته في المدرسة وفي الحى ، وأن يحرصا على أن تكون عنده دراجة أو كرة قدم ، إذا كان الأولاد الآخرون عندهم نفس الأشياء (ذلك أفضل من منعها عنه كي تكون حافزاً له على الكف عن التبول في الفراش) . كما ينبغى أن يرحبا بأصدقائه في البيت ، وينظما لهم رحلات ومتعة خاصة بين الفينة والفينة .

وقد أدركنا من خلال العلاج النفسى للأطفال أنهم حين ينامون مع والديهم في نفس الحجرة ، أو يفصلهم عنهما مجرد جدار رقيق ، فإن أى صوت يصدر عن الوالدين في نومهما أو في حديثهما قد يوقظ هؤلاء الأطفال في كثير من الأحيان ، ويسبب لهم اضطراباً نفسياً أكثر مما يقدر الوالدان . على حين أن تكوين شخصية الطفل الذى يتبول في فراشه يجعله عرضة بصفة خاصة لأن

يستخلص نتائج تأثير انزعاجه من أى صوت يترامى إلى سمعه من مكان نوم والديه به ولذا فإن من الحكمة أن يوضع فراشه بعيداً بحيث لا يصل إليه أى صوت ، إذاً أمكن ترتيب هذا الوضع فى البيت .

وفى أسرة الطفل الذى يتبول على نفسه ، غالباً ما يكون الأب من النوع الهادىء ، فهو من ناحية يفضل ألا يلعب دوراً كبيراً فى تهذيب الأطفال ، لكنه من ناحية أخرى يحس بالغليظ من عدم نضج ابنه ونقص رجولته . وكلا الاتجاهين يجعلان من العسير على الغلام أن يكتسب ثقة بنفسه ؛ ذلك أنه مما يساعد أى غلام على اكتساب صفات الرجال أن يصوغ نفسه على نمط أب يصاحبه ويلعبه فى بعض الأحيان ، وهو فى نفس الوقت لا يتردد فى تأكيد سلطته فى شئون الأسرة إلى درجة معقولة ، لا سيما فى المسائل المتعلقة بتأديب الأطفال وتهذيبهم . (انظرى الفصل الخاص بدور الأب فى تأديب الأطفال) ..

* * *

ما هو الوضع بالنسبة للبنات التى تقبول على نفسها من أثر بعض الظروف النفسية ؟ فى الحالة السائدة بين البنات (هناك بالطبع حالات أخرى) لا تكون البنت متهمية أو تعوزها الثقة بالنفس . بل إنها على العكس من ذلك ، قد تكون جريئة فى مسلكها ، ميالة إلى تأكيد ذاتها ، وربما يكون فيها شيء من القحة . كما أن هذه البنت قد تميل إلى التنافس الشديد مع إخوتها إن كان لها إخوة ، ومع الغلمان الآخرين . وهى لا تتباعد قط عن أبيها ، بل إنها قد تلتصق به أكثر من المعتاد ، وترغب فى أن تشاركه فى جميع اهتماماته ، وتحلم بأن تؤدى نفس عمله عند ما تبلغ مبلغ الكبار .

فإذا أمكننا أن نقول بأن مشكلة الغلام الذى يتبول على نفسه ، تنشأ فى غالبية الحالات من شعوره بأنه لا يزال طفلاً رضيعاً ، فإن مشكلة البنت التى

تتبول على نفسها هي أنها في غالبية الحالات تحاول — لا شعورياً — بكل قواها أن تكون كالولد . فإذا كانت هذه هي مشكلتها بالفعل ، فإن أكثر ما يساعدها في التغلب عليها ، هو أن يبين لها والداها أنهما يحبانها ويستمتعان بها لجرد أنها بنت . ومع أن مثل هذه البنت تحتاج دائماً إلى ود أبيها وصداقته ، فإن مما يساعدها فعلاً على الشعور بالسعادة كإبنة له ، أن يتبين لها من مسلكه أنه يمنح محبته وحنانه لزوجته أولاً . أما دور زوجته في هذه الناحية ، فهو أن تستجيب لحبه وحنانه .

مشكلات وقت النوم حول سن الثانية

« إنها تكاد تنشأ دائماً من شعور الطفل بالقلق بسبب انفصاله عن أمه » .

إن مشكلات وقت النوم عند الأطفال حول سن الثانية ، التي أريد مناقشتها في هذا الفصل ، تختلف كل الاختلاف عن مشكلات الأطفال الصغار دون سن العام . فمشكلات السنة الأولى من عمر الطفل تندرج غالباً في باب التدليل ، ويمكن عادة علاجها علاجاً سريعاً عن طريق الحزم من جانب الوالدين . أما مشكلات وقت النوم في سن السنة والنصف ، والسنتين ، فإنها تكاد تنشأ دائماً عن شعور بالقلق في نفس الطفل ، وهذا الشعور يمكن أن يتراوح بين الضعف والشدة .

والقصة الميزة التي تمثل حالة الطفل الذي يستبد به القلق ، يمكن أن تكون على الوجه التالي : أم لها طفل وحيد في الثانية من عمره ، اضطرت فجأة أن تغادر البيت لمدة أسبوعين ، وتركت الطفل بالبيت في رعاية سيدة غريبة عنه . وعند ما اتصلت الأم تليفونياً من مكانها البعيد ، لتسأل كيف تسير الأمور في البيت ، أبلغتها السيدة أن الطفل يسلك سلوكاً حسناً ، ولا يبدو عليه أنه يفتقد أمه ، والواقع أنه قد تبين من المقارنة الدقيقة بين سلوكه في هذه الفترة وسلوكه المألوف ، أنه قد سلك في هذه الآونة سلوكاً حسناً أكثر من المعتاد ؛ إذ كان يسمح للسيدة الغريبة بأن تطعمه وتلبسه ثيابه أو تخلعها عنه ، وأن تهندمه ، وتصحبه خارج البيت أو تعود به إلى البيت ، وتضعه في فراشه ، دون أن يبدي لها شيئاً من العناد والجلبة التي اعتاد أن يعتمد إليها مع أمه في معظم الأحيان .

ولكن ما إن عادت أمه إلى البيت آخر الأمر ، حتى انفجر شعوره بالخوف وطفًا على السطح كالبركان ، فدأب على مراقبتها والاتصاق بها أينما ولت وجهها . ولئن خرجت من الحجرة ، فإنه كان يجش بالبكاء ويجرى وراءها ، بل إنه أبى أن يسمح للسيدة التي كانت تعنى بأمره أن تقترب منه بأى حال من الأحوال . وفى موعد النوم ، كان يتعلق بأمه تعلقاً شديداً ، لدرجة أنه كاد يصبح من المحال عليها أن تحمله على النوم فى فراشه . وعندما كانت تتجه نحو الباب لمفادرة الحجرة ، إذا بهذا الطفل الذى لم يسبق له قط أن حاول مجرد التسلق « الشعبة » للخروج من مهده ، يقفز من على جانب المهد ، وينهض من فوق أرضية الحجرة ثم يندفع راكضاً وراءها . كان الذعر الذى استبد به يقطع نياط القلوب ، حتى إن أمه لم تحاول ثانية أن تغادر الحجرة ، بل ظلت تجلس إلى جوار مهده فى انتظار أن يستولى عليه النوم . لكنه دأب على البقاء مستيقظاً زهاء ساعتين كل ليلة . ولئن حاولت أمه أن تتسلل خارجة من الحجرة قبل أن يستغرق فى النوم ، فإنه كان فى هذه الحالة يبقى ساهراً فترة أطول من المعتاد ، يرقبها بعين يقظة لا تغفل عنها .

من الواضح أن هذا السلوك عند ما يستمر أياماً عديدة ، إنما يدل على أن مزاج الطفل قد انحرف انحرافاً عنيفاً ، فتحس الأم بالشقاء من أجله ، لسكنها فى نفس الوقت لا تتمالك أن تشعر بالخيبة والإحباط ، لأن لها طفلاً يتعلق بها كظلمها طوال النهار ، ويسجنها فى حجرته كل مساء . هذه صورة لما يسمى « قلق الفراق » فى أعنف مظاهره ، وهى تبين لنا السبب فى بعض مشكلات النوم العويصة التى تنشأ فى الفترة بين سن السنة والثلاث السنين . على أن المشكلة قلما تكون بهذه الصورة العنيفة . فقلق الفراق الذى يبلغ هذه الدرجة العنيفة ، لا نلمسه عادة إلا فى طفل وحيد أبويه ، تكون له أم تتفانى فيه أكثر من المعتاد ، وتميل إلى فرض حمايتها عليه أكثر من اللازم . فيظل الطفل والأم ملتصقين أحدهما

بالآخر ، معتمدين أحدهما على الآخر دائماً . كما أن الطفل في هذه الحالة تسرى إليه بعض الهواجس التي تنتاب الأم بشأن الحوادث والأخطار التي قد تلحق به .

وعندما أسائل نفسى عن السبب في أن الأطفال حول سن الثانية هم الذين يتعرضون أكثر من غيرهم للشعور بقلق الفراق ، يغلب على ظنى أن السبب في ذلك هو أن الأطفال في هذه السن يكونون قد بلغوا من السن ما يؤهلهم لأن يدركوا مدى قيمة أمهاتهم بالنسبة إليهم ، لكنهم في نفس الوقت لم يبلغوا من السن ما يتيح للأمهات أن يبعثن الطمأنينة في قلوبهم عن طريق شرح الأمور لهم . فالأم تقول للطفل إنها سوف تعود للبيت في خلال أيام قلائل . ولـسـكـنـ ماذا يمكن أن تعنى هذه الكلمات بالنسبة لطفل لم تسبق له تجربة الفراق عن أمه ؟ إن غيابها عنه يوماً واحداً قد يبدو في نظره كما لو كان غياباً أبدياً ، لأن الطفل لا يحس بالزمن إلا إحساساً ضئيلاً للغاية في هذه السن ، حتى إنه لا يدرك الوقت صباحاً كان أو مساءً ، إلا بعد أن يبلغ الرابعة أو الخامسة من عمره .

ولنتقل الآن إلى نوع شائع من المشكلات الهينة التي تنشأ في وقت النوم . وهو أن كثيراً من الأطفال الذين اعتادوا أن يذهبوا إلى الفراش كالحملان الوديعه ويستغرقوا في النوم بمجرد إطفاء الأنوار ، يبدأون في حوالى سن ١ ٢ و ٢ و ٢ ، يحاولون استبقاء الأم معهم في حجرة النوم متذرعين ببعض الحجج الزائفة « عايز أعمل بي بي » (التبول) ، ثم « عايز أشرب ميه » ، ثم الـ « بي بي » وشرب الماء مرة أخرى . فتجد الأم نفسها في مأزق حين يأتي ذكر الـ « بي بي » ، لأنها قد ظلت طويلاً تشجع الطفل على أن يتصرف كإنسان مسئول عن نفسه ، ولا تريد أن تبدو كما لو كانت غير متعاونة معه في مسألة الذهاب إلى المرحاض ، مهما تكن واثقة بأنها مجرد حجة زائفة لاستبقائها معه .

هناك مظهر آخر يدل على نفور الطفل ابن السنتين من البقاء وحيداً في

فراشه ، ذلك أنه يتعلم أن يحبو خارجاً من مهده ، ثم يظهر بكل هدوء إلى جوار أمه في المطبخ أو في حجرة الطعام أو حجرة الجلوس . ومع أن الطفل في هذه السن قد يكون ساذجاً في غالبية نواحي الحياة ، إلا أنه يستطيع بلا ريب أن يستخدم سحره بمهارة فائقة ، في تلك اللحظات التي يدرك فيها أنه يقترب عملاً محظوراً . فهو يحاول عندئذ أن يتحجب إلى أمه بابتساماته ، ويسألها أسئلة ودية ، ويبدى رغبة في البقاء بين أحضانها فترة طويلة ، قد تبلغ أضعاف الفترة التي يبدى فيها هذه الرغبة أثناء النهار . إن سحره لا يقاوم في هذه اللحظات .

وفي اعتقادي أن الأعذار التي يتذرع بها الطفل لاستبقاء أمه في حجرته ، أو للتسلل من فراشه كي يمشي مع والديه ، إنما تدل على شعور طفيف جداً بقلق الفراق ، لا لأن الأم قد اختفت اختفاء مفاجئاً يثير القلق ، ولكن على الأرجح لأن الطفل في هذه السن يحتاز مرحلة من مراحل النمو من السهل فيها أن يحس بالوحدة والوحشة حين يفترق عن أمه .

كما أن الفراق قد يحدث رد فعل بسيط عند الطفل في هذه السن ، عندما يرحل قريب له كان يعيش معهم في نفس المنزل ، أو حتى عندما تنتقل الأسرة من منزل إلى آخر .



ما الذي ينبغي عمله في هذه الحالة ؟ ليس عندي أدنى شك في أن الأم ينبغي أن تثابر عدة أسابيع على بث الطمأنينة الكاملة في قلب الطفل ، إذا انتابه قلق حاد في وقت النوم ، لا سيما إذا كان هذا القلق راجعاً إلى غيابها عن البيت فترة من الزمن . ومن المهم في هذه الحالة ألا تتغيب الأم عن البيت مرة أخرى ، حتى يتبين لها من سلوك الطفل أنه يستطيع تقبل غيابها بالرضا . وأعتقد أن خير

ما تفعله الأم في وقت النوم هو أن تجلس إلى جوار مهده ، وأن تحتضن يده في يدها إن هو رغب في ذلك . ولكن ليس من الوسائل الناجعة أن تحمله في حجرها ، إذ يكاد يكون من المؤكد أنه سوف يستيقظ من نومه ، عندما تحاول بعدئذ أن تضعه في مهده . كما أن من الضروري أن تظل جالسة إلى جواره حتى يستغرق تماماً في النوم ، لأنها إذا حاولت أن تنسل من الحجرة وهو بعد بين النوم واليقظة ، فإن أقل صرير يصدر عن ألواح الأرضية الخشبية سوف يوقظه من نومه ، وفي هذه الحالة سوف يكافح جاهداً — حتى أكثر من ذي قبل — لصد النوم عن جفنيه ، بدافع الخوف من مغادرتها الحجرة . قد تستغرق هذه العملية زهاء ساعتين في الليالي القليلة الأولى ، وهي مهمة ثقيلة على قلب الأم . لذا ينبغي أن تستريح في جلستها بقدر الإمكان ، وتقضي الوقت في القراءة أو التطريز على ضوء المصباح المظلل «الأباجورة» ، إن رغبت في ذلك . وإذا سارت الأمور على مايرام ، فإن فترة يقظة الطفل لن تلبث أن تنخفض إلى نصف ساعة ، ولو أن الأمر قد يتطلب أن تثابر الأم طوال شهرين على الجلوس إلى جواره هذا النصف ساعة كل ليلة .

وغنى عن البيان أننا يجب أن نطلب المساعدة من أحد أطباء الأطفال النفسانيين أو من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية — إن كان ذلك في حيز الإمكان — لعلاج الطفل الذي يستبد به القلق إلى هذا الحد .

إن الوقاية أسهل من العلاج . فإذا أمكن أن يؤجل الوالدان بضعة أشهر قيامهما برحلة طويلة المدى خارج المدينة (في حالة قيامهما برحلة أثناء الإجازة مثلاً) ، ريثما يتجاوز طفلهما الوحيد العامين ونصف العام من عمره ، فإن هذا سوف يقلل من احتمال إصابته بقلق حاد عند رحيلهما ، لأن شرح الأمر له في هذه السن سيكون له معنى في ذهنه أكثر من ذي قبل . أما إذا تعذر تأجيل رحلة الأم

أو نزولها بالمستشفى ، فإن مما يستأهل الجهد في هذه الحالة أن نجعل الطفل يألف السيدة التي ستعنى بأمره في أثناء غيابها ، على أن يكون ذلك بالتدريج ، على مدى أسبوعين ، إن أمكن ذلك . وينبغي أن يقتصر عمل هذه السيدة في بادئ الأمر على قضاء بعض الوقت في أنحاء البيت ، فلا تشترك في العناية بالطفل ، إلا بعد أن يبدى نحوها شعوراً بالود والثقة . وبعدئذ تستطيع الأم أن تغادر البيت لبضع ساعات متواصلة ، كي يدرك الطفل أن اختفاءها من البيت يعقبه ظهورها مرة أخرى . كما أن هذا الأسلوب التدريجي يتيح أيضاً للسيدة أن تتبين أسلوب الأم في معاملة الطفل .

على أن مثل هذه الاحتياطات الشديدة قد لا تكون جوهرية في حالة الأطفال التالين بين أفراد الأسرة ، أو حتى في حالة الطفل الأول الذي يبدى نزعة تفوق المعتاد نحو الاستقلال عن أمه . كما أنه عندما يوجد أطفال عديدون في الأسرة ، فإنهم يستمدون شعورهم بالأمان والطمأنينة من أنفسهم فيما بينهم . وفضلاً عن ذلك ، فإن من المحتمل في حالة تعدد الأطفال أن تكون الأم قد تغابت على رغبتها الجارفة في فرض حمايتها عليهم أكثر من اللازم ، تلك الرغبة التي كانت تحبسها نحو طفلها الأكبر ، لذا فإنها قد تعامل الآخرين بطريقة عرضية فيها شيء من البساطة وعدم الاكتراث .

ومن المفيد لجميع الأطفال ، بوجه عام ، أن يألفوا الغرباء منذ أن يتعلموا المشي ، وأن يملأوا بين الفينة والفينة بتجربة تركهم في البيت لبضع ساعات ، في صحبة إحدى القريبات أو إحدى مرافقات الأطفال الموثوق بهن ، إن كان ذلك في الإمكان . فهذا الأسلوب يساعد الطفل على أن يكتسب عادة الاستقلال الذاتي ، كما أن من المفيد للآباء والأمهات بلا ريب ، أن يبتعدوا كلية عن مشكلات الأطفال من آن لآن . بيد أن من الواجب عليهم بطبيعة الحال أن يتأكدوا من أن مراقبة الأطفال جديرة بالثقة ويمكن الاعتماد عليها . بل إن الأهم من

ذلك في حالة الطفل الصغير جداً ، هو أن تتأكد الأم من أن الحاضنة تجمع بين الرقة والطف والإدراك السليم . كما ينبغي أيضاً أن يعرف الطفل مرافقته أو مرافقاته معرفة وثيقة . وعند ما يزعم الوالدان قضاء سهرة خارج البيت ، ينبغي أن تأتي الحاضنة قبل أن يوضع الطفل في فراشه ، كي يدرك طبيعة الموقف مقدماً ، لأنه مما يثير انزعاج الطفل الصغير أن يستيقظ في أثناء الليل ، فيجد إلى جواره سيدة غريبة عنه أو حتى حاضنة مألوفة له ، في حين أنه يتوقع وجود أمه بجانبه . وبطبيعة الحال ، فإن تعويد الطفل على معايشة مجموعة منتقاة من الناس خارج نطاق الأسرة ، له قيمة خاصة إذا كان هذا الطفل هو الأكبر أو الأوحد في الأسرة ، أو إذا أحست الأم أن عندها نزعة إلى المغالاة في فرض حمايتها عليه .

* * *

غير أننا لم نناقش بعد الوسائل العملية لمعالجة الشعور الطفيف بالقلق السائد بين الأطفال ، الذي يدفع ابن الثانية إلى محاولة استبقاء أمه معه في حجرة نومه ، أو يدفعه إلى التسلق خارجاً من مهده بمجرد إغلاق الباب عليه . في هذه الحالة لا أظن أنه ينبغي للأم أن تجلس مع الطفل في حجرته أو تترقد على سرير كبير إلى جوار مهده . بل إن التردد من جانب الأم في تحية الطفل تحية المساء قبل نومه ، قد يؤدي إلى عكس الهدف المنشود ، لأن قلق الأم أو مغالبتها في القلق على الطفل ، أحياناً ما تجسم الشعور الطفيف بالقلق في نفسه ؛ ذلك أن الطفل يبدو من ناحية معينة ، كما لو كان يقول لأمه : « لقد بدأت أعتقد أنه قد يكون من الخطر على أن تتركيني وحيداً هنا . فما رأيك ؟ » على حين أن الأم ، بظهورها بمظهر التردد ، وإبدائها شيئاً من القلق ، وقبولها لتصرفات الطفل التي تهدف إلى الماطلة ، وسماحها له بالجيء إلى غرفة الجلوس والمكث برهة هناك ، إنما ترد في الواقع على سؤاله ، كما لو كانت تقول له : « وأنا كذلك

لست مطمئنة تماماً لتركت وحيداً بمفرديك . من الجائز أن هناك فعلاً ما يدعو إلى الخوف . إن هذا الشعور الطفيف بالقلق الذي يلوح على الأم إنما هو انعكاس لشعور الطفل بالقلق ، كما أنه في نفس الوقت يزيد من قلقه بعض الشيء . وهذا الشعور عند الطفل إلى جانب نجاحه في الضغط على أمه يحفزانه إلى بذل مزيد من الجهد في محاولة الماطلة . وكلما ازداد إلحاحاً ، ازدادت الأم تردداً .

يحدث أحياناً أن أما من النوع المسيطر الملىء بالحيوية ، تقول للطبيب في أثناء زيارتها الدورية لفحص طفلها ابن الثانية ، كما لو كانت تعبر عن فكرة طارئة خطرت لها : « على فكرة ، لقد بدأ منذ شهر مضى يحاول مماطلي في الذهاب للنوم في موعده ، بحجة شرب الماء والذهاب إلى المرحاض ، لكنني قلت له إنه قد حصل على كليهما منذ لحظة ، وأفهمته أنني لا أرغب في شيء من هذا الكلام الفارغ . فأنتهى الأمر عند هذا الحد » . وهذا لا يعنى بالضرورة أنني أوصيكن باستخدام كلمات هذه الأم بحذافيرها ، لكنني أعتقد أنكن تلمسن أنها بأسلوبها هذا إنما تقول للطفل : « أعصابي ليست متوترة على الإطلاق ، ولا ينبغي أن تتوتر أعصابك أنت كذلك » .

ونفس هذا الأسلوب الحازم المطمئن يمكن اتباعه مع الطفل الذي يتسلى خارجاً من مهده كي يلحق بوالديه في حجرة الطعام ؛ ذلك بأن تدفعه أمه أمامها على الفور ، عائدة به إلى فراشه كلما أتى إليها ، دون أن تستسلم لحظة واحدة لحيله الماكرة .

على أن بعض الأمهات حين يستمعن إلى هذه الفكرة يقلن : « هذا النوع من الحزم كان من الممكن أن يجدي نفعاً لو أنني فكرت فيه منذ شهور مضت ، أما الآن فقد فات الأوان . لقد أصبح طفلي يتسلى خارجاً من مهده ويغادر

حجرتة خمساً وعشرين مرة في خلال فترة لا تزيد على ساعتين ، وهو يفعل ذلك كل ليلة بلا استثناء .

وإني أوافقهن على أنه من العسير أن تغلب الأم على هذا النمط في السلوك بعد أن يصبح راسخاً في نفس الطفل . لكننا قد نهتدى إلى وسيلة مجدية لمعالجة هذه الحالة ، لو أننا سألنا مثل هذه الأم : « كيف تحملينه على البقاء في الفراش بعد المرة الخامسة والعشرين ؟ » والإجابة المألوفة عن هذا السؤال هي . « تنور نائرتي آخر الأمر ، فأصبح في وجهه أو أصفعه . ثم يبكي لحظة ، لا يلبث أن يستغرق بعدها في النوم » . وهذا لا يعنى أن الصباح أو الصبح هو في رأيي خير وسيلة نحمل بها الطفل الصغير على النوم ، ومع ذلك فإن الخمس والعشرين الزيارة التي يقوم بها الطفل لأم يتزايد غضبها لحظة بعد أخرى ، تضره مثلما يضر الضرب أو الصباح . فبيت القصيد هو أن تحاول الأم أن تنتهج في المرة الأولى نفس الأسلوب الحازم القاطع الذي تنتهجه مع الطفل في المرة الخامسة والعشرين . فاذا استطاعت الأم أن تتبع هذا الأسلوب الحاسم منذ البداية — وتوقع الطفل بأنها جادة فعلاً فيما تقول — فإنها لن تضطر إلى كل هذه الثورة عليه آخر الأمر .

وهذه المشكلة — ما إذا كانت الأم جادة بالفعل وتظهر للطفل أنها تعنى ما تقول — من أكثر النواحي تضليلاً للأمهات في تربية الطفل ، ذلك أن جميع الأمهات يخيّل إليهن أنهن يعنين ما يقلن للطفل حين يطلبن إليه أن يسلك سلوكاً حسناً . غير أن المتفرج الخارجى يستطيع أن يلمس أحيانا أن الأم لا تبذل سوى نصف محاولة في هذا السبيل ، فهي قد تبدو في غاية الحزم والجدية ، لكنها في اللحظة الحاسمة تضعف أمام الطفل ، أو تفقد اهتمامها ، أو تعجز عن متابعة تنفيذ أوامرها . إننا جميعاً تصادفنا لحظات نسمح فيها للطفل بأن يقترب عملاً غير

مسموح به في البيت ، دون أن نعاقبه عليه . على أن هذا التناقض في معاملة الطفل ، يبلغ مداه عند طائفة قليلة من الأمهات . فأنت تربيهن يصحن في أطفالهن طوال النهار ، في لهجة مليئة بالتهديد والتهويز دون أن يبذلن قط أدنى جهد حقيقي كي يحقق هذا التهديد الهدف المنشود منه .

ولكي أحاول توضيح هذه الناحية للآم التي تقول إنها حاولت أن تحمل طفلها على البقاء في الفراش لكنها أخفقت في ذلك ، فإني أسألهما سؤالاً افتراضياً فيه شيء من المبالغة : « لنفرض أن الطفل أصيب بمرض حاد في القلب أو بارتجاج في المخ أو بكسر في ساقه ، وقال لك الطبيب إن من المهم جداً أن تمنعته من مغادرة الفراش . هل تستطيعين في هذه الحالة أن تحمليه على البقاء في الفراش أم لا ؟ » إنها تستطيع ذلك بلا شك .

وعلى حين أنني أؤكد أهمية الحزم في هذه الحالة ، فإنه ينبغي أن أذكر مرة أخرى بأننا نناقش الآن حالة الطفل الذي لا يبتابه سوى أخف أنواع القلق الذي يتمثل في الحيل التي يلجأ إليها للمطالبة في موعد النوم ، أو في الزيارات التي يقوم بها لوالديه ، لا حالة الطفل الذي يبدو عليه الفزع بصورة جلية .

وتسألني بعض الأمهات اللاتي يستولن عليهن اليأس من إصلاح حالة الطفل ما إذا كان من السليم إغلاق باب الحجرة عليه . يبدو لي أنه ليس من الصواب أن نخلق في الطفل شعوراً بأن هناك مثل هذا الحاجز بينه وبين والديه ، ونحاطر بأن نولد عنده شعوراً بالخوف من الأبواب المغلقة ، غير أنني اقترحت على بعض أمهات — مع كثير من الخوف والتوجس — أن يستخدمن شبكة تغطي أعلى المهد كحل وسط يلجأن إليه بعد أن تفشل كل الوسائل الأخرى . وشبكة كرة الريش « البادمتون » هي النوع الوحيد من الشباك الذي يمكن الحصول عليه

في معظم المدن (من محلات أدوات الرياضة) . فهذه الشبكة ولو أنها طويلة وضيقة بحيث لا تلائم المهد فإن من الممكن قصها إلى قطعتين تخاطان جنباً إلى جنب . ويجب أن تربط بمنتهى الإحكام في السياج الخلفي للمهد ، وفي أجزاء من مقدمته ومؤخرته . على أن النصف الأمامي من الشبكة يجب أن يترك مفكوكاً كي يمكن وضع الطفل في المهد . وبعد وضعه فيه ، تربط أطراف النصف الأمامي في زنبركات « يايات الملة » تحت منتصف « المرتبة » ، وتشد إلى المقدمة والمؤخرة ، بحيث يتعذر على الطفل أن يفتح ثغرة في الشبكة يتسلسق منها خارج المهد . لكن لا ينبغي أن نهدد الطفل باستخدام مثل هذه الشبكة كما لو كانت نوعاً من العقاب ، بل ينبغي أن نشرح له أنها تقيم له بيتاً مريحاً ينام فيه ، وفدعه يتظاهر بمساعدتنا على ربطها فوق المهد في بادئ الأمر . وفي غالبية الحالات يتقبل ابن الثانية هذه الشبكة قبولاً حسناً ، ويستقر للنوم داخلها بعد أن يجري عليها بعض التجارب في هدوء . أما إذا تظاهر بالفرع منها ، فإنني أحجم عن استخدامها ، ولو حتى لدقائق معدودات . بل إنني أحجم عن تجربتها مع طفل تجاوز الثانية والنصف من عمره ؛ لأن هناك احتمالاً كبيراً في هذه الحالة أن تولد عنده شعوراً بالخوف من الأبواب المغلقة .

وعند ما تسألني بعض الأمهات بشأن الانتقال بالطفل ابن الثانية من مرحلة النوم في المهد — غالباً لأن هناك مولوداً في الطريق — فإنني أوصي دائماً باستبقاء الطفل فيه عاماً آخر إن كان المهد يلائمه ، وأوصي بشراء مهد آخر للمولود الجديد ، فقد سمعت قصصاً عديدة عن أطفال في سن الثانية يعتادون الخروج من حجراتهم والتجوال في أرجاء البيت بمجرد أن يسمح لهم بالنوم في أسرة لا جوانب لها .

هناك سؤال آخر له أهميته . هل تدعين الطفل الصغير ينام معك في سريرك

إذا أتى إلى حجرة نومك في منتصف الليل؟ قد يبدو لك بطبيعة الحال أن هذا هو أسهل ما يمكن أن تفعله في هذه الحالة . لكنني أعتقد أنه غالباً ما يتضح خطأ هذا التصرف على المدى البعيد .

في الغالبية العظمى من الحالات ، يكثر الطفل من التردد بانتظام على حجرة والديه ، لفترة يطول مداها ليلة بعد ليلة . وكلما دأب الطفل على هذا السلوك فترة أطول ، ازداد اعتماده عليه ، حتى يصبح مصدر ضيق للوالدين . ويعتقد غالبية المتخصصين أن مثل هذا السلوك ضار بالطفل ، حتى في الحالات التي لا يكثر فيها الوالدان . ومن أجل ذلك يجب علينا دائماً أن نحمل مثل هذا الطفل في حزم على أن يعود إلى فراشه في التو ، كما يجب علينا أيضاً أن نتجنب البقاء معه في حجرة الخاصة . ولكن إذا كانت هذه هي الوسيلة الوحيدة لحمله على البقاء في الفراش ، فليس هناك ما يمنع من المكوث معه بضع دقائق . لكننا يجب أن نحجم عن النوم معه في سريره ، حتى ولو كان سريراً كبيراً .

٥

الارتباطات ومظاهر القلق في الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة

معنى المخاوف

« إن التطورات الانفعالية الهامة تحدث في الباطن ،
على المستوى اللاشعورى من عقل الطفل » .

إليك بعض مقتطفات مقتضبة من ثمانية خطابات مختلفة تلقيتها بشأن أطفال
تتراوح أعمارهم ما بين الثالثة والسادسة :

١ — « هذه الطفلة تفرع من الكلاب فرعاً بالغاً ، حتى إننى لا أستطيع
أن أحملها على اللعب خارج البيت . وحين يقترب منها كلب ، فإنها تصرخ في
رعب ، ويتصلب جسمها ، ويدق قلبها دقاً عنيفاً يكتنك أن تحس به عند ما تضمها
إلى صدرك . مع أنه لم يحدث قط أن أصابها كلب بأذى ، على مدى علمنا » .

٢ — « ألا تفكر في الكتابة عن حالات الكابوس التي تنتاب الأطفال
في المرحلة التي تسبق دخول المدرسة ؟ إن ابني الذي يبلغ من العمر ثلاث سنوات
وتسعة أشهر ، كثيراً ما يفتابه الكابوس » .

٣ — إن طفلى غالباً ما تظل مستيقظة زهاء ساعتين بعد ذهابها إلى الفراش ،
وتظل تنادى بأنها لا تستطيع النوم ، طالبة منى أو من أبيها أن نرقد إلى
جوارها ... الخ . وعند ما نصعد إلى حجرتنا للنوم ، فإنها تستيقظ على الفور ،
مهما نكن حريصين على إغلاق باب حجرة النوم ، ثم تنادى علينا طالبة أن
نترك باب الحجرة مفتوحاً » .

٤ — « إن طفلى لا يكف عن التفكير في الأشياء المكسورة . ولم أكن
أعرف كم من أشياء مكسورة بالبيت حتى دلنى هو عليها . ورغم أنى أشرح له
دائماً كيف انكسرت هذه الأشياء ، وأبين له أن الأمر لا يستدعى الاهتمام ،
إلا أنه يظل نهباً للقلق كعهده دائماً » .

٥ — « يبدو أن مصدر قلقه الوحيد يتمثل في الخوف من الظلام والفرع من الدب سموكى الذى يكافح الحرائق^(١). وقد يصل به هذا الفرع إلى حد أنه يندفع خارجاً من حجرة الجلوس في أثناء فترات الاستراحة بين برامج التليفزيون ، لمجرد وجود احتمال أن يظهر هذا الدب على الشاشة... كما أنه دأب على الاستمضاء كثيراً في العام الماضى » .

٦ — « ما هى الوسيلة لمنع اللعب الجنسى عند الأطفال ؟ كيف يمكن أن نجعلهم يدركون أن المسائل الجنسية مقصورة على البالغين وحدهم ، وليست من شئون الأطفال ؟ » .

٧ — « لن أنسى قط يوم أن كانت طفلى — فى حوالى الثالثة والنصف من عمرها — تجلس على حجر صديق لنا يدعى « أرنولد » فإذا بها تقول متحدثة إلى جميع الجالسين فى الحجرة « أرنولد له قضيب » . وحيث إن هناك تشابهاً فى النطق بين كلمة « قضيب Penis » وكلمة « فول سودانى Peanuts » ، فقد طلب إليها الحاضرون أن تعيد ما قالتة ! والحمد لله أن هؤلاء الأصدقاء أدركوا الأمر إدراكاً سليماً » .

٨ — « لقد أصبحت طفلى تتحدانى ونعاندى بصورة متزايدة فى الفترة الأخيرة ، فهى تقف أمامى وعيناها يتطاير منهما الشرر قائلة لى إنها ليست ملائمة بتنفيذ أوامرى . لقد حدث لها شيء لا أدرك كنهه . لذا يراودنى شعور بأننى قد أخفقت قطعاً فى معالجتها... أما أبوها فهو معصوم من الخطأ فى نظرها .

(١) الدب سموكى شخصية كاريكاتيرية يظهر فى بعض إعلانات التليفزيون الأمريكى التى تدعو إلى مكافحة الحرائق. وهذا الدب يتسم بالحذر وحب الخير ؛ إذ يبحث الناس على عدم إلقاء أعقاب السجائر وأعواد الثقاب المشتعلة التى تؤدى أحياناً إلى اندلاع النار فى الغابات .
المترجم

فهى لاتتعاون معه بصورة رائعة فحسب ، بل إنها دأبت على معاملته كأم له ،
مما يبعث فى نفسه متعة غامرة . »

إنى لا أعرف بالطبع كل تفصيلات الموقف فى كل حالة من هذه الحالات ،
لأن معلوماتى عنها مستمدة من الخطابات فحسب . غير أنها تذكرنى بمشكلات
شابهة فى حالات أخرى درست دراسة دقيقة فى عيادات الأطباء أو فى عيادات
توجيه الأطفال النفسية ، فظهر أنها مرتبطة بالتطور الانفعالى المعقد الذى لا بد
وأن يمر به الأطفال فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة . إن معظم الأطفال
يمكنهم أن يحتفظوا بتوازنهم نوعاً ما أثناء اجتيازهم لهذه المرحلة ، على حين أن
غيرهم يتعثرون فى «مطبات» مختلفة على طول الطريق ، أو على الأقل يهتز كيانهم
من أثر التيارات العنيفة التى تعتمل فى نفوسهم ، كما يتضح لنا من الأمثلة
المذكورة فى الخطابات .

وليس من السهل علينا أن نشرح هذه المرحلة من مراحل التطور الانفعالى .
من أسباب ذلك أنها مرحلة معقدة . غير أن السبب الأهم من ذلك — بكثير —
هو أن التحليل الشامل لهذه المرحلة يبدو شاذاً ، بعيد الاحتمال ، وغير صحى ،
فى نظر معظم الكبار الذين لم يتخصصوا فى دراسة الأطفال ؛ ذلك لأن التطورات
الانفعالية الهامة تحدث فى الباطن ، على المستوى اللاشعورى من عقل الطفل .
وهذا هو أحد الأسباب فى أننا — نحن الكبار — لا نتذكر مثل هذه المشاعر
والآحداث التى وقعت فى ماضينا ؛ إذ أنها كبتت فى عقولنا الباطنة — تماماً كما
تكبتت فى عقول أطفالنا — لأنها كانت تثير لنا قلقاً شديداً فى أيام طفولتنا .

* * *

فى حوالى سن الثالثة ، قد يبدأ الطفل فى إظهار مزيد من الحب الشديد
نحو أبيه وأمه . فبرغم أنه كان يحبهما حباً جماعاً عند ما كان أصغر سناً ، إلا أن ذلك

الحب كان ينبع أساساً من اعتماده عليهما ، حتى إنه يمكن القول بأن الطفل كان عندئذ « مضطراً » لأن يحبهما ، لإحساسه بحاجة الماسة إليهما ، كي يضمن لنفسه الشعور بالأمان والطمأنينة الذي لا يمكن أن يمنحه إياه سواهما .

أما الآن فقد أصبح فرداً له كيانه الخاص ، يمكنه أن يلمس الصفات المحببة في الآخرين ، وأن يتجاوب مع هذه الصفات في بهجة وتфан . لذا فإنه يرغب من تلقاء نفسه في أن يؤدي بعض الخدمات لأمه وأن يقتدى بها في سلوكه .

ثمة مظهر آخر من مظاهر الحب عند طفل الثالثة ؛ ذلك أنه في حبه يبدأ في التمييز تمييزاً قاطعاً بين الرجل والمرأة . فالغلام يدرك أنه ذكر ، وأنه سيدشبه ليكون رجلاً مثل أبيه ، ومن ثم فإن حبه لأبيه يتخذ شيئاً فشيئاً مظهر الإعجاب به ، فهو يلاحظه ملاحظة دقيقة ، ويبدل قصارى جهده كي يصوغ نفسه على نمطه ، في تصرفاته وأسلوبه العام .

ومن ناحية أخرى ، نجد أن حبه لأمه يتخذ بصورة متزايدة مظهراً عاطفياً ، بسبب تكوينه الجنسي من ناحية ، وبسبب تقمصه لشخصية أبيه من ناحية أخرى . فهو يرغب في أن يهتم بأمه ويعاملها بطريقة أبيه .

كذلك البنت الصغيرة تدرك في هذه السن أنها في طريقها لأن تصبح امرأة ناضجة . لذا فإنها شيئاً فشيئاً تقلد اهتمامات أمها ، في العناية بالأطفال أو العرائس ، أو أداء بعض الأعمال المنزلية ، أو الزينة النسائية . كما أنها تبدى نحو أبيها شعوراً خاصاً ينم عن السرور والمتعة ، لا لشيء سوى أنه رجل . وقد تتودد إليه في استحياء ، لا يستطيع أن يقاوم سحره .

وما بين سن الثالثة والرابعة ، يدرك معظم الأطفال أن الزواج هو أهم العلاقات بين الرجل والمرأة . لذا فإنهم بدافع من رغبتهم الشديدة في تقمص

شخصية والديهم ، يبدأون فى التفكير فى الزواج والتحدث عنه وتمثيله فى لعبهم . والشئ الذى لا يبدو معقولا فى نظر الكبار لكنه يبدو معقولا جداً فى نظر الأطفال ، هو أن الطفل غالباً ما يتخيل نفسه متزوجاً من ذلك الفرد من الجنس الآخر الذى تكون له أهمية قصوى بالنسبة إليه ، وهذا الفرد هو أمه إذا كان غلاماً ، أو أبوها إذا كانت فتاة . فالطفل فى هذه السن الغضة يجهل حقائق كثيرة عن الزواج ، منها أن الافتران بأحد الوالدين ضرب من المحال . غير أن الأم العاقلة لا تمنجل طفلها إذا حدثها يوماً ما عن رغبته فى الزواج منها ، لإدراكها أن تفانيه فى حبها وطبيعته البريئة هما اللذان دفعاه إلى إبداء هذه الملاحظة . وقد أخبرتنى عشرات الأمهات أنهن حاولن فى صبر وأناة أن يشرحن لأبنائهن كيف أنهم سيكبرون ويتزوجون من فتيات لطيفات فى مثل سنهم ، غير أن الطفل يصبر لإصراراً قاطعاً فى نهاية الحديث على أنه « سوف يتزوج ماما ؟ » ، فنحن حين نتحدث إلى طفل صغير عن الزواج بفتاة أخرى فى المستقبل فما من شك أن هذا يبدو فى نظره عملاً سخيلاً يجانى العقل وينطوى على الغدر بأمه ، مثلما يبدو فى نظر شاب وفتاة عقدت خطبتهما حديثاً ، لو أننا حاولنا أن نطرق معهما نفس الموضوع .

على أن اهتمامات الأطفال الجنسية والعاطفية لا تتجه إلى الوالدين فحسب ، بل إن مشاعرهم الجنسية بصفة خاصة قد تظهر بشكل أوضح فى علاقتهم بغيرهم من الأطفال ، فهم يميلون فى بعض الأحيان ، عند ما يكونون بعيدين عن عيون الكبار ، إلى الاشتراك معاً فى لعب جنسى طفلى ، كأن ينزلوا سراويلهم « ألبستهم » كى يرى بعضهم بعضاً أعضائهم التناسلية ويقارنوا بينها ويلمسوها بأيديهم ، أو أن يلعبوا معاً « لعبة الدكتور » فيفحص أحدهم الآخر . كما أن معظم الأطفال — على الأقل — يميلون إلى شئ من العبث بأعضائهم التناسلية .

وقد يتكىء أحد الأولاد على فخذي إحدى الزائرات أثناء حديثه إليها ، أو يطلب إلى أمه أن تلمس له عضوه في أثناء الاستحمام . غير أن هذه التعبيرات الجنسية لا تتخذ عند الأطفال الذين تكييفوا تكييفاً سليماً نفس المظهر الحاد الذي تتخذه عند المراهقين والبالغين ، لذا فإن من السهل نسبياً على الوالدين أن يردعهم عنها بصفة مؤقتة على الأقل . أما عند ما يثار الطفل مثارة شديدة على ممارسة العادة السرية أو اللعب الجنسي ، رغم استنكار الوالدين لسلوكه ، فإن هذه الظاهرة تدل في العادة على أنه يعاني من القلق والاضطراب .

ثمّة تطور آخر يحدث في هذه السن ، ألا وهو الاهتمام الكبير الذي يبديه الأطفال بمعرفة من أين يأتي الطفل ، فضلاً عن رغبتهم في إنجاب أطفال من صلبهم . وربما كانت هناك عوامل عديدة تؤدي إلى هذا الاهتمام الذي يشغل بال الأطفال ، منها الفضول العقلي الشديد الذي يدفع الطفل في هذه السن إلى السؤال عن معنى كل شيء يصادفه ، ابتداء من السؤال عن مصدر المطر ، حتى السؤال عن السبب في أن الطيور تأكل الديدان . والعامل الأهم من ذلك ، هو أن تلمص الطفل لشخصية والديه يجعله يرغب في أن يكون له طفل خاص به ، لجرد أن يكون مثلهما . كما أنه يتوق في هذه السن ، سن الحب والتعلق ، لأن يكون له طفل يحيطه بالحب والرعاية ، لشعوره بأن حب والديه له قيمة كبرى بالنسبة إليه .

* * *

ينبغي أن نتناول الآن مظهراً آخر مختلفاً تمام الاختلاف ، من مظاهر النمو الجنسي عند الأطفال في الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة : ألا وهو الخطأ الشائع بين الأطفال في إدراك الاختلاف الجسماني بين البنين والبنات . وهذه مشكلة يصعب علينا نحن الكبار أن نفهمها على وضعها الصحيح ، لأننا نفترض

— بمنطق الكبار — أن الطفل حين يرى لأول مرة بنتاً مجردة من ثيابها ويدرك أنها مختلفة عنه في تكوينها الجسماني ، فإنه يستنتج بكل بساطة أن هذا الاختلاف لابد أنه وليد الطبيعة ، وأن الطبيعة قد قصدت أن يكون تكوين الأولاد مختلفاً عن تكوين البنات . غير أن البحوث التي قام بها علماء النفس ابتداء من فرويد حتى الآن ، فضلاً عن ملاحظات الآباء والأمهات أنفسهم تبين أن الأطفال لا يدركون هذه الحقيقة من حقائق الحياة بهذه البساطة . بل إن الطفل الصغير يفترض بدلاً من ذلك أن جميع المخلوقات البشرية قد خلقت أصلاً في مثل تكوينه . وبناء على ذلك يهديه عقله إلى أن إصابة ما لا بد قد حدثت للبنت . ثم ينتهي إلى افتراض أبعد من ذلك ، وهو أنه ما دام من الممكن أن يحدث حادث فطيع يودي بقضيب البنت ، فإن نفس الشيء قد يحدث لقضيبه هو أيضاً .

كذلك تقع البنات في نفس الخطأ . غير أن الاختلاف الرئيسي بين الأولاد والبنات من هذه الناحية ، هو أن الشعور الذي يتخلف في نفس الولد يكون أساساً شعوراً بالقلق ينجم عن خوفه من الضرر الذي قد يحيق بقضيبه في المستقبل ، في حين أن قلق البنت بشأن عدم تكامل أعضائها يمتزج بخيبة أملها في أمها لأنها ولدتها ناقصة الأعضاء ، ويخلف عندها شعوراً بالتنافس مع الأولاد لأنهم يتمتعون بهذه الميزة المزعومة . (على أية حال ، توجد طائفة قليلة من الأولاد يطغى عليهم الشعور بالقلق لدرجة أنهم يحسدون البنات لأنهن لا يملكن شيئاً يحسبن . ضياعه) .

لماذا توجد هذه النزعة عند الأولاد والبنات على السواء للوصول إلى نتائج خاطئة تهدد بالخطر ، بدلاً من الوصول إلى نتائج معقولة تبعث على الطمأنينة ؟ إننا نعرف إجابات عديدة جزئية لهذا السؤال ، منها أن الطفل الصغير يحب التملك بطريقة في غاية السذاجة والبساطة ، فهو يبدي رغبة في امتلاك أى شيء يقع عاينه بصره ، ولذلك فإن البنت الصغيرة حين ترى قضيب الولد ، يخليل إليها أن

من المستحسن أن يكون لها قضيب مثله ، دون ما سبب معقول سوى ذلك .
(وبنفس الطريقة نجد أن الولد الصغير الذى عرف لتوه أن البنات فقط هن
اللائى يستطعن حمل الأطفال فى بطونهن ، قد يصبر إصراراً شديداً على أنه هو
أيضاً سوف يحمل طفلاً فى بطنه ، بغض النظر عما يقوله الناس فى هذا الشأن) .

إن فترة الطفولة المبكرة هى المرحلة التى يسهل فيها على الطفل تكوين
الخوف . وربما تكون الطبيعة قد تعدت ذلك استناداً إلى مبدأ عام : هو أنه
ما دامت هناك أخطار حقيقية تحيط بالإنسان فى الحياة ، فقد يكون من الأسلم
على المدى البعيد ، لو أن الطفل الذى يسير على هدى تجارب محدودة فى حياته ،
قد تولدت عنده مخاوف أكثر من اللازم ، بدلا من أن تكون هذه المخاوف
أقل من اللازم ، كما أن استعداد طفل الثالثة والرابعة والخامسة لأن يتقمص
شخصيات الآخرين — فيحس كما يتوهم أنهم يحسون — هذا الاستعداد الذى
يرسخ فى أعماقه كى يدفع عملية تعلمه ونضجه ، يجعله شديد الحساسية فى كثير
من المواقف التى تعوزه فيها معلومات أساسية يمكنه أن يستفيد بها فى فهم حقيقة
هذه المواقف . ولعلك قد لاحظت أنت بنفسك كيف ينحرف مزاج طفل الثالثة
ويكتئب من منظر الموتى أو المقابر أو الكسجين . ولأنى لأذكر قصة طفل فى
الرابعة كان يتطلع إلى صورة رجل فى رثة من الحديد ، فإذا به يصبح فجأة فى ألم
فادح : «إنى لا أستطيع التنفس» ؛ ذلك أن مجرد التطلع لبضع ثوان إلى صورة
هذا الرجل ، جعله يتمثل الأثر الكامل الذى يحدثه الشلل على عضلات الجهاز
التنفسى .

هناك عامل آخر قد يؤدى بصفة خاصة إلى قلق الطفل على أعضائه التناسلية
وهو التحذيرات التى يلجأ إليها بعض الآباء لمقاومة العادة السرية عند أطفالهم .
حقيقة أنه فى هذه الأيام ، يتجنب الآباء والأمهات الحساسون عادة تهديد
أطفالهم بالمقاب على ممارسة العادة السرية . غير أن البعض منهم ، لعجزهم عن

التخلص من تعاليم طفولتهم ، ما زالوا يتحدثون إلى أطفالهم — ولو في لهجة رقيقة لاتحمل طابع الاتهام — عن احتمال حدوث إصابات أو التهابات بالأعضاء التناسلية من جراء لمسها بالأيدى . ورغم أن مثل هذه التحذيرات لا تكون عنيفة في حد ذاتها ، فإنها لا نلبث أن تتوافق وتلتقى مع أفكار أخرى مفرقة ، يكون الطفل قد التقطها من غيره أو توهمها في مخيلته . وفضلا عن ذلك ، قد تأخذك الدهشة لعدد الآباء الذين لا يقدرّون اليوم قيمة نظريات التربية الحديثة ، فيدأبون على تهديد أطفالهم في لهجة غاضبة ، بأن « قضبانهم » سوف تذبل تماماً أو أنهم سوف يبادرون ببيترها لهم ، إذا لم يكفوا عن مزاوله العادة السرية .

هناك عامل آخر هام يساعد على الشعور بالقلق على الأعضاء التناسلية ، لكننى سأرجىء الحديث عنه برهة ، ريثما أتمتع بالتطورات التى تحدث في شعور الطفل بالحب نحو والديه . إن عاطفة الحب المتبادلة بين الجنسين من بنى البشر ، تنسم دائماً بالرغبة فى التملك . فالرجل الطيب الذى يحب زوجته يريد منها ألا تحب سواه من الناحية الجنسية ، وتملكه الغيرة إذا هدد رجل آخر العلاقة بينهما . لذا فإن الطفل الصغير كلما ازداد شعوره بالخاص بالحب نحو أمه ، ازداد أيضاً شعوره بأنها تنتمى لأبيه من قبله . فهما يخرجان معاً ، ويشتركان فى اهتمامات تستعصى على فهمه ، وينامان معاً فى نفس الحجرة . ثم بالتدريج يواجه الطفل الحقيقة ، وهى أنه يأتى فى المرتبة الثانية ما فى ذلك من شك . ومن البديهي أن إدراك هذه الحقيقة يثير مرارة فى نفس المرء أياً كانت سنه . لكنه بلاريب أشد وطأة على نفس الطفل الصغير ، لشعوره بأن أباه متفوق عليه فى كثير من النواحي ؛ متفوق عليه فى الحجم والقوة والوسامة والأقدمية . كما أن استياء الطفل من أبيه يمتد إلى أعضائه التناسلية أيضاً . فقد سمعت من بعض الآباء أنهم فى بعض الأحيان عند ما يكونون مجردين من الثياب ، فإن أولادهم البالغين من

العمر الرابعة أو الخامسة يتظاهرون بالانقضااض على أعضائهم ، فى حركات تجمع بين المزاح والعنف .

ولعل السبب فى أن الطفل يبدى استياءً خاصاً نحو عضو أبيه ، هو أن هذا العضو رمز مناسب يدل على عدم تكافؤ المنافسة بينهما . لذا تراود الطفل رغبة فى إلحاق الأذى به ، ثم يتوهم أن أباه قد تراوده رغبة مماثلة فى الانتقام منه . وهذا الأسلوب فى التفكير وليد معتقدات عديدة يؤمن بها الأطفال ، فالطفل يعتقد أن الرغبة الشريرة تكاد تحدث نفس الضرر الذى يحدثه العمل الشرير ويعتقد أيضاً أن والديه يعرفان كل ما يدور بخلفه ، وأنه حين يكن شعوراً بالسخط والغضب نحو إنسان ما ، فإن هذا الإنسان لا بد وأن يكن له نفس الشعور تلقائياً . وعلى هذا الأساس ، يفترض الطفل أنه ما دام يرغب أحياناً فى إقصاء غريمه ، فمن البديهي أن هذا الغريم — أباه — يرغب أيضاً فى إقصائه . من هنا يمكنك أن تبينى كيف أن خوف الطفل من انتقام أبيه يضيف سبباً آخر إلى أسباب القلق على سلامة أعضائه التناسلية .

ومن المتناقضات المؤسفة أن أحد الأعراض التى تظهر على الغلام عند ما يستبد به القلق على قضيبه ، أنه يشغل نفسه كثيراً بالبحث به ، دون أن يبدو عليه أنه يعى مايفعله ، كما لو كان يطمئن نفسه لا شعورياً إلى أن قضيبه ما زال فى مكانه ، وكما لو كان يحميه من الأذى . على أن هذا السلوك من الطفل يدفع الوالدين — من أثر قلقهما على خلقه وسمعته — إلى تحذيره فى لهجة رقيقة أو عنيفة من العواقب التى قد تنجم عن ذلك ، الأمر الذى يعقد المشكلة ويزيد من حدتها . كما أن البنت التى يستبد بها القلق ، قد تعبر عن هذا القلق بالعبث المستمر فى أعضائها التناسلية .

فالبنت يراودها أيضاً شعور بالتنافس مع أمها ، لأنها تدرك أن أمها قد

امتلكت أباها من قبلها ، بل إنها قد أنجبت منه أطفالاً . وهى تودولونها حلت محل أمها فى كلتا هاتين الناحيتين . (أحياناً ما تبرز هذه الظاهرة فى أسرة سعيدة عندما تحث البنت الصغيرة أمها على القيام برحلة طويلة وتتعهد برعاية شعثون أبيها فى أثناء غيابها) . غير أنها تتوهم أن أمها تدرك نواياها الخبيثة وتبادلها نفس هذا الشعور بالتنافس ، لذلك ، فبالإضافة إلى خيبة أملها السابقة لأن أمها — فى يبدو لها — قد ولدتها ناقصة الأعضاء ، فهى قد تتوهم أيضاً أن أمها قد سلبتها قضيبتها عقاباً على منافستها لها .



قد يراودك الشك فى أن هذه الأحاسيس المريضة يمكن أن تنشأ عند الأطفال . فهى فى الغالب لا تطفو على السطح ، لا سيما فى الأمر السعيدة . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن السبب فى ذلك هو أن الطفل فى الوقت الذى يتربى لديه هذا الشعور بالتنافس ، يتولد عنده أيضاً شعور عميق بالإعجاب بأبيه — أو أمه — الذى هو من نفس جنسه على اعتبار أنه مثله الأعلى ، إلى جانب شعوره بالحلب نحو هذا الأب — أو الأم — على اعتبار أنه رفيق لطيف يبعث فى نفسه السرور والبهجة . وهذا التضارب فى مشاعر الطفل هو الذى قد يخفى شعوره بالمداء فى معظم الأحيان .

لذلك فإن الطبيب النفسانى الذى يحاول أن يكتشف مصدر الاضطراب عند أحد الأطفال قصد تقويم شخصيته ، هو الذى تتاح له أحسن الفرص لأن يتبين المشاعر السلبية المكبوتة فى نفس الطفل ، لأن الطبيب النفسى يحجم عن نقد أفكار الطفل مهما تكن هذه الأفكار ، وبذلك يمكنه فى خلال فترة من الزمن أن يخلق له جواً مناسباً للتعبير عن نفسه ، فتبدأ دوافعه المكبوتة تطفو

إلى السطح . وفي هذه الحالة يعبر الطفل - أو الطفلة - عن مشاعره برسم بعض القصص المصورة ، أو بإخراج تمثيلات من بنات أفكاره مستعيناً بالتمثيل الصغيرة والعرائس .

وفي بعض هذه المواقف الوهمية ، يتخيل الأطفال أن هناك أولاداً يقتلون آباءهم ، ثم يعود الآباء إلى الحياة ، فيقتلون أبناءهم أو يلقون بهم في السجن أو يتخيلون أن أعضاءهم التناسلية قد بترت بالسيوف . أو تتخيل البنات أن هناك أمهات يقمن برحلات طويلة يلقين فيها حثفنهن ، فتضطلع بناتهن بمهمة إدارة البيت وإنجاب الأطفال ، ثم تعود الأمهات إلى الحياة لينزلن بيناتهن العقاب .

ورغم أن أحاسيس الطفل بالمنافسة والعداء والخوف تكبت في عقله الباطن فإنها تعود إلى الظهور في صورة مقنعة أثناء الأحلام بالليل ، بل وفي أثناء النهار أيضاً ، حتى ولو لم يكن الطفل في عيادة الطبيب النفساني . وهذا في رأيي هو السبب في أن كثيراً من الأطفال يعانون من الكابوس في الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة . وهو أيضاً السبب في وجود كثير من المخاوف الوهمية - الحادة أو الهينة - عند الأطفال في هذه المرحلة ، دون أن يكون لهذه المخاوف تفسير منطقي معقول . نخوف الطفل من أن تلحق إصابة ما بعضوه التناسلي ، يكون بالغ الحدة في هذه السن ، بحيث لا يستطيع أن يتحملة في عقله الواعي . غير أنه يستطيع أن يعبر عن هذا الخوف بطريقة غير مباشرة ، فيبدى انشغاله شديداً بالأشياء المكسورة ، أو يبدى فضولاً متطرفاً يكتنفه القلق نحو أعضاء تناسل الأطفال الآخرين ، أو يداوم - وهو شارد الذهن - على مسك قضيبه ، أو يتنابه خوف وهمي من الكسيتين أو ذوى العاهات .

كما أن شعور البنات بالعداء نحو أمها وشعورها بالخوف من عقابها لها ، قد

ترمز إليه أحلام مزيجية متكررة تدور حول نساء يمارسن السحر ، أو قد يتخذ مظهر الخوف من الكلاب دون ما سبب معقول . وقد يكون خوف غلام خوفاً وهمياً من أحد الحيوانات المفترسة ، وليد شعوره بالقلق من المنافسة بينه وبين أبيه . فمثل هذا الحيوان تتوافر فيه صفات الضخامة والقوة والخشونة التي يحس الولد الصغير أنها تهدده في شخص أبيه . كما أن « الدب سموكي » الذي يكافح الحرائق ، قد يكون رمزاً مناسباً لأب عادل في نظر الطفل ، لأن هذا الدب يبدى استنكاراً شديداً لتصرفات الخربين الأشرار . بل إن الفكرة المفترزة عن اندلاع النار في إحدى الغابات ، قد تذكر الطفل بمشاعر الغضب التي تعتمل في نفسه فتثير فيه شعوراً حاداً بالذنب ، كما تذكره أيضاً بالخطر الذي قد ينجم عن العداء الذي يتوهم أن الآخرين يكتفون له .

وليس من الضروري أن تتخذ المخاوف الوهمية عند الأطفال ، مظهراً ثابتاً أو طابعاً منطقياً ، ما دامت تتوافر في هذه المخاوف العناصر المختلفة التي تمثل المشاعر والانفعالات المكبوتة في نفس الطفل . لذلك نجد أن شخصية الدب سموكي ، التي لا يقصد منها سوى أن تمثل الحذر وحب الخير ، تفقد طابعها تماماً وسط الخلط المهوش من الأحاسيس المضطربة التي تعتمل في نفس الطفل . وما زلت أذكر حتى الآن ذلك الخوف الوهمي من سيارات المطافيء الذي كان يملكني في فجر طفولتي . فرغم إدراكي أن مهمتها الرسمية هي مساعدة الناس على إطفاء الحرائق ، فإنني كنت أحس فعلاً أنها شيء فظيع متوحش ينشر الحرائق المدمرة في كل مكان ، عندما كنت أسمع صوت أجراسها يشق سكون الليل .

* * *

لقد اكتشف فرويد أثناء علاجه لبعض المصابين بالخواف الوهمية أو غيرها من الاضطرابات العصبية ، أن من الممكن عن طريق التحليل النفسي تتبع بعض

أسباب هذه الاضطرابات ، بالرجوع إلى هذه المرحلة من مراحل الطفولة ، التي تختلط فيها مشاعر الحب ، والعداء ، والمنافسة ، والإحساس بالذنب ، والخوف من إصابة الأعضاء التناسلية (عقدة الإخصاء) . وقد أطلق فرويد على هذه المشاعر المركبة اسم « عقدة أوديب » نسبة إلى الأسطورة الإغريقية عن أوديب الملك الذي توالى عليه النكبات ؛ إذ نشأ يجهل من هما أبواه الحقيقيان ، مما أدى به إلى أن يقتل أباه في عراك بينهما ثم يتزوج من أمه ، فلما اتضحت له الحقيقة فقا عينيه .

ويعتقد بعض الناس الذين سمعوا عن « عقدة أوديب » أنها لا تنطبق إلا على المصابين بالاضطرابات العصبية . على حين أن البعض الآخر يدرك أن هذه العقدة تلعب — في رأى فرويد — دوراً في عملية النمو عند جميع بنى البشر ، غير أنهم يعتقدون أن لها دائماً أثراً ضاراً على شخصية الفرد بدرجة أو أخرى . لكننى أعتقد أنه من الأصوب أن ننظر إلى هذه المرحلة على أنها خطوة أساسية بناءة في عملية نمو جميع المخلوقات البشرية السوية . أما الظواهر الأليمة التى تلازم هذه المرحلة فهى لا تختلف عن غيرها من الشدائد العادية التى نواجهها فى الحياة ، كالإصابة فى بعض الحوادث التى تعلمنا الحذر ، أو الشعور بالغيرة من الإخوة والأخوات الذى يتحول إلى حب للغير ورغبة فى العمل من أجلهم ، أو العراك بين الأصدقاء فى أيام طفولتهم الذى يربى فيهم روح التسامح والتعاون ، أو التجارب الأولى فى العلاقات بين الأزواج وزوجاتهم التى تدعم حياتهم الزوجية فى نهاية الأمر .

وقد تبين لنا أن تجربة حب أحد الوالدين ، التى يمر بها الطفل فى هذه السن المبكرة حينما يكون سريع التأثر ، لها أعمق الأثر فى تكوين مثله العاطفية ، وفى إعداداته لأن يقيم حياة زوجية موفقة ، ويصبح أباً صالحاً — أو أمماً صالحاً —

عندما يحين الوقت المناسب . بل إن الشعور الألم بالتنافس مع أحد الوالدين الذى من نفس الجنس ، يتيح للطفل فى نهاية الأمر أن يستفيد من علاقته بذلك الوالد فى بقية مراحل الطفولة ، كما أنه يدربه على ألا يشعر بالخوف من المنافسات اليومية بينه وبين غيره من بنى جنسه فى مجال العمل ، وإنما يعالج هذه المنافسات بطريقة بناءة طوال حياته .

معالجة حالات القلق والاهتمامات الجنسية

« من الحكمة أن نعمل على ألا يتجاوز
قلق الطفل الحدود المعقولة » .

شرحت فيما سبق بعض حالات التوتر التي تتولد — في أعماق النفس —
عند الأطفال في الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة . وأود الآن أن أناقش بعض
النواحي العملية في هذه المرحلة من مراحل النمو .

يواجهنا أولاً السؤال عما ينبغي عمله لمساعدة الأطفال الذين ينتابهم
« الكابوس » ، أو الخوف من الظلام ، أو الخوف الوهمي من بعض
الحيوانات أو الكسحاء ، أو غير ذلك من الأعراض التي تظهر في الفترة ما بين
سن الثالثة والسادسة . هل يحتاج هؤلاء الأطفال إلى مساعدة الإخصائيين ؟
من المحال أن نجيب عن هذا السؤال إجابة قاطعة مانعة . فالأمر يتوقف على
ثلاثة أسئلة أخرى على الأقل : ما مدى حدة الأعراض عند الطفل ؟ ما مدى
الفترة التي استمرت فيها هذه الأعراض ؟ كيف تسير أمور الطفل في نواحي
الحياة الأخرى ؟

إذ أن نسبة لا يستهان بها من الأطفال ، تنتابهم في هذه السن حالات
الكابوس من وقت لآخر ، أو حالات بسيطة من الخوف الوهمي ، تستمر
لبضعة أسابيع أو أشهر ، ثم تتلاشى تدريجاً . فإذا كان الطفل الذي تنتابه هذه
الأعراض البسيطة المؤقتة ، على علاقة طيبة مع كلا والديه ، ولا يتعلق بهما
تعلقاً شديداً ، أو يصعب عليهما قياده ، وإذا كان يسعى إلى مصاحبة غيره من
الأطفال ويمكنه المحافظة على مركزه بينهم ، فإن في هذه الحالة أعتقد أنه ما من

سبب يدعو الآباء إلى القلق أو يدعوهم إلى محاولة الحصول على المساعدة من الإخصائيين .

أما إذا تكررت حالات الكابوس بانتظام طوال شهور عديدة ، أو ظل الطفل يعاني قلقاً شديداً بشأن الأمراض أو الإصابات أو الحيوانات أو « البعيع » ، كذلك إذا كان يغالى فى اعتماده على أحد الوالدين ، أو يغالى فى خوفه من الآخر ، أو يعامله فى أسلوب ملىء بالتحدى ، أو إذا دأب على العبث بأعضائه التناسلية (فى غير الأوقات التى تلح عليه الرغبة فى التبول) ، أو إذا سيطرت عليه فكرة تعرية الأطفال الآخرين من ثيابهم ، أو إذا كان ولداً يستبد به الخوف من كونه ولداً حتى إنه يتظاهر دائماً بأنه بنت ، أو إذا كانت بنتاً يطنى عليها الشعور بالاستياء من جنسها حتى إنها تصر دائماً على أن تسلك سلوك الأولاد ، فإنه فى كل هذه الحالات يتوافر دليل قوى على أن الطفل قد أخفق فى معالجة التوترات التى تصحب هذه المرحلة « الأوديبية » ، وأنه فى حاجة إلى بعض المساعدة من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو من أحد الأطباء النفسانيين . أما فى المناطق التى لا تتوافر فيها عيادات توجيه الأطفال ، فإنه قد توجد إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة ، كى تساعد الأم على معالجة مشكلة الطفل .

غير أن الأهم من ذلك بالنسبة لمعظم الآباء والأمهات ، هو أن يعرفوا كيف يوجهون الطفل فى أثناء هذه المرحلة من مراحل النمو ، حتى لا تضطرب أموره أكثر من اللازم .

* * *

ما الأسلوب الذى ينبغى أن ينتهجه الآباء فيما يختص بالعبث بالأعضاء التناسلية ، الذى يحدث « أحياناً » عند معظم الأطفال الطبيعيين الأصحاء ، فى

حوالى سن الثالثة أو الرابعة (وهو مختلف تمام الاختلاف عن عملية العبث « المستمرة » التى يمارسها الطفل القلق) ؟ فى بادئ الأمر قد لا يدرك الطفل مطلقاً أنه من الممكن حدوث أى اعتراض على هذا العبث بالأعضاء التناسلية ، حتى إنه لا يبذل أى جهد لإخفائه عن العيون ، بل قد يخبر والديه بأنه يمارسه لأنه يبعث فيه شعوراً ساراً . لذا أعتقد أن الإجابة عن السؤال السابق تختلف بعض الشيء باختلاف المعتقدات التى يؤمن بها الآباء . فهناك آباء يدركون تماماً وجهة النظر الطبية فى هذا الشأن ، وهى أنه لا توجد أية نتائج ضارة من الناحية الجسمية أو الانفعالية ، يمكن أن تلحق بالطفل المتوافق مع البيئة ، من جراء العبث بالأعضاء التناسلية فى حد ذاته . كما أنهم لا يعترضون اعتراضاً قوياً على هذه العملية من الناحية الدينية أو الأخلاقية ، بل إنها لا تثير انزعاجهم بصفة خاصة . مثل هؤلاء الآباء يمكنهم أن يذكروا أمام أطفالهم — فى لهجة طبيعية — ما يفيد أن العبث بالأعضاء التناسلية ، شأنه شأن التبول تماماً ، لا يعتبر سلوكاً مهذباً أمام الناس . غير أن طائفة قليلة من الآباء قد تتساءل ما إذا كان من الضروري أن نوجه الأطفال فى هذه الناحية ، حتى هذا التوجيه البسيط . من الجائز ألا يكون هذا التوجيه ضرورياً فى بعض البلاد الأخرى التى لا يستهجن فيها الناس ممارسة الأطفال للعادة السرية . أما فى بلادنا فإن عدداً كبيراً من الناس يستهجن عبث الأطفال بأعضائهم التناسلية بوجه عام ، بل يكاد يجمع الناس على استهجانه ، إذا رأوا الأطفال يمارسونه علناً . وأعتقد أن هذا هو السبب فى أن غالبية الأطباء النفسانيين ينصحون الآباء والأمهات بردع الأطفال عنه ؛ إذ ليس من مصلحة الطفل أن يشب على اعتقاد أن الإساءة إلى مشاعر الجماعة التى يعيش بينها ، تصرف سليم لا غبار عليه .

كما أن نفس النصيحة تنطبق على اللعب الجنسى الذى يمارسه الأطفال

فما بينهم ؛ إذ يحتمل أن تستنكره الغالبية العظمى من الآباء في شتى الأنحاء ،
ويسئ إلى سمعة الطفل الذى يدأب على ممارسته .

والكثيرون من الآباء الذين بحكم عقيدتهم الدينية يستنكرون العبث
بالأعضاء التناسلية استنكاراً قاطعاً ، أو الذين بحكم نشأتهم يحسون بالضيق
حين يلمسون هذه الظاهرة فى أطفالهم ، هؤلاء الآباء يرغبون بطبيعة الحال فى منع
أطفالهم من العبث بأعضائهم التناسلية ، لا أمام الناس فحسب ، بل فى الخفاء
أيضاً ، رغم ما يسمعون عن رأى الأطباء فى هذا الشأن . (إن كثيراً من الآباء
الذين يعتقدون أنهم قد تغلبوا تماماً على الشعور بالاستنكار لهذه الظاهرة ، تستبد
بهم الدهشة حين يلمسون مدى القلق الذى يطنى عليهم عندما يكتشفون فجأة
أن أطفالهم منغمسون فيها) . وفى اعتقادى أن الآباء الذين يستهجنون العبث
بالأعضاء التناسلية أو ينزعجون منه ، ينبغى أن يردعوا أطفالهم عنه ، فى أسلوب
ينسم بالفهم وحسن الإدراك . لأنهم إذا شعروا بالضيق نحو أطفالهم فى إحدى
النواحي ، يتعذر عليهم أن يحسنوا تربيتهم فى النواحي الأخرى . فالأطفال
يلبسون دائماً الأحاسيس التى تحتاج فى نفوس آبائهم ، ويفضلون — فى غالبية
الأحيان — أن يساعدهم الآباء على التوافق معهم . لذا فإنهم لا يرتاحون إلى
الآباء الذين يستنكرون العبث بالأعضاء ، لكنهم يحاولون كبت شعورهم
بالاستنكار فى أعماق نفوسهم . على أن أهم شيء ينبغى أن يتجنبه الوالدان هو
أن يبثا فى الطفل شعوراً بأنه سيؤذى نفسه من جراء عبثه بأعضائه التناسلية ،
أو أن يخلقا عنده شعوراً بأن هذا النوع من السلوك أسوأ كثيراً من مظاهر سوء
السلوك الأخرى ، حتى إنه قد يؤدي لأن ينبذاه تماماً .

إن من الممكن فى العادة أن يقاوم الوالدان عبث الطفل بأعضائه التناسلية
بنفس الوسيلة التى يقاومان بها الأنواع الأخرى من السلوك المستهجن ، ذلك بأن

تقول الأم لطفلها في بساطة : «ماما لا تحب منك أن تفعل هذا» أو : «إن هذا سلوك غير مهذب» . على أن توجه إليه هذا الكلام في لهجة تنسم بالحزم لكنها توحى بالثقة به ، كما لو كانت تقول له . « إني أعلم أنك ستبذل قصارى جهدك » . غير أن الوالدين عندما ينهيان طفلهما عن الجرى إلى الشارع مثلا ، فإنهما يفعلان ذلك في العادة بطريقة تبين للطفل في جلاء أن اعتراضهما ينصب على عملية الجرى في حد ذاتها . لكنهما في بعض الأحيان عندما ينزعجان من فعل معين له مدلول أخلاقي كالعبث بالأعضاء التناسلية (أو السرقة مثلا) فإن شعورهما بالقلق على أخلاق الطفل قد يدفعهما إلى الهجوم عليه في استنكار عنيف موجه إلى « شخصه » ، مما يجعله يشك في طيب عنصره ويخشى أن يكف والداه عن حبه كلية .

ثمة سبب آخر يدعو الوالدين إلى عدم تحذير الطفل من الإصابات أو تهديده بالحرمان من حبهما كوسيلة لمنع من العبث بأعضائه التناسلية ، وهو أن الأطفال الصغار — حتى أشدهم طاعة لوالديهم — سيعودون فيستسلمون لإغراء العبث بأعضائهم على فترات متباعدة (شأنهم في ذلك شأن غالبية المراهقين) ، مما قد ينجم عنه ازدياد شعورهم بالجزع أو الحقارة .

وكما يمكن أن تتخيلوا فإنه ليس من الحكمة إجراء عملية الختان للطفل في هذه السن ، لأن هناك احتمالا أن يسيء تأويلها .

* * *

يمكننا أيضاً أن نطبق معلوماتنا عن هذه المرحلة « الأوديبية » من مراحل النمو تطبيقاً عملياً ، في مجال الإجابة عن أسئلة الأطفال الصغار بشأن الفروق الجنسية بين الأولاد والبنات . ولكي نكون واقعيين في هذا المجال منذ البداية ، علينا أن نذكر أنه قد ثبت لنا بالدليل استحالة شرح حقائق الحياة لطفل في الثالثة .

بطريقة تقضى تماماً على كل مخاوفه بشأن إصابة أعضائه التناسلية . ومع ذلك فإن ما نرغب فيه هو ألا تتجاوز هذه المخاوف الحدود المعقولة .

فلو أن الآباء والأمهات أدركوا أنه من المحتمل جداً بالنسبة للأطفال الصغار أن يستنتجوا أن البنت كان المفروض أن يكون لها قضيب ، وأنه من السهل أن يفقد الولد قضيبه ، فإنهم في هذه الحالة قد يكون لديهم شيء من الاستعداد لفهم المعاني الكامنة وراء بعض أسئلة أطفالهم وإجاباتهم عليها بطريقة تبعث في نفوسهم الطمأنينة بقدر الإمكان .

ومن بين المتاعب التي تواجهها الأمهات في هذه الناحية ، أن الأسئلة غالباً ما تنطلق من الأطفال الصغار على حين غفلة ، لا في خلوة البيت فحسب ، بل علناً أمام الناس . وقد سمعت قصصاً عديدة عن اكتشاف بعض الأطفال للفروق بين الجنسين أثناء وجودهم على شاطئ البحر « البلاج » . فالطفلة ابنة الثالثة قد تشير بإصبعها في ذهول إلى عضو أول غلام تراه مجرداً من ثيابه ، قائلة لأمها : « ما هذا ؟ » أو قد يقول أحد الأولاد لأمه بصوت عال : « أين قضيبها ؟ » عندئذ تحس الأم المبهذبة بحافز غريزي يدفعها لأن تقول للطفل . « هس ! » أو تقول له « لا تشر هكذا بإصبعك . » أو تسارع إلى تغيير موضوع الحديث . على أن هذه الإجابات لا تبعث الطمأنينة في نفس الطفل الذي قد بدأ يحس بالقلق ، لشعوره بأن أمه تخفى عنه أموراً تجري في الخفاء .

غير أن هذه الأسئلة تكون أقل إحراجاً للأمهات عندما يوجهها إليهن الأطفال في البيت ، ومع ذلك فإن معظمهن يحسن بالدخلة حين يلمسن كيف يعترين شعور بالتوتر عندما يوجه الطفل أول سؤال له في هذا الشأن ، فيجبن عنه في لهجة تختلف عن لهجتهم المألوفة ، ويحاولن اللف والدوران للتخلص من الإجابة ، أو يتظاهرن بأنهن لم يسمعن السؤال .

وعندما تعود الأم إلى البيت من المستشفى حاملة مولوداً جديداً من الجنس الآخر ، فإن الطفل ما بين سن الثانية والسادسة ، الذى لم يسبق له أن رأى جسماً عارياً لطفل من هذا الجنس ، قد يوجه بعض الأسئلة إلى أمه ، عندما يرى أعضاء الرضيع لأول مرة ، أثناء تغيير « الكافولة » أو الاستحمام ، ولئن استبد به الذهول للدرجة يعجز معها عن توجيه الأسئلة ، فإن الأم يمكنها في العادة أن ترى علائم القلق وقد ارتسمت على وجهه .

يحدث أحياناً أن طفلاً وحيد أبويه يناهز الخامسة أو السادسة من عمره ، دون أن يرى أطفالاً آخرين أو يرى والديه عاريين من ثيابهما . لكنى أعتقد أن هذا القدر من السذاجة والبراءة قلما يوجد بين الأطفال ، بل إنه في الواقع أندر كثيراً مما يتوهم الناس في العادة . لا سيما وأنه في هذه الأيام التي تتميز بالبيوت الصغيرة المتواضعة ، لا توجد سوى طائفة قليلة جداً من الأسر هي التي تعيش في بيوت رحبة تتوافر فيها حجرات خاصة للجميع ، بحيث لا يخطئ الأطفال أحياناً فيدخلون إحدى حجرات الاستحمام أو حجرات النوم عند ما يكون أحد الوالدين ، أو أى فرد آخر من أفراد الأسرة ، مجرداً من ثيابه . أما خارج البيوت فإن عيون الأطفال قد تلمح فجأة جسماً عارياً في حمام الجيران ، أو على شاطئ البحر ، أو خلف الأشجار في الحدائق ، أو في المراحض العامة . كما أن بعض الأطفال بدافع من الفضول المتبادل بينهم يعمدون في بعض الأحيان إلى خلع ثيابهم كي يرى بعضهم بعضاً ، ما لم ترقبهم عيون الكبار طوال الوقت . فضلاً عن أن هناك تماثيل لأجسام عارية في المتاحف ، وصوراً لهذه التماثيل في الكتب . وهناك أيضاً الحيوانات في المزارع وحدائق الحيوان ، والكلاب في كل مكان ، تبدو أعضاؤها التناسلية عارية أمام عيون الأطفال .

ولسكن سواء أكان الطفل قد رأى كثيراً أم قليلاً من أعضاء التناسل ، فإننا

يجب أن نفترض أنه بحكم طبيعته فضولى وحساس من هذه الناحية .
لذا ينبغي أن نتوقع منه الأسئلة المباشرة ، والأسئلة المتقنة ، والأسئلة الصامتة التي
لا يفصح عنها .

وعندما يوجه إلينا السؤال ، يجب أن نشرح له بالطبع أن تكوين الأولاد
يختلف عن تكوين البنات ، ونضرب له أمثلة توضح هذا الاختلاف ، نستمدّها
من بين أصدقائه وصديقاته ، وأقربائه وقربائه . غير أن الأطباء النفسانيين قد
تبينوا من خلال تجاربهم أن الطفل عندما ينزعج من سؤال يصعب عليه
مواجهته ، فإن مسارعته إلى بث الطمأنينة في نفسه ، لن يكون لها نفس الأثر
في إزالة عوامل القلق عنده ، مثلما نتيح له فسحة من الوقت ينفس فيها عن قلقه
أولا ، حتى تحقق عملية الطمأنينة الهدف المنشود منها . فعندما تحس الأم أن أسئلة
ابنتها تنم عن الشعور بالقلق ، فإن بوسعها في هذه الحالة أن تقضى بعض الوقت
في شرح الأمور لها قائلة : « هذا هو العضو الذى يتبول منه الولد . وهو يسمى
القضييب . وفي بعض الأحيان عندما ترى البنت أن الولد له قضييب ، فإنها تسأل
نفسها عن السبب في أنها لا تمتلك قضييباً مثله ، وتعتقد أنه كان المفروض أن
يكون لها قضييب هى الأخرى . وربما ظنت أنها قد خلقت ناقصة الأعضاء ،
أو أنه كان عندها قضييب يوماً ما ، ثم حدثت له إصابة قضت عليه . ولكن
هذا غير صحيح ؛ إذ ليس المفروض أن يكون للبنت قضييب . بل إن البنات
والنساء خلقن في تكوين مختلف عن تكوين الأولاد والرجال » . وهلم جرا .

ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن مثل هذه المعلومات المذهلة لا يمكن أن
يستوعبها الطفل في جاسة واحدة ، أو أن تظل طويلاً ، واضحة في ذهنه ،
في هذه المرحلة من النمو النفسى السريع . فإذا كان قد استوعب شيئاً من هذه
المعلومات وأحس أن أمه مستعدة لأن تشرح له الأمور ، فإنه يجتري الموضوع في

ذهنه ثم يعود إلى السؤال عنه بعد يوم أو شهر أو سنة . وعند ما يعود الطفل إلى فتح الموضوع ، فإن من المهم أكثر من ذى قبل ، أن تصفى الأم بانتباه إلى أسئلته الجديدة ، كي تبين أى النواحي قد اتضحت فى ذهنه ، وأياها ما زال يختلط عليه .

على أن الأم التى تذهل لأول سؤال يوجهه إليها الطفل بشأن الأمور الجنسية ، بحيث يتعذر عليها أن تجيبه إجابة مقنعة ، لا ينبغي أن تحس بالقلق لأن فرصة تفسير الأمور له قد ضاعت منها إلى الأبد . فإذا لم يعد الطفل إلى سؤالها فى اليوم أو اليومين التاليين ، يمكنها أن تفتحه فى الموضوع مرة أخرى فى الوقت المناسب ، بقولها : « لقد كنت أفكر فى ذلك السؤال الذى سألته لى فى ذلك اليوم » .

ما رأى فى الطفل الذى لا يوجه أى أسئلة عن الأعضاء التناسلية ، حتى بعد أن يبلغ الثالثة أو الرابعة أو الخامسة من عمره ؟ إننا نعتقد ، على ضوء خبراتنا المهنية فى ربع القرن الماضى ، أن الطفل لا يمكن أن يعدم عنده الوعى أو الفضول بشأن هذا الموضوع . وفى رأى أن الطفل الذى لا يوجه أى أسئلة عن الأعضاء التناسلية ، إما أنه قد استبد به القلق من هذه الناحية بحيث أصبح عاجزاً عن توجيه الأسئلة ، وإما أنه قد لمس — من أسلوب أمه فى الرد عليه عند ما حاول السؤال من قبل — أن هذا السؤال موضوع شائك يثير شيئاً من الحرج . وفى هذه الحالة يجب على الأم أن تكون أكثر انتباهاً لأسئلة الطفل التى يوجهها بطريقة غير مباشرة كأن يسأل مثلاً : « هل البقرة زى بابا أو زى ماما ؟ » أو « كيف تعمل العروسة بى بى ؟ » . وخير مثال أسوقه فى هذا المجال ، هو تلك الطفلة الصغيرة التى راحت تحملى فى صحفة طعامها وقد استغرقها التفكير ، ثم تساءلت : هل « السجق ولد أم بنت ؟ » كما أن هناك الكثير من الأفعال

التي يأتيها الأطفال فتكون أبلغ من الكلمات . فقد نجد طفلة تحاول التبول وهي واقفة كما يفعل الولد . أو نجد أن غالبية الأولاد والبنات الصغار عندما يمكنهم ياحدى العرائس أو الحيوانات اللعب ، فإنهم يقبلونها بطريقة غريزية كي يلقوا نظرة خاطفة على مكان الأعضاء التناسلية . ومثل هذه التصرفات التي تبدر من الأطفال ، تتيح للأم الفرصة لأن تعلق عليها بقولها للطفل : «أظنك كنت تسأل نفسك في الفترة الأخيرة عن السبب في أن تكوين الأولاد يختلف عن تكوين البنات » .

هناك مسألة أخرى تتفرع من هذه المناقشة : وهي مسألة تحشم الآباء والأمهات أو تجردهم من الثياب أمام الأطفال . فقد حدث في هذا القرن رد فعل عنيف ضد النزعة إلى المغالاة في التحشم وتكلف الحياء التي كانت سائدة في العصر الفيكتوري . لذا فإن عدداً كبيراً من الآباء والأمهات في هذه الأيام يتصرفون ببساطة من ناحية السماح لأطفالهم بالدخول إلى الحجرة أثناء خلعهم لثيابهم أو أثناء استحمامهم . لكن أطباء الأطفال النفسانيين قد أثاروا بعض الشكوك فيما إذا كان هذا السلوك يحدث أثراً صحياً في الأطفال ؛ فقد ثبت لهم بالدليل ، في بعض الحالات على الأقل ، أن تجرد الأم من ثيابها قد يثير مشاعر ابنها الصغير إثارة بالغة ، كما أن تجرد الأب من ثيابه قد يكون مثيراً للغاية بالنسبة لابنته الصغيرة . فهو يؤكد رغبة الطفل في امتلاك أحد الوالدين . ويزيد من شعوره بالمنافسة مع الآخر . وفضلاً عن ذلك ، فإن منظر الأب وهو عار من الثياب ، يمكن في حالة الولد أن يزيد في شعوره بالحسد والعداء نحوه .

ومن السهل علينا أن نرى أن علاقة الطفل الصغير بوالديه ، التي هي أعمق كثيراً من علاقته بأي إنسان آخر ، تجعل من عريهما أمامه موقفاً له دلالاته الخاصة في نظره .

لكنى لا أعتقد أنه قد تكونت لدينا اليوم المعلومات الكافية عن هذا الموضوع بحيث يمكننا أن نقطع بما إذا كان من غير المستحسن في جميع الأسر أن يتعرض الآباء والأمهات أمام الأطفال . فالأدلة التي يسوقها الأطباء النفسانيون في هذا الشأن ، مستمدة من دراسة حالات الأطفال الذين يعانون من مشكلات نفسية . وغنى عن البيان أن عدداً كبيراً من الأطفال قد نشأوا نشأة سوية دون أية مشكلات على الإطلاق — فيما يبدو عليهم — رغم أن آباءهم وأمهاتهم كانوا يتجردون أمامهم من الثياب بدرجات متفاوتة في أرجاء البيت . بيد أن هذا لا يدل على أن تمرى الوالدين لم يسبب لهؤلاء الأطفال أية توترات نفسية على الإطلاق . لذا أعتقد أن من الحكمة أن ننصح الآباء والأمهات بأن يميلوا إلى الاحتشام في الحدود المعقولة ، ريثما يتوافر لنا مزيد من المعلومات في هذا الموضوع .

ما الدور الذى ينبغى أن يلعبه الوالدان ؟

« فى وسع الآباء والأمهات أن يعالجوا أمور أطفالهم بطريقة أفضل ، لو أنهم أدركوا التوترات النفسية التى تنشأ عن المنافسة اللاشعورية » .

يتساءل الآباء والأمهات عما إذا كان من واجبهم أن يراعوا أطفالهم مراعاة خاصة فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة ، مادام الأطفال يتعرضون لتوترات نفسية معينة فى هذه المرحلة . وأظن أن الإجابة عن هذا التساؤل إنما تتوقف على المعنى الذى يقصدونه من « المراجعة الخاصة » . لكننى أعتقد أن الآباء والأمهات يمكنهم أن يفهموا سلوك أطفالهم ويعالجوا هذا السلوك بطريقة أفضل ، لو أنهم عرفوا شيئاً عن التوترات النفسية التى قد يمر بها الأطفال فى هذه السن ، علماً بأنه ما من وسيلة يمكن بها أن تتفادى هذه التوترات كلية ، بل إن محاولة تفاديهما تماماً قد تخلق مشكلات جديدة فى حياة الأطفال .

فى حوالى سن الثالثة والرابعة ، نجد أن تعلق الولد بأمه تعلقاً عاطفياً متزايداً ورغبته المتزايدة فى الاستئثار بها ، يجعلانه يدرك شيئاً فشيئاً أنها تنتمى إلى أبيه من قبله ، مما يثير فيه شعوراً بالغيرة والعداء . غير أنه بعقليته الطفلية يتوهم أن أباه يعرف كل شئ عن شعوره بالمنافسة معه ، ويبادل له نفس الشعور . فيثير هذا الوهم الفزع فى نفسه ، لأنه يدرك أن أباه يفوقه بمراحل من ناحية الحجم ، ولأنه أيضاً يكن لأبيه إعجاباً شديداً ، ويعتمد على حبه له . (لكى تتخلى هذا المأزق بعقلية الكبار ، تصورى أن رجلاً وقع فى غرام يائس مع زوجة أعز أصدقائه الذى هو فى نفس الوقت رئيسه فى العمل ، وهو يعتقد أن هذا الرئيس يتمتع بقوة خارقة تفوق قوة البشر ، وأنه يغار على زوجته غيرة شديدة ، وأنه قادر

على قراءة الأفكار التي تجول في أذهان الناس . رغم ذلك كله فإن الرجل تحتم عليه الظروف أن يعيش مع هذا الرئيس في بيته) .

كما أن البنت الصغيرة ، بسبب تعلقها بأبيها تعاقماً عاطفياً متزايداً ، تجد نفسها في موقف مشابه لموقف الولد ، من حيث شعورها غير المريح بالمنافسة مع أمها ، التي تكن لها الإعجاب في نفس الوقت .

وفي بعض الأحيان يقرر أحد الآباء من ذوى الضمائر الحية أن يلجئ جميع رغبات ابنه ، ويصبح مجرد رفيق لطيف يشاركه في اللعب ، متجنباً القيام بدوره في تأديبه وتهذيبه ، ذلك لأنه قد سمع أن الغلام الصغير عرضة لأن يتخيل أباه على أنه شخصية صارمة تميل إلى الانتقام . والأب الذى يتذكر أن علاقته بأبيه كان يشوبها التوتر هو الذى يحتمل بصفة خاصة أن يتخذ هذا الموقف المتساهل من ابنه ، لأنه يرغب فى أن يحبه ابنه ويستمتع بصحبته ، أكثر مما كان يفعل هو بالنسبة لأبيه . كما أن الأم ، أثناء تربيتها لابنها ، قد تراودها نفس الرغبة فى كسب حبها ورضاها .

ومع أن هذا الهدف قد يبدو منطقياً لأول وهلة ، فقد ثبت من خبراتنا فى ميدان توجيه الأطفال أنه لا يؤتى الأثر المنشود فى العادة . وقد يرجع ذلك إلى أن الولد يحس بالسليقة أن أباه ينبغى أن يؤدي دوره كأب أولاً وقبل كل شيء ، أما دوره كرفيق يشاركه فى اللعب فإنه يأتى فى المرتبة التالية . فجميع خبرات الولد تدله على أن أباه يفوقه فى الحجم والقوة والحكمة ، لذلك يحس أنه مضطر للاعتماد على أبيه ، كى يشملته بحمايته ويهديه سواء السبيل . كما يدرك أيضاً أن أباه يهتم اهتماماً كبيراً بسلوكه ، وأنه يسر منه عندما يسلك سلوكاً يدل على التعاون أو المهارة أو الشجاعة . كذلك يشعر أن أباه يصاب بخيبة أمل فيه عندما يبدو عليه الرجل أو الارتباك ، وأنه يحس بالغيظ منه عندما يمنح إلى الوقاحة

أو العصيان أو التخريب ، مهما يحاول الأب جاهداً أن يخفى هذه الاتجاهات السلبية . بل إن إحساس الولد بالذنب عندما يسلك سلوكاً سيئاً يجعله يشعر إلى حد ما بأنه فى حاجة إلى نوع من التأديب من جانب أبيه . أما بالنسبة لشعوره بالمنافسة معه ، فلا ينبغى أن يغيب عن بالنا أن شعور الولد بالعداء نحو أبيه هو العامل الرئيسى الذى يجعله يتوهم أن أباه يكن له نفس الشعور بالعداء ، مهما يحمل الأب له من مشاعر طيبة فى الواقع .

قصارى القول أن الغلام بطبيعة تكوينه يحس إحساساً قاطعاً بأن أباه شخصية تنذر بالعقاب وتبعث على الخوف والهيبة .

ما الذى يحدث إذن عندما يحاول الأب جاهداً أن يكون مجرد صديق لابنه ؟ عندما تتكشف بالتدريج اتجاهات الغلام اللاشعورية أثناء علاجه نفسياً لشهور عديدة فى عيادة توجيه الأطفال ، يتبين لنا أن مثل هذا الأب غالباً ما يبدو فى نظر الغلام على أنه شخصية متوعدة تبعث على الخوف أكثر من المعتاد . فلماذا يبدو الأب على هذه الصورة ؟

عندما يتردد الأب فى التعبير لابنه عن نوع السلوك الذى يتطلب منه ، ويحاول دائماً أن يكبت شعوره بالغيظ ، فإن هذا الأسلوب يخلف عند الغلام شعوراً بالشك فى سلامة سلوكه ، وإحساساً بالخوف والتوجس من غضب أبيه إذا حدث أن انفجر فى يوم من الأيام . (فمعلمنا يحسم الخطر المجهول ، سواء أكان ذلك الخطر يتمثل فى أول زيارة نقوم بها لطبيب الأسنان ، أم فى عملية الولادة ، أم فى معركة من المعارك ، أم امتحان من الامتحانات) ويمكن القول بعبارة أخرى : إنه ما دام الغلام يحس أن أباه يكبح جماح غضبه فى بعض الأحيان خشية أن ينفجر منه هذا الغضب ، فإنه يؤمن بناء على ذلك بأن أباه ينظر إلى الشعور بالغضب الكامن فى نفسه على أنه شىء فظيع فى غاية الخطورة .

(ربما كنت أنت نفسك يوماً ما تحت إمرة معلم في المدرسة أو رئيس في العمل اعتاد أن يكبت شعوره بالغضب نحوك ، ويمكنك أن تذكرى كم كان هذا السلوك منه يبعث في نفسك شعوراً بالقلق والاضطراب) .

أما إذا كان الأب من النوع الواصل بنفسه الذى لا تساوره الشكوك في حب ابنه له ولا يتردد في القيام بدوره في التوجيه — أو التأديب عندما تقتضى الظروف — فإن الغلام في هذه الحالة يدرك موقفه إدراكاً واضحاً ويرتاح إليه . كما أنه عراًحياناً ببعض الخبرات التي يواجه فيها حزم أبيه واستنكاره لتصرفاته ، فيجد أنه يخرج من هذه الأزمات سليماً معافى ، ويكتسب منها شيئاً من الحكمة ، مما يبعث فيه شعوراً بالاطمئنان ، مثل شعوره بالاطمئنان عندما يجد أنه قادر على ركوب الدراجة أو السباحة ، أو عندما يجد أن بوسعه المحافظة على مكانته بين الأولاد الآخرين ، ذلك أن عدم خوف الأب من التعبير عن مشاعره الخاصة ، يعلم الغلام ألا يخاف هو أيضاً من هذه المشاعر ، فضلاً عن أن صفاء الجو بينه وبين أبيه بعد لحظات الحزم أو اللوم أو الغضب ، يبعث في نفسه إحساساً بالارتياح .

هناك ناحية أخرى في هذه المرحلة « الأوديبية » ينبغي أن نتأملها برهة . تلك أن الأب الذى سمع عن المنافسة التي يحتمل أن يشعر بها ابنه نحوه ، قد يعتقد أن من اللياقة والإنصاف أن يحجم عن ملاطفة زوجته بطريقة سافرة أمام الغلام ، وقد يتحاشى المغالاة في إظهار حبه نحوه ، أو قد يقطع حديثه معها عند ما يرغب الغلام في التحدث إليها ، أو يبدى تردداً في التدخل عندما يجدها

معاً . كما أنه قد يتجنب الخروج معها بمفردها إلا بعد أن يأوى الطفل إلى فراشه ويستغرق فى النوم .

لقد أثبتت التجربة أن هذا القدر من المراجعة لشعور الطفل ، قد يؤدي إلى عكس الهدف المنشود ؛ ذلك لأن الطفل إذا أحس أنه صاحب الحق الأول فى أمه ، فإن هذا الإحساس لن يؤدي إلا إلى خلق مزيد من الرغبة فى تملكها ، ومزيد من الشعور بالغيرة إزاء اهتمام أبيه بها ورعايته لها . غير أن الطفل فى نفس الوقت سوف يتوجس خيفة من الشعور بالحقق والاستياء الذى يتوهم أن أباه يكتفه له قطعاً ، مما يخلق له فى نهاية الأمر مزيداً من الصعوبات فى حياته ، عند ما يكبر قليلاً فى السن ويتحتم عليه أن يواجه الحقائق .

فالغلام يكتسب على المدى البعيد شعوراً بالثقة فى نفسه بوصفه ذكراً ، وينمو عنده شعور بالمتعة فى صحبة غيره من الذكور ، بدلا من شعوره بالخوف من المنافسة معهم . كما أنه يكتسب جرأة معقولة فى معاملة الجنس الآخر ، لا فى مجال التغلب على أبيه بهدف الاستئثار بحب أمه واهتمامها ، بل فى اتخاذ من أبيه نمطاً يقتدي به فى السلوك ، وفى شعوره بأنه ابن أبيه ، وأنه فرع من الأصل . ومن ثم فإن « الأصل » يجب أن يكون شخصية فعالة قوية الأثر ، لذا فإن من الضروري أن يظهر الأب — فى داخل البيت أكثر من خارجه — بمظهر الذكر الواثق بنفسه ، وأن يبدى سيطرة معقولة فى مجال حماية أسرته وتزويدها بمطالبها ، وأن يكون مرتاحاً للقيام بدوره فى تأديب أطفاله ، وأن يكون ناجحاً مع زوجته من الناحية العاطفية (غنى عن البيان أنه لا ينبغي للوالدين أن يثيرا غيظ الطفل بأن يتعمدا إظهار حبهما المتبادل أمامه) .

من كل ما ذكرت عن العلاقة بين الأب وابنه الصغير ، يمكنكم أن تخمنوا ما سوف أقوله عن علاقة الأم بالبنات . فالبنات الصغيرة أيضاً تشعر في عقابها الباطن بأنها في منافسة غير متكافئة مع أمها . ولكن هذا لا يترتب عليه أن من واجب الأم العاقلة أن تظهر لابنتها مراعاة زائدة تفوق المعتاد ، بمعنى أن تكون صبوراً وطويلة البال بصورة غير طبيعية في معاملتها اليومية لها ، أو أن تقلل من مظاهر حبها نحو زوجها .

ولقد سبق أن اقتبست مقتطفات من الخطاب الذي تعبر فيه إحدى الأمهات الرقيقات عن دهشتها للتحدي الذي يبرق في عيني طفلتها ابنة الرابعة ، وتضيف إلى ذلك قولها بأن ابنتها على النقيض من ذلك دائماً تكون « سمن على غسل » . مع أيها ، وتقوم باستعراض رائع في مجال رعايته والعناية به ؛ ذلك أن الطفلة عندما ينشأ عندها شعور بأنها تلقى معاملة فيها شيء من الظلم ، ثم تجد أن أمها مستعدة لأن تتحمل وقاحتها وعصيانها ، فإن هذا يؤكد شكوك الطفلة بأن أمها مذنبه في حقها ، ويدفعها إلى التماهي في المشاكسة « الرذالة » معها . والآن ذات الضمير الحى صاحبة الخطاب ، تتوهم أنها قد خذلت ابنتها بطريقة ما لا تدرك كنهها . ولكنها باستعدادها هذا لأن تلقى على نفسها اللوم وتتقبل سلوك ابنتها المكدر ، إنما تدفعها إلى المغالاة فيه أكثر فأكثر . (لو أنى كنت مكانها لأعطيت ابنتي درساً في الأدب والطاعة ، وأفهمتها من صاحبة الأمر في البيت ، ثم أوقفتها عند حدها في حزم كلما نسيت هذا الدرس) . والشئ الذي يحذر من منافسة البنت الصغيرة اللاشعورية لأمها ، هو أن تجد أمها واثقة بنفسها ، لا تحس بالذنب ، وتنسم بالحزم ، لكنها في نفس الوقت تعاملها في ود .

فالأم لا تسدى لابنتها صنيعاً إذا أوحى إليها بأنها قد تحتل مكانها في البيت . (فأنت ترين في بعض الأحيان أن بنتاً في أوج المراهقة ، تجد متعة بالغة

فى إظهار حبها لأبيها وتفاهمها معه ، عند ما تتوتر العلاقات بينه وبين أمها ، بسبب انقطاع الطمث فى سن اليأس ، أو بسبب بعض الاضطرابات الأخرى . إن مثل هذه الوسيلة السريعة للنجاح فى كسب حب أبيها ، قد تخلق منها شخصية كريمة نوعاً ما ، تنسم بشيء من القلق والشعور بالذنب ، وقد تجد صعوبة فى الانفصال عن أبيها فيما بعد . فالبنت على المدى البعيد تكتسب مزيداً من الثقة بنفسها كفتاة جذابة ، وتتهىء نفسها لأن تحب فى النهاية رجلاً مناسباً فى مثل سنها ، بأن تتطلع إلى أمها على أنها مثال رائع للنجاح العاطفى ، وتحاول أن تنمى شخصيتها فى سلوكها العام .

* * *

ولكى تكتمل المناقشة حول هذا الموضوع ، سأضيف بضع نقاط بشأن العلاقة بين الأب وابنته ، وبين الأم وابنها .

فالابنة تحتاج إلى الشعور بقبول أبيها وتقديره لها ، لا كطفلة صغيرة فحسب ، بل كفتاة ناضجة بصفة خاصة . فقد يحدث أحياناً أن يصبو أحد الآباء إلى إنجاب ابن له ، لكنه لا يحصل عليه قط ، فيعمد بدلاً من ذلك إلى معاملة ابنته كما لو كانت ولداً ، ولا يظهر استمتاعه بها إلا عندما تسلك سلوك الأولاد . لذلك يصعب جداً على مثل هذه البنت عندما تشب عن الطوق ، أن تحس بالرضا عن معظم المهام التى تقوم بها النساء (بما فى ذلك مهمة الزوجة) . ولكن من ناحية أخرى ، لا يساعد البنت الصغيرة على النمو أن يدعها أبوها تحيطه باهتمامها العاطفى كما يروق لها ، أو أن يستجيب لهذا الاهتمام فى حمس عاطفى متطرف من جانبها : فرغم أنه من المستحسن أن يتخذ اتجاهه نحوها طابع الرقة والحنان ، إلا أنه قد ثبت من بحوث عيادات توجيه الأطفال النفسية أن الأب إذا سمح

لابنته بأن تلتصق به التصاقاً عاطفياً وتشغله بمداعباتها وتنسلل إلى فراشه ، فإن هذا الأسلوب خليق بأن يثير مشاعرها ويبعث في نفسها الاضطراب والقلق . كما أنه إذا أظهر لها أنه يستمتع بقضاء الوقت معها أكثر من استمتاعه بقضاءه مع زوجته ، فهو بهذا السلوك إنما يحرفها عن اتجاهها الطبيعي .

ونفس هذه النقطة يمكن أن تنطبق على العلاقة بين الأم وابنها الصغير . فالأم العاقلة تتيج لابنها فرصة المبادرة بإظهار تعلقه بها في أسلوب الرجال ، عن طريق أدائه لبعض الأعمال التي يبدى فيها شهامة ومعاونة لها ، وتستجيب لمشاعره نحوها في تقدير لطيف . وهي تبدى له استمتاعها بعبارات المديح والإعجاب التي يوجهها إليها ، وتظهر إعجابها بأعماله الباهرة التي يحدثها عنها . أما إذا تجاوز تعبيره الحسى عن مشاعره الحارة حد احتضانه لها ، فإنها تصرف انتباهه عن ذلك في أسلوب لبق . كما أنها تتحاشى الظهور أمامه عارية أو في ملابسها الداخلية حتى لا تثير مشاعره . وهي لا تسمح له بالنوم في فراش أبيه أثناء غيابه عن البيت في رحلة ما ، لأنها تدرك أن هذا سوف يحرك في عقله الباطن آمالاً ، لن ينال منها سوى الشعور بالخيبة ، عندما يعود أبوه إلى البيت .

* * *

لعلكم الآن قد ضقتم بى ذرعاً ، لأنى أسهبت كل هذا الإسهاب في توصية الآباء باتباع هذه المجموعة من الاتجاهات والإجراءات ، التي لا تعدو أن تكون نفس الاتجاهات والإجراءات التي يتبعها دائماً الآباء العقلاء بالفطرة . فالواقع أن بلايين من الآباء منذ العصور الأولى للجنس البشرى ، قد نشأوا أطفالهم تنشئة سوية ، دون أن يعرفوا شيئاً عن « عقدة أوديب » . لكننا من ناحية أخرى نجد أن نسبة معينة من الأطفال في كل جيل ينحرفون عن الطريق السوى أثناء

اجتيازهم لهذه المرحلة ، كما يتضح لنا مما قرأناه فى كتب التاريخ والروايات ، ومما نعرفه عن أصدقائنا أنفسهم . فإذا حصل الناس جميعاً على قدر من المعلومات الحديثة التى توصلنا إليها بشأن أسباب الاضطرابات العصبية عند الأطفال ، فإن ذلك خليف فى اعتقادى بأن يوضح لهم أيضاً العوامل التى تؤدى إلى تكوين الشخصية الناجحة .

أو لعلكم قد ضقتُم أيضاً بالطبيعة ذرعاً ، لأنها تتبع هذا النظام المعقد فى النمو العاطفى . فلماذا يتحتم على الأطفال الصغار أن يتعلقوا بأبائهم وأمهاتهم فى بادئ الأمر تعلقاً عاطفياً شديداً ، لن يجديهم نفعاً سوى أنهم يصابون بالقلق والحبية عندما تصدمهم الحقائق ، لدرجة أنهم يحاولون الإقلاع عن هذا التعلق تماماً فى سن السادسة أو السابعة ؟ كل ما توصلنا إليه من دراسة بعض النماذج المختلفة من الأشخاص الذين نجحوا أو فشلوا فى اجتياز هذه المرحلة من مراحل النمو ، هو أن الحنين العاطفى إلى أحد الوالدين — ثم عملية الإقلاع التى تعقبه — يلعب دوراً حيوياً فى خلق بعض السمات الرائعة التى تتميز بها الطبيعة البشرية : مثل الطابع الروحى للحب ، والزواج عند الكبار ، والمثالية الإنسانية بوجه عام ، والعقيدة الدينية ، وملكة الإبداع الفنى ، والفضول العلمى ، بل واستقرار المجتمع الإنسانى . وهذه قائمة طويلة تحتاج إلى شيء من الشرح والتوضيح .

٦

التحول إلى العالم الخارجي بعد سن السادسة

التباعد عن الوالدين

« إن أنبل الأشياء التي فكر فيها الإنسان وصنعها ، هي إلى حد ما ،
وليدة شوقه وتعلقه بأحد الوالدين ، ثم إقلاعه عن هذا التعلق .
بالوالد المحبوب » .

بعد سن السادسة أو السابعة ، تتغير اهتمامات الطفل وحوافزه تغيراً يبعث
على الدهشة . فقد كان من قبل يقضى معظم ساعات صحوه في تقليد مجالات نشاط
الكبار تقليداً مباشراً . فكان الغلام يدفع سيارته « اللعبة » على الأرض هنا
وهناك ، أو يركب دراجته متظاهراً بأنه أحد رجال المطافئ ، أو يتظاهر بأن
عربة قطاره اللعبة إنما هي عربة حقيقية لنقل البضائع ، أو يبني ناطحات السحاب
ويشيد الجسور « الكبارى » بالمكعبات والصناديق . وعندما يشترك مع غيره
من الأطفال في تمثيل الأسرة ، فإنه يرغب في القيام بدور الأب ، ويقلد سلوك
أبيه تقليداً دقيقاً إلى حد بعيد . كذلك البنت كانت تقضى جانباً كبيراً من وقتها
في تقليد مجالات نشاط أمها إلى حد تقليد نبرات صوتها وتقليد حركة ثني إصبعها
الصغرى وهي تتناول قذح الشاي .

أما بعد سن السادسة ، فإن الطفل بطبيعة الحال يقضى معظم ساعات نهاره
في المدرسة . ألم تسألني نفسك يوماً عن السبب في اختيار هذه السن لدخول
المدرسة ، في معظم بلاد العالم التي توجد بها مدارس ؟ ليس السبب في ذلك هو
أن الأطفال يتعذر تعليمهم الكثير من الأشياء قبل سن السادسة . وإنما الاختلاف
المهام هو أنهم في هذه السن يتوافر لديهم الاستعداد لفهم رموز معنوية غير
شخصية ، لا سيما الأرقام والحروف . وهذا يتطلب مستوى معيناً من الذكاء .
كما يتطلب فضلاً عن ذلك اهتماماً إيجابياً بمثل هذه الأشياء غير الشخصية .

حقيقة أن الطفل دون سن السادسة يبدى اهتماماً بعدد جواربه ، وبتعرف الحروف التي يتكون منها اسمه ، غير أن هذه مسائل محسوسة تماماً ولها مدلول شخصي بالنسبة إليه . أما في سنوات المدرسة فإن الأرقام والحروف والخرائط والرسوم البيانية تصبح مفهومة للأطفال ، بل إنها تستهويهم — في حد ذاتها — ل مجرد أنها رموز معنوية مجردة .

وهناك مسائل أخرى عديدة غير معنوية لكنها في نفس الوقت غير شخصية ، تستغرق اهتمام الأطفال في سنى المدرسة الأولى ؛ مثل : كيف تعمل الآلة ، وكيف ينمو النبات ، وكيف خلقت الأرض ؟

من هو النموذج الذى يحاول الطفل أن يشكل نفسه على نمطه في سنى المدرسة ؟ على قدر ما يبدو في الظاهر ، فإن الطفل يفقد الكثير من اهتمامه بتقليد أبيه . وهو بدلا من ذلك يحاول جاهداً أن يقلد غيره من أولاد الحى . وما زلت أذكر حتى الآن أنى عندما بلغت السابعة من عمرى ، لم أعد أرغب في قص شعرى بالطريقة التى كان أبى يأمر الحلاق أن يقصها لى . بل كنت أرغب في قصه حسب « الموضة » التى كانت سائدة بين الفتيات المتأقنين في عام ١٩١٠ ، بأن يقص الشعر تماماً من الجوانب وتترك خصلة غزيرة أعلى الرأس ، كنا جميعاً نحاول أن نحفظ بها مصففة في شكل جميل ، فنتردى ساعة النوم غطاء الرأس نصنعه من جوارب أمهاتنا القطنية السوداء .

عندما تشتري إحدى الأمهات « بدلة » جديدة لابنها وهو في الرابعة من عمره ، تستبد به اللهفة لأن يقيسها عليه . وعندما يتהל وجه الأم لأن الغلام يبدو رائماً فيها ، يتהל وجهه هو الآخر ، لأنه يسلم بأن ذوق أمه — في البدل والأولاد على السواء — لا يُعلى عليه . أما إذا أحضرت الأم « بدلة » جديدة لطفلها البالغ من العمر ثمانى سنوات ، فإنه قد يتجههم في ريبة ، حتى قبل أن يراها .

فهو يعتقد عن يقين أن ذوق الأولاد مختلف تمام الاختلاف عن ذوق الكبار ،
لدرجة أنه قد يتوهم أن « البدلة » التي اشتريها له أمه ستجعله يبدو كالقرد
بين أصحابه .

لذلك فهو يفضل ارتداء ملابسه القديمة (لأنه جربها واطمأن إليها) ويفضل
أيضاً أن يرتديها مهوشة في غير نظام . كذلك يحزن الطفل في هذه السن
ويعترض على غسل يديه أو تمشيط شعره أو الاستحمام ، كما لو كانت هذه الأفعال
مؤلمة أو شائنة له .

كما أن الأطفال في الأعوام التي تسبق دخول المدرسة ، يحاولون في لهفة
تقليد آداب المائدة التي يتبعها آباؤهم . أما بعد سن السادسة أو السابعة ، فإنهم
يبدون كما لو كانوا يحاولون أن يتبينوا إلى أى مدى يمكنهم أن يسلكوا
سلوكاً همجياً بدائياً دون أن ياحق بهم العقاب ، فهم يتمددون على سطح المائدة
ويكرعون الحساء في شراهة ، ويرفسون أرجل الكراسي بأقدامهم .

والأطفال الصغار يحاولون قدر جهدهم أن يقلدوا كلمات آبائهم وعباراتهم .
فهم يشعرون بالفخر عندما يستعيرون كلمات الكبار الضخمة التي لم يفهموا
معناها بعد . لأن هذا يعنى في نظرهم أنهم قد أصبحوا كباراً مثلهم . أما في سن
المدرسة فإنهم لا يستعملون كلمات الكبار بأى حال من الأحوال ، وإنما يصبح
هدفهم في هذه السن أن يلتقطوا الكلمات التي يستخدمها أبناء جيلهم ويستجئونها
آباؤهم ، سواء فهموا معنى هذه الكلمات بالضبط أو لم يفهموه . وهم يجدون
متعة كبرى في استعمال الألفاظ البذيئة . أما إذا لم توات الطفل الجرأة على
استعمال هذه الألفاظ في البيت — ولو على سبيل التجربة — فإنه في تباه وتحد
يستخدم أسلوب العوام في الحديث ، كما لو كان يقول لوالديه : « إنكما لن
تستطيعا أن تحيطانى بجو من البراءة بعد الآن . فقد اكتشفت أخيراً كيف
يتكلم الناس في العالم الكبير الخشن » .

وفي هذه السن ، يفقد اللعب شيئاً فشيئاً طابع تمثيل الأشخاص ، فيكف الأطفال عن لعبة تمثيل الأسرة — أو تمثيل بابا وماما . ولا يتبقى في ألباهم من الأشخاص سوى فرق العساكر واللصوص ، أو رعاة البقر والهنود . فالذى يهمهم الآن ليس تمثيل الأشخاص ، بل الألعاب التى تعتمد على المهارة وتخضع لقواعد ثابتة ، مثل نظ الحبل والحجلة وتصويب الكرات إلى الشواخص الخشبية ، وهى جميعاً ألعاب غير شخصية على الإطلاق .

وقد تتربى عند الأطفال فى هذه السن عادات كثيرة تبعث على الغيظ ، وهى تختلف باختلاف الأطفال وباختلاف فصول السنة ؛ مثل ترك الأبواب مفتوحة والمفروض أن تغلق ، أو صفق الأبواب التى ينبغى أن تغلق برفق ، أو الدق على المائدة كالطبله ، أو إلقاء المعطف دائماً على أرض حجرة الجلوس ، أو حك الرأس ، أو العبث فى الأنف بالأصابع ، أو التجشؤ بصوت عال دون أن يكون هناك أى دليل آخر على سوء الهضم فى الغالب . كل هذه العادات السيئة تجعل الآباء يفقدون صوابهم . لكنهم مهما حاولوا مراراً وتكراراً أن يقوموا بسلوك الطفل فى لهجة حازمة ، فإنه دائماً يتظاهر بالدهشة ، أو يتظاهر بأن والديه يسيئان معاملته ، وكأنه يحس أنه لم يرتكب ذنباً على الإطلاق . حقيقة أنه لم يرتكب ذنباً فى حدود نواياه الشعورية ، لكننى رغم ذلك أشك فى أن هذه التصرفات التى تبعث على الغيظ يمكن أن تحدث بمحض المصادفة .

وعندما يحس الطفل فى سن المدرسة برغبة فى الاعتراض على آراء والديه ، فإنه يحاول أن يستغل كلمات الكبار من ذوى السلطة خارج محيط أسرته ، كالمدرسات مثلاً . فيقول : « مس هلكى تقول إنه لا داعى لأن نرتدى » بـ « بتطلونات » التلوج إلى ما بعد عيد الميلاد » أو يقول : « مس هلكى تقول إن السماء ليست فى الحقيقة زرقاء ، بل إنها سوداء » . وقد يسأل أحد الأولاد

أباه الطيب : « أيهما أكبر ، كرات الدم الحمراء أو كرات الدم البيضاء ؟ » فيتوهم الأب أن ابنه يسأله بحثاً عن المعرفة ، ويسر لذلك ، ثم يجيبه قائلاً : « كرات الدم البيضاء هي الأكبر » . فإذا بالطفل يرد عليه بلهجة لا يحاول فيها أن يخفي رغبته في العراك والجدل وراء قناع من الأدب : « أوه ! كلا ، هذا ليس صحيحاً فكرات الدم الحمراء هي الأكبر . مدرس العلوم يقول هذا » .

في بعض الأحيان يكون هدف الطفل من استخدام هذه العبارات التي يقتبسها من ذوى السلطة عليه خارج نطاق الأسرة ، هو الحصول على بعض الميزات من والديه أو تجنب إجباره على ارتداء ثياب تختلف عن ثياب غيره من الأطفال . غير أن الموضوعات التي يطرحها الطفل ولجته في الجدل ، غالباً ما تدلان على أن هدفه الحقيقي هو أن يثبت أن والديه لا يعرفان الإجابة عن جميع الأسئلة . ولست أعتقد أن الطفل يهتم بأن يدرك والداه حدودهما في المعرفة حرصاً على مصالحتهما ، بقدر ما يهتم بأن يقنع نفسه أنهما ليسا المرجع الأخير في كل الأمور . فهو يحس أنه إذا كان له أن يستمر في عملية النمو ويصبح مواطناً يعتمد على نفسه ويتعاون مع الآخرين ، فلا بد من أن يتعلم كيف يزن بعقله آراء الناس خارج محيط أسرته . ولكي ينطلق عقله في هذا السبيل ، فإن عليه أولاً أن يتغلب على الفكرة التي كونها في طفولته المبكرة ، بأن والديه هما أعقل الناس في الوجود ، وأنهما الشخصان الوحيدان اللذان يجب أن توضع معلوماتهما موضع الاعتبار من دون الناس جميعاً .

* * *

ماذا يحدث للعاطفي بالوالدين ؟ يمكنك أن تلمس أن غالبية الأولاد يتقاعدون عن أمهاتهم بعد سن السادسة ، فيصبحون أقل استعداداً لتلقي القبلات

من أمهاتهم ، ثم يحزنون عنها تماماً في النهاية ، على الأقل أمام الناس . كما أن فكرة ارتباط الأم بأية علاقة عاطفية تصبح فكرة منفرة عند الأطفال في هذه السن . ولقد حدثني أحد الآباء عن مناقشة دارت بين أفراد أسرته حول الاسم الذي سيمطقونه على قارب كانوا بسبيل شرائه . فاقترح الأب في نهاية المناقشة أن يطلقوا عليه اسم التدلليل الذي ينادى به زوجته ، وإذا بابنه البالغ العاشرة من عمره يتجشأ على الفور بصوت مرتفع وكأنه على وشك التقيؤ .

وفي سن السادسة والسابعة ، قد يستمر بعض الأولاد في التحدث عن صديقاتهم من البنات اللاتي في مثل سنهم . أما في سن التاسعة أو العاشرة فإن الغالبية العظمى من الأولاد يجاهرون بنفورهم من جنس النساء قاطبة ، ويصفون البنات بأنهن مخلوقات غيبية تبعث على الازدراء ، « ويزومون » حينما يشهدون مشهداً غرامياً ، في أحد الأفلام السينمائية . إنهم بطبيعة الحال يغالون في إظهار ازدراءهم ومعارضتهم لجنس البنات . غير أن وراء هذا الازدراء لا يزال يوجد اهتمام إيجابى واضح بالجنس الآخر ، لكنه مكبوت كبثا شديداً .

كيف تتوافق كل هذه النواحي بعضها مع بعض عند الطفل ما بين سن السادسة والثانية عشرة من عمره ؟ لقد توصل فرويد إلى تفسير لهذه الظاهرة أثناء عمله طوال حياته في ميدان التحليل النفسى للمرضى ، كما أكد هذا التفسير غيره من علماء النفس ، ذلك أن تعلق الولد بأمه تعلقاً شديداً في سن الثالثة والرابعة والخامسة تكثفه المضاعف ، لأنه يخاف عنده شعوراً بالمنافسة مع أبيه المحبوب ، فيتوهم أن أباه يبادلُه نفس الشعور ، مما يثير فيه إحساساً بالفزع . كما أنه في نفس هذه السن يخطئ فهم معنى الاختلاف الجسمى بين الأولاد والبنات ، ويخشى أن يفقد عضوه ، ربما كمقابله على اللعب الجسمى ، أو على رغبته في إقصاء أبيه كي

يحل محله . ورغم أنه يكبت كل هذه المخاوف في عقله الباطن ، فإنها في النهاية تقلقه وتزعجه إزعاجاً شديداً ، حتى إن أحاسيسه العاطفية نحو أمه تفقد ناحتها الإيجابية السارة ، وتصبح مبعثاً للقلق وعدم الارتياح ، لذا فهو يريد أن يتجنب هذه الأحاسيس وينساها تماماً .

إن هذا التحول من الشعور الإيجابي إلى الشعور السلبي بسبب بعض الارتباطات المؤلمة ، يحدث أيضاً في مواقف ومراحل أخرى من عمر الإنسان . وقد يمكنك أن تتذكرى صنفًا معينًا من الطعام كنت تحببته في الماضي ، ثم أصبحت تفرزين منه لأنك أصبت بالمرض ذات مرة بعد تناوله مباشرة .

وبطبيعة الحال ، يستمر الولد في حب أمه حباً عميقاً بوصفها الشخص الذي يريحه ويحميه ويرشده سواء السبيل ، لكنه يحس بأنه مضطر لأن يتخلى عن شعوره الخاص بالحنين إليها ، لأن هذا الشعور ينطوى على منافسة مع أبيه .

وقد أطلق فرويد على هذا الإقلاع عن التعلق بالأم (الذي يحدث في حوالى سن السادسة) اسم « حل عقدة أوديب » . كما أسمى المرحلة ما بين هذه السن وبداية سن المراهقة « فترة السكون » ، بمعنى أن الحوافز العاطفية والجنسية التي كانت تلعب دوراً حيويًا في النمو الانفعالي للطفل بين سن الثالثة والسادسة ، تكبت كبتاً شديداً في هذه المرحلة .



يبدأ أن يبطئ نمو الطفل في إحدى النواحي هو في حد ذاته الوسيلة إلى دفع عملية نموه في النواحي الأخرى . فهناك أدلة عديدة على أن إقلاع الطفل عن تعلقه بأمه تعلقاً شخصياً عميقاً ، يحور عقله ويهيئه للدراسة الأكاديمية ، فيقبل على دراسة المواد المدرسية ، مجرد أنها أشياء عامة غير شخصية .

لكن هذا الاستعداد للدراسة الأكاديمية ليس إلا جانباً واحداً من القصة ، لأن تحول اهتمامات الطفل — في فترة الكون وما بعدها — ليس تحولاً أساسياً أو شاملاً كما يبدو في الظاهر . فالحلل النفساني حينما يدرس أحلام أحد المرضى وتداعى أفكاره ، فإنه غالباً ما يجد ارتباطاً في العقل الباطن بين الرغبة في استطلاع أسرار العلم مثلاً والرغبة في استطلاع أسرار الجنس والتناسل . كذلك قد يجد المحلل النفساني أن الحافز الذي يدفع الإنسان إلى ابتكار المخترعات الجديدة وإنتاج الأعمال الفنية والأدبية ، قد يكون — إلى حد ما — وليد حنينه إلى إنجاب الأطفال . والواقع أن الناس دائماً ما يقولون إن الإنسان الذي يملك موهبة الخلق والابتكار ، « يتمخض » عقله « فيله » فكرة أو مشروعاً . وعلى ذلك يمكن القول بأن أنبل الأشياء التي فكر فيها الإنسان وصنعها ، هي إلى حد ما وليدة شوقه وتعلقه بأحد الوالدين ، ثم إقلاعه عن هذا التعلق بالوالد المحبوب .

ونفس هذا الكلام ينطبق على النواحي الروحية والمثالية والبطولية في الحب الإنساني . فلم توجد في حياة الإنسان « مرحلة أوديبية » يعقبها كبت في فترة الكون ، لكان الحب بمعناه الجنسي عبارة عن عمليات استهواء جسدى قصيرة المدى ، كالتى تحدث بين كثير من الحيوانات ، دون أن تنطوى على الحنان أو التفانى أو الرغبة في بناء الأسرة . فكون الحب الأول العميق عند الولد يتجه نحو أمه التي تعتبر ذات أهمية قصوى بالنسبة إليه من نواح عديدة ، وكون هذا الحب ينشأ في محيط الأسرة التي يظللها الاستقرار والتفانى ، وكون هذا الحب تقليداً لحب أبيه لأمه — كل هذه الظروف التي تحيط بالحب الأول تدفع الولد عندما يكبر لأن يصوغ حبه للجنس الآخر على نفس النمط . أما إذا ظل الولد طوال حياته يكن لأمه نفس الحب الذي كان يكنه لها في سن الثالثة والرابعة ، فإنه لن يتمكن قط من أن يأخذ أية فتاة أخرى مأخذاً جدياً . (إننا نرى أحياناً

في واقع الحياة رجلا لا يستطيع مطلقاً أن يحب أية امرأة أخرى غير أمه . كذلك نرى أحياناً فتاة لا تعجب قط بأى رجل إعجابها بأبيها) . وبناء على ذلك فإنه إذا كان للطفل أن ينشأ متكامل الشخصية ، فلا بد أن يكون في حياته أولاً حب عاطفي لأحد الوالدين ، يعقبه كبت لهذا الحب .

لقد اقتصر معظم حديثي على دراسة التغيرات التي تحدث في علاقة الولد بأمه . غير أن حل عقدة أوديب يحدث أيضاً تحولاً في علاقة الولد بأبيه . فلقد كانت أحاسيس الولد نحو أبيه في المرحلة السابقة ، مزيجاً من الإعجاب الدليل به والخوف منه خوفاً شديداً لا شعورياً . أما في هذه السن فإنه يبدو في الظاهر وكأنه يتباعد عن أبيه ، يمثل ما يتباعد عن أمه ، متخلياً عن فكرة اتخاذه نموذجاً يقتديه في السلوك ، أو إثارة الجدل معه .

ولكننا عندما نتعمق في دراسة أحاسيس الولد ، نجد أنه قد نجح إلى حد بعيد في تقمص شخصية أبيه ، حتى إنه يحس الآن أنه قد أصبح رجلاً كبيراً مجرباً له كيانه الخاص . فهو لم يعد يحس بحاجة ماسة لأن يتطلع باستمرار إلى أبيه كي يرشده إلى السبيل السليم .

إن هذا التحول في شعور الولد نحو أبيه ، يذكرنا بالمثل القديم القائل : « إذا لم تستطع أن تتغلب على عدوك ، فحاول أن تنضم إليه » فهو من الآن فصاعداً سيكون في وضع يؤهله للاستمرار في عملية التعلم من أبيه ، ولكن بطريقة أكثر تمييزاً على أساس الند للند . كما أنه في نفس الوقت يزداد دراية بالعالم الخارجي ، كي يصبح صورة طبق الأصل من أبيه .

كذلك تتوصل البنت إلى حل عقدة أوديب عندها ، فتسكت رغبتها في امتلاك أبيها ، كي تقلل بذلك من شعورها غير المريح بالمنافسة مع أمها . كما يزداد

في هذه السن تقمصها لشخصية أمها ، وتتجه اهتماماتها إلى المسائل العامة في العالم الخارجي . غير أن هذا التحول في حالة البنت يكون بوجه عام أقل عنفاً وأقل شمولاً منه في حالة الولد ، فهي لا تضطر في العادة إلى انتهاج سبيل العناد والفوضى كأخيها . كما أن دراسة الرياضيات والميكانيكا والعلوم قد لا تستهويها مثلاً تستهويه . وبعبارة أخرى ، فإن البنت لا تحس مثل الولد أنها مضطرة إلى كبت مشاعرها الشخصية كبتاً عنيفاً ، وهذا يبدو واضحاً تماماً في قدرتها على الاستمرار في التعبير عن حبها نحو أبيها ، وتقبل حبه نحوها .

تكوين الضمير الحى عند الطفل

« يمكنك أن تلمس دلائل خفية فى الأعماق ، توحى
بأنه قد اكتسب نوعاً جديداً من تهذيب النفس » .

إن بعض الآباء الذين تنقصهم الخبرة ، قد يخيل إليهم أحياناً أن طفلهم الأول فى طريقه إلى الانحلال والضياع ، أثناء اجتيازه المرحلة ما بين سن السادسة والثانية عشرة . فهو يبدو لهم كما لو كان قد تخلى عن معظم آداب المائدة التى تعودها . ويحزن عن تمشيط شعره وغسل يديه والاستحمام . وغالباً ما يترك حجرته ويمتلكاته فى حالة فوضى شنيعة . وقد يستخدم أنفاظاً خشنة فى حديثه . ويميل فى أغلب الأحيان إلى الجدل ، ويتمادى فى الوقاحة أحياناً . وقد تتكون عنده عادات تبعث على الغيظ إلى حد يثير أعصاب والديه ، فيرجوانه أو يأمرانه بالكف عن هذه العادات السيئة ، لكنه ينسى دائماً .

هذه هى الصورة كما تبدو فى الظاهر . لكذلك لو تجملت بشيء من الصبر كي تتأمل ما يجرى فى أعماق الطفل ، فقد يمكنك أن تلمس فيه دلائل خفية توحى بأنه قد اكتسب نوعاً جديداً من تهذيب النفس . ولقد راقب علماء النفس عن كثب بعض الأحاديث التى تدور بين الأطفال فى سن السابعة أثناء فترة الفسحة مثلاً ، فوجدوا أنهم يقضون فترة مذهلة من الوقت فى مناقشة معايير السلوك السليم — من وجهة نظرهم الخاصة ، لا من وجهة نظر الكبار بطبيعة الحال — وأنهم ينتقدون زملاءهم الذين يشذون — فى رأيهم — عن السلوك السوى بأية صورة من الصور .

وفى اعتقادى أن هذا الاهتمام بالسلوك إنما هو أحد الأسباب التى تدفع الأطفال

إلى تكوين جمعيات سرية في هذه السن . فالكثير من الأولاد الذين يلعبون معاً لأنهم يشتركون في الآراء والاتجاهات ، يقررون على حين فجأة أن يضيفوا على هذا التضامن بينهم طابعاً رسمياً ، بأن يتخذوا لأنفسهم جميع المظاهر التي تحيط بأندية الرجال المحترمين ، بما في ذلك الاسم واللوائح والشارات ومجلس الإدارة . فارتباط الطفل أمام الناس بجماعة تتوسم في نفسها التفكير السليم ، يساعده على الشعور بالثقة بقدرته كفرد على التفكير الصائب . وقد يقنع أفراد هذه الجماعة أنفسهم بأنهم يتبعون المعايير السليمة في السلوك ، وذلك بأن يستبعدوا من بينهم في تباه ، أولئك الأولاد الذين يسلكون سلوكاً مختلفاً عنهم .

كما أن فكرة النادي تساعدهم بطريقة أخرى ؛ فالسرية التي تحيط به إنما هي عذر مشروع لإبعاد الآباء والمدرسين عن مجال نشاطهم . إذ كيف يمكنك أن تحس بأنك تضع لنفسك قواعد للسلوك ، إذا ظل الكبار يوالونك بالتوجيهات ، كما لو كنت أصغر من أن تدرك المعايير السليمة ؟

إن الألعاب التي تستهوى الأولاد بصورة متزايدة في هذه السن ، مثل لعبة الحجلة ولعبة تصويب الكرات إلى الشواخص الخشبية ، تبين لنا مدى قوة الحافز الذي يدفعهم إلى تهذيب أنفسهم . كما أن عملية تنمية المهارة في هذه الألعاب تستهويهم كهدف في حد ذاته . فلو أنك لم تر الأطفال بعينيك وهم يمارسون هذه الألعاب ، وإنما سمعت فقط أحد الأشخاص يصف لك مدى الجهد الشاق الذي يبذلونه في ممارستها ، ساعة بعد ساعة ، يوماً بعد يوم ، فقد يخيّل إليك أنهم لا يمارسونها بحافز من أنفسهم ، وإنما يفعلون ذلك تحت ضغط شديد من الكبار . على حين أن الآباء يضطرون في الواقع إلى انتزاع أطفالهم بالقوة من هذه الألعاب كي يتناولوا وجباتهم ، كما يضطر المدرسون إلى مراقبتهم مراقبة

دقيقة كي يمنعهم من إقامة مباريات تصويب الكرات فى دهاليز المدرسة .

وفى الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة يميل الأطفال — حتى أشدهم فوضى — إلى الترتيب والنظام فى بعض اللحظات ؛ فالطفل يحس على حين فجأة يحافز يدفعه إلى تنسيق كتبه الفكاهية ، فيجمعها من أركان الحجرة وقد علاها التراب ، ثم يجلس وسطها سعيداً لساعات طوال ، وهو يكدها أمامه حسب عناوينها وتواريخها . أو قد يقرر أن ينظم كل محتويات أدراج مكتبه . وهنا نجد أن التقارب النفسى بين الفوضى والنظام يبدو واضحاً فى السرور الذى يفره الطفل عندما يبدأ أولاً فى تفرغ محتويات كل « الأدراج » ويضعها فى كومة هائلة على الأرض فى وسط الحجرة . لكنه أحياناً يظل يكده تلالاً من ممتلكاته ، حتى إن حماسه تتبدد قبل أن يقطع شوطاً كبيراً فى تنسيقها ، فتضطرب أمه إلى إنجاز هذه المهمة بنفسها فى يأس وقنوط .

وفى هذه السن أيضاً تزدهر الرغبة فى تكوين المجموعات عند الطفل : مثل مجموعات الطوابع أو الأحجار أو الصور ، فتصبح متعته الرئيسية هى أن يحاول تكملة المجموعة وترتيبها حسب نظام معين . كما أن البنات اللأى يستمر اهتمامهن بالعراس إلى ما بعد سن السابعة أو الثامنة ، قد يجدن متعة أقل من ذى قبل فى تمثيل دور الأمهات مع العرائس ، أو فى جعل العرائس يمثلن أفراد الأسرة . وبدلاً من ذلك ، تصبح العرائس وثيابهن أشبه بالمجموعات عند البنات فى هذه المرحلة .



إن الطريقة التى يلاحظ بها الطفل إشارات حدود السرعة وعداد السرعة فى السيارة ، من بين المظاهر التى تدل على نمو وازع الضمير عنده ، والتى قد تثير غيظ

أبيه أثناء قيادته للسيارة . فالطفل لا يتردد في أن يقول لأبيه : « إنك تقود السيارة بسرعة ثمانية وثلاثين ميلا في الساعة مع أن حد السرعة هو خمسة وثلاثون ميلا » . على حين يحس الأب أنه ما دام هو الذي علم الطفل الفرق بين الصواب والخطأ ، فإن من واجب الطفل أن يسلم بلا جدال بأن تصرفات أبيه هي الصواب ، مهما تكن هذه التصرفات . إن هذا ما كان يحدث بالفعل في المرحلة السابقة من عمر الطفل ، ولكن الأمر يختلف بعد سن السابعة أو الثامنة . فالطفل الآن يتطلع إلى العالم الخارجى بحثاً عن القواعد السليمة في السلوك ، ويحاول أن يتغلب على انقياده السابق لأبيه بوصفه المرجع الأخير في كل الأمور . لذلك فإنه في مثل هذه المناسبات — كقيادة السيارة — يغمره شعور بالرضا حين يكتشف أن هذا الرجل — أباه — الذى كان فيما مضى يحسبه إلهاً في احترامه للقوانين ، هو في الواقع رجل يخالف القوانين . فمن جهة ازدياد قدرة الطفل على تهذيب نفسه ، نجد أن هذا الانتباه إلى حدود السرعة في قيادة السيارة ، ما هو إلا دلالة على الطريقة الحرفية التي ينظر بها إلى القواعد والقوانين . وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن هذه هي المرحلة التي يصبح فيها ضمير الفرد أكثر ما يكون تشدداً وصرامة ، إذ ليست هناك أنصاف حلول أمام الطفل في هذه السن ، فإما خطأ وإما صواباً .

هناك علامة أخرى من علامات تشدد الضمير ، ألا وهي شيوع ما يسميه الأطباء النفسانيون « الدوافع القهرية بين الأطفال » في هذه الفترة . وهذه الدوافع أشبه بالخرافات ، لكنها أكثر إقلاقاً للطفل وأكثر ذاتية من الخرافات . ومن أكثرها شيوعاً بين الأطفال في حوالى سن الثامنة والتاسعة والعاشر ، حركة تمخيط العقبات والشقوق في بلاط الطوار . فهم يفعلون هذه الحركة تلقائياً ، حتى ولو لم يكن قد سبق لهم أن رأوا أحداً غيرهم يقوم بها . ففي الماضي البعيد ،

قبل أن يوجد أطباء أو محللون نفسانيون بأمد طويل ، أدرك الأطفال معنى هذه العادة إدراكاً مبهماً ، وأطلقوا عليها قولاً مسجوعاً على سبيل الفكاهة : « إذا خطوت فوق شق ، تشق ظهر أمك » . وهذا القول إنما هو تعبير عن الفكرة التالية : « عند ما تفضب منى أمى ، ويخطر لى فى لحظة خاطفة أنى أتمنى لو أنها انزلت على قشرة موز ، فإنى عندئذ أحس إحساساً حاداً بالإثم ، بحيث يتحتم على أن أنحطى شقا فى الطريق ، كى أبطل مفعول هذه الرغبة الشريرة » . إن هذا الاتجاه يختلف تمام الاختلاف عن اتجاه طفل الرابعة الذى لا يحس بوخر الضمير على الإطلاق عند ما يصوب مسدسه « اللعبة » نحو أمه قائلاً لها فى مرح : « طاخ ، أنا ساميتك بالمسدس » .

كما أن ظهور وازع الضمير عند الطفل ، وارتباطه بالجهد العنيف الذى يبذله للحصول على مزيد من الاستقلال عن والديه ، يتضحان فى موقفه الجديد من الدين ، إذا كان قد شب فى أسرة متدينة . فهو فى الماضى ، عند ما كان فى الرابعة أو الخامسة من عمره ، كان يرى أن أباه يتطلع إلى الله بنفس الطريقة التى كان هو يتطلع بها إلى أبيه . بل ويمكنك القول بأنه كان يحس أنه يرتبط بالله عن طريق أبيه ، ويتقبل فكرة الله على الأساس الذى يمليه عليه والداه . ولكنه حين يبدأ فى التباعد عن والديه ، يأخذ فى مناقشة سلامة آرائهما وتصرفاتهما (على الأقل فى المسائل السطحية) ، ويتطلع إلى العالم الخارجى بحثاً عن سلطة جديدة يستلمها رأى السديد ، فمن الطبيعى جداً أن يجعل الله — إلى حد ما — محل أبيه بوصفه السلطة العليا والمرجع النهائى فى كل الأمور . لذا فإن حاجته النفسية لأن يحدد الفرق بين الخطأ والصواب تحديداً قاطعاً ، تجعله مستعداً ، بل سعيداً ، لأن يتقبل تعاليم الدين . وأنا لا أعنى بذلك أن الأطفال يكون لديهم فى هذه المرحلة إحساس عميق باتصالهم بالله اتصالاً شخصياً وثيقاً ، وإنما أقصد

أنهم في هذه السن يقدمون فروض الطاعة والولاء إلى الله ، كأفراد مستقلين لهم كيانهم الخاص .

* * *

ما هو المعنى الشامل لهذه المظاهر في النمو التي تتمثل في تطور مشاعر الحب ، والرغبة في وضع قواعد السلوك ، والاتجاه إلى تهذيب النفس ، ونمو رادع الضمير ، في الفترة ما بين السادسة والثانية عشرة من عمر الطفل ؟ لقد ناقشت في الأبواب السابقة موضوع النمو الانفعالي للطفل في المرحلة السالفة ما بين سن الثالثة والسادسة ، فبينت كيف ينمو عقله وشخصيته عن طريق تعلقه الشديد بوالديه ، وكيف تتكون مثله العليا عن الرجولة والأنوثة عن طريق اتخاذها قدوة له . غير أن هذه الروابط التي تشده إلى والديه ، لا بد وأن تنحل في نهاية الأمر ، إذا كان للطفل أن يستمر في عملية التكيف مع العالم الخارجي نكيفةً سليماً . وهذا يحدث أساساً نتيجة إحساس الطفل المتزايد بالمنافسة مع الوالد الذي من نفس جنسه . فالأخطار التي يتوهم أنها تحقيق به من جراء هذه المنافسة ، تجعله يقلع في النهاية عن الفكرة الوهمية التي توحى إليه بأنه يستطيع الاستئثار بالوالد الآخر على نحو ما . وبناء على ذلك فهو يكتب اهتماماته العاطفية والجنسية كتباً عتيقاً ، ويتحول في شيء من الارتياح إلى العالم الخارجي الأقل ذاتية ، فتستهويه المسائل المحرمة مثل الحساب والقراءة والميكانيكا والطبيعة الحية .

وإذا لم يكن بوسع الولد أن يتغلب على أبيه في مجال المنافسة ، فإن في وسعه أن ينضم إليه ، كما يمكن للبنات أن تنضم إلى أمها . غير أن الولد في هذه السن يكف عن محاولة التشبه بأبيه ، لأنه في قرارة نفسه يزداد اقتناعاً بأنه قد أصبح فعلاً رجلاً مستقلاً مجرباً مثل أبيه بالضبط . كذلك لا يعود راعباً في تقبل قواعد السلوك التي يرسمها له والداه ، بسبب حساسيته الشديدة وشعوره بالكبرياء من

ناحية استقلال شخصيته . ولكنه قد شب وفي نفسه إحساس بالخطأ والصواب ، ورغبة فى كسب رضا الناس ، لذلك فهو يجد نفسه مضطراً لملء الفراغ — الذى تركه والداه — بقواعد فى السلوك يستمدّها من مصدر آخر غيرهما . ومن ثم فهو يتطلع إلى تعاليم الدين ، ويتطلع إلى زملائه ومعلميه فى المدرسة ، كى يستلهم منهم هذه القواعد . إلا أن شعوره بعدم الارتياح لأنه قد بدأ يشق طريقه بنفسه من ناحية السلوك الأخلاقى ، يجعله يستجيب استجابة عمياء للنواحي التى يملئها عليه ضميره الساذج . أما السبب فى أن والديه لا يلمان ذلك الضمير الحى عنده ، فهو أنه كثيراً ما يبدى تمرده عليهما فى بعض المسائل السطحية ، مثل النظافة وآداب السلوك والواجبات اليومية .

إن الطفل فى الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، يبذل جهداً شاقاً بكل جدية ، كى يهيء نفسه للتكيف مع العالم الخارجى ، بأن يتعلم مهارات هذا العالم ، ويتبع نظمه وقوانينه ، ويتعاون مع مواطنيه . ومما يضاعف من مشقة هذه المهمة التى يقوم بها ، أنه مضطرب فى نفس الوقت للقيام بعمل إيجابى كى يحرر نفسه من سيطرة والديه . وهذه المحاولة لتحرير نفسه تسبب ألماً لها وله ، لأنه لم يبلغ بعد مبلغاً من النضج يؤهله للقيام بها فى رقة ولباقة . وإذا يجد نفسه مضطرباً لأن يقوم بها عن طريق مخالفتها فى رأى ، والجدل معها ، وإثارة غيظهما ، وهو يتبع هذا الأسلوب سواء حاول الوالدان أو لم يحاولا أن يبقياه معتمداً عليهما أكثر من اللازم . وبعبارة أخرى ، فإن هذا الاعتماد على الوالدين هو الشيء الذى يكافح الطفل أساساً من أجل التحرر منه .

استمرار حاجة الطفل إلى رقابة الوالدين

« يجب أن تتمسكى بقواعد السلوك التي تعتقدين أنها أساسية »

كيف يتسنى للوالدين معالجة المتاعب والمضايقات التي يثيرها الطفل في سنى المدرسة؟

إن مجرد تفهم ظروف الطفل والصبر على تصرفاته ليس فيهما الكفاية ، فهذا الأسلوب لن يؤدي إلى تحسن في سلوكه أو حانته المعنوية ، إذ ليس من مصلحته أن نطلق له الحرية في إثارة المتاعب كما يحلوه ، فضلاً عن أن هذا أمر لا يطيقه الوالدان . والواقع أنه ، كما تعلمون بكل تأكيد ، لا توجد وسيلة ناجعة لمعالجة هذه المشكلة .

فلقد شرحت في البابين السابقين بعض الصفات المميزة التي يتسم بها الطفل في الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ؛ فالطفل يحاول في هذه المرحلة أن يحقق ثلاثة تغييرات رئيسية في حياته ، وأن يحققها جميعاً في نفس الوقت :

١ — إنه يريد بكل جدية أن يندمج في العالم خارج محيط البيت ، وأن يقلد الأطفال الآخرين الذين هم في مثل سنه من بني جنسه .

٢ — إنه يريد أن يحصل على مزيد من الاستقلال عن والديه .

٣ — تلح عليه طبيعته أن يكرس جانباً كبيراً من طاقته لعملية تعلم المهارات ، وتنسيق الأشياء ، واحترام القوانين ، وتنمية الضمير .

ونحن عندما نعدد هذه الأهداف في هذه الكلمات الموجزة ، قد لا يبدو من العسير على الآباء والأمهات معالجتها . ولكنها في الواقع قد تصبح مصدر ضيق

شديد لهم ، لا سيما في حالة الولد ؛ فالأشياء التي يميل الولد إلى تقليدها من الأولاد الآخرين ، قد تتمثل في تويخه لثيابه ، وامتناعه عن الاستحمام والاغتسال ، وتخليه عن آداب المائدة ، واستعماله لغة السوق في الحديث ، ورغبته في الجدل ثم سلوكه لوقح في بعض الأحيان . كما أن رغبته الشديدة في اكتساب المهارات قد لا يكون لها وقع طيب في البيت ، لأنها تتمثل في أشياء مزعجة مثل العبث ببعض المواد الكيميائية التي تصدر رائحة كريهة أو تحدث انفجارات ، أو اللعب بالنحلة طوال اليوم . لذا فهو يحاول أن يتعلم معظم المهارات في المدرسة ولا يتحدث عنها في البيت . كذلك شعوره بالمتعة في التنظيم والتنسيق ، قد يبدو واضحاً في تكوين مجموعات المجلات الهزلية أو الحشرات ، أكثر مما يبدو في تنسيق مكتبته وأدراجة . كما أنه غالباً ما ينسى اتباع قواعد السلوك التي يلتقطها في حماسة من العالم الخارجي ويستغلها أحياناً في معارضة آراء والديه . أما بالنسبة لرادع الضمير عنده ، فإنه يبدو غالباً في تخطيه الشقوق أثناء سيره في الشارع ، أكثر مما يبدو في أدائه لواجباته اليومية .

إن التصرفات العديدة التي يدأب عليها أطفال هذه السن وتثير غيظ الوالدين ، قد تدفعك إلى التساؤل عما إذا كانوا يقومون بها عن عمد . لقد أثبتت بعض الاختبارات النفسية التي أجريت على مجموعة من الأطفال في سن السابعة ، أنهم يشعرون في أعماقهم بأن آباءهم وأمهم يضطهدونهم ، وأن حياتهم تخيم عليها التماسية . وما دام هؤلاء هم الآباء والأمهات أنفسهم الذين كان الأطفال يبجلونهم ويسعدون بصحبتهم في سن الثالثة والرابعة ، فلا بد إذن أن الأطفال هم الذين طرأ عليهم التغيير . وهذا يرجع في اعتقادي إلى أن تصميم الأطفال على الإنفال من اعتمادهم على آبائهم ، يخلف عندهم شعوراً بالعداء نحوهم . لكنهم في نفس الوقت لا يستطيعون أن يعترفوا بهذا الشعور ، لذا فهم يتوهمون أن آباءهم يتحكمون

فيهم ويكونون لهم العدا. ونفس هذا الشعور يمكنك أن تلمسيه إلى حد ما في الطفل ابن العام ، عند ما يحس لأول مرة أنه شخص منفصل عن والديه ، فيمارض أمه معارضة أو توماتيكية ، كما لو كان يتصيد موضوعاً يثير حوله الجدل . ويمكنك أيضاً أن تلمسيه بصورة أكثر تعقيداً في الحساسية المفرطة التي تبدو في حوالي سن الخامسة عشرة عند كثير من الأطفال ، الذين يشكون — في إجاباتهم على الاستفتاءات النفسية — من أن آباءهم لا يفهمونهم مطلقاً ، أو أنهم لا يعاملونهم معاملة عادلة . في حين أن غيرهم من المراهقين الأكبر أو الأصغر سناً ، لا يحسون هذا الشعور الحاد من ناحية معاملة آباءهم لهم .

ومن ثم فإنني أعتقد أن الطفل بين سن السادسة والثانية عشرة يحاول بالفعل أن يثير غيظ والديه في بعض الأحيان ، ولو أنه لا يدرك ذلك إدراكاً واعياً . فلا عجب إذن أن الوالدين اللذين اعتادا منه الإعجاب الشديد بهما في المرحلة السابقة من عمره ، يجدان أنه الآن قد أصبح طفلاً متنبهاً ، يبعث على الكدر ، ويميل إلى النفور .

ألا توجد أية حلول لهذه المشكلة ؟ في اعتقادي أن الوالد غير المحرب قد يجد شيئاً من العزاء إذا علم أن الاحتكاكات التي تنشأ بينه وبين طفله في سنى المدرسة ، لا تدل على أنه قد فقد تأثيره في طفله ، أو أن الطفل يعاني بعض المتاعب النفسية . فلو أن الوالد نظر إلى هذه الاتجاهات الجديدة في السلوك على أنها دلائل تنبئ بتقدم الطفل في عملية النمو الطويلة الشاقة ، فإنه في هذه الحالة — رغم عدم رضاه عن هذا السلوك — سوف يستطيع على الأقل أن يواجهه بابتسامة تدل على الفهم ، يتبادلها مع زوجته ، أو فيما بينه وبين نفسه . وبذلك سوف يقل شعوره بالتوتر في بعض المواقف بينه وبين الطفل ، مما يمنع حدوث الانفجار في كثير من الأحيان ، ويعود بالفائدة على جميع أفراد الأسرة .

ما هو الأسلوب الذى ينبغى أن ينتهجه الأب والأم فى معالجة أمور الطفل من ساعة إلى ساعة ومن يوم إلى يوم ؟ إن الآباء والأمهات الذين يحاولون مراعاة الطفل والصبر على تصرفاته أكثر مما ينبغى ، يجدون فى العادة أن هذا ليس هو الأسلوب السليم . فالطفل — شأنه شأن الكبار — عندما يجد أن أحداً لا يرغب فى وضع حدود لسلوكه ، يحس بالضيق وعدم الارتياح فى قرارة نفسه . فهو يشعر بأنه فى حاجة إلى شيء من السيطرة على تصرفاته . ويحتل فى هذه الحالة أن يكون رد الفعل عنده هو محاولته استفزاز المحيطين به كي يوجهوا إليه شيئاً من اللوم والتعنيف . ويتبدى فى سلوكه الاستفزازى أكثر فأكثر ، كما لو كان يقول: « إلى أى مدى ينبغى لى أن أسوء السلوك حتى توقفونى عند حدى ؟ » وهو بهذا الأسلوب يرغم أبويه على الانفجار فيه آخر الأمر . لكنهما إذا كانا من النوع الذى يؤمن بضرورة الاحتفاظ بطابع الرقة واللفظ مع الطفل فى جميع الظروف ، فإنهما سوف يشعران بموجة من الندم تحتاحهما بعد الانفجار مباشرة . ومن ثم فإنهما بطريقة أو بأخرى قد يميلان إلى الاعتذار للطفل ، مما يضع أثر التأديب والتقويم ، ويتيح له الفرصة لأن يعود إلى نفس السلوك مرة أخرى .

إن جميع الأسباب تدعونا إلى الاعتقاد بأن الطفل ، رغم شعوره الداخلى القوى بالصواب والخطأ ، فى حاجة إلى من يردعه عن الإيذاء والتخريب والوقاحة والعصيان المتعمد . وهو كذلك فى حاجة إلى أن يشعر بالتزامه نحو القيام بواجباته الروتينية ، ومد يد المعونة عندما يطلب إليه ذلك ، والحضور إلى البيت لتناول الوجبات فى مواعيدها . وفضلاً عن ذلك ، فإن على الوالدين — من أجل مصلحتهم ومصلحة طفلهم — أن يحملوا على اتباع أبسط قواعد السلوك من ناحية آداب المائدة ، والتأديب مع الناس ، والنظافة الشخصية ؛ لأنهما

إذا لم يفعل ذلك ، فسوف يتعذر عليهما احتمال تصرفاته ، مما سيؤدي إلى ازدياد ثورتهما عليه آخر الأمر .

* * *

قد يبدو من حديثي حتى الآن كما لو كنت أعترض على إعطاء الطفل أية مراعاة خاصة تتناسب مع سنه وطبيعته في هذه المرحلة . ومع ذلك فما زال هناك أمام الوالدين مجال منسج للراعاة الخاصة . فأكثر ما يثير استياء الطفل في هذه السن هو أن يتحدث إليه أحد في تعال ، بلهجة تنم عن اللوم والتعنيف . فهو في قرارة نفسه يتوق لأن يصبح رجلاً مجرباً له كرامته واحترامه . ويعتقد أنه قد قطع شوطاً كبيراً في طريق الرجولة . فإذا حاولت أمه أن تقوم سلوكه في لهجة توحى بأنه لا يفقه شيئاً من السلوك اللائق ، وأنه مجرد ولد صغير سيء السلوك ، فإن هذا الأسلوب يحطم الصورة التي يتخيلها عن نفسه ، مما يؤله أشد الألم .

ورغم ذلك ، فحتى لو توافرت عند الطفال أحسن النوايا ، لا بد من تنبيهه إلى قواعد السلوك في أغلب الأحيان كما تعلمين . لذلك أعتقد أن أول خطوة يجب عليك اتخاذها ، هي أن تضعي له بضع قواعد تعتقدين أنها أساسية ، مثل الاستحمام يومياً ، ووضع دراجته في الجراج بالليل ، وعدم ضرب المائدة بقدميه ، والذهاب إلى فراشه للنوم في الثامنة والنصف .

وعليك في جميع الظروف أن تتمسكي بالقواعد التي تضعينها له . فإذا تجاوز ميعاده قليلاً ، أو حاد عن النظام المرسوم ، فعليك أن تطلبي منه تنفيذ تعليماتك ، في لهجة حازمة ولكنك تنم عن الود والصدقة ، كما لو كنت تتحدثين إلى صديق محترم قد طلب إليك أن تذكره بواجبه . وفي هذه الحالة سينتظر الطفل لحظة

أخرى ليرى هل انتباهك سينصرف عنه أو لا ، ولكن لا تصرف انتباهك عنه حتى ينفذ أوامرك .

من البديهي أن العامل غير الواقعي في هذه النصيحة بشأن اتباع الحزم في لهجة ودية ، هو أن الأم لا تتمالك أن تثور ثائرتها ، بعد أن يستفزها الطفل ساعات طوالاً ، سواء أكان ذلك الاستفزاز بسيطاً أم عنيفاً . ولكن عليها أن تذكر نفسها ، مرة كل يوم على الأقل ، بأن بعض تصرفات الطفل ما هي إلا نوع من الاستفزاز لها . فإذا أمكنها أن تنظر إلى هذه التصرفات على أنها نوع من مباريات «المبارزة» بينها وبينه ، يحس فيها الطفل أنه مضطر إلى بدء المعركة ، فإنها في هذه الحالة بدلاً من أن تشعر بالحيرة والألم والثورة كلما استفزها الطفل ، سوف تشعر بنوع من الزهو بذكائها ، لأنها تتوقع هجماته عليها وتصدها في مهارة ، حتى تصل إلى هدفها في النهاية .

عندما اقترحت عليك أن تتمسكي ببعض قواعد السلوك التي تعتقدن أنها أساسية ، كنت أعني بذلك أن بوسعك في هذه الفترة أن تتفاوض عن القواعد الأقل أهمية . وهذا بالطبع يختلف كثيراً من أسرة إلى أسرة . فمثلاً عندما كان أطفالنا في مثل هذه السن ، اتفقت أنا وزوجتي على أن نتفاوض عن عادة ترك أربطة الأحذية مفكوكة (التي كانت رمزاً لاستقلال الشخصية عند أحدهم) وأن نتفاوض أيضاً عن ثيابهم المهوشة (إلا في بعض المناسبات) وعن عدم تسريح شعرهم (إلا في بداية اليوم) . كما كنا نتفاوض عن مطالبتهم دائماً بغسل أيديهم قبل الأكل ، إلا إذا كانت أيديهم قادرة بدرجة تصد النفس . لكنني من ناحية أخرى كنت دائماً أتبع معهم أسلوباً حازماً (بل وفي غاية الحزم كلما وسعني ذلك) بشأن نظافة الأظافر ، لإدراكى أنني لا أستطيع أن أصبر طويلاً على طفل أظافره قذرة .

كما أن الوالد الواعى يجب أن يراعى رغبة الطفل الجارفة فى أن يلبس مثل الأطفال الآخرين فى الحى ويقص شعره مثلهم ، حتى ولو كانت هذه الموضات لا تروق الوالد كثيراً . وأنا لا أعنى بذلك طبعاً أن الوالد ينبغى أن يشعر بأن من واجبه موافقة الطفل على أشياء لا تناسبه مطلقاً . وما هو جدير بالاعتبار أيضاً أن نسمح للطفل فى غالبية الحالات بامتلاك نفس الأشياء التى يمتلكها معظم أطفال الجيران ، على شرط أن تكون هذه الأشياء معقولة وفى حدود إمكانيات الأسرة . وليس معنى هذا أن ندع الطفل يشعر بأن فى إمكانه أن يطلب كل ما يملكه الأطفال الآخرون ويحصل عليه (إذ يحتمل جداً أن يغالى فى مطالبه) . وقد يكون من المناسب له فى بعض الأحيان أن يشتري ما تهفو اليه نفسه من مصروفه الخالص ، أو أن يقوم بعمل خاص يكسب منه مبلغاً إضافياً ، أو أن ينتظر حتى يحين موعد عيد ميلاده . لكنى أشير إلى أن الآباء والأمهات الذين يغالون فى انتقادهم لتفاهة المجلات الفكاهية أو اللعب المنتشرة بين الأطفال ، يجب أن يضعوا فى اعتبارهم لهفة الطفل على أن يجارى التيار السائد ، قبل أن يحكموا على هذه المجلات واللعب طبقاً لأذواقهم الخاصة .

* * *

إن الاقتراحات التى قدمتها إليكم حتى الآن ، ليست اقتراحات بناءة إلى حد بعيد ، فقد كنت أتحدث كما لو كان الطفل فى سن المدرسة يتخذ دائماً موقفاً هجومياً يؤكد به استقلاله عن والديه ، وكما لو كان أقصى ما يمكن أن يفعله الوالدان إزاءه هو أن يتبعاً معه أساليب ملتوية يتجنبان بها الشعور بالخيبة والألم . ولكن بوسع الآباء والأمهات ، إذا كانوا على قدر كبير من الباقية ، أن يقدموا للطفل شيئاً من المساعدة فى إشباع الحافز الغريزى الذى يدفعه لأن يصبح مواطناً مسؤولاً ، وذلك عن طريق تكليفه بأداء بعض المهام ، أو السماح له بأداء بعض

الأعمال (مثل توزيع الصحف) التي تكون على شيء من الصعوبة بحيث تتحدى قدرته ، لكنها في نفس الوقت لا تتطلب منه الكثير من النضج بحيث يعجز عن أدائها ، أو يؤديها تحت ضغط المناكفة المستمرة من جانب الوالدين . وبوسع الأب غير الجرب أن يستدير بنصيحة الآباء الآخرين الذين مروا بهذه التجربة ، أو يستعين بمدرس الطفل ، في اختيار أنواع المهام المناسبة للطفل . كما أن هذا الموضوع يصلح للمناقشة في مجلس الآباء والمعلمين بالمدرسة . لكنى أود أن أنصحكم ألا تتوقعوا من أغلبية الأطفال أن يثابروا في إخلاص على أداء عمل يستغرق وقتاً طويلاً أو يتطلب تكراراً مستمراً (مثل جرف الثلوج) ، مالم يشرف عليهم عن كذب أحد الكبار ممن تتوافر فيهم صفات القيادة .

إلا أنى أعتقد بوجه عام أن الآباء والأمهات لا تتاح لهم في هذه المرحلة فرص كثيرة تمكنهم من صقل سلوك الطفل وصياغة اهتماماته — بطريقة إيجابية ومباشرة — مثلما كانوا يفعلون في المرحلة السابقة ، التي كان الطفل يتلهف فيها على تقليد نماذج سلوكهم . لذا فإن مهمتهم — من زاوية معينة — تتركز الآن أساساً في عملية ضبط الطفل ومنعه من الارتداد إلى الخلف . ويجب أن يعتمدوا على الطفل في القيام بالجانب الأكبر من عملية نضجه ، فهو سوف يستفيد من المثل العليا التي تعلمها منهم في المرحلة السابقة ، ومن الخبرات التي يكتسبها من أطفال الجيران ، ومن المدرسة ، وغيرها من الجماعات .

٧

توتراث مرحلة المراهقة

حاجة المراهقين إلى التوجيه

« لا يظل المراهقون في حاجة إلى التوجيه فحسب ، بل إنهم يرغبون فيه »

منذ بضع سنوات جاءت إلى عيادتي أم وابنتها البالغة خمسة عشر عاماً . ولم أكن أعرفهما من قبل ، أو أعرف شيئاً عن طبيعة المشكلة التي جاءتا من أجلها . ويعد أن تعارفنا ، طلبت من البنت أن تدخل إلى حجرتي أولاً .

فالبنّت أو الولد في هذه المرحلة من حياته ، يشعر شعوراً حاداً بأنه قد أصبح إنساناً كبيراً ناضجاً ، ويتلهف على أن يعتبره الناس شخصاً مستقلاً له كيانه الخاص ، ويتضجر من اعتباره مجرد طفل ينتمي إلى شخص ما . وهو يقدر اعتراف الناس به على أنه صاحب الشأن ، عند زيارته للطبيب ، أو شرائه بعض الحاجات من السوق ، أو عند مقابلته لمسجل الكلية . وإذا كانت زيارة الطبيب متعلقة بالخلافات الناشئة بينه وبين أبيه أو أمه ، فإنه يتكدر أشد الكدر ، إذا دعا الطبيب الأب أو الأم لمقابلته أولاً ، لأنه قد يتوهم أن والده سيلقى عليه معظم اللوم ، وأن الطبيب سيأخذ وجهة نظر الوالد على علاقتها بلا جدال . فالكبار — برغم كل شيء — يبدون في العادة وكأنهم يساندون بعضهم بعضاً ، ويصدقون كلام بعضهم بعضاً في المسائل المتعلقة بالأطفال .

وسألت البنت عن مشكلتها فقالت إن والديها لا يدعانها تتمتع بالاستقلال مثل غيرها من البنات اللاتي في مثل سنّها . وقد انصبت شكواها على أن والديها لا يسمحان لها بالذهاب إلى مباريات كرة القدم مع زميلاتّها ، أو بحضور حفلات السمر التي تقام مساء الجمعة في المدرسة الثانوية . وتحدثنا فترة من الزمن عن

المدرسة ، والأصدقاء ، والهوايات ، والحياة في البيت . ثم قلت لها إني أود التحدث إلى أمها أيضاً على انفراد .

وعندما سألت الأم عن المشكلة ، أجابت بأنها قد انزعجت هي وزوجها على ابنتهما ، لأنها بدأت تخطو على نفسها شيئاً فشيئاً ، وتنتحل مختلف الأعذار للتباعد عن صديقة صديقاتها . وقد ذكرت لي الأم على سبيل المثال أن ابنتها لم تعد ترغب في حضور مباريات كرة القدم وحفلات السمر ، رغم أن والديها يحنانها ويحاولان إغراءها بحضورها ، بل ويرتبان لها سرّاً بعض الدعوات لحضور الحفلات مع زميلاتهن بالمدرسة .

لم أكد أصدق أذني في بادئ الأمر . فرغم أني كنت أعلم جيداً أن أفراد الأسرة الواحدة غالباً ما يصورون المشكلة تصويراً مختلفاً في حالة المنازعات العائلية ، إلا أنه لم يحدث قط من قبل أني سمعت اثنتين من أسرة واحدة يعبران عن جوهر المشكلة هذا التعبير المتناقض تمام التناقض . ثم حدث — في خلال شهرين من سماعي لهذه المشكلة — أن تحدثت إلى أفراد أسرة أخرى ، كانت فيها الابنة المراهقة تشكو من الشكوى من أن والديها يمنعانها من أداء نفس الأشياء التي علمت منهما أنهما يحاولان إقناعها بأدائها . فأدركت حينئذ أني لم أكن في حلم في المرة الأولى ، بل إن هناك ظاهرة ما لها دلالة عامة في حالة المراهقين .

وأنا لا أعني بذلك أن هاتين البنتين صاحبتى المشكلة تمثلان السلوك العادي للمراهقين ، أو أنه لا توجد مشكلة خطيرة في حالتهما . فعندما يبدأ أحد المراهقين (أو أى شخص في أية مرحلة من العمر) في تجنب أصدقائه القدامى والابتعاد عن مجالات نشاطه القديمة ، فإن هذا السلوك منه يدل على أنه يرفض تحت وطأة توتر نفسي عنيف ، وأنه في حاجة إلى المساعدة من الإخصائي النفسي .

ولكنى أدركت من خلال هاتين الحالتين الحادثتين ، أن المراهق — حتى في الظروف العائلية العادية — غالباً ما يشكو ثائراً من أن والديه لا يمنحانه القدر الكافي من الحرية أو الحقوق ، في حين يتضح من البحث الدقيق غير المتحيز أنهما لا يقيدان حريته بالقدر الذى يشعر به . حقيقة أن الآباء يجب أن يؤدوا دورهم كأباء حتى بالنسبة لأبنائهم المراهقين ، فإزال من واجبهم أن يضعوا حدوداً معقولة لسلوكهم ، لأنهم يريدون إبداءهم ، بل لأنهم يحبونهم ويدركون نقص خبرتهم ، ويرغبون في حمايتهم من الأذى ومن نقد الجيران لهم . وحقيقة أيضاً أن كل المراهقين يحتاجون أحياناً على الحدود المرسومة لهم ، حتى تلك الحدود التى يدركون أنها معقولة في دخيلة نفوسهم ، غير أن الآباء والأمهات — لأنهم بشر — يخطئون في أحكامهم أحياناً ، فيعمدون في بعض المواقف إلى الصرامة أكثر من اللازم أو أكثر من المألوف في المنطقة التى يعيشون فيها (الأمر الذى يعطى الطفل العذر في إبداء سخطه وتدمره) ، على حين يميلون في مواقف أخرى إلى التساهل أكثر من المعقول (الأمر الذى يعطى الطفل سابقة يستند إليها في مجادلاته في بعض المواقف المشابهة مستقبلاً) .

* * *

لكننا حتى لو وضعنا في اعتبارنا جميع نواحي الضعف في الطبيعة البشرية — عند الآباء والمراهقين على السواء — فإن هذا لن يبين لنا السبب في ثورة المراهق على والديه بلا مسوغ في بعض الأحيان . على أن هناك في رأي سببين بالذات لهذه الظاهرة : أولهما شعور المراهق بالاعتماد على والديه ، وثانيهما عدم ثقته بقدرته على أداء دور الإنسان الكبير الناضج .

إننا في العادة ننظر إلى الأطفال الأصغر سناً على أنهم يعتمدون على آبائهم

وأمهاتهم ، ويهرعون إليهم عندما يصيبهم أذى أو يقعون في مأزق أو يحتاجون إلى أى نوع من المساعدة ، وأنهم يتقبلون في المسائل الهامة قواعد ومعايير السلوك التى يرسمها لهم آبائهم ، ولا يجادلونهم إلا في بعض القواعد الثانوية مثل موعد النوم أو نوع الثياب . لكننا من ناحية أخرى ننظر إلى المراهقين على أنهم يلحون دائماً في طلب الاستقلال عن آبائهم . وبالتدريج نفقن كآباء — تحت ضغط إلحاحهم — بأنهم قد هيأوا أنفسهم لهذا الاستقلال ، وأنهم أهل له ؛ ذلك أن طرقهم المستمر في مجادلاتهم معنا على ناحية واحدة هي الاستقلال عنا ، يجعلنا ننسى أنهم في دخائل أنفسهم لا يستقرون على رأى واحد بشأن استعدادهم لممارسة الحرية . والواقع أن اقترابهم من مرحلة الاستقلال يبدو في بعض الأحيان كما لو كان يثير فيهم شعوراً بالخوف ، يدفعهم إلى نوبات من التواكل قد لا تبدر من طفل في الثامنة أو العاشرة من عمره .

ومن البديهي أن المراهقين لا يعترفون — قط سواء لأنفسهم أو لآبائهم — بهذه الرغبة في الاعتماد والتواكل . لكنهم يظهرون حاجتهم إلى هذا الاعتماد بطريقة غير مباشرة . وأذكر الآن غلاماً كان في السادسة عشرة من سنه يعلن دائماً أنه قد بلغ من السن ما يؤهله لأن يعنى بأمر نفسه على الوجه الأكمل ، لكنه رغم ذلك كان يغضب ويتألم إذا وجد في بعض الأحيان أن أمه لم تعد له السند وتشت وكوب اللبن والحلوى على المائدة ، عند عودته إلى البيت لتناول طعام الغداء . وهناك مراهق آخر يفترض — كقضية مسلم بها — أن والديه يجب أن يتوقعا احتياجه إلى السيارة في مساء يوم معين ، رغم أنه ينسى إخطارها بالموعد مقدماً . وهناك أيضاً فتاة قد يحز في نفسها أن أمها لا تتخلى عن جميع أعمالها الأخرى ، كي تؤدي لها مهمة عاجلة في تنسيق ثيابها ، عندما تكون على موعد مع بعض

صديقاتها . إن مثل هذه الأشياء تحدث دائماً ، حتى ولو كان المراهق شخصاً متعاوناً يعتمد على نفسه في العادة ، ذلك أن مطالبة المراهق بالاستقلال ، التي تبدو في الظاهر وكأنها مطلبه الوحيد في الحياة ، ما هي في الواقع إلا تعبير عن تردده العنيف بين ذلك المطلب وبين حنينه لأن يعنى به والداه مثل الأطفال الصغار .

وليس من العسير علينا أن نفهم الشكوك الدفينة التي تفتاب المراهق بشأن قدرته على أداء دور الإنسان الناضج في الحياة ، لو أننا تريننا للتأمل الأمر بـ رهة ، أولو أننا عدنا بالذاكرة إلى أيام شبابتنا . فالمرهقون ، أولاً وقبل كل شيء ، يرغبون رغبة جارفة في أن يحدثوا أثراً طيباً في الناس . فهم في هذه المرحلة يفقدون القدرة على أن يأخذوا ذواتهم على علاتها ، تلك القدرة التي تجعل الأطفال الأصغر سناً أقل إحساساً بذواتهم بالنسبة للمراهقين . وستمر أعوام عديدة قبل أن يبلغ هؤلاء المراهقون مرحلة الرشد ، التي لا يؤرقهم فيها القلق معظم الوقت ، بشأن رأى الناس فيهم (إن كان للناس رأى فيهم على الإطلاق) .

ويحب المراهقون أن تتوافر لديهم جميع الميزات التي يعتبرونها مثالية في هذه المرحلة ؛ كالشخصية الجذابة ، وسعة الاطلاع ، والتحذلق ، والمهارة في مختلف مجالات النشاط . فهم لم يدركوا بعد ، كما يدرك معظمنا نحن الكبار ، أن في هذا العالم متسعاً لعشرات الأنواع المختلفة من الناس ، وأن كل واحد منا يستطيع أن يتقدم في ميدان الحياة ، ويجد لنفسه أصدقاء يعتزون به ، رغم العيوب الكثيرة التي توجد فينا جميعاً .

فهم قد أحسوا حديثاً هذا الإحساس الحاد بمثلهم العليا ، ولم يتح لهم الوقت الكافي لتطبيقها تطبيقاً عملياً ، لذا نجدهم يتظاهرون بالعلم والمعرفة ، مع أنهم

يفتقرون تماماً إلى العلم والمعرفة . كما يصعب عليهم مواجهة مشاعرهم الجديدة الدافقة عن طريق الجدل والتحدلق . وتنمو أجسامهم بسرعة فائقة ، بحيث يتعذر عليهم الاحتفاظ برشاقتهم ، وتلتهب بشرتهم من جراء الاضطرابات الجلدية ، في الوقت الذي يحرصون فيه أشد الحرص على أن تكون بشرتهم في أحسن حالاتها . ويفاجئهم الشعور الجنسي في قوة عارمة ، بحيث يصعب عليهم الملاءمة بينه وبين الأسلوب العام في الحياة . ولذلك يصبح هذا الشعور الجنسي مصدراً للحرز والكآبة بقدر ما هو مصدر للبهجة والنشوة . فالمرهق يسائل نفسه دائماً : « كيف يمكنني أن أجتذب الفتاة التي تستهويني من الجنس الآخر ، وكيف أتصرف عندما تبدى اهتماماً بي ؟ » . من السهل عليه أن يتخيل في أحلام اليقظة أنه قادر على مواجهة هذه المواقف مع الجنس الآخر بمنتهى المهارة وذلاقة اللسان ، غير أنه يضطرب اضطراباً شديداً عندما يواجهها بالفعل في عالم الواقع . وبالنسبة لطفل خجول في بداية مرحلة المراهقة ، فإن السؤال عما إذا كان يحاول أن يمسك يد صديقته أثناء نزهاته معها ، قد يطغى على تفكيره ويشغل باله طوال الليل ، بل إن السؤال عن كيفية شغل الوقت بالحديث معها قد يزيد من حيرته وبلبلة خاطره .

~ * ~

أقد أبرزت فيما سبق ناحية القلق في طبيعة المراهق ، وما هي إلا وجه واحد من الصورة . فبعض الأطفال الحظوظين يتمكنون من اجتياز مرحلة المراهقة بأكملها دون أن يواجهوا سوى القليل من التيارات العاصفة (كما يمكنكم أن تتخيلوا ، لقد عانيت أنا نفسي الأمرين أثناء اجتيازي لهذه المرحلة) .

ولقد ركزت اهتمامي على قلق المراهق وخوفه من أن يعجز عن أداء دور

الإنسان الناضج في الحياة ، وعلى الرغبة الدفينة التي تراوده أحياناً في أن يظل تحت رعاية والديه ، لأن هذين العاملين معاً يساعدان على توضيح السبب في شكوى المراهق بلا مبرر من أن والديه لا يمنحانه الحرية الكافية . فالواقع أن هذه اللحظات — لحظات الشكوى والتذمر — هي التي تكون فيها المراهقة أو المراهق خائفاً من فكرة الحرية أو من بعض مظاهر الحرية (مثل الفتاة التي تخشى ارتياد حفلات السمر) . ولكنه بلا شك لا يستطيع الاعتراف بهذا الخوف للناس ، وأولهم نفسه ؛ لأن في ذلك الاعتراف تخلياً عن كل المبادئ التي يدافع عنها . غير أنه في عقله الباطن لا يستطيع الهروب من الإحساس بالخجل من تهيبه وعجزه . وهذا الإحساس يثير تأثيره ، فتراوده رغبة ملحة في أن يصب جام غضبه على شخص ما . ويسائل نفسه عن يحاول تقييد حريته وربطه بالديه ، فيخيل إليه أن والديه هما اللذان يعلان ذلك بلا أدنى شك . ولكي يثبت لنفسه صحة هذا الرأي فإنه قد يطلب منهما مطلباً غير معقول ، فإذا ما رفضا الاستجابة لهذا المطلب ، انهال عليهما باللوم بكل ما وسعه من سخط وغضب .

ما الحل إذن ؟ من المفيد للآباء أن يدركوا أن هذا اللوم الذي ليس له ما يسوغه ، إنما هو صورة من صور الاحتجاج المتطرف لدى المراهقين . وبناء على ذلك يمكن للآباء أن يتمسكوا بقواعد السلوك المعقولة ، دون أن يسائلوا أنفسهم ، كلما ثار عليهم طفلهم المراهق ، عما إذا كانوا عادلين في معاملته أم لا . ومن المفيد لهم أيضاً أن يدركوا أن المراهقين ليسوا فقط في حاجة إلى التوجيه المعقول ، بل إنهم يرغبون فيه بالفعل . ورغم أنهم لا يصرحون بهذه الرغبة لآبائهم وأمهاتهم ، فإنهم يصرحون بها أحياناً لمن يثقون بهم من مدرسيهم بالمدرسة ، أو للطبيب النفسي في العيادات النفسية . ولقد سمعت بعض الفتيات يقلن : « كم أود لو أن أمي وضعت لي قواعد محددة أسير عليها ، مثلما تفعل أمهات صديقاتي » ذلك

لأن المراهقين يحسون أنهم ما زالوا يفتقرون إلى النضج . ويحسون أن معايير السلوك السليم تضيف على الحياة عزة وكرامة ، وأن اتباع القواعد والقوانين يريح الإنسان في حياته . بل إنهم يحسون أيضاً أن سيطرة آبائهم وأمهاتهم عليهم بدرجة معقولة ، إنما هي مظهر من مظاهر الحب الأبوى ، ويشعرون بأنهم مهملون في حالة عدم وجود هذه السيطرة من جانب الآباء والأمهات .

عبادة الأبطال عند المراهقين

« لاداعي لأن يئس الآباء »

يثير المراهقون قلق آبائهم وأمهاتهم من نواح شتى . والفاحية التي أريد أن أتناولها في هذا الباب هي ذلك التعلق الواله الذي تبديه ملايين الفتيات نحو أحد المطربين أو نجوم السينما . ويعتقد بعض الآباء في كل عقد من الزمان أن هذه محنة جديدة حلت بأطفالهم ، ويسائلون أنفسهم عما حدث للجيل الجديد . غير أن هذا النوع من العشق الجماعي لأحد النجوم كان يحدث بين الفينة والفينة منذ أعوام عديدة . وأظن أنه في الأجيال الماضية — قبل ظهور التليفزيون والراديو والسينما والاسطوانات — لم تكن الظروف تساعد على تفشي هذه الظاهرة في شتى أنحاء البلاد . ومع ذلك فقد كان بعض معبودى الجماهير من نجوم المسرح يثيرون نفس النوع من التحمس المتهوس في المدن الكبرى .

ويصاب الكبار بالذهول حين يقرأون في الصحف عن الصفوف المترامية من المراهقين الذين يقفون ساعات وساعات خارج المسرح في انتظار وصول نجمهم المحبوب ، ثم يستقبلونه كلما ظهر على خشبة المسرح بعاصفة مدوية من التصفيق . كما ينزعج الكبار حين يسمعون عن الفتيات اللاتي يتأوهن وبنشجن بالبكاء ويُغشى عليهن من شدة ولهن بالنجم المعبود . وإذا تصادف أن رأى الكبار أنفسهم عرضاً لهذا النجم في أحد أفلام السينما أو التليفزيون ، فإنهم في بعض الحالات قد يبدون امتعاضهم الشديد منه . بل لقد استبد الغضب والانزعاج ببعض المسؤولين وغيرهم من الجماعات في إحدى المدن ، لدرجة أنهم حاولوا منع أحد النجوم من الجيء إلى مدينتهم .

إن بعض مظاهر المراهقة تساعد على تفسير هذه الظاهرة . لكننى أود أن أتحدث أولاً عن النمو الانفعالي والجنسى عند الأطفال بصفة عامة ، لاسيما عند الصبيان (لأنى أذكر مشكلاتهم تماماً) . على أن أعود إلى الحديث عن البنات فيما بعد .

* * *

فى الفترة ما بين سن الثالثة والخامسة ، يحتاز الأولاد والبنات مرحلة من مراحل النمو الانفعالي ، تتسم بالاهتمام الكبير بالجنس والعاطفة ، على مستوى طفلى . . فهم فى هذه المرحلة يحبون أن يمثلوا فى لعبهم دور الأب والأم ، ويتظاهروا برعاية أطفالهم الوهميين ، ويتولد عند الأولاد تعلق عاطفى شديد بأمهاتهم ، حتى إنهم غالباً ما يتحدثون عن الزواج منهم . كما أن البنات السويات يتربى عندهن نفس هذا الشعور نحو آبائهن . وفى هذه السن أيضاً قد ينغمس الأولاد والبنات فى اللعب الجنسى بعضهم مع البعض ، أو فيما بينهم وبين أنفسهم .

وقد أدر كنا من الدراسات النفسية أن الأطفال عندما يناهزون الخامسة أو السادسة ، يستولى عليهم شىء من الشعور بالقلق والشعور بالذنب بشأن اهتماماتهم الجنسية ، وذلك بسبب استنكار آبائهم للعب الجنسى من ناحية ، وبسبب شعورهم بالمنافسة مع آبائهم من ناحية أخرى ، ومن ناحية ثالثة بسبب فهمهم الخطأ لمعنى الاختلاف الجسماني بين الأولاد والبنات . وقد ناقشت هذه المسألة المعقدة بالتفصيل فى الجزء الخاص بـ « الارتباطات ومظاهر القلق فى الفترة ما بين سن الثالثة والسادسة » . المهم أن الأطفال يشتهون إلى الاعتقاد بأن الجنس — إلى حد ما — شىء قبيح مخوف بالمخاطر ، فيبدلون جهوداً عنيفة لكبت اهتمامهم بالجنس . وتستمر هذه الفترة من الكبت العنيف من حوالى سن السادسة حتى بدء مرحلة البلوغ ، التى تبدأ فى سن الحادية عشرة عند البنات العادية ،

وفي الثالثة عشرة عند الغلام العادى . وينجح الأطفال فى كبت مشاعرهم الجنسية أثناء هذه الفترة ، لدرجة أن معظم الأولاد فى سن التاسعة أو العاشرة يجاهرون دائماً بأن البنات مخلوقات سخيفة غبية تبعث على الغيظ والنفور . وتقابلهن البنات بالمثل ، فيجمعن على أن الأولاد يتسمون بالخشونة والرغبة فى الإيذاء لدرجة غير معقولة ، وهذا صحيح فى حالة معظم الأولاد بالفعل . (من البديهي أن إصرار كل جنس على احتقار الجنس الآخر ، ومحاولتهم إغاطة بعضهم البعض فى هذه السن ، إنما يدل على أنهم مازالوا فى دخيلة أنفسهم يهتمون اهتماماً كبيراً كل جنس بالآخر) .

بيد أن التغيرات التى تطرأ على الغدد فى مرحلة البلوغ ، تحدث يقظة عنيفة فى أحاسيس الطفل الذاتية والجنسية ، وتقاوم عادة الكبت الجنسي الراسخة فى أعماقه . لذا فإن الطفل غالباً ما يجهل حقيقة مشاعره الجديدة فى بادئ الأمر ، ويستمر فى محاولة تجاهلها بعض الوقت ، لكننا عرفنا ، عن طريق التحليل النفسى ، أن المراهق يدرك هذه المشاعر إدراكاً جزئياً فى عقله الباطن ، ولو أنه يعجز إلى حد بعيد عن إدراكها بعقله الواعى . لأن إدراكه الواعى لها يظل غامضاً ومهوشاً من جراء توتر أحاسيسه ، التى يختلط فيها الانفعال المثير مع الكبت والشعور بالذنب . وهذا هو السبب فى أن الجنس إجمالاً يكون باعثاً على عدم الارتياح أكثر منه باعثاً على السرور والمتعة فى المراحل الأولى من المراهقة .

وهناك عدة اتجاهات مختلفة ، تبرز بعضها مع بعض فى النهاية ، لتخلق الحب العاطفى الناضج ، وهى الرغبة فى مصاحبة الجنس الآخر ، والرغبة فى حمايته من الأذى ، والشعور بالبهجة عند رسم خطة المستقبل معه ، فضلاً عن الجاذبية الجنسية . غير أن هذه الاتجاهات لا تنضج جميعاً بنفس السرعة عند المراهق الصغير ، كما أنها لا تبرز بعضها مع بعض فى سهولة ويسر . لذا نجد أن رغبته

في المصاحبة تتجه إلى إحدى الفتيات ، على حين تتجه رغبته في إظهار شهامته إلى فتاة أخرى ، على حين تتجه رغبته الجنسية إلى فتاة ثالثة .

على أن كثيرين من الأولاد قد تكونَ عندهم اعتقاد قوى بأن الجنس شيء شائن يقنأى مع الأدب ، لدرجة أنهم في بداية مرحلة المراهقة يعجزون عن الشعور بأية رغبة جنسية نحو الفتيات « المبهذبات » اللاتي يشعرون نحوهن بالاحترام والحنان . ولا يمكنهم التجاوب جنسياً إلا مع الفتيات اللاتي تبدو عليهن الخلاعة وسوء السلوك . كما أن تقسيم شعور الحب إلى قسمين على هذا النحو ، وتقسيم الجنس الآخر إلى نوعين ، يظهر أيضاً بدرجات متفاوتة عند كثير من الفتيات في بداية المراهقة . (في بضع حالات فردية من الجنسين يستمر هذا الاتجاه حتى مرحلة الرشد ، فيؤدى بطبيعة الحال إلى مشكلات خطيرة في الحياة الزوجية) .

ويحصل المراهق على النضج الجنسي بالتدريج ، عن طريق تعوده شيئاً فشيئاً على ذاتيته الجديدة ، وكذلك عن طريق اهتمامه العاطفي بعدد من الفتيات واحدة بعد الأخرى . وهو عن طريق اتصاله بهن لا يكتسب معرفة بجنس البنات فحسب ، بل يكتسب معرفة بنفسه أيضاً .

والواقع أن أفوى مشاعر الإعجاب عند الغلام في مستهل مرحلة البلوغ ، قد لا تتجه إلى الفتيات — فمن ما زلن من الممنوعات بالنسبة إليه — وإنما تتجه إلى أحد المدرسين من الرجال أو إلى مدرب الرياضة أو أحد الأبطال . كما أن كثيرات من الفتيات في هذه المرحلة يبدين إعجاباً جارفاً ببعض الشخصيات النسائية اللامعة . أما عندما تواتى غلام الشجاعة لأن يفكر في الفتيات تفكيراً عاطفياً ، فإنه قد يجد من الأسلم له أن يستغرق في حلم من أحلام اليقظة ، يتخيل فيه مغامرة عاطفية بينه وبين نجمة من نجوم السينما ، التي تفصله عنها مسافات بعيدة ،

ذلك أسلم بالنسبة إليه من التفكير فى فتاة من أهل بلده قد يصادفها فى الطريق بعد ساعة . وحتى بعد أن يدرك أنه مهم بإحدى الفتيات من أهل الجيرة ، فإنه قد يظل شهوراً عديدة قانعاً بمجرد التفكير فيها ، دون أن يقوم بأى عمل إيجابى للتحدث إليها أو إظهار شعوره نحوها .

واختيار المراهق لحبيبته الأولى ، قد يثير حيرة أسرته وأصدقائه ، فهم قد لا يلمسون أى ميول مشتركة بينه وبينها ، يمكن على أساسها أن تنشأ علاقة الحب . على أن ميوله نحو الفتيات قد تصبح أكثر واقعية ، ولها صفة الدوام بمرور الزمن . ومع ذلك فسوف تمر سنوات عديدة قبل أن يصبح مستعداً للتعرف على الفتاة التى تصلح زوجة له مدى الحياة ، وحينئذ سوف يمكنه أن يقدم إليها ذلك المزيج المتجانس من الاتجاهات الناضجة التى ستؤهلها لأن يكون زوجاً صالحاً لها .

ربما تعتقدون أنى أغالى فى هذه الصورة التى رسمتها لكم عن الخجل والارتباك عند المراهقين . حقيقة أن هناك بعض الأولاد والبنات الذين يعرفون كيف يتعاملون بمنتهى اللباقة وطلاقة اللسان مع الجنس الآخر ، حتى منذ بداية مرحلة المراهقة . (والواقع أن هناك عدداً قليلاً من الأطفال ، ممن نشأوا تنشئة متحررة ، لا يتربى عندهم قط أى رادع جنسى ، حتى أثناء الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة) . لكنى أعتقد رغم ذلك أن بعض المراهقين الصغار يتقنون التمثيل ، فيتظاهرون بالتجذلق وذلاقة اللسان ، مع أنهم فى الحقيقة أقل ثقة بأنفسهم مما يبدو عليهم . غير أنهم إذ ينجحون فى هذا الادعاء الخادع يكتسبون ثقة حقيقية بأنفسهم . أما المراهقون الذين يتسمون بالهيبه والخجل ، فإنهم لا يعرفون كيف يستغلون الفرص التى يمكن أن تعطيهم مزيداً من الثقة بأنفسهم .

وإذا كنت قد أعطيتكم صورة غير متوازنة عن هذه المشكلة ، بأن ركزت اهتمامي على ذلك النوع من المراهقين الصغار الذى يعانى من الكبت أكثر من غيره ، فإن النقط التى ذكرتها فيما سلف تنطبق — إلى حد ما — على كل مراهق سوى .

* * *

يمكننا الآن أن نعود إلى مشكلة استجابة الفتيات فى مستهل مرحلة المراهقة لأغاني الحب والغرام ، وغيرها من عوامل الإغراء فى المطربين ونجوم الساعة . من البديهي أن الشخصيات التى تستهوى الفتيات تختلف باختلاف شخصية الفتاة نفسها . غير أن هناك أيضاً عنصر « الموضة السائدة » التى تجعل نموذجاً معيناً من النجوم موضع إعجاب الفتيات لبضع سنوات ، ثم يأتى نموذج آخر وهكذا ، تماماً مثل موضة الثياب ؛ وهناك نماذج مختلفة من الرجال الذين تعبدتهم الفتيات ، منها الرجل القوى الصامت ، والفتى السليم البنية ، والشاب الصاب الخشن ، والشاب الحالم الوهان الذى يبدو أنه فى حاجة إلى حنان الأم ، والشاب الملتهب جنسياً . وأياً كان نوع النموذج ، فإن ميزة هذه النماذج جميعاً هى أن الفتاة يمكنها أن تحلم بنجمها المعبود على هواها ، دون أن تضطر إلى مواجهته أو التعامل معه فى يوم من الأيام . فهى تستطيع فى خيالها أن تتحدث إليها أو يفعل معها أى شئ تشتهي نفسها ، ويمكنها أيضاً أن تتخيل أنه لا يستطيع مقاومة سحرها عليه ؛ إذ ليس هناك أى احتمال فى هذه الحالة أن يصددها عنه ، لأنها ليست جذابة ، أو لأنها معقودة اللسان ، أو لأنه صعب المراس . (لقد حدث فى عام ١٩٢٤ أثناء رحلة قمت بها إلى الخارج مع فريق الرياضة بالسككية ، أنى تمكنت أنا وبعض أصدقائى من التعرف إلى « جلوريا سوانسن » ملكة السينما المتوجة فى ذلك الحين . غير أنى أثناء رقصى معها فى حلبة الرقص على

سطح عابرة المحيط ، عجزت تماماً عن أن أجد كلمة واحدة أقولها لها ، رغم أنها حاولت في رقة ولباقة أن تساعدني على الحديث) .

ومن الأشياء التي يصعب على الآباء تقبلها بصفة خاصة ، الاستهواء الجنسي الذي يثيره أحد النجوم في نفس ابنتهم ، في حين أن هذا النجم لا يستهويهم على الإطلاق . والأدهى من ذلك أنهم يشاهدون فتيات كثيرات يستجبن لهذا الاستهواء الجنسي بنفس الطريقة . فبعض الكبار لا تنشر هذا النوع من العشق الجماعي بين الفتيات . ويرجعهم أن يروا فتيات — يفترض فيهن البراءة والإدراك السليم — يعشقن مثل هذا النجم الماخن الذي لا يليق بهن على الإطلاق . كما أن الآباء وغيرهم من الرجال قد يحسون أيضاً بالغيرة من ذلك المعشوق الذي يحوز هذا النجاح الساحق .

بيد أن من الخطأ أن يفسر الآباء استجابة الفتيات المراهقات لهذا الاستهواء الجنسي طبقاً لمعايير الكبار في السلوك . ففي اعتقادي أن هناك ثلاثة أسباب رئيسية — قد تبدو متناقضة في الظاهر — هي التي تدفع الفتاة السوية في سن المراهقة إلى الاستجابة لاستهواء نجم ينفرد منه والدها ، فهي تحس أنها لا تقترب إيماءً في عالم الواقع ، لأن عشقها لهذا النجم ما هو إلا حلم يراودها لا أكثر ولا أقل . كما أن الناحية الماخنة في هذا النجم تساعد على التنفيس عن رغباتها الجنسية المكبوتة التي قد لا يقسنى لها التعبير عنها نحو الرجال المهذبين ، فهو في نظرها مجرد رمز للاستهواء الذي يمكن في الخلعة والمجون . وفي الوقت ذاته ، فإن براءتها النسبية — من الناحية الشعورية — لا تتيح لها أن تدرك المعاني الجنسية التي يوحى بها هذا النجم ، أو أن تدرك طبيعة استجاباتها الجنسية له من الناحية اللاشعورية ، مما يجعل ضميرها مستريحاً .

ويمكن القول بأن الفتاة قد تذوب ولها حين يظهر نجمها المعبود على خشبة

المسرح ، لأنها لم تبلغ بعد من النضج مبلغاً يؤهلها لأن تذوب ولهاً بين ذراعى الفتى المناسب لها . أما بعد أن تمارس تجربة الحب العميق مع شخص حقيقى ، فإنها لن تبدى سوى ميل معتدل نحو أحد نجوم المسرح ، الذين يمثلون عاطفة الحب العميقة .

لماذا لا يتعلق الأولاد بالمطربات مثلما تتعلق الفتيات بالمطربين ؟ إنهم يتعلقون بهن ، ولكن بدرجة أخف كثيراً منها عند الفتيات . كما أن الأولاد فى كل سن ، يتحمسون أيضاً لواحدة أو أخرى من نجوم الإغراء المحبوبات . غير أنهم قد تعلموا منذ طفولتهم المبكرة أن يسيطروا على مشاعرهم ويخفوها . كما أنى أعتقد أنهم فى مرحلة المراهقة يدركون حقيقة مشاعرهم الجنسية قبل البنات ، لذلك فهم قد لا يعبرون عن هذه المشاعر صراحة مثلهن . وربما كان الأهم من ذلك ، هو أن الجنس — بالنسبة للذكر العادى — يعتبر أساساً عملية مبادأة إيجابية ، لا عملية استجابة سلبية . فالفتى قد تستهويه إحدى ممثلات الإغراء ، لكنه لن يندمج تماماً فى تمثيلية لا يلعب فيها دوراً إيجابياً .



هناك عوامل أخرى تؤدى إلى تفشى ظاهرة التعلق بأحد النجوم المعبودين بين المراهقين . منها أن غريزة القطيع حادة عندهم . وهذا يرجع جزئياً إلى أن كل مراهق يشعر بشيء من الخوف من التغيير الذى طرأ على جسمه ، وعلى اهتماماته وأحاسيسه . فهو يشعر بأنه غريب على نفسه ، بدرجة تجعله يتساءل أحياناً عما إذا كان طبيعياً أم لا . لذا فهو يتوق إلى أن يجد من يشابهه فى هواياته وميوله ومثله العليا ، بين المراهقين الآخرين الذين فى مثل سنه . وقد بين إريك أريكسون ، وهو أحد الذين درسوا مرحلة المراهقة دراسة عميقة ، أن الإنسان فى هذه السن يحقق ذاته فى أصدقائه . فالمرهق ينتابه الذهول ، ثم

يحبس بالارتياح والسعادة ، عند ما يكتشف أن مراهقاً آخر يحب نفس الكتاب الذى يحبه ، ويكره نفس المدرس الذى يكرهه ، ويستجيب لنفس الموسيقى التى يستجيب لها ، وأنه قد توصل إلى فلسفة فى الحياة تشابه فلسفته . هذه الحاجة إلى المشاركة فى الأفكار تساعدنا على إدراك السبب فى أن فتاتين لا تفارق إحداها الأخرى طوال النهار ، وما تكادان تفترقان حتى تهرع كل منهما إلى تليفون بيتها كى تستأنفا تبادل الأسرار فيما بينهما . وعلى ذلك فإن المراهقة تثق فى قرارة نفسها أنها فتاة طبيعية ، إذا وجدت أنها تعشق نفس الرجل الذى تعشقه خمسة ملايين من الفتيات الأخريات ، مهما كان رأى والديها فى هذا العشق .

كما أنه إذا اجتمعت آلاف مؤلفة من هؤلاء العاشقات المدلهات فى حضرة نجمهن المعبود بأحد المسارح ، فإن الهيستريا الجماعية تضيف على الموقف كله نوعاً من الهوس الممتع .

ومن مظاهر سلوك القطيع عند المراهقين ، انعزالهم عن الجماعات الأخرى التى تختلف عنهم فى السن ، فهم يحاولون جاهدين أن يكبروا على سلوكهم الطفلى ، ويميلوا ، إلى اعتبار أنفسهم على أنهم قد تجاوزوا مرحلة الطفولة تماماً . لكنهم فى نفس الوقت لا يُقبلون فى عالم الكبار ، على الأقل فى مجتمعنا الأمريكى . على حين أنه فى كثير من المجتمعات البدائية ، تقام المراهقين طقوس معينة يدخلون بها عالم الكبار ، ثم يضطاعون بعد ذلك بدور له احترامه فى حياة الجماعة ، ويؤدون نفس العمل الذى يؤديه الكبار ، ويشترون فى الاحتفالات الرسمية الهامة . وحتى فى أمريكا نفسها أيام الاستعمار ، كان بعض الشبان يشغلون مناصب هامة فى سن الواحدة والعشرين . لكننا فى أمريكا اليوم نبقى أطفالنا المراهقين فى المدارس والكليات سنوات عديدة ، حيث يستمرون

في تعلم المزيد عن أساليب حضارتنا ، دون أن تتاح لهم سوى فرصة ضئيلة للشعور بأنهم أعضاء ناضجون لهم حقوقهم الكاملة في المجتمع . فهم في هذه السن لا يشغلون أية وظائف نظامية ، وما زالوا مضطرين إلى الاعتماد على المصروف الذي يأخذونه من ذويهم ، وإلى الخضوع لحكم آبائهم وسلطتهم . وحقيقة أن أطفالنا المراهقين يتفقون معنا على أن هذا أسلوب حكيم في التربية . غير أن هذا الأسلوب من الناحية النفسية يجرمهم من الشعور بأنهم كبار ، ويدفعهم إلى الاستمرار في التمرد . لذلك فهم يتباهون بانعزالهم عن عالم الكبار ، ويتكبرون لأنفسهم «موضات» خاصة في الثياب وتصفيف الشعر ، ويستخدمون مصطلحات خاصة بهم ، وينمون هواياتهم الخاصة في تحمس محوم ، ويحبون أن يكون لهم نجوم يعبدونهم في مجال لهوهم . فإذا حدث أن أثارت نجومهم المعبودة غيظ آبائهم ، فإن هذا يعتبر ربحاً آخر في معركتهم مع الكبار .

ومن الجدير بي أن أقطع الشك باليقين ، كيلا يسيء بعض الآباء فهم كلامي ، وأنا أحاول بث الطمأنينة في نفوسهم بشأن هذه المشكلة . فأنا بالطبع لا أعنى أن افتتان المراهقات بأحد الممثلين ، أو أن هيستريا المراهقات في المسارح ، تعتبر سلوكاً سيئاً مهما تكن درجة حدته . فالواقع أن هناك بلا ريب بعض الفتيات المتهوسات إلى أبعد حد ، بين جماهير المتفرجين الذين نقرأ عنهم في الصحف . وإنما أعنى فقط أن المراهقة قد تجاهر بحبها لنجم يستنكره والدها ، ومع ذلك قد يكون سلوكها سيئاً تماماً في شتى النواحي الأخرى . فهذا التعلق بأحد النجوم لا يعنى عدم قدرتها على الإدراك السليم في النواحي الأخرى ، أو عدم قدرتها على التمييز السليم بين أنواع الرجال فيما بعد .

ولكن ربما كان السبب في أنى أنظر إلى الموضوع هذه النظرة الفلسفية ، هو أنى لم أنجب بناتاً على الإطلاق .

معنى انحراف الأحداث

« إن مختلف مظاهر الانحراف ترجع أسبابها إلى أنواع متباينة من الاضطرابات ، سواء أكانت هذه الاضطرابات في نفس الطفل ، أم في أسرته ، أم في المنطقة التي يسكنها ، أم في العصر الذي يعيش فيه » .

ينزعج الآباء والأمهات حين يقرأون دائماً في الصحف عن ازدياد حالات الانحراف بين الأحداث بعد الحرب العالمية الثانية . فهم عندما يقرأون في الصحف عن جريمة بشعة ارتكبتها جماعة من الصبية الذين ينحدرون من « أسر طيبة » ، يسألون أنفسهم عما إذا كان من المحتمل أن يسرى هذا الوباء في نهاية الأمر إلى أى واحد من الصبية ، بل وحتى إلى أحد أبنائهم الذين يفترضون فيهم السلوك السوى . لذا أود في هذا الباب أن ألقى بعض الضوء على معنى الانحراف ، حتى لا يحس الآباء بكل هذه الحيرة والخوف إزاء هذه المشكلة .

والنقطة الأولى التي أود أن أوضحها هي أن « انحراف الأحداث » مجرد اصطلاح قانونى واسع ، يشمل كل أنواع سوء السلوك التي يمكن أن تدفع بالأحداث دون سن الثامنة عشرة إلى ساحة المحكمة ، ابتداء من التشرذم حتى جريمة القتل . لذا فهو اصطلاح غير موفق ، لأنه يوحي بأن الملايين من شبابنا قد لوّثهم نزعة من الشر لا يعرف لها سبب أو علاج . فهذا الوضع يبدو في نظري كما لو كانت الصحف اليومية تعتبر جميع أخطاء الكبار — ابتداء من ركن السيارة في الأماكن المحظورة حتى إشعال نار الثورة — على أنها جميعاً جرائم بشعة متفشية كالوباء بين الكبار .

والنقطة التالية هي أن مختلف مظاهر الانحراف ترجع أسبابها إلى أنواع

متباينة من الاضطرابات ، سواء أكانت هذه الاضطرابات في نفس الطفل أم في أسرته ، أم في المنطقة التي يسكنها ، أم في العصر الذي يعيش فيه . فمن الأشياء المضللة أن نعتقد أن هذه الانحرافات ترجع جميعاً إلى سبب واحد ، تماماً كما لو كنا نعتقد أن جميع العلل الجسدية ، كالسرطان والأمراض المعدية وسوء التغذية وكسور العظام ، ترجع كلها إلى سبب واحد . لذا أود أن أناقش — تحت عناوين مستقلة — بعض نماذج سوء السلوك عند الأحداث ، والعوامل الاجتماعية والنفسية التي يعتقد أنها تؤدي إليها .

* * *

العوامل الاجتماعية الخارجية :

كنت عضواً في اللجنة الأهلية المؤقتة لدراسة مشكلة انحراف الأحداث ، في مدينتين من المدن التي عشت فيها . وفي بداية الاجتماع الأول للجنة في كلتا المدينتين ، كان المواطنون البارزون أعضاء اللجنة يجلسون حول مائدة كبيرة ، ينصتون إلى التقارير التي تدل على خطورة الحالة ، وهم يمصصون بشفاهم أسفاً . لكنني كنت ألاحظ بعد ساعة من بداية الاجتماع ، أن عدداً من الأعضاء قد أخذوا يتهايمسون ويضحكون ضحكات مكتومة فيما بينهم ، فقد كانوا يعترفون لبعضهم البعض — في شيء من الزهو — بأنهم هم أنفسهم كانوا يأتون ببعض الأفعال المنحرفة في حداثتهم .

والواقع أن الدراسات المبينة على استجواب مئات من المواطنين العاديين ، قد دلت على أن تسعة من بين كل عشرة أشخاص ، قد ارتكبوا في فترة المراهقة أفعالا مخالفة للقانون ، كان من الممكن أن تكون مصدر متاعب لهم ، لو أنهم وقعوا في قبضة البوليس . وعلى ذلك يمكن القول بأن الانحرافات البسيطة من

المظاهر الشائعة جداً بين الأحداث في كل الأزمنة ، وأن معظم المخالفات التي يرتكبها الأحداث هي في الواقع مخالفات بسيطة هيينة . فمن بين هذه المخالفات الشائعة بين الصبية من جميع الطبقات الاجتماعية «الإساءة الخبيثة إلى الآخرين» ، مثل قلب صفايح القمامة الخاصة بأحد الجيران المكروهين ، أو الكتابة على جدران المدرسة ، أو ثقب إطارات السيارات لتفريغها من الهواء . ومن بينها أيضاً ارتكاب بعض السرقات التافهة ، مثل سرقة بعض الفاكهة من منضدة البيع أمام أحد المحال ، أو سرقة بعض مواد البناء من عمارة مجاورة في طور البناء . على أن مثل هذه المخالفات الهيينة لا تدل إلا على رغبة بسيطة في الإنتماء وتحدى حقوق الملكية. وهي ، شأنها شأن الهروب من المدرسة أو خرق قواعد المرور ، لا تعنى بالضرورة أن هناك اضطرابات انفعالية خطيرة عند الأحداث ، الذين لا يرتكبونها بصفة مستمرة ، خصوصاً في المناطق التي تكون فيها معايير السلوك مرنة وغير صارمة .



إن معظم الأحداث المنحرفين الذين يقدمون إلى المحاكمة ، ينتمون عادة إلى أسر من الطبقات السفلى «اقتصادياً» وثقافياً ، ولكن من المعروف أنه عند ما يسمى طفل من الطبقة المتوسطة إلى أحد الأهالي ، فالأرجح في هذه الحالة أن يتجه المحنى عليه إلى والدى الطفل بدلاً من أن يتجه إلى رجال البوليس ، على افتراض أن الوالدين — بدافع الإنصاف والحرص على سمعتهما — سوف يدفعان التعويض للملأثم ويبدلان قصارى جهدهما لمنع طائهما من تكرار الخطأ . كما أن رجال البوليس عند ما يقدم إليهم بلاغ عن مخالفة بسيطة اقترفها أحد الأحداث ، فإنهم في العادة يحاولون معالجة الأمر مع الوالدين مباشرة ، بدلاً من

تحرير محضر بالحادث وتقديمه إلى المحكمة . فضلاً عن ذلك ، فإنه في حالة القضايا التي تقدم بالفعل إلى المحكمة ، يميل القاضي إلى شطب القضية ، إذا تعهد الوالدان بدفع التعويض لهجنى عليه ، وتعهدا بمعالجة انحراف الطفل ، سواء عن طريق عقابه في البيت ، أو إلحاقه بإحدى المدارس الداخلية ، أو علاجه عند أحد الأطباء النفسانيين ، لذلك ربما كان صحيحاً أن عدداً كبيراً من أحداث الطبقة المتوسطة لا يحسبون في الإحصائيات الخاصة بالمنحرفين ، لأن المصدر الوحيد الذي تستمد منه هذه الإحصائيات هو محاضر القضايا في محاكم الأحداث .

ومع ذلك ربما كان صحيحاً أيضاً أن نسبة الذين ينحرفون إلى الانحراف بين أطفال الأسر الفقيرة أكبر منها بين أطفال الطبقات الأخرى . ولئن كان هذا صحيحاً بالفعل ، فإنه لا يعنى أن الدخل المحدود وضعف الثقافة يؤديان في حد ذاتهما إلى ضعف المستوى الأخلاقي . فقد ثبت بالدليل أنه لا توجد علاقة بين الفقر والانحراف الأخلاقي في كثير من المجتمعات المستقرة . أما في المدن الكبرى النامية ، فإن الأسر ذات الدخل المحدود تضطر عادة إلى السكنى في أكثر الأحياء ازدحاماً وفقراً ، دون أن يتوافر لها سوى الحد الأدنى من الوسائل اللازمة لإقامة حياة عائلية طيبة . كما أن هذه الأحياء يكاد ينعدم فيها عامل الاستقرار ، إذ تنتقل إليها باستمرار فئة المعدمين ، وتنتقل منها باستمرار الفئة التي تسمح لها ظروفها الاقتصادية بالهجرة منها . ونتيجة لذلك ، فإن علاقة الجيران بـهم البعض في هذه الأحياء ، وروح التوجيه والريادة بينهم ، تكون عادة في المستوى الأدنى .

وصحيح أيضاً أن بعض الجماعات والأفراد من ذوى الدخل القليل والثقافة المحدودة ، لا يشكلون أنفسهم على نمط الطبقة المتوسطة السائدة ، مثلاً يفعل غيرهم من أفراد الشعب الأمريكي . فهم لم يكتسبوا بعد إيمان الطبقة المتوسطة القوي بأهمية

الثقافة ، والتخطيط للمستقبل ، وتوجيه نزعة العدوان في اتجاه المنافسة والتقدم . لذا فإنهم لا يستطيعون أن يعلموا أبناءهم هذه القيم والأهداف عن اقتناع عميق بها . إذ يحسون بأنهم منفصلون بعض الشيء عن النظام السائد بين الطبقة المتوسطة . ومن ثم فإن أبناءهم حين يبلغون مرحلة المراهقة — بما فيها من حافز إلى تحدى الجماعة — يميلون إلى الاحتكاك بالسلطات ، أو يرفضون رفضاً باتاً البقاء في المدرسة ، على خلاف أبناء الطبقة المتوسطة الذين يعتقدون آمالاً كباراً على المستقبل ، وعلى ذلك فالمشكلة التي نناقشها الآن ليست مشكلة فرق في القيم الأخلاقية ، وإنما هي مشكلة فرق في المطامح والأهداف بين الطبقتين .

* * *

ومن بين مظاهر الانحراف العنيف بين الأحداث ، تكوين عصابات الشوارع التي تمارس أنواعاً مختلفة من النشاط الذي يخضع أو لا يخضع للقانون ، بما في ذلك الاشتباك في معارك عنيفة مع العصابات الأخرى . وهذه العصابات غالباً ما تظهر بين أطفال المهاجرين الجدد إلى المدن الأمريكية . فقد هاجرت في الأجيال السابقة أسر عديدة من مختلف البلاد الأوروبية إلى أمريكا . وفي الفترة الأخيرة كثر ظهور عصابات الأحداث في الأحياء التي يقطنها المهاجرون من بورتوريكو في مدن أمريكا الشرقية ، وفي الأحياء التي يقطنها المهاجرون من المكسيك في مدن الجنوب الغربي ، وفي مدن الشمال التي هاجر إليها عدد كبير من السود . على أن شيوع هذه الظاهرة بين شتى الجماعات التي وفدت إلى أمريكا من أجزاء مختلفة من العالم ، حاملة معها أنماطاً مختلفة من الثقافة والتقاليد ، إنما يدل على أنها — أي ظاهرة تكوين العصابات — ليست نتيجة سمات معينة يتسم بها عنصر أو سلالة بالذات ، وإنما هي أساساً نتيجة ظروف المعيشة التي تحيط بكل فوج جديد من أولئك المستوطنين ، ونتيجة موقف الجماعات الأخرى منهم .

ذلك أن أفراد كل فوج جديد من هؤلاء المستوطنين ، يضطرون بحكم كونهم أحدث الوافدين إلى أمريكا وأقلهم تدريجاً ، إلى العمل بأقل الأجور في أخط المهنة ، وإلى السكنى في أحقر البيوت . والأهم من ذلك أنهم يعاملون باحتقار بسبب فقرهم وجهلهم وغباء عاداتهم ، وتطلق عليهم أسماء مستهجنة ، ويعانون من التفرقة العنصرية ، كما أن الآباء منهم يحسون بشيء من الإحباط والخيبة من جراء التغييرات العنيفة التي يضطرون إلى إجرائها للتكيف مع حياتهم الجديدة ، بحكم انتقالهم من بيئتهم الريفية إلى مدن غريبة عليهم ، حيث يعولون أسرهم في جو من الفقر والفاقة . كما أنهم في بعض الحالات يعجزون عن إحاطة أطفالهم بنحو من الكرامة والطمأنينة . وهم غالباً ما يشعرون بالانزعاج حين يرون أطفالهم ياتقنون أنماطاً جديدة من السلوك والاتجاهات ، تختلف تمام الاختلاف عن أنماط السلوك والاتجاهات التي كانت تعتبر لائقة في موطنهم القديم وهم لذلك كثيراً ما يحاولون التدخل في سلوك أبنائهم .

ثم إن أطفالهم يحسون من ناحية بأنهم موضع احتقار الجماعات الأخرى في المدرسة والحي ، لكنهم من ناحية أخرى يأخذون في انتهاج أساليب جديدة في السلوك مقتبسة من الحياة الأمريكية ، ولذلك يفقدون بالتدريج إيمانهم الراسخ بالقيم العتيقة ، التي يؤمن بها آباؤهم . (أذكر أن إحدى المراهقات قد حدثتني ذات مرة عن مدى شعورها العنيف بالاستياء ، عند ما كان والداها الإيطاليان الأصل ، طبقاً لتقاليدهما الوقورة المتحفظة ، يرفضان السماح لها بأخذ مواعيد من أصدقائها ، حين كانت طالبة في المدرسة الثانوية) . ومن ثم فإنهم في مرحلة المراهقة ، التي يزداد فيها ضجر المراهقين بآبائهم في جميع الظروف ، وتحرك عندهم النزعة إلى العدوان من جراء التغييرات التي تطرأ على الغدد — في هذه المرحلة ينتزع بعض الأبناء أنفسهم من سيطرة أسرهم عليهم ، ويردون على

العداء الذى تبديه لهم الجماعات الأخرى ، بتكوين عصابات قوية متماسكة من بنى جنسهم . وهم يوجهون كل ولائهم وبساليتهم إلى العصابات التى ينتمون إليها ، ويوجهون كل شعورهم المتراكم بالعداء ضد العصابات المناوئة لهم .

يبد أن هذا الوصف لا يصور سوى جانب واحد من المشكلة . فقد كنت أتحدث فيما سبق كما لو كانت أخلاق هؤلاء الفتيان خالية من كل عيب ، وكأننا السبب الوحيد فى انحرافهم هو الموقف الاجتماعى الصعب الذى يواجهونه . والواقع أن أخلاق هؤلاء الفتيان تتفاوت تفاوتاً كبيراً ، فمنهم مواطنون متمسكون بمتانة الخلق ، ومنهم فتية قساة عتاة ، يعانون من مشكلات انفعالية خطيرة ، وينتمون إلى أسر مقلقة يسودها الاضطراب .

ولكى تكتمل الصورة ، ينبغى أن أضيف إلى ذلك أن الغالبية العظمى من الأسر التى هاجرت إلى أمريكا من البلاد الأوروبية والمكسيك وبورتوريكو ، وكذلك الأسر التى هاجرت من مدن الجنوب إلى الشمال ، قد أثبتوا أنهم أناس منتجون يحافظون على القانون ، ولم يجد أبنائهم داعياً لأن يتكثروا فى عصابات ، كما أن الأسر التى تهاجر من مناطق نائية إلى مجتمع لهم فيه أقرباء وأصدقاء ومواطنون من بنى وطنهم الأصلى ، ولهم فيه تقاليد دينية راسخة ترشدتهم سواء السبيل ، هذه الأسر لا تجد مشقة فى السيطرة على سلوك شبابها . فعلى سبيل المثال لا تكاد توجد حالات انحراف بين المراهقين فى الطائفة الصينية بمدينة نيويورك ، التى تعتبر من أكثر الطوائف تماسكا واتحاداً . وفضلاً عن ذلك ، فإن الأسر التى يتشبث فيها الآباء بالمبادئ والمثل العليا ، وتتوافر لديها القدرة على التكيف مع الظروف ، وتربطهم بأطفالهم علاقات طيبة ، تستطيع الهجرة إلى أى مكان من العالم دون خوف كبير من المتاعب .

الأسباب النفسية الباطنة

لقد كما فيما سلف ناقش أنواعاً من الانحراف ، تلعب فيها العوامل الخارجية دوراً كبيراً . أما من الآن فصاعداً ، فسوف نعالج حالات الانحراف التي تنشأ أساساً عن الاضطرابات النفسية الباطنة . وهذه الحالات تختلف اختلافاً بيناً ، لا في درجة حدتها فحسب ، بل وفي طبيعتها وأسبابها . ولكي أوضح الفروق بينها ، فإنني سوف أصف كل حالة على حدة ، وأطلق عليها اسماً معيناً من عندي ولكن لا ينبغي أن يغيب عن بالكم أن هذا سوف يكون مغالاة مني في تبسيط المشكلة ، لأن الانحراف يتولد عادة عن عوامل عديدة — نفسية واجتماعية — لذا فإن من المتعذر أن نجد اسماً جامعاً مانعاً يشمل كل جوانب الحالة .

عند ما يرتكب أحد الشبان جريمة غير بالغة الخطورة ، فإن أهم مسألة يعنى بها الطبيب النفسي ، وقاضى المحكمة ، والمجتمع بصفة عامة ، هي معرفة هل في أخلاق هذا الشاب عيب أساسى بعيد الأثر ، كالتقوسة أو تبدل الشعور أو انعدام وازع الضمير ؟ أم أنه أساساً إنسان حى الضمير إلى درجة معقولة ، بحيث يمكنه في الظروف المناسبة أن يتجاوب تجاوباً حسناً مع المجتمع ، لكن مشاعره تضطرب اضطراباً عفيفاً في موقف معين بالذات .

لذا أود أن أبدأ بالحديث عن ثلاثة نماذج من هذا النوع الأخير للشباب المنحرفين (النوع الذى يتصرف بطريقة معقولة ويمكن الاعتماد عليه في معظم نواحي الحياة ، لكنه ينحرف عن السلوك السوى في ناحية معينة) . وهذه النماذج الثلاثة يمكن أن توضع تحت عنوان واحد لمشكلة نسميها : « اضطراب المواقف اللاشعورية » .

النموذج الأول هو نموذج « المصابين بجنون السرقة » وهؤلاء يحسون برغبة

قهرية لا يمكنهم مقاومتها أو تحليلها ، تدفعهم إلى سرقة أشياء معينة ، ليست لها عندهم أية فائدة حقيقية . وهم يكونون عادة من البنات أو النساء ، وقد تكون لهن سمعة طيبة للغاية في النواحي الأخرى ، وهن يختلفن بالطبع كل الاختلاف عن لصوص المتاجر العاديين الذين يعوزهم رادع الضمير ، ويسرقون بهدف الربح المادى) . فالمصابة بجنون السرقة قد تسرق مثلا عشرات وعشرات من أقلام الحبر حتى ولو توافر لديها من المال ما يتيح لها أن تشتري كل ما تحتاج إليه من الأقلام . ومن ثم فإن الأشياء المسروقة في هذه الحالة إنما تمثل بعض الرغبات الممنوعة التي كبتت في أعماق عقلها الباطن ، والتي يمكن أن تتكشف عن طريق التحليل النفسى . أما النموذج الثانى فهو «هواة التجسس» على المشاهد الجنسية . ومعظم هؤلاء لا توجد عندهم نزعة إلى إيذاء الآخرين ، بل إنهم في معظم الأحيان يميلون إلى احترام القانون . لكنهم بسبب نواح معينة في تربيته الأولى ، يحسون برادع جنسى عنيف ، يمنعهم من التعامل مع الفتيات بالأساليب العادية للمراهقين ، لذلك فإن اهتماماتهم الجنسية المتزايدة في فترة المراهقة تتركز في شهوة النظر إلى المناظر الجنسية . كما أن هناك عند بعض المراهقين اضطرابات نفسية أخرى ذات طابع جنسى من نفس النوع ، بمعنى أنها لا تنطوى على عامل القسوة أو الرغبة في اغتصاب الفتيات بالقوة . ومن المهم أن أوضح هذه النقطة ، لأنه عندما يسود الانزعاج أحد المجتمعات من جراء جريمة جنسية عنيفة ارتكبها أحد الشبان ، فإن رأى العام يتجه إلى إدانة كل شاب عرف عنه التجسس على المشاهد الجنسية أو أى نوع آخر من الانحراف الجنسى البسيط ، كما لو كان هو الآخر مجرماً أثمياً .

أما النموذج الثالث فسوف أسميه « المحتاجين إلى العقاب » . ومثال ذلك أن أحد الفتيات قد يرتكب جريمة سرقة بطريقة بدائية للغاية ، بحيث يترك آثاراً

تدل عليه في كل بقعة من مكان الجريمة ، فيقبض عليه بمنتهى السهولة . ثم يكشف التحقيق أن له والدين من ذوى الضمائر الحية ، يهتمان بأمره اهتماماً كبيراً . بل قد يتضح أن له سمعة طيبة بين أصدقائه ومدرسيه . ولكن يتضح أيضاً أنه قد ظل طويلاً يصطدم بأمره وأبيه اصطدامات عنيفة في البيت ، مما يدفع والدين إلى الاعتقاد بأن مشكلات سلوكه إنما ترجع إلى هذا الصراع الحاد بينهما وبينه في أيام صباه ، فيستبد بهما الشعور بالذنب من جراء ذلك . ولهذا السبب فإنهما يلتقيان اللوم على نفسيهما ، بدلاً من إلقاءه عليه ، كلما انحرف عن السلوك السوى . على أن هذا الاستسلام من جانبهما لا يؤدي إلا إلى تشجيعه على التماذى في تكديرهما ، كما لو كان يعتقد أنهما قد أساءا إليه . لكنه في عقله الباطن يزداد شعوراً بالذنب بسبب سوء سلوكه ، ويحس بحاجة إلى أن تسيطر عليه سلطة ما وتعاقبه . وهذا هو الذي يدفعه — دون أن يعي — إلى الانطلاق من البيت ، ومحاولة استفزاز السلطات كي تقوم بالشئ الذى يأبى والداه القيام به . إن هذه الحاجة إلى العقاب عند بعض المراهقين ، حالة مألوفة للأطباء النفسانيين في كثير من القضايا المختلفة التى تعرض على المحاكم .

* * *

يمكننا الآن أن نقاش نوعاً من الانحراف (يتداخل مع الأنواع الأخرى) يكون فيه ضمير الطفل حياً في معظم النواحي ، غير أن به خلافاً معيناً في ناحية بالذات ، يسهل عليه ارتكاب ذنب معين — وقد يرتكبه المرة تلو المرة — مع أنه يقتضى مع معايير السلوك الظاهرية المتعارف عليها في الأسرة . وقد قام الدكتور ادليد چونسون والدكتور ستانيسلوس زيورك بدراسة هذا المظهر من مظاهر الانحراف دراسة مستفيضة ، فلا حظاً أثناء مناقشة مشكلات بعض الأطفال المنحرفين مع آبائهم ، أن الأب — أو الأم — يبدر منه بطريقة غير مباشرة ما يدل على أن

فى نفسه نزعة مكبوتة إلى الانغماس فى نفس السلوك المنحرف الذى يمارسه ابنه ، ثم يتضح لهما أثناء علاج الطفل نفسياً أنه قد التقط من أبيه هذه النزعة الدفينة المكبوتة . وإليك ثلاثة أمثلة بسيطة توضح لكم ما يعنيه هذان الطيبان :

١ — تشببه إحدى الأمهات فى أن المطواة التى يلعب بها ابنها مسروقة من أحد المتاجر . وعند ما تنتزع منه اعترافاً بالسرقة عن طريق شيء من التعذيب فإنها تسأله تلقائياً : « هل رآك أحد عند ما سرقها ؟ » . من البديهي أن هذا الأسلوب فى التفكير ليس أسلوب الأم الفاضلة التى ينبغى أن توجه كل اهتمامها فى مثل هذه الحالة نحو تقويم سلوك الطفل ومساعدته على إصلاح خطئه . فالأم بهذا السؤال ؛ بدلا من أن تقوم سلوك الطفل ، تبدو فى نظره كما لو كانت تنقص إلى حد ما شخصية اللص ، مما يوحى إليه بأنها تسمح له بالسرقة ، بشرط أن ينجح فى ارتكاب الجريمة دون أن يراه أحد .

٢ — يشكو أحد الآباء — فى حضور ابنه الصغير — من أن هذا الابن قد دأب على الهروب من البيت مرارا . بيد أن لهجة الأب فى الحديث تنم عن ازهو ، وهو يصف قدرة الغلام الفائقة على قطع مسافات شاسعة قبل العثور عليه فى كل مرة يهرب فيها . إن هذا التعبير عن الاستحسان ، الذى يبدىه الأب دون أن يعي ، كفى بأن يضيع تماماً أثر الاستنكار الذى يظهره للغلام بحكم مركزه كأب .

٣ — تتحدث إحدى الأمهات حديثا عنيفا إلى ابنتها بشأن سهرها إلى ساعة متأخرة من الليل مع أحد الشبان ، ثم تنهى حديثها بقولها إنها تعلم أن الفتاة قد تجاوزت كل حد فى علاقتها بهذا الشاب . ويتصادف ألا يكون هذا الكلام صحيحا ، بل إنه مجرد وهم فى ذهن الأم ، لكنه يبين للفتاة ما تتوقعه

الأم من هذه العلاقة ، ومن ثم فإنها تعتبر ذلك نوعا من التصريح لها بالتمادى فى علاقتها بالشبان مستقبلا .

وقد بين الدكتوران جونسون وزيبورك أن نقطة الضعف فى ضمير الطفل فى مثل هذه الحالات ، تطابق فى الواقع إحدى الرغبات المكبوتة فى نفس أحد الوالدين ، وتنشأ عنها . فالوالد وإن كان يستطيع كبت هذه الرغبة فى نفسه ، إلا أنه يتمتع بها حين يحققها فى شخص طفله .

ومن ثم فعندما يقول الوالدان فى لهجة جادة — لا على سبيل المزاح — إنهما يعتقدان أن طفلهما فى طريقه إلى الانحراف ، أو إنهما عاجزان عن السيطرة عليه ، فإن هذا يعتبر علامة على احتمال حدوث بعض المتاعب مستقبلا ، لأن مثل هذا القول من جانب الوالدين إنما يدل على أحد شيئين . إما أنهما يسمحان له — دون وعى منهما — بالانحراف عن السلوك السوى ، وإما أنهما يعانيان من شعور حاد بالذنب نحو الطفل ، مما يمنعهما من تأديبه بالأسلوب العادى ، وسوف يظل يمنعهما من تأديبه فى المستقبل أيضا .

ولنتنقل الآن إلى مشكلة الشباب المنحرفين الذين يعانون من ضعف أساسى فى الخلق . وجدير بنا أن ننتهى أولا من تحليل مشكلة المنحرفين الذين يوجد عندهم اعوجاج بالغ فى الشخصية . وهؤلاء وإن كانوا قلة قليلة لحسن الحظ ، إلا أنهم يثيرون الرعب فى نفوس الناس ، بسبب الطابع الخبيث الشرير الذى تقسم به جرائمهم .

على سبيل المثال ، قد يقتل ثلاثة من الشبان — عمدا ومع سبق الإصرار — شخصا لم يسبب لهم أى أذى ، بل إنه فى الواقع لا يعينهم فى قليل أو كثير . ومع

ذلك فإن هؤلاء الشبان لا تبدو عليهم أمارات الجنون بالمعنى المألوف . والتفسير الوحيد الذى يسوقونه لتبرير جريمتهم هو أنهم قد ارتكبوها بحثا عن شيء مثير . ما من شك أن مثل هذه الجريمة الشاذة القاسية لا يمكن أن يرتكبها أشخاص عاديون من الناحيتين الأخلاقية أو العاطفية ، حتى ولو بدوا عاديين فى نظر الناس الذين يعرفونهم معرفة عابرة . ففى إمكان أى إنسان يعرف أحد هؤلاء الشبان معرفة وثيقة ، أن يسوق أدلة عديدة على أن هذا الشاب عنده رغبة شاذة فى الإيذاء ، وتبدل فى الشعور ، يرجعان إلى المراحل الأولى من طفولته . فضلا عن ذلك فإن المعرفة الوثيقة بعائلة الشاب ، أو البحث النفسى لظروف هذه الأسرة ، قد تبين أن والديه — مهما بدا عليهما من « وقار » — كانا يعاملانه نفس المعاملة القاسية المجردة من الإنسانية التى يعامل بها الآخرون ، والتى قد لا تتخذ بالضرورة مظهر الضرب أو غيره من صور القسوة البدائية . فالرغبة فى القسوة والإيذاء يمكن تحقيقها بيد من حديد فى قفاز من حرير .

هناك مثال آخر من أمثلة الاعوجاج الحاد فى الخلق ؛ ذلك هو الشاب الذى يرتكب جريمة بشعة ، قد تكون جريمة قتل جنسية . ومع ذلك تقول الصحف إنه لم يعرف عنه سوء السلوك من قبل . بل إنه فضلا عن ذلك قد اشتهر بالصلاح والاستقامة ، من حيث مواظبته على حضور مدارس الأحد الدينية أو اجتماعات فريق الكشفافة . على أن المرء يجب ألا يخدع بالأخبار التى ينشرها مخبرو الصحف بدافع من رغبتهم فى إبراز المقارقات المسرحية المثيرة . فقد يكون صحيحاً أن هذا الشاب لم يتورط فى أى مازق من قبل ، ولكن تأكدوا أنه لم يكن من النوع الودود المنطلق الذى نألفه فى الشباب الأمريكى . ومن الجائز أنه كانت عنده صفات شاذة ملحوظة فى شخصيته طوال مرحلة الطفولة ، لكنه استطاع رغم ذلك أن يتمشى مع مقتضيات السلوك فى المدرسة والحي . ثم جاءت توترات مرحلة المراهقة فحطمت قدرته الواهية على ضبط نفسه ، بنفس الطريقة

تقريباً التي تدفع بها هذه التوترات بعض المراهقين سيئ التكيف إلى الجنون. وفي حالة هذا الشاب أيضاً ، يستطيع المرء أن يلس — على طول الخط — نوعاً من العلاقة الشاذة بينه وبين والديه .

* * *

بقي أمامنا الآن أن نناقش مشكلة الفئة الغالبة من متادى الانحراف ، أولئك الذين يرتكبون « مراراً » بعض المخالفات ، التي تتراوح درجة حدتها بين البسيطة والمتوسطة ، كالزويغ المستمر من المدرسة ، والهروب من البيت ، والسرقه ، وسرقه السيارات بهدف اللهب في الأمسيات ، والانحلال الجنسي ، والدعارة بالنسبة للفتيات . وبوجه عام ، يمكن اعتبار معظم هؤلاء الشباب المنحرفين أنهم قد ضعف عندهم وازع الضمير ، من جراء ما تعرضوا له من إهمال جسيم في طفولتهم المبكرة . والاصطلاح التقليدي الذي يستخدم لوصف هذا النوع من المنحرفين هو « الشخصية السيكوباتية » ، وهم يقسمون بالسطحية وعدم الشعور بالمسئولية ، والاندفاع ، وكثرة المطالب ، وعدم الاستفادة من التجارب . وهناك على الأقل بضع حالات سيكوباتية في كل مجتمع من المجتمعات . وقد تذكر أنك صادفت واحداً من هذا النوع في مدرستك ، أو تذكر آخر فشلت في التعامل معه بعد أن بلغت مبلغ الكبار .

يمكنني أن أزيد الصورة وضوحاً ، بوصف نوع من البحارة ، كنت أقوم بعلاجهم في عنبر من عنابر سجن البحرية . كان هؤلاء البحارة ينتظرون تسريحهم نهائياً ، على اعتبار أنهم غير جديرين بالخدمة العسكرية ، لتكرار تقييدهم بدون ترخيص لفترات طويلة (ولارتكابهم مخالفات أخرى) رغم تشديد العقوبات عليهم المرة تلو المرة . وكانت الحجة التي يسوقونها عادة لتسوين غيابهم هي : « لقد كنت مضطراً للذهاب إلى مكان ما ، فطلبت إجازة لكنهم

رفضوا أن يمنحوها لى . وفى داخل السجن كانوا دائماً يطالبون بشيء أو آخر ،
 يطالبون بتحسين نوع الطعام وزيادة كمية اللحم ، على الرغم من حصولهم على
 غذاء أفضل مما يقدم للمدنيين . ويطالبون بإتاحة مزيد من الفرص لهم للاتصال
 تليفونياً بصديقاتهم ، ويطالبون بزيادة مجالات النشاط الترفيهى لهم (ولو أنهم
 كانوا يسأمون كل نوع من النشاط بعد فترة وجيزة) . كذلك كانوا يطالبون
 بالإسراع فى إجراءات تسريحهم من الخدمة . وعند ما كان أحد هؤلاء البحارة
 ينقطع عن عمله لمدة ستة أشهر ، فيوقف صرف مرتبه لأسرته ، فإنه كان يهرع
 إلى ثائراً ناقماً ، فأفهمه أنه ما من هيئة يمكنها أن تدفع مرتباً لرجل هجر عمله منذ
 أمد طويل ، لكن مثل هذه الإجابة ما كانت لتخرجه أو تفت فى عضده . بل
 إنه كان يصيح فى وجهى بلهجة ثائرة : « كيف تتوقع سلطات البحرية من
 أسرتى أن تعيش بدون نقود ؟ » ولا يحول بخاطره مطلقاً أن عليه هو أيضاً
 التزامات نحو عمله .

كيف يصبح شخص ما حالة سيكوباتية ؟ يحدث هذا بصفة عامة لأنه قد
 حرم من الحب فى سنى حياته الأولى ، فقصص حياة معظم البحارة الذين كنت
 أتحدث عنهم ، تكاد تكون كلها متشابهة إلى حد بعيد ، فأحدهم ماتت أمه
 أثناء ولادته ، مما حدا بأبيه إلى تركه لدى إحدى قريباته أو جاراته ، وهو لا يزال
 يذكر حتى الآن أن هذه السيدة لم تكن راغبة فيه . وآخر مات أبوه أو هجر
 البيت ، فاضطرت أمه للنزول إلى ميدان العمل ، وتركته فى أحد الملاجىء .
 الحظيرة . هذا هو نوع الأسر المفسكة التى تنشأ منها حالات الانحراف ،
 حيث لا تقتصر المشكلة على مجرد انفصال الوالدين (بالموت أو الطلاق أو
 الهجران) ، بل تمتد إلى أبعد من ذلك ، إذ يعجز الوالد الموجود عن إعالة
 الطفل ، ولا يزوره بانتظام ، ويتراجع فى وعوده له ، وبوجه عام يخلف فى نفسه

شعوراً بأنه غير مرغوب فيه . كما أن نفس هذا الشعور قد يتولد عند الطفل الذي يعيش مع والديه ، إذا أحس بأن أحداً لا يعنى بأمره .

(على أن مجرد انفصال الوالدين لا يؤدي بالضرورة إلى خلق شخصيات سيكوباتية أو أطفال منحرفين . فمعظم الأرامل والمطلقات ، والآباء المنفصلين عن زوجاتهم ، يتفانون في خدمة أطفالهم ، ويوفرون لهم الرعاية المناسبة ، وبذلك يحس الأطفال بالحب والحنان) .

والطفل الذي عانى من الإهمال الشديد ، يصبح عادة شخصاً متوتراً قلقاً سطحياً ، عند ما يبلغ سن الالتحاق بالمدرسة ، ولهذا فإن اهتمامه بالعمل المدرسي يكون ضئيلاً ، لأنه لا يجد أمامه والدًا محباً يحثه كتموذج في السلوك ، وليس له طموح معين في حياته ، لذلك لا تتوافر لديه القدرة على أن يكرس نفسه لعملية التعلم . وحيث إنه لم يكن في يوم من الأيام عضواً في أسرة مترابطة ، فإنه لا يحس بالرغبة في أن يصبح عضواً عاملاً في جماعة فصله المدرسي . وحيث إنه لم يذق طعم الشعور بالأمن والطمأنينة — الذي ينتج عن إحساس الفرد بأنه موضع الرضا والاستحسان — فإنه لا يخشى استهجان زملائه له كنتيجة لسوء سلوكه . بل إن العقاب لا يخلق عنده شعوراً بالندم ، وإنما يخلف فيه شعوراً بالسخط والحق لا غير . وحيث إنه لم يعرف في حياته متعة الشعور بالحب ، فإنه لا يحاول مطلقاً أن يثير حب الناس له . وحيث إن أحداً لم يعطه قط شيئاً له أهميته ، فإنه كذلك ليس لديه شيء يمكن أن يعطيه لأحد ، ولهذا كله فإنه في حياته المدرسية يصبح عبداً لدوافعه الغريزية ، ويتورط غالباً في المتاعب ، ويمضي جانباً كبيراً من الوقت في مكتب ناظر المدرسة ، ويعمد إلى الغش والخداع في سلوكه ، وقد ينتهي به الأمر إلى الرسوب في امتحان النقل مرتين متتاليتين ، ثم يترك المدرسة إلى غير رجعة ، بمجرد أن تتاح له هذه الفرصة دون أن يلحق به العقاب . ومثل هذا الغلام لا يكون له أصدقاء حقيقيون .

وقد يتخيل الشخص السيكوباتى (المريض نفسيا) أنه سيجد الطريق سهلا ممهدا أمامه ، عند ما يترك المدرسة ويلتحق بإحدى الوظائف . على أن كل عيوبه ونقائصه تلازمه فى ميدان العمل ؛ إذ يتضح هناك أيضا أنه شخص لا يمكن الاعتماد عليه ، لا يلتفت إلى عمله ، أو يتعاون مع الآخرين ، لذلك فإنه إما أن يفصل من عمله ، أو يتركه من تلقاء نفسه بعد بضعة أسابيع .

لقد عرضت فيما سلف أنماطا من الشخصيات السيكوباتية (المريضة نفسيا) التى استفحل بها المرض النفسى . ولكن هناك كثيرين غيرهم يصيبهم المرض بدرجة أقل حدة . وبعض هؤلاء لم ينشأوا فى بيوت يسودها التفكك أو الفقر أو عدم الاكتراث بشكل واضح . فمن المهم ألا يغيب عن بالنا أن بعض أطفال الأسرة المتيسرة — حيث يكون الآباء والأمهات مواطنين محترمين ، بل وأعضاء بارزين فى المجتمع — قد ينشئون أيضا دون أن يحظوا بالحب العميق ، أو التفانى من جانب الوالدين . وفى مثل هذه الحالات قد لا يكون الإهمال واضحاً ، لأن الأسرة تحافظ على المظاهر التقليدية ، فتبدو كما لو كانت تزود الطفل بجميع المطالب التى يقرها المجتمع . بل إنه فى بعض الحالات ، يحاول الوالدان — بدافع من الشعور الغامض بالذنب — أن يعوضا الطفل عن حرمانه من الحب ، عن طريق الإغداق عليه بالهدايا ، ومنحه الحقوق والميزات بلا حساب . ولعل خير مثال يصور هذه الحالة ، هو ذلك المراهق التافه الفاشل الذى يهدى إليه والده سيارة فاخرة .

هل يمكننا أن نستخلص أية نتائج إيجابية من هذا العرض للاضطرابات النفسية التى ناقشناها فى هذا الفصل ؟ أعتقد أن هناك نتائج عديدة :

١ — أن الغالبية العظمى من الأفعال المنحرفة التى تحصرها الإحصائيات ،

ليست إلا مخالفات بسيطة لا تدل بالضرورة على وجود اضطرابات انفعالية لدى مرتكبيها من الشباب .

٢ — أن الانحراف لا ينشأ دون ما سبب على الإطلاق ، فالأطفال الذين أصبحوا من معتادى الانحراف ، أو الذين يرتكبون مخالفات خطيرة ، قد بدت عليهم أعراض تدل على سوء التكيف منذ طفولتهم المبكرة ، وكان يمكن مساعدتهم على مقاومة الانحراف في الوقت المناسب .

٣ — أن الطفل إذا ما لقي حبا دافئا وتوجيها ثابتا من والديه ، حتى ولو ثارا عليه أو وهنت عزيمتهما أحيانا ، فإنه سيكتسب شعورا بالانتماء ، ويتربى عنده وازع الضمير ، الذي يمنعه من ارتكاب مخالفات خطيرة في مرحلة المراهقة ، ويجعله في مرحلة الرشد عضوا يشعر بالمسؤولية في المجتمع .

ولسوف نناقش بعض ما تتضمنه هذه النقاط في الفصول التالية ، التي تتناول المشكلات الخاصة بعلاج الانحراف ومنعه .

لماذا ينحرف سلوك المراهقين ؟

«تهدر العواصف في أعماق النفس عند ما

يبعث الإنسان عن ذات جديدة»

ما هو السر في أن معظم انحرافات الأطفال التي تسمى إلى المجتمع تتركز في سنى المراهقة بالذات ؟ فالإحصائيات تدل على أن الانحراف يبلغ أقصى درجاته في الفترة ما بين سن الخامسة عشرة والسابعة عشرة .

هناك أولاً فارق كبير بين مخالقات الأولاد ومخالفات البنات . فالأولاد يتورطون أساساً في المتاعب نتيجة بعض الأفعال العدوانية كالسرقة والتخريب ، ونتيجة تحديهم لقوانين المدرسة ، كما أن فئة قليلة منهم تميل إلى العنف والقسوة . ولكننا قلما نسمع عن بنات عندهن مثل هذا الاستعداد للعدوان السافر ؛ فالغالبية العظمى في الفتيات اللاتي يمثلن أمام محاكم الأحداث ، يقدمن للمحاكمة بناء على شكاوى من آبائهن بسبب سلوك جنسى منحرف لم يستطع الآباء ، السيطرة عليه ، أو بسبب الهروب من البيت . وبعبارة أخرى ، فإن الفتيات يزجن ويتحدين آبائهن وأمهاتهن ، في حين أن الفتيان يهددون المجتمع كله .

وفي بعض الحالات ، تتورط الفتيات أساساً في سلوك جنسى مستهجن ، بسبب افتقارهن إلى الحب وشعورهن بالإهمال منذ الطفولة المبكرة ، ولذلك تعوزهن معايير السلوك اللازمة للسيطرة على دوافعهن الفريزية . وفي حالات أخرى يكون الدافع إلى الانحراف أكثر تعقيداً ، فبعض الفتيات يهاجمن آبائهن بأعلى صوتهن أمام الإخصائيين الاجتماعيين في محاكم الأحداث ، ويتمنهم بأنهم لا يمنحونهن الحب والحنان ، أو أنهم يعاملونهن معاملة قاسية ، مما يوحي بأن أحد الخوافز العميقة التي تدفع مثل هؤلاء الفتيات إلى الانحراف هو الرغبة في إيذاء شعور آبائهن وإشعارهم بالخزي . فعند ما تهاجم إحدى الفتيات أباهن في

لهجة تفيض بالمرارة لأنه لم يظهر أى حب أو استحسان لها ، يمكنك أن تلمس أنها لم تجد طريقة للانتقام منه خيراً من التباهى علناً بمغامرة غرامية تخوضها مع رجل يفتته أبوها . كما أثبتت الدراسات النفسية أن اشتداد الشعور بالمنافسة بين المراهقات وأمهاتهن ، يساعد على تفسير الطريقة التى بها تتورط بعض الفتيات فى المتاعب . فهناك حالات معينة يتضح فيها أن الفتاة عندما تكتشف أن أمها حامل ، تعرض نفسها هى أيضاً للحمل سفاهاً — فى تحد وحماقة — عن طريق الاتصال جنسياً بفتى أو رجل لا يعنى شيئاً بالنسبة إليها . وهناك حالات أخرى نجد فيها الفتاة تبحث عن المتاعب ، عندما تكتشف أن أمها المطلقة أو الأرملة قد اتخذت لنفسها صديقاً حميماً من الرجال . كما أن من للمشكلات المألوفة للاخصائيين الاجتماعيين فى الدور الخاصة بالفتيات اللاتى حملن سفاهاً ، مشكلة الفتاة التى تنطلق نائرة من البيت ، وتتورط فى علاقة جنسية مع أحد الرجال ، لأن أمها قد اتهمتها ظالماً بسوء الخلق . وفى مثل هذه الحالات لا تكون فترة المراهقة هى المسئولة أساساً عن المشكلة ، لأنها لاتنشأ بسبب ازدياد اهتمام الفتاة فى هذه المرحلة بالشبان والرجال . والأجدر بنا أن نقول إن فترة المراهقة تعمق كل المشاعر الإيجابية والسلبية التى تحملها الفتاة نحو أبويها منذ مرحلة الطفولة المبكرة . وهى بصفة خاصة تعمق شعورها بالمنافسة مع أمها ، وتدفعها إلى الاعتقاد بأنه قد حان دورها لتحظى باهتمام الرجال وإعجابهم . كما أن البنت عندما تتحول إلى فتاة جميلة جذابة ، فإن ذلك قد يثير عند أمها شعوراً بالحسد والغيرة دون أن تعى .

ويمكنك أن تلمس دلائل خفية على هذه المنافسة ، حتى فى أسعد الأمور وأكثرها استقراراً . فالفتاة المراهقة قد تتصرف بطريقة ملؤها الثورة والغضب ، عندما تعلم أن أمها حامل ، كما لو كانت تشعر بأن أمها يجب أن تترفع عن « مثل هذا الشيء » ، أو قد تنقد أمها نقداً حاداً ، إذا اعتقدت أن أمها تتصايب أكثر من اللازم فى ثيابها أو حركاتها ، أو قد تتظاهر المراهقة بأنها تفهم أباه وتعامله

خيراً من أمها . وهذا يذكرنا بشعور المنافسة الذي ينشأ عند الطفلة فيما بين سن الثالثة والخامسة من جراء رغبتها في الاستئثار باهتمام أبيها ؛ ذلك الشعور الذي يكتب كبتاً جزئياً بعد سن السادسة ، ثم يعود فيظهر ثانية في سنى المراهقة ، تحت ضغط التغيرات التي تطرأ على عدد الفتاة في هذه المرحلة . ولعل هذا يساعدنا على إدراك السبب في أن بعض المراهقات يعاملن أمهاتهن معاملة في غاية الوقاحة « والرزالة » . فهن يشـمرن بالعداء نحو أمهاتهن ، بيد أن هذا الشـمـور يخلق عندهن أيضاً إحساساً بالذنب ورغبة في العقاب . كما أن هذه الظاهرة توضح لنا السبب في أن الفتاة المراهقة توجه إلى أبيها نقداً مريراً في بعض الأحيان ؛ ذلك لأنها قد تحاول إخفاء مشاعرها الإيجابية نحوه وراء قناع من المشاعر السلبية ، تماماً مثلما يفعل الكبار عند ما يرغبون في إخفاء استلطفاتهم لأشخاص مسنين . فضلاً عن أن المراهقة قد تحاول بهذا الأسلوب استئثار أبيها حتى يمدحها شيئاً من اهتمامه ، حتى ولو اتخذ مظهر الخشونة . وإني لأذكر فتاة من أسرة محافظة كانت دائماً تصرخ في وجه أبيها ، متهمه إياه بأنه أداة طيعة في يد أمها ، وأنه ضعيف مسلوب الإرادة ، حتى وجد الوالد نفسه يصفعها بشدة على وجهها ذات يوم ثم ، أحس بالخجل من نفسه لهذا التصرف الذي بدر منه ، لكنه دهش حين وجد أنها قد تقبلت الصفعة بنفس راضية ، ولم تخرج مشاعرها على الإطلاق .

غير أن الفتاة المراهقة تكتشف آخر الأمر نجوم السينما والمسرح ، كما تكتشف فتیان الحی ، الذين يستوعبون مشاعرها واهتماماتها العاطفية ، وهكذا تقل شيئاً فشيئاً مشاكستها لأمها وأبيها .

والهروب من البيت فكرة تروق للفتاة التي لا تربطها علاقات طيبة بوالديها ، ولا تتمتع بشخصية ثابتة متزنة ، لكنها في نفس الوقت تفتقر إلى الجرأة اللازمة لتحديهما تحدياً سافراً في البيت . والهروب قد يشبع رغبات عديدة عند هذه

الفتاة ، فهو يستهويها لأنه يفتح أمامها آفاق المغامرات العاطفية ، ولأنه يعذب والديها بنار القلق عليها ، ويدفع الجيران إلى التساؤل عن مدى معاملتهما السيئة لها التي دفعها إلى الهروب من البيت . وقد تتوهم مثل هذه الفتاة أن الهروب إنما هو فرصة عظيمة للبحث عن أبوين مثاليين بدلاً من والديها ، يزودانها بالحب الذي لا حدود له ، ويمنحانها الفهم والاستحسان لتصرفاتها ، ويغدقان عليها الهدايا والمزايا ، دون أن يطلبوا منها شيئاً مقابل ذلك كله .

والهروب من البيت ما هو إلا رد فعل متطرف لحالة التذمر الشائعة بين المراهقين — حتى في الأسر المستقرة — من أن آباءهم وأمهاتهم لا يفهمونهم ، وإنني لأذكر مقالا نشر في إحدى المجلات ، عن استفتاء اشترك فيه آلاف من المراهقين من مختلف الأعمار . ولقد تبين من هذا الاستفتاء أن شكوى المراهقين من عدم فهم ذويهم لهم ، تبلغ أقصى مداها في حوالى سن الخامسة عشرة . أما قبل هذه السن وما بعدها ، فإن هذه الشكوى تكون أقل حدة من ذلك بكثير . وقد انتهى كاتب المقال إلى أن الآباء والأمهات يجب أن يقوموا بعمل حاسم فعال للتغلب على هذا العجز في قدرتهم على فهم أطفالهم . ولكن يبدو لى أنه ليس من المنطق فى شيء أن الآباء والأمهات الذين يفهمون أبناءهم وبناتهم فهماً معقولاً في سن الثالثة عشرة وفي سن الثامنة عشرة ، يعجزون بلا مقدمات عن فهمهم في سن الخامسة عشرة . فالأقرب إلى الاحتمال هو أن شعور المراهقين في هذه السن بأن ذويهم لا يفهمونهم ، ليس إلا ظاهرة عادية عند الأطفال في منتصف مرحلة المراهقة . وأعتقد أنها مجرد انعكاس لرغبة المراهق في التباعد عن والديه ، فهو يقصم عرى ارتباطاته القديمة ، ويتحرر من اعتماده على والديه ، كي يحقق لنفسه مزبداً من الاستقلال على أسس سليمة . ومن الطبيعي في رأيي أن يحاول المراهق إلقاء اللوم على الوالدين ، لتسويق هذا الشعور بالتباعد عنهما .

كما أن هناك بعض المراهقين المتهميين الذين يستبد بهم الخوف من عجزهم عن مجابهة المطالب الجديدة لحياتهم الاجتماعية والعاطفية ، لدرجة أنهم لا يجرون على الاشتراك في أى نشاط اجتماعي . ومع ذلك فهم لا يعترفون بهذا الشعور على الإطلاق ، بل يصرون بدلا من ذلك على أن آباءهم وأمهاتهم هم الذين يأبون السماح لهم بالذهاب إلى الحفلات أو مقابلة الأصدقاء والصدقات .

* * *

ومظاهر التوتر عند المراهقين تختلف كثيراً عن مظاهر التوتر عند المراهقات . ذلك أن أحداً للاهتمامات الرئيسية لدى جميع الشبان والرجال هو أن يثبتوا رجولتهم للناس . والأهم من ذلك أن يثبتوها لأنفسهم . على أن الرجولة في المجال الجنسي ليست إلا مظهراً واحداً من مظاهر هذا الاهتمام ، فهي تبدو أكثر وضوحاً في مجالات الشجاعة والقوة والمهارة والصلابة وكسب المال وإعالة الأسرة ، وفي طموح الذكر وتطلعه للتفوق على الآخرين في مجال العمل .

وفي فترة المراهقة بصفة خاصة ، يستبد بالذكر شعوره بالحاجة إلى إثبات رجولته . فلقد حدثت طفرة كبيرة في نموه ، لذلك فهو يحس بالحرج والضيق ، لإدراكه أنه ما زال قريباً من عهد الطفولة . ويحس بالخلية والإحباط ، لإدراكه أنه ما زال يقف موقف الطفل الصغير المعتمد ، في نظر والديه ومعلميه ، وفي نظر القانون أيضاً . كما أنه لا تتاح له فرص كثيرة لإثبات واستعراض رجولته ، اللهم إلا إذا كان من الرياضيين البارزين المرموقين . وهنا نجد أن السيارة تصبح أمراً هاماً جداً بالنسبة للمراهق ، على اعتبار أنها رمز للقوة ، وعلى اعتبار أنها وسيلة ناجعة للتأثير على الفتيات ، ولإظهار مهارته وشجاعته ، وللتسابق مع غيره من سائقي السيارات ، حتى ولو دفعه هذا السباق إلى المخاطرة بحياته أو مخالفة القوانين . كذلك فإن التدخين لا يبدأ كعادة أو مزاج عند

الشاب ، وإنما كوسيلة لتأكيد رجولته ، ولتحدى قواعد السلوك التي يفرضها عليه الوالدان .

أما الشبان حسنو التكيف فهم عادة هؤلاء الذين يحرزون نجاحاً في مجالات النشاط المدرسي ، وفي عقد صداقات مع الفتيات . مثل هؤلاء الشبان يتحنون الفرص الملائمة لهم ، وهم يتطلعون إلى المستقبل بعين التفاؤل والأمل . على أن هناك شبانا آخرين لا تتوافر لديهم هذه القدرة في مجالات النشاط ، لكن آباءهم يضعون لهم مثالا عليا ، فيهدبون حوافرهم بحيث تتجه إلى المجالات الأكاديمية والفكرية والعلمية والفنية .

غير أن موازين الأمور تختلف بالنسبة للشبان الذين نشئوا على أيدي آباء لا يؤمنون بأهمية التعليم أو بضرورة تخطيط مستقبل أبنائهم ، أو الذين نشئوا على أيدي آباء لا يظهرون سوى القليل من التفاني في خدمة أبنائهم ولا يعلقون عليهم آمالا كباراً . في مثل هذه الحالات نجد أن رغبة المراهق في إثبات رجولته تنطلق على هواها ، وتصبح أحد الحوافز التي تدفعه في هذه السن إلى السرقة والهروب من المدرسة وإيذاء الآخرين ؛ إذ يقترح أحد الشبان على بقية « الشلة » فكرة القيام بمغامرة مخالفة للقانون فيوافق كل منهم على ذلك ، بدافع من حاجته إلى إثبات رجولته أمام نفسه وأمام الآخرين . كما أن الرغبة في تحدى السلطات جزء لا يتجزأ من الشعور بالرضا الذي تضيفه عليهم للمغامرة .

عندما كنت أناقش مشكلة انحراف الفتيات ، ركزت اهتمامي على ناحية المنافسة المتطرفة بين الفتيات غير المتزنات وبين أمهاتهن ، وعلى رغبة بعض الفتيات في الانتقام من آباءهن الذين لا يلتفتون إليهن أو يهتمون بهن . فهل هناك ما يقابل ذلك عند الفتيان ؟ نحن نعلم أن الفتي في الفترة ما بين سن الثالثة

.والخامسة يرأوده شعور بالمنافسة مع أبيه ، بدافع من رغبته في الاستئثار باهتمام أمه . ونعلم أيضاً أن القلق الذي يثيره هذا الشعور بالمنافسة يدفعه إلى كبت الأمر كله كبتاً عنيفاً في عقله الباطن . وعند غالبية الفتيان ، يؤدي هذا الكبت إلى خلق رادع شديد ، يجعلهم يتحاشون التعبيرات الجسدية عن الحب بينهم وبين أمهاتهم ، ليس فقط في مرحلة الكهون ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، بل بصورة أشد في مرحلة المراهقة أيضاً . فأنت قلما ترين فتى يرتب رأس أمه أو يناديها بأسماء ترم على التدليل ، مثلما تفعل الفتيات كثيراً مع آبائهن . فالفتى غالباً ما ينفر من أمه عندما تحاول إظهار حبه لها عن طريق الاقتراب الجسدي ، بل إنه قد ينقدها نقداً حاداً عندما ينزلق مئزرها « جونتها » إلى ما فوق ركبتيها ، أو عندما يعتقد أن ثيابها تكشف جسدها أكثر من اللازم . وبعض الفتيات يحرصون أشد الحرص على إخفاء أى شعور بالحب نحو أمهاتهم ، لدرجة أنهم يهاجمونهن في قسوة على كل ما يقدمن عليه من تصرفات ، أو يفهن به من حديث .

وهناك دلائل كثيرة غير مباشرة على أن الشعور القديم بالمنافسة بين الابن وأبيه ، ولو أنه يكبت كبتاً شديداً في نفس الابن ، إلا أنه يستمر عنده طوال مرحلة الصبا ، وفي مرحلة الرشد أيضاً ، وهو يتخذ مظهر المنافسة مع الأب في مجالات المباريات والمهارات والنجاح في العمل . لكننا نجد في معظم الأسر أن خوف الابن من أبيه أقوى كثيراً من خوف البنت من أمها . ولذلك فهو لا يميل إلى مجادلة أبيه أو إثارتة . أما عندما تستبد به الثورة عليه ، فإنه قد يعبس أو يتعمق في سره .

وغالباً ما يحدث أن خوف الفتى اللاشعوري من معاداة أبيه ، قد يؤدي به إلى كبت شعوره بالغضب منه ، لكنه بدلا من ذلك يصب جام غيظه على أمه

(أو على مدرسيه) ، فيثور في وجهها لأنفه الأسباب ، ويختلق موضوعات للجدل معها حول لا شيء على الإطلاق . قد يراودك بعض الشك في صحة هذا القول ، وقد تتساءلين : ما هو الدليل عليه ؟ إليك الدليل : يدخل أحد المراهقين عيادة التحليل النفسى بسبب مشكلة من مشكلات التكيف مع الحياة ، مثل القشل في الدراسة أو العمل ، أو عدم القدرة على مسايرة الناس . وهو يعتقد أن معظم متاعبه ترجع إلى استبداد أمه به ، وأنه يتمشى مع أبيه بصورة رائعة ، لأن أباه رجل معقول إلى حد بعيد . بل إن الغرباء خارج محيط الأسرة يوافقونه على أن العلاقة بينه وبين أبيه علاقة ودية دافئة تقوم على الاحترام المتبادل . ولكن عندما يبدأ المريض في سرد أحلامه (التى تنبع من عقله الباطن) فإن هذه الأحلام لا تلبث أن تصور مواقف عديدة يرى فيها نفسه مهدداً أو مستغلاماً من جانب رجل قوى ، يمثل أباه بصورة ساقرة ، أو يحمل بعض سمات أبيه . (أما إذا ظهرت في هذه الأحلام شخصية تشبه الأم ، فإنها فى العادة تلعب دوراً كله حب وتعاطف وحنان) . وعندما يفكر المريض عن طريق تداعى المعانى فى الأشياء التى تذكره بها التفصيلات المختلفة فى الأحلام ، فإن ذلك يعود به شيئاً فشيئاً إلى بعض المواقف التى طواها النسيان فى طفولته المبكرة ، تلك المواقف التى كان فيها يخشى غضب أبيه ، أو يحس بسخط عنيف على سلطته ، أو يحسده على المزايا التى يتمتع بها ، أو يحق عليه لشعوره بأنه يظلمه . فإذا نجح العلاج فى إعطائه فهماً سليماً لمشاعره العميقة ، وقدرة على التحكم فيها ، فإن ثلاثة تغيرات على الأقل سوف تظراً على شخصيته ؛ فهو سيحل مشكلته فى المدرسة أو العمل ، وسيكف عن تقريع أمه ، وسيذكر أن هناك أحياناً اختلافات واقعية فى رأى بينه وبين أبيه ، ولهذا فإنه لن يخشى الدفاع عن آرائه ، حتى ولو أدى ذلك إلى مناقشات حادة حامية .

وقد يكون من بين الأسباب التي تدفع المراهق المتمرد إلى مصادقة فتاة معينة ، شعوره بأن أمه لن تعجب بها . لكنه بصفة عامة لن يحس بحافز قوى يدفعه إلى استغلال علاقته الغرامية في الانتقام من والديه ، بحيث يجعل منها فضيحة علنية تسيء إليهما . وعلى الرغم من أن الأم قد تراودها رغبة قوية في بتر هذه العلاقة ، فإنها لن تتمكن من إقناع زوجها باستدعاء الشرطة للتدخل في الأمر (وهو ما قد يقدم عليه الأب في حالة ابنته المتمردة) . فالآباء لا تراودهم رغبة ملحة في المحافظة على أخلاق أولادهم مثلما يفعلون مع بناتهم ، ذلك لأنه ما زالت هناك معايير مختلفة في معاملة الأولاد والبنات ، فالأب ينظر إلى ابنه على اعتبار أنه قادر على مواجهة الحماقات التي يرتكبها في مستهل شبابه .

ولنفس هذا السبب ، لا يستبد الدعر بالأب عند هروب ابنه الأكبر من البيت . فإذا كان الفتى صعب القياد ، وكان قد بلغ السادسة عشرة أو تجاوزها وقت هروبه ، فإن والديه قد يعتقدان أن من الأفضل له أن يشق طريقه بنفسه ، لاسيما إذا كانت الأسرة لا تؤمن بقيمة التعليم العالي . وإنى لأذكر مدى تأثير أيام كنت في البحرية ، عندما تبينت الطريقة التي انتقل بها بعض مرضى — الذين ينحدرون من أسر تقطن المناطق الجبلية — من مرحلة المراهقة إلى طور الرجولة . فأحد هؤلاء الفتيين مثلاً وجد نفسه في حوالى سن السادسة عشرة يرفض بفضب تنفيذ أوامر أبيه . وعندما هم أبوه بضربه ذات مرة كي يعطيه درساً في الأدب ، إذا بالفتى دون سابق تفكير يلصم أباه فيوقعه على الأرض . إذ ذاك أدرك أنه قد كبر إلى الحد الذي لا يستطيع معه البقاء في البيت تحت سيطرة والديه . ولهذا هجر البيت ، ثم انطلق للبحث عن عمل في مكان آخر .

أما في الأسر ذات المستوى الثقافي الرفيع ، فإن شعور الأبناء بالمنافسة مع

آبائهم قد لا يسبب متاعب عائلية بصورة سافرة ، لكنه غالباً ما يؤثر في تقدم المراهق في حياته المدرسية . فهناك مثلاً شاب في المدرسة الثانوية أو الكلية الجامعية ، يتمتع بمستوى جيد من الذكاء ، وكان في الماضي يبدى الكثير من الطموح والتعاون في حياته الدراسية ، لكنه قد يبدأ على حين فجأة في إثارة الجدل مع مدرسيه أو يحاول استفزائهم ، أو قد يهبط مستواه هبوطاً ملموساً في معظم المواد الدراسية . وفي حديث ودي بينه وبين معلمه ، قد يعبر هذا الشاب عن أسفه الشديد لما آلت إليه حالته ، قائلاً إنه لا يدري ماذا جرى له ، ولكنه يشعر بأنه عاجز عن أداء عمله في همة وحماسة . وهناك شاب آخر يدل سلوكه العام على أنه يبذل قصارى جهده ، ويهتم اهتماماً شديداً بعمله ، لكنه في الواقع لم يعد قادراً على تركيز انتباهه على دروسه ، أو لم يعد قادراً على فهم مادة معينة من المواد الدراسية . في مثل هذه الحالات ، قد يتضح شيئاً فشيئاً أثناء عملية التحليل النفسى أن بعض المتاعب التي يعانيها الشاب إنما ترجع إلى بعض نواحي المنافسة مع أبيه . الكامنة في أعماق عقله الباطن (والتي ترجع جذورها إلى مرحلة الطفولة المبكرة) . فن الجائز أن يكون هذا الشاب — دون أن يعي — متمرداً على سلطة أبيه أو على الخطط التي يرسمها له أبوه ، وقد يكون خائفاً ألا يحقق من النجاح في الحياة ما حققه أبوه ، أو خائفاً من أن يتفوق على أبيه ، مما قد يثير سخطه وحنقه عليه .

* * *

لقد اعتدنا أن نركز اهتمامنا على ثورة الأبناء ضد آبائهم ، على حين أن هذه الثورة ليست إلا مقدمة للمشكلة الصعبة التي تواجه الشباب ، مشكلة اكتشاف نوع الشخصية التي يريد الشاب أن يكونها عند ما يبلغ مرحلة الرشد . ما هو نوع العمل الذي يرغب فيه ؟ ما هو نوع اتجاهاته واهتماماته في المستقبل ؟ ما هو نوع الزوجة التي سينشدها شريكة لحياته ؟ هذه هي مشكلة الشخصية التي قام

إريك إريكسون بالكثير من الدراسات من أجل توضيحها والتي هي موضوع ، كتابه « لوثر الصغير » .

فبالنسبة لعدد كبير من الشباب ، لا تكون عملية اختيار الشخصية الملائمة ، مجرد انتقال مريح سهل من موقفهم القديم إلى موقف جديد واضح المعالم ، وإنما هي أشبه بعاصفة متقطعة في مشاعرهم ، تستمر عدة سنوات . فالمرهق في هذه الفترة يريد أن يحرر نفسه من سيطرة والديه ، حتى يتسنى له أن يصبح إنساناً راشداً مستقلاً له أثره وفاعليته . لكنه في نفس الوقت يشعر بأنه قطعة من والديه ، لا من ناحية لحمه ودمه فحسب ، وإنما أيضاً من ناحية مثله وميوله وأسلوبه العام في السلوك ، لهذا يجد نفسه مضطراً إلى تحطيم بعض المقومات الأساسية لشخصيته الأولى ، ثم ينتهي به الأمر في معظم الحالات إلى الإحساس بأنه قد حصل على كفايته من الحرية ، وحصل على كفايته من الثقة في قدرته على انتقاء مقومات الشخصية التي تناسبه (حتى ولو كانت من وحى والديه) ثم إعادة تنسيق هذه المقومات والتوفيق بينها ، بحيث تتلاءم مع نوع الحياة التي اختارها لنفسه في عالم الكبار .

وأثناء هذه العملية البطيئة تكون مشاعره مضطربة ومتقلبة ؛ إذ تتوالى عليه نوبات من التحمس السريع (لأصدقاء غير مناسبين له في الغالب) ، ونوبات من وهن العزيمة ، والحيرة الأليمة ، والفضب المفاجيء .

ويحاول المراهقون بطريقة غريزية أن يجربوا أنماطاً مختلفة من الشخصيات (بما في ذلك الشخصيات المستهجنة) وكأنها ثياب يقيسونها على أنفسهم ، بحثاً عن الثوب الملائم ، الذي يضيئ عليهم المظهر الخلاب ، ويبعث في نفوسهم شعوراً بالرضا ، لذلك يوجد عندهم في هذه المرحلة إحساس أليم بذاتيتهم ، إذ

يسألون أنفسهم دائماً ما إذا كانت الشخصيات التي يتقمصونها قد أنتت بالتأثير المقصود على الناس ، أم أنها قد أحدثت أثراً مضحكاً يبعث على السخرية . وهم كذلك يسعون دائماً إلى عقد صداقات جديدة مع الفتيان والفتيات ، ويتخلون عن الصداقات القديمة ، لا لأنهم يقسمون بالغدر وتقلب الأهواء ، بل لأن هناك تغييرات ضخمة تحدث في أعماق نفوسهم على مدى فترة وجيزة من الزمن .

وهناك بعض المراهقين تستبد بهم الحيرة أثناء بحثهم عن « ذات جديدة » ، لدرجة أنهم يشعرون بخوف رهيب من فقدان ما لديهم فعلا من شخصية هزيلة . لذلك فإنهم قد يتحولون فجأة ، وبطريقة محومة ، نحو الدين والاستغراق في العبادة ، أو قد يحدث لهم انهيار عصبي خطير .

ولقد بين إريكسون أن بعض المراهقين يصممون تصميماً قاطعاً على مخالفة اتجاهات آبائهم ، ومع ذلك تستبد بهم الحيرة بشأن تحديد اتجاهات أخرى بناءً بدلاً منها . لهذا يستقر بهم الأمر مؤقتاً على اتجاه أسلوب في السلوك يناقض تماماً مع ما يتوقعه منهم آبائهم . فهناك فتى نشأ في أسرة محافظة ، يقبأه بتحرره من العرف والتقاليد . وهناك فتاة نشأت نشأة قومية ، تهرب من البيت ، وتختلط بنساء سيئات السمعة . فالمرأهق يناقض في عناد جميع تفصيلات أسلوب التربية التي نشأ عليها . لكنه ينتهج الأسلوب الشائع بين أقرانه من المراهقين . ، حتى يحس أنه ينتمى إلى جماعة ما .

إن تكوين العصابات ، كما يقول إريكسون ، قد يكون متنفساً وملاذاً يلجأ إليه بعض الشبان الذين ينتمون إلى الأقليات المضطهدة التي وفدت حديثاً على المدن الأمريكية ، والتي تتعرض للاحتقار والتمييز العنصري . فأباء هؤلاء الشبان يجدون عادة صعوبة كبرى في التكيف مع البيئة الجديدة التي نزحوا إليها ،

من حيث النجاح في ميدان العمل ، ومن حيث المحافظة على العلاقات الوثيقة بين أفراد الأسرة في جو من الهدوء والطمأنينة . لذلك فإن أبناءهم لا يوجد عندهم حافز قوى يدفعهم إلى تقمص شخصيات آبائهم في زهو وكبرياء . لكنهم في نفس الوقت لا يستطيعون أن يتمثلوا جيداً الحضارة الأمريكية السائدة في المدن التي تنبذهم . ولهذا السبب يقوى لديهم الحافز إلى التكتل في عصابات ، حيث يمكنهم أن يشعروا بالاحترام والتفاهم فيما بينهم ، ويكتسبوا شعوراً بالانتماء ، ويتعلموا التعاون فيما بينهم . وهو اتجاه سوى من حيث المبدأ .

وتكوين العصابات ليس إلا صورة متطرفة من صور تكتل المراهقين في جماعات متماسكة . فهم في هذه المرحلة يحاولون تحرير أنفسهم من الاعتماد على آبائهم . لكن حضارتنا الأمريكية لا تعترف بهم في هذه السن كأعضاء ناضجين عاملين في مجتمع الكبار ، لذا فإنهم يؤكدون انفزالهم عن بقية الجماعات التي تختلف عنهم في السن ، بارتداء ثياب من طراز خاص بهم ، واتباع أساليب خاصة في اللهو ، بل وحتى استخدام مصطلحات خاصة بهم . وهم بهذه الأساليب يقاومون إحساسهم بضعف الشخصية ، ويدعمون فرديتهم في فترة الانتقال من المراهقة إلى الرشد .

* * *

ومما يفيد آباء الأطفال العاديين — في اعتقادي — أن تكون لديهم فكرة عن العواصف التي قد تهدر في أعماق أطفالهم في هذه السن حتى يعرفوا كيف يهدونهم سواء السبيل .

فكفاح المراهقين من أجل الحصول على الاستقلال لا يعني مطلقاً أن يكف الآباء فجأة عن توجيههم وتوجيهها حازماً . فالمرأى لا يحارب والديه بقدر ما يحارب

اعتماده عليهما الراسخ في أعماقه . وهو في حاجة لأن يعرف اتجاهات والديه ، حتى يصبح في موقف أفضل ، يتيح له أن يحدد اتجاهاته الخاصة . وهو بينه وبين نفسه يستمد العزيمة من والديه ، حتى تتربى عزيمته الخاصة . فكل المراهقين يعترفون باحتياجهم ورغبتهم في التوجيه والإرشاد ، ولو أنهم قلما يصرحون بذلك لآبائهم وأمهاتهم . على أن الآباء يجب أن يبدوا استعداداً معقولاً لمناقشة مختلف المشكلات مع أطفالهم . ومن المهم أيضاً أن يظهروا ثقتهم الكاملة في أخلاق أطفالهم ، حتى وهم يضعون لهم قواعد محددة بشأن ارتياد الحفلات ومقابلة الصديقات .

ومعرفة الأم بأن قسوة ابنتها عليها إنما هي تعبير عن الشعور العادي بالمنافسة ، لا تعني أبداً أن تستسلم لها ، لأن هذا الاستسلام يثير عند البنت شعوراً بالذنب ، ويدفعها إلى مزيد من الاستفزاز . ومهما يكن من أمر ، فإن الأب ينتمي ، من الناحية العاطفية إلى الأم لا الابنة ، ومن ثم فليس هناك أدنى ذنب جنته الأم ، يدعوها إلى الاعتذار لابنتها ، أو الاستسلام لها . فالأم تدفع عملية نمو ابنتها واستقرارها النفسي ، بأن تتوقع منها السلوك المهدب والتعاون في شئون البيت .

والأب الصالح لا يبتعد عن ابنته المراهقة ، فهي في حاجة إلى صداقته ، واستحسانه لها ، واهتمامه بشئونها . لكنه يساعدها على الاستقلال والنضج بأن يتخلى عن أساليب التدليل التي اعتاد أن يعاملها بها في المراحل السابقة . كما أن عليه بالطبع أن يتحاشى الوقوع في الفخ الذي قد تنصبه له الابنة لا شعورياً ، فتحاول أن تعقد معه حلقاً وثيقاً تستبعد منه الأم ، أو أن تستغله لإغاطة أمها وتقويض سلطتها . فالواقع أن الابنة حين تلمس في جلاء ووضوح أن العلاقة بين أمها وأبيها تقوم على الاحترام والتفاني المتبادلين ولا يمكن هدمها بأي حال ،

فإن هذا سيساعدها على إقامة حياة زوجية سعيدة ، وبنى ثقتها بنفسها وثقتها ببناتها مستقبلاً .

وغنى عن البيان أن دور الأب في تربية الغلام أثناء مرحلة المراهقة ، أهم كثيراً من دوره في تربيته أثناء مراحل الطفولة السابقة ، ذلك أن الأم كانت تستطيع في المراحل الأولى أن تفرض أوامرها عليه ، من حيث نوع الثياب التي يرتديها للذهاب إلى المدرسة ، ومن حيث موعد عودته إلى البيت ، وكيفية معاملته لأخواته . أما الآن وقد اقترب من طور الرجولة ، فإنه يحس أن أمه منفصلة تماماً عن التقاليد والعادات المتبعة في عالم الرجال ، ويحس أيضاً أنه من غير اللائق ، بل ومن المهين له ، أن يتلقى منها الكثير من التوجيه . ولكي يحدث هذا التحول في مصدر السلطة ، فإن الأب الذي اعتاد في الماضي أن يترك معظم مهمة تهذيب الطفل لزوجته ، لا ينبغي أن يستمر مبتعداً عن مشكلات التهذيب والنظام ، ثم يتدخل بعد ذلك ، فينقض القرارات التي تتخذها زوجته ؛ إذ لا بد له أن يتدخل منذ البداية ، ويقوم بدوره القيادي ، بمجرد نشوء المشكلات .

هناك سبب آخر هام يدعو الأم إلى عدم القيام بدور التأديب بالنسبة لابنها في هذه المرحلة ، ذلك أن الغلام في هذه السن قد يميل لأن يصب على أمه الشعور بالعداء الذي يحسه عادة نحو أبيه ، لكن بعض الأمهات قد يصعب عليهن التخلي عن دور السيطرة على أولادهن ، فيتصرفن معهم بطريقة تثير غيظهم . وفي مثل هذه الحالات تحتدم دائماً المناقشات والمنازعات الصاخبة بين الأم وابنها ، كلما اجتمعا معاً في البيت . وهذه المناقشات تحتدم في سرعة خاطفة ، بحيث يصعب على الأب التدخل بينهما . ولهذا يجب أن تبذل الأم قصارى جهدها لتفادي الجدل مع ابنها حول موضوعات يستطيع زوجها أن يعالجها بطريقة أفضل .

(لكنها بطبيعة الحال لا ينبغي أن تستسلم للوقاحة واللوم من جانب الغلام) .
وعلى الوالد أن يسارع فوراً إلى حسم المشكلات التي يثيرها الابن ، وأن يزجره
إذا استدعى الأمر ، لأنه بهذا الأسلوب يجنب الأم مؤونة الدخول طرفاً في
النزاع . والأهم من ذلك أنه يخلق عند الغلام شعوراً واضحاً بأن معظم المشكلات
التي يتمين عليه حلها في ميدان الحياة ، ستكون مع جنس الرجال ، وأن هذه
المشكلات لن تكون عسيرة الحل إذا أدركها على حقيقتها .

لماذا ازداد الانحراف ؟

« لقد تراخت معايير السلوك وظهر
عدد من الاتجاهات التي تبث على
الانزعاج » .

إن السؤال الذي يلح علينا اليوم بشأن مشكلة الانحراف هو : « لماذا زادت
نسبة الانحراف زيادة مطردة منذ أيام الحرب ؟ »

تقول فئة قليلة من المتخصصين : إنه ليس ثمة ما يدل على أن نسبة الانحراف
قد ازدادت عن ذى قبل ، وهم يعتقدون أن هذه الزيادة الظاهرية ، قد ترجع إلى
ازدياد إحساس الرأى العام بالمشكلة ، وإلى ازدياد نشاط رجال الشرطة
والمؤسسات الاجتماعية والمعلمين . كذلك من المعتقد أن الزيادة المطردة التي سجلتها
الإحصائيات فى نسبة الإصابة ببعض الأمراض العضوية والعقلية إنما ترجع جزئياً
إلى تقدم الطب فى تشخيص الأمراض ، وإلى زيادة الدقة فى وصف أعراضها .

والواقع أن تشدد رجال الشرطة من العوامل المؤدية إلى هذا الارتفاع فى
إحصائيات الانحراف ؛ ذلك لأنهم يقدمون المنحرفين إلى محاكم الأحداث ،
بدلاً من الاكتفاء بتوجيه اللوم إليهم . وكلما ازداد انزعاج الرأى العام والصحافة ،
ازداد الضغط على رجال الشرطة لتشديد العقاب ، على أنه من المحال بالطبع أن
نعقد مقارنة دقيقة بين إحصائيات الانحراف فى السنوات المختلفة أو فى المناطق
المختلفة ، لأن القوانين تختلف من منطقة إلى أخرى ، وتتغير من وقت إلى آخر ،
وتتفاوت طريقة تنفيذها تفاوتاً كبيراً .

ومع ذلك فإن معظم الخبراء يعتقدون أن نسبة الانحرافات قد زادت بالفعل

زيادة كبيرة في السنوات التي أعقبت الحرب . على أن أحداً منهم لم يتوصل إلى دليل قاطع بشأن الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة . فالحك الوحيد هو الإحصائيات .

بيد أن بعض الأرقام التي ترد في هذه الإحصائيات ، تقدم إلينا مادة تدعو إلى الكثير من التأمل ؛ فمن الملاحظ أن نسبة الانحراف تبلغ الحد الأقصى في المدن الكبرى . ومع ذلك فقد كانت الزيادة « النسبية » أسرع في المدن الصغرى في السنوات الأخيرة .

وقد نعتقد أن هذه الزيادة في نسبة الانحراف ، مشكلة تنفرد بها أمريكا . ولكن الواقع أن معظم دول أوروبا قد مرت بهذه المشكلة . كما أن روسيا بها عدد من المنحرفين لا يكشف عنه النقاب ، ولكن الصحافة الروسية قد وضعت بالسخط في السنوات الأخيرة من انتشار العصابات ، حتى بين أبناء الموظفين الرسميين وأصحاب المهن .

* * *

تشير الإحصائيات إلى وجود ارتباط بين مشكلة الانحراف وبين الحالة الاقتصادية في الدولة ، فالانحرافات تزداد في سنوات الرخاء وتتناقص في سنوات الكساد . وليس في وسعنا إلا أن نخمن مغزى هذه الظاهرة . في اعتقادي أن الأمر تماسك في ثبات واتزان تحت ضغط الأزمات العصبية ، وأن المخلوقات البشرية تبذل عادة قصارى جهدها عندما يواجهها تحد معين في ميدان الحياة ، ما دام هذا التحدي لا يغلبها على أمرها . أما عندما يأتي المال سهلاً ، فإن القيود تتراخي ، وتقل سيطرة الإنسان على نفسه . وهكذا ينصرف كل فرد في الأسرة إلى متابعة اهتماماته ومصالحه الخاصة . بل إن الآباء أنفسهم في مثل هذه

الظروف ، قد لا يضرهم مثلاً أعلى في التفاني في خدمة أسرهم ، كذلك يصعب عليهم السيطرة على أبنائهم المراهقين في حزم ، عندما يقضى هؤلاء الأبناء أن يكسبوا في وقت الفراغ كفايتهم من المال ، بحيث يصبحون شبه مستقلين عن آبائهم من الناحية المادية .

هناك عامل آخر يلعب دوره في هذه المشكلة ، عند ما يبلغ الرخاء مستوى لم يبلغه في أى وقت مضى ، ذلك أن الملايين من الآباء يربون أطفالهم في ظروف تختلف اختلافاً ملحوظاً عن الظروف التي نشأوا هم فيها . فهؤلاء الآباء قد اضطرتهم ظروف الحاجة في طفولتهم إلى تكريس جانب كبير من وقتهم للقيام بعمل أساسى في البيت أو المزرعة ، كما اضطرتهم إلى ارتداء ثياب قديمة بالية ، وإلى الاستغناء عن اللعب ، وإلى عدم التبذير في شىء على الإطلاق ، وإلى تخصيص جانب من أجورهم للمساهمة في نفقات الأسرة عندما نزلوا إلى ميدان العمل ، لذلك فإنهم حين ينشئون أطفالهم في ظروف اقتصادية مختلفة ، لا تتطلب شيئاً من هذه الالتزامات والمسئوليات ، قد تعثرهم الحيرة في تحديد نوع الواجبات والالتزامات التي يتطلبونها من أطفالهم ، وقد ينتهى بهم الأمر إلى مطالبتهم بأقل القليل . والواقع أن بعض هؤلاء الآباء يميلون أحياناً إلى الإغداق على أطفالهم بالهدايا والمزايا ، التي لا يحتاجون إليها ، بل ولا يطالبون بها ، كما لو كانوا يحاولون بهذه الوسيلة أن يعوضوا في شخص أطفالهم ما لاقوه هم من حرمان في طفولتهم المبكرة .

هناك عامل ميكانيكى بحث لعب دوراً كبيراً في تحرير الشباب من سيطرة الآباء ، سواء من الناحية العملية أو الأخلاقية ، ذلك هو تضاعف عدد السيارات في هذه الأيام ، فإني عندما أتأمل مدى سهولة الحصول على السيارات ، التي

تتيح للشباب فرصة الابتعاد عن رقابة الوالدين ، وإرضاء شهوة الظهور ، واصطحاب الفتيات ، والهروب من البيت ، وارتكاب جرائم الخطف والاعتصاب ، والابتعاد عن مسرح الجريمة ، عندما أتأمل هذا كله ، أدرك كيف كانت وسائل الانحراف محدودة للغاية في الأزمنة الماضية ، بالمقارنة مع هذه الأيام .

كما حدث تغيران آخران في الحياة الأمريكية ، هما : هجرة السكان من القرى إلى المدن ، وعدم استقرار الأسر في مكان واحد . فالأسر تنتقل من حي إلى آخر في نفس المدينة ، كلما تحسنت ظروفها المادية ، وتهاجر من منطقة إلى أخرى بحثاً عن أعمال أفضل . كما أن الشركات تنقل موظفيها من مكان إلى آخر . وهذه الظاهرة التي أصبحت شائعة جداً في هذه الأيام ، كانت تعتبر أمراً شاذاً لا يقبله العقل في الأجيال السابقة .

وليس هناك كبير شك في أن أحد العوامل التي تجعل الآباء يحرصون على سلامة سلوكهم وسلوك أطفالهم ، هو رغبتهم الطبيعية في اكتساب سمعة طيبة بين الجيران . فإذا كان الآباء لا يحرصون في قرارة نفوسهم على انتهاج السلوك السيئ ، ولا يتوقعون البقاء طويلاً في الحي ، أو إذا كانوا يعتقدون أن معظم الجيران لن يطيلوا المكث فيه ، أو إذا كان الجيران من الكثرة بحيث يجمل بعضهم بعضاً ، فإن الآباء لن يحرصوا في هذه الحالة على اكتساب سمعة طيبة في الحي .

وبنفس الطريقة نجد أن الرحالة ورجال القوات المسلحة عندما يعتدون عن موطنهم الأصلي ، يتفاوضون غالباً عن بعض قواعد السلوك التي اعتادوها في مسقط رأسهم . وإنني لأذكر أن أستاذاً جامعياً اتصف بالمثالية ، قد روى لي كيف أنه ، عندما اشترك في غزو بلاد الأعداء ، كجندي في الجيش أثناء الحرب

العالمية الثانية ، كان يجد متعة في تحطيم واجهات المحال ومسرقة بعض الأشياء النافعة ، دون أن يحس بوخز الضمير ، أو الرادع النفسى ، الذى كان من الممكن أن يردعه عن مثل هذا التخريب ، أو يبعث في نفسه شعوراً بالشقاء ، لو أنه كان في موطنه الأصلي .

كما أن هذا الانحلال الخلقى الذى ينشأ عن ابتعاد الفرد عن أقربائه وجيرانه ، يمكن أن نلسه بصورة مجسمة في ارتفاع نسبة الجرائم بين العزاب الذين ينزحون إلى المدن الصناعية بحثاً عن العمل .

ومن النتائج المقلقة غير المتوقعة التى ترتبت على تنفيذ مشروعات التعمير والتوسع في المدن ، ازدياد نسبة الانحراف وزيادة مؤقنة بين أفراد الأسر التى اضطرت — عند ما هدمت بيوتها القديمة — إلى الانتقال من أحيائها الأصلية إلى أحياء أخرى ، وكذلك بين أفراد الأسر التى قدمت للسكنى في البيوت الجديدة ، حيث لا توجد لها جذور أو روابط اجتماعية في بادية الأمر .

* * *

لكنى أعتقد أننا عندما نبحث عن أسباب تزايد الانحراف في الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ، لا ينبغي أن نقصر البحث على العوامل المؤثرة في هذه الفترة وحدها ، فهناك عوامل أخرى بدأت قبل الحرب بأمد بعيد ، وقد يكون لها أثرها حتى الآن .

فقد دعت الحرب العالمية الأولى الملايين من الرجال إلى الالتحاق بالخدمة العسكرية ، كما دعت الملايين من النساء للنزول إلى ميدان العمل في المصانع ، تحمدهم جميعاً آمال كبار في إنقاذ العالم من الدمار . غير أن الحرب ، والآثار التى خلفتها ، كانت مخيبة للآمال ، لذلك تميز العقد الثالث من القرن العشرين بموجة

من الشك والسخرية ، لم يسبق لها مثيل في هذا البلد ، فاتجه الأدب نحو الواقعية القاسية الخشنة . وعمد الروائيون في رواياتهم إلى رسم شخصيات ظاهرها التقى والورع والأخلاق الحميدة ، وباطنها السوء والشر والنفاق . وراح كتاب السير والتراجم يحطون من قدر أبطال التاريخ ، كما أن التعديل الدستوري الخاص بتحريم المشروبات الروحية ، قد قوبل بموجة من الهزء والسخرية ، مما شجع الناس على الاستهانة بكل القوانين . وفي تلك الأعوام أصيبت بعض مظاهر المثالية والبراءة الأمريكية بضربات في الصميم ، لم تفق منها تماماً حتى يومنا هذا . كما أن نتائج الحرب العالمية الثانية ، كانت مخيبة لآمال الشباب ، لاسيما وأن الحرب الكورية جاءت في أعقابها مباشرة ، وازداد التوتر الدولي . ومع ذلك يمكن القول بأن الانحلال الاجتماعي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية كان بدرجة أقل من الانحلال الذي أعقب الحرب العالمية الأولى . وربما كان السبب في ذلك هو أن الناس لم يعقدوا قط آمالا كباراً على الحرب العالمية الثانية ، مثلما فعلوا أيام الحرب العالمية الأولى . ومما لاشك فيه أن نسبة معينة من انحرافات الشباب اليوم ، إنما ترجع إلى شعورهم بأن من حقهم التمتع بشيء من الحرية والانطلاق قبل أن يخضعوا للنظام العسكري الصارم .

وقبل عام ١٩١٨ كان الآباء ورجال الدين هم الذين يصوغون مثل الشباب ، دون أن تنازعهم في ذلك قوى أخرى لها أثرها . أما بعد عام ١٩١٨ فقد ظهرت عدة عوامل أخرى بدأت تشارك الآباء ورجال الدين في هذه المهمة بصورة متزايدة . من هذه العوامل السينما ، والإذاعة ، والأدب الشعبي ، والإعلانات ، وهي بطبيعة الحال تقدم للشباب أفكاراً مختلفة تمام الاختلاف عن أفكار آبائهم ورجال الدين . أضف إلى ذلك أن الآباء أنفسهم قد واجهوا في هذه المرحلة مفاهيم جديدة بشأن نمو الطفل ، حتى لقد أثرت هذه المفاهيم على البعض منهم ،

بحيث فقدوا شيئاً من حزمهم وثقتهم بأنفسهم ، التي كانوا في سبيل الحاجة إليها أكثر من أى وقت مضى ، كي يوجهوا أطفالهم التوجيه السليم في هذه الأزمنة المقلقة المضطربة .

* * *

بالإضافة إلى ما سبق مناقشته من اتجاهات اجتماعية ، ينبغي أن نضع في اعتبارنا التيارات المتغيرة التي تؤثر في جميع شئون بنى البشر . فأزياء الشباب لم تثبت على حال في وقت من الأوقات ، حتى قبل ظهور دور الأزياء المنظمة التي تقوم اليوم بتوجيه الموضة . وفي تاريخ الموسيقى، والعارة والأدب ، نجد أن الاتجاهات الفنية قد تغيرت وتبدلت مراراً وتكراراً ، ما بين القيود الكلاسيكية ، والانطلاق الرومانتيكي في عالم الخيال . كذلك تتأبعت مراحل القوة والضعف بالنسبة للعقائد الدينية والتزمّت الأخلاق .

فعندما يظهر اتجاه جديد في أى ناحية من نواحي الحياة ، فإنه يظل فترة من الزمن يكسب له أنصاراً ومؤيدين ، ويزداد قوة شيئاً فشيئاً ، حتى يبلغ مداه آخر الأمر ، فيسأله الناس ، أو يثوروا عليه أو ينزعجوا منه ، حسب طبيعته . ومن ثم يبدأ رد الفعل ضده .

وإنى أعتقد أن أحد الجذور العميقة التي نشأ عنها الانحراف الشديد في هذه الأيام ، يمتد إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ؛ إذ يرجع إلى قرب نهاية القرن التاسع عشر ، عندما حدث رد فعل شديد ضد اتجاهات العصر الفيكتوري ؛ ففي ذلك العصر كانت معايير السلوك المتعارف عليها ، متميزة إلى درجة ألوية . فقد حاول الناس جميعاً في تلك الفترة أن يتجاهلوا وينكروا جميع النواحي البدائية في طبيعة الإنسان ، لذلك كانت آداب السلوك تتسم بالطابع الرسمي ، وكانت

التياب قائمة يغلب عليها طابع الحشمة . وكان المفروض أن النساء يمثلن البراءة والتواضع والرقه ، إلى جانب احترامهن الزائد وخضوعهن لأزواجهن . وكان المفروض أن الوالدين — اللذين يربطهما رباط وثيق لا ينقسم مدى الحياة — يضربان المثل الأعلى في السلوك القويم ، فهما دائماً على صواب ، لجرد أنهما الوالدان . وكان المفروض في الأطفال أن يكونوا آية في الأدب والأخلاق الحميدة ، دون مراعاة للمشاعر العادية عندهم ، كالطمع والعدا والغيرة والغضب أو الفضول الجنسي .

ثم حدثت ثورة عارمة على كل هذه القيم . ولم تستمر هذه الثورة فحسب ، بل لقد ازدادت عنفاً على مر الأيام حتى يومنا هذا . فمن الواضح الآن أن هناك اتجاهات سائداً نحو التجرد من الرسميات في السلوك والأزياء . كما أن وضع المرأة قد تغير تغيراً كبيراً جداً (ربما إلى الحد الذي أزعج كل من يهتمهم الأمر) . وإن الارتفاع الخيالي في إحصائيات الطلاق ليدل على أن هناك شيئاً خطيراً قد أثر في مفهوم الزواج في أذهان الكثير من الناس . وقد سجل تقرير كينسي ذلك التغير الذي طرأ على السلوك الجنسي لدى الراشدين والمراهقين على السواء . أما فيما يختص بتربية الأطفال ، فقد وصل رد الفعل في بعض الحالات إلى الحد الذي تجاوز معه فكرة فهم الأطفال بقصد توجيههم توجيهاً حكيماً ، إلى التهاون معهم أكثر من اللازم ، في أسلوب يفلب عليه التهيب منهم ، أو عدم الاكتراث بهم .

قد تظنون أنى رسول يفذر بسوء المصير ، إذ أنبهكم إلى هذا الانحلال في معايير السلوك وإلى جميع المؤثرات المفاقمة التي سادت في النصف الثاني من القرن العشرين . كلا ، ليست هذه هي الفكرة التي أستهدفها ، فهدي المباشر هو أن أقدم بعض التفسيرات التي توضح الأسباب المؤدية إلى زيادة نسبة الانحراف .

هنا أبين لكم أن هناك أسباباً عديدة محتملة لهذه الظاهرة ، حتى لا تعزيبكم الدهشة أو الحيرة ، وحتى لا تهين عزائمكم وتفقدوا الأمل ، حين تجدون أن نسبة كبيرة من شبابنا تفوق المعتاد قد انحرفت عن الطريق السوى . والواقع أننا عندما نضع جميع العوامل في اعتبارنا ، سوف نلاحظ أن نسبة الشباب الذي يتعلم في المدارس اليوم أكبر منها في أي وقت مضى ، وأن معظم هؤلاء الشباب يبذلون جهداً كبيراً في دراستهم ، ويظهرون نضجاً واضحاً في فهمهم للحياة ، بل إنهم يفوقون آباءهم وأجدادهم في هذا المجال . لكني لا أعني بذلك أننا نبذل قصارى جهدنا لمساعدة شبابنا . وسوف أناقش هذه النقطة في الفصول التالية .

على أن المربوط الواضح في بعض معايير السلوك ليس بالضرورة خسارة لنا . فالكثير من مثل القرن التاسع عشر كانت مثلاً جوفاء عياء زائفة ، تعرقل الشباب أكثر مما تلهمه . وكان لزاماً علينا أن نصحح هذه المثل قبل أن نسير قدماً إلى الأمام . ولكن الشيء المؤسف حقاً هو أن ثورتنا على اتجاهات القرن التاسع عشر قد دفعتنا إلى التطرف في بعض النواحي ، تماماً مثلما تدفع الثورة بعض المراهقين إلى الكفاح فترة من الزمن في سبيل اتباع أسلوب في السلوك يتنافى تماماً مع اتجاهات آبائهم . ونحن لا يمكننا بأية حال تجاهل التغييرات الصناعية والاجتماعية التي تؤثر على أسلوبنا في الحياة . لكننا في الوقت نفسه لا ينبغي أن نقبلها على علائها في سلبية تامة ، لذا يجب علينا أن نرقب الطريق الذي تجرنا إليه هذه التغييرات ، وأن نبذل جهوداً عاقلة للسيطرة عليها . وهذا يتطلب منا أن نضع لأنفسنا عدداً من المبادئ والعقائد القعالة المثمرة — في الناحيتين الروحية والعملية على السواء — التي تحدد لنا نوع المجتمع الذي نريد أن نحلقه لأطفالنا ، كما تحدد لنا الأسلوب الذي ينبغي أن نتبعه في تربيتهم ، كي يحققوا أكبر قدر من الفائدة في هذا المجتمع .

ولا يفوتني أن أعبر عن بعض الآراء بشأن أسلوب معاملة المراهقين ذوى الشخصيات السوية فى هذه الأزمنة المعقدة التى نعيش فيها . أعتقد أن إحدى المشكلات الشائعة اليوم هى أن بعض الآباء قد اعترأهم التردد فى تربية أطفالهم ، من جراء تغير العادات والتقاليد ، ومن جراء خوفهم أن يوصفوا بالشدة والتزمت والرجعية . وسرعان ما يكتشف المراهقون هذه الثغرة فى سلوك آبائهم ، فيحاولون فى كثير من الأحيان النفاذ منها ، كى يروا هل فى وسعهم تخفيف بعض القيود المفروضة عليهم . وهم يتعلمون بالمران كيف يصبون لومهم على آبائهم من خلال هذه الثغرة ، فيصبون الهدف المنشود . وبالرغم من أنهم يتصرفون كما لو كانوا ينشدون التخلص من جميع القيود المفروضة عليهم ، فإنهم يحسون بالخوف ، إذا نجحوا فى التحرر منها . ذلك لأنهم فى الواقع يسألون أنفسهم معظم الوقت عما إذا كان لديهم من الحذقة ما يؤهلهم للقيام بأدوار الكبار . وهذا التردد الذى يعتل فى نفوسهم ، قد يضطرهم إلى استئذان الوالدين بشأن الخروج مع أشخاص معينين ، أو بشأن زيارة أما كن غير مأوفة ، أو السهر إلى ساعة متأخرة من الليل . فإذا تردد الوالدان فى منحهم الإذن أو رفضا ذلك ، فإنهم يشرعون على الفور فى توجيه اللوم إليهما ، ذلك أنهم من ناحية المبدأ يرغبون فى الحصول على الإذن من الوالدين . أما إذا تعذر الحصول عليه ، فإنهم ينحدون عليهما باللوم فى لهجة نائرة ، لأنهم يريدون أن يخفوا عن أنفسهم شعورهم الدفين بعدم الثقة فى قدرتهم على السلوك المستقل . ولهذا فعلى الآباء والأمهات أن يتجاهلوا كلمات اللوم التى توجه إليهم ، ويحددوا موقفهم من كل مطلب يطلبه أبنائهم على ضوء الظروف التى تحيط به .

ومن الظواهر الاجتماعية التى تفشت دون ضابط أو رابط فى هذه الأيام ، ظاهرة ارتباط الفتى بفتاة واحدة ارتباطاً ثابتاً فى السنوات الأولى من مرحلة المراهقة . ولا يدرك أحد على وجه التحديد من أين نشأت هذه الظاهرة . فعظم الآباء

والأمهات لا يشجعونها بطبيعة الحال ، لأن الغالبية العظمى من الفتيان والفتيات الذين يسرون في هذا الاتجاه ، لا يتوافر لديهم الاستعداد لمثل هذه العلاقات العاطفية ، كما أنهم ليسوا على درجة كافية من النضج تؤهلهم لمثل هذا الاختيار المحدود في مجال الصداقة . ومع ذلك فإن انتشار هذا الاتجاه بين معظم الشباب قد دفع غيرهم من المراهقين الصغار الخجولين إلى اتباع نفس الأسلوب . وربما كان ذلك ناشئاً عن رغبتهم في الشعور بالطمأنينة الاجتماعية في الحفلات ، أو عن رغبتهم في إثبات نجاحهم في اكتساب الصديقات كغيرهم من الفتيات . أما بالنسبة للآباء والأمهات ، فإن مشهد فتى وفتاة يراقصان أحدهما الآخر باستمرار طوال السهرة ، يبدو كما لو كان يفسد بهجة الحفلة ، إذ يقلقهم ثبات العلاقة بين فتى وفتاة لا اعتقادهم أن هذه العلاقة تحرم كلا منهما من التعرف على الآخرين ، وقد تؤدي إلى خلق صلة وثيقة بينهما ، يمكن أن تكون لها في المستقبل نتائج خطيرة من الناحيتين العاطفية والاجتماعية . وفي اعتقادي أن الآباء والأمهات الذين يحسبون بأن من الخطأ نشوء هذه العلاقات الثابتة بين الفتيان والفتيات في سنى المراهقة المبكرة ، من حقهم أن يتدخلوا لمنع هذه العلاقات ، في أسلوب يتسم باللباقة . وليس من الضروري أن يظهر الوالدان استخفافاً بعلاقة ابنتهما العاطفية ، أو شعوراً بأنه يقتصر على النضج . فالواقع أنه ينبغي عليهما التظاهر بالسرور ، لأنه قد عثر على مثل هذه الصديقة الجذابة ، لكنهما يستطيعان في نفس الوقت أن يوضحا له أن مثل هذا الارتباط الوثيق بفتاة واحدة قبل الزواج بسنين طويلة أمر بعيد عن الحكمة والصواب ، وأن يوضحا له أيضاً أن الفتيان لا ينبغي أن يعقدوا صداقات مع الفتيات إلا في نطاق الجماعة .

وعلى الآباء أن يتبعوا أنواع الأفلام التي تعرض في دور السينما بالحي ، ويطلبوا إلى أطفالهم عدم مشاهدة الأفلام غير اللائقة . في هذه الحالة ، حتى لو خالف

الأطفال سرّاً تعليمات آبائهم ، فإن هذه التعليمات سوف تغير أمامهم السبيل ، بحيث يمكنهم الحكم على هذه الأفلام حكماً سائماً .

ومن الأساليب السديدة المفيدة أن يعتاد الآباء الاستفسار من أطفالهم عن الرفاق الذين يصحبونهم في الحفلات والزهرات ، وأن يشتركوا في وضع الترتيبات وتحديد المواعيد المناسبة لهذه الحفلات والزهرات . ومن الممكن أن تبدأ هذه العادة بطريقة طبيعية في مرحلة المراهقة المبكرة ، بحيث يمكن الاستمرار فيها دون ما حرج أو ضيق لعدة سنوات ، حتى يثبت الطفل نضجه وقدرته على تدبير أموره بنفسه .

ويكاد يكون من المؤكد أن الأطفال سيحتاجون أحياناً احتياجاً شديداً على هذا التدخل ، قائلين : إنه ما من أحد غيرهم يعود إلى البيت في هذا الموعد المبكر ، أو إن المكان الذي يريدون الذهاب إليه مكان محترم ، أو إن الشخص الذي سيقود السيارة من نسور الكشفة . على أن خير ما يمكن أن يفعله الآباء لصدد هذا الهجوم ، هو مداومة الاتصال بأهالي أصدقاء أطفالهم ، ومناقشة مثل هذه المسائل معهم في مجالس الآباء والمعلمين . وليس معنى هذا أن تحس أي أسرة أنها ملزمة باتباع الأساليب التي تسير عليها غالبية الأسر . ولكن من المفيد جداً الحصول على صورة واضحة عن الموقف بوجه عام ، عن طريق الاستماع إلى مختلف وجهات النظر ، ومعرفة الأساليب التي ينتهجها الآباء على اختلاف أنواعهم . ومن الأشياء التي تبعث على السرور والارتياح ، أن تجد معظم الآباء متفقين معك في وجهة نظرك (على عكس ما يصوره لك أطفالك) وأن تجد الجميع مستعدين للاتفاق معك في كثير من الأمور الهامة الخاصة بتربية الأطفال في الحى . كما أن مثل هذا الاتفاق يدخل الراحة على نفوس الأطفال أنفسهم ، لأنه يطمئنهم إلى أنهم لن يشدوا عن السلوك العام ؛ بشكل يجعلهم موضع الهز والسخرية بين أقرانهم .

علاج الانحراف

« هنالك الكثير من الجهد وعدم
الاكتراث ، ينبغي التغلب عليه » .

عند ما يضبط أحد الجيران — مثلاً — شاباً أثناء ارتكابه عملاً غير مشروع ، فإن هناك نتائج عديدة قد تترتب على ذلك . فإذا اكتفى هذا الجار بإبلاغ الوالدين ، فإنهما سيعالجان الأمر . أما إذا استدعى رجال الشرطة ، فإنهم قد يخلون سبيل الشاب بعد توجيه اللوم إليه ، أو قد يودعونه مؤقتاً إحدى الإصلاحيات أو السجون حتى يمثل أمام المحكمة . وفي حالة تقديمه للمحاكمة ، قد يرفض القاضي الدعوى ، أو يحكم بوضع الشاب تحت المراقبة ، أو يحوله للعلاج في إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية أو غيرها من المؤسسات الاجتماعية . وقد يحكم القاضي بإيداعه أحد بيوت التبني إذا كانت ظروف الأسرة سيئة ، أو يقضى بإرساله إلى إحدى الإصلاحيات .

وأسلوب معالجة الفتى أو الفتاة في أى من هذه المراحل ، قد تكون له نتائج حسنة أو سيئة ؛ فالمرأى في هذه السن يتحسس طريقه بحثاً عن تكوين شخصية راشدة ، وتتنازع في هذه المرحلة مختلف الدوافع والنزعات التي تتصارع في نفسه . فشعور الابن بالمنافسة مع أبيه (والبنت مع أمها) ، يدفعه إلى التمرد على كل السلطات باعتبارها متعسقة ظالمة . لكنه في نفس الوقت يتطلع لأن يعترف به الناس كعضو مكتمل النضج في المجتمع . لهذا السبب قد يكون من السهل في مرحلة معينة من مراحل المراهقة ، أن ندفعه في اتجاه البناء أو في اتجاه الهدم . وبناء على ذلك فإن الطريقة التي يعامل بها من جانب والديه ومن جانب رجال الشرطة ورجال القضاء وغيرهم من الناس ، قد تلين قلبه أو تقسيه .

وعندما يكتشف الوالدان ، عن طريق الجيران أو عن طريق المدرسة

أو رجال الشرطة ، أن أحد أبنائهما متهم بارتكاب مخالفة ما (حتى ولو كانت هذه المخالفة مجرد سرقة بعض الكوبونات من درج طفل آخر) فإن هناك عدة قواعد سليمة ينبغي أن يسيرا على هديها في هذه الحالة . لابد أولاً أن يسمعا القصة من الطفل نفسه ، وأن يظهرأ له ثقتهمأ بصدقه وأمانته ، إذا ما كانت قصته معقولة ومقنعة . ومن ناحية أخرى ، لابد أن يصرا على استخلاص الحقيقة كاملة منه ، ولا يتحرجا من الإلحاح في السؤال حول الموضوع ، ولا يسمحا له بتضليلهما عن طريق إخفاء الحقيقة عنهما ، ذلك لأن الطفل إذا كان مذنّباً بالفعل ، وأحس في قرارة نفسه أن والديه يخافان اكتشاف الحقيقة المرة ، أو أنهما مستعدان للتجاوز عن ذنبه ، أو مستعدان للتستر عليه ، فإنه يعتبر هذا التصرف منهما بمثابة تصريح صامت له بالتماذى في الخطأ ، مما يفسد ضميره ، ويسهل عليه ارتكاب مخالفات أخرى. لذلك يجب أن يصرا والدان على أن يعتذر الطفل فوراً عن ذنبه ، وأن يعيد الشيء المسروق إلى صاحبه ، أو يعوضه عنه . وهذا لا يعنى إذلال الطفل (فالإذلال بلا داع ليس من الحكمة في شيء) ، وإنما يعنى إقرار العدالة والحق . وفي الوقت الذى يوضح فيه الوالدان للطفل بكل جلاء أنهما يستنكران فعلته ويحظران عليه تكرارها ، لا ينبغي في ثورة غضبهما عليه أن يتصرفا معه كما لو كانا ينبذانه تماماً كابن لهما . فمن الصواب أن نفترض وجود جانب خير في نفس كل إنسان . وهذا الجانب الخير في الطفل هو الذى يخاطبه الوالدان . فالواقع أن الشيء الوحيد الذى يعيد المذنب إلى طريق الخير والصواب هو حاجته الماسة إلى الاحتفاظ بحب أقرب الناس إليه . فإذا شعر الطفل المذنب أنه قد فقد هذا الحب إلى الأبد ، فإن اتجاهاته المعادية للمجتمع لا تلبث أن تنطلق على هواها ، وتتحكم في سلوكه .

والخطوة التالية هي أن يحاول الوالدان فهم المعنى الكامن وراء المخالفة التى ارتكبها الطفل . فإذا اتضح أنها تدل فقط على قصور مؤقت في قدرته على

الإدراك السليم ، وكانت هناك ظروف مخففة تعطيه بعض العذر ، وإذا كان الطفل ذا شخصية سوية بصفة عامة ، فليس هناك في هذه الحالة ما يدعو الوالدين إلى التمدد في بحث المسألة . أما إذا كانت هناك ذنوب أخرى في حياة الطفل ، أو كانت هناك دلائل أخرى على أنه يعاني من اضطراب نفسي ، أو يستبد به شعور بالسخط ، أو يفتقر إلى وازع الضمير ، فلا بد في هذه الحالة من أن ينشد الوالدان مساعدة خارجية من معلميه بالمدرسة ، أو من إحدى المؤسسات الاجتماعية المستقلة بشئون الأسرة ، أو من إحدى عيادات توجيه الأطفال النفسية .

* * *

تقدر الإحصائيات أن ٧٥ ٪ من الشبان الذين يقبض عليهم لارتكابهم بعض المخالفات ، تسوى مشكلاتهم بمعرفة رجال الشرطة أنفسهم ، دون أن يحجزوا في القسم أو يقدموا للمحاكمة . لهذا فإن من المهم أن تكون لدى رجال الشرطة دراية كافية بالعوامل التي تؤدي إلى اختلاف أنواع السلوك عند الأطفال ، وأن تكون لديهم القدرة على التمييز بين أولئك الذين لا يحتاجون إلى أكثر من اللوم والتوجيه ، وأولئك الذين يعانون من اضطرابات نفسية خطيرة ، حتى لا يحرروا المحاضر بلا سبب لأطفال ليس لديهم اتجاهات حقيقية نحو الانحراف . بل إن الأهم من ذلك أن يعرف رجال الشرطة كيف يؤثر على الشباب تأثيراً إيجابياً فعلاً . وإنى لأذكر غلاماً ينتمى إلى أسرة مضطربة ، قد قبض عليه ذات مرة لارتكابه مخالفة بسيطة . ومع ذلك فقد كان غلاماً ذا نوايا طيبة ، من النوع الذى يستجيب للثقة . ولكن شرطى الحى ، على أساس هذه المخالفة الوحيدة التى ارتكبها الغلام ، دأب بعد ذلك على أن ينظر إليه بعين الشك والارتياب . وكما ارتكبت جريمة سرقة أو غيرها من الجرائم فى الحى ، فإن هذا الشرطى كان يتجه فوراً إلى منزل الغلام ، ويكيل له الاتهامات ، ويحاول أن ينتزع منه اعترافاً

بالقوة والتهديد. إن هذا الأسلوب لن يجدى نفعاً مع أى غلام ، مهما يكن نوعه . فالشرطى الذى يلجأ إلى التهديدات والشتائم ، ويفخر بأنه السيد المهيّب فى الحى ، قد يبعث الخوف فى نفوس الفتيان المتهيبين . أما تأثيره فى الفتيان الأشداء فهو من نوع مختلف . إذ أنه يتحداهم بأسلوبه هذا ، فيدفعهم إلى محاولة تضليله والتفوق عليه فى الحيلة والدهاء ، كما يدفعهم إلى التكتل معاً لتحدى كل السلطات والقانون بصفة عامة .

أما الشرطى الصالح ، فهو الذى يعرف بين أهل الحى بأنه يدرك واجبه ، ويقسم بالحزم فى الحق . كما أنه فى نفس الوقت يحظى بحب الناس ، لأنه يؤمن بأن هناك ناحية خيرة فى نفوس الشباب جميعاً ، ويحاول أن يخاطب فيهم هذه الناحية الخيرة . لذلك يفخر فتيان الحى ب صداقتهم له . وعن طريق احترامهم له ، يتربى عندهم احترام القانون .

والشرطى الصالح يقدم للمجتمع خدمات تساوى أضعاف المراتب الذى يتقاضاه . فهو بجهوده يقلل من النفقات المادية — والانفعالية — التى تتكلفتها انحرافات اليوم وجرائم الغد . كيف يتسنى لنا إذن زيادة عدد رجال الشرطة الصالحين ؟ عن طريق منحهم المراتب المجزية وتوفير جو الاحترام لهم ، مما يغرى الرجال الناضجين بالعمل فى هذا الميدان ، كذلك عن طريق إعطائهم دراسات تدريبية فى المسائل المتصلة بنمو الطفل وتطوره .

وبالنسبة للشبان الذين يستلزم الأمر حجزهم فى انتظار إجراءات محاكمتهم ، ينبغى أن تخصص لهم دور خاصة يحجزون فيها ، تصمم بطريقة لا تجعلها تبدو كالسجون ، وتتوافر فيها مجالات النشاط التى تشغل وقت فراغهم بطريقة بناءة ، كما تتوافر فيها أيضاً هيئة من الإخصائيين تنقسم بالكفاية والإدراك السليم . بيد

أنه لا يوجد في الوقت الحاضر سوى عدد قليل جداً من الدور التي تتوافر فيها هذه المستويات ، حتى في مدتنا الكبرى حتى أنه في مناطق كثيرة من الولايات المتحدة ، يودع الأطفال الذين سيقدّمون للمحاكمة (ويصل عددهم إلى ٥٠.٠٠٠ طفل في السنة) في سجون الكبار العادية ، إذ لا توجد أماكن أخرى لهم . وسواء أكانت عند الطفل اتجاهات خطيرة معادية للمجتمع أم لا ، فإن من الأشياء الضارة به أن نعرضه لوصمة السجن والارتباطات التي يخلقها جو السجون .

لقد أنشئت محاكم الأحداث — بمقتضى القانون — على أساس سليم ، وهو اعتبار الأطفال دون سن السابعة عشر غير مسئولين مسئولية كاملة عن تصرفاتهم وأفعالهم ، فهم حتى هذه السن يفتقرون إلى النضج والمعرفة والإدراك السليم وضبط النفس . وهم أيضاً تحت رحمة البيئة التي تحيط بهم في البيت . كما أنهم ، باعتبارهم أجهزة بشرية في طور النمو ، مازالوا قابلين لأن يتشكلوا إلى ما هو أحسن أو أسوأ من ناحية السلوك . ويجب ألا يوصموا علناً أمام الناس ، بوضع أسمائهم في سجلات الشرطة والمحاكم . فأغلب الظن أنهم في حاجة إلى التعليم والعلاج أكثر من حاجتهم إلى السجن والعقاب . ولا ينبغي أن يختلطوا بالجرمين الكبار المعتاة في السجن ، لهذا كله فإن هدف محاكم الأحداث ليس هو توقيع العقوبة أو توجيه اللوم للطفل المنحرف ، وإنما هو تحديد نوع المشكلة التي أدت إلى انحرافه ، وتقرير ما إذا كان الأمر يتطلب تغيير ظروف البيئة التي تحيط به ، أو تغيير الأسلوب الذي يتبع في تدبير أموره ، أو يتطلب نوعاً معيناً من التعليم أو العلاج النفسى . فإذا كان الطفل في حاجة إلى شيء من ذلك ، فإن محكمة الأحداث تعمل على تنفيذ العلاج المناسب له . ومن ثم يجب أن يكون القاضي على دراية لا بالقانون فحسب ، بل بسيكولوجية الطفل أيضاً . ويجب أن يساعده في مهمته عدد من الإخصائيين الاجتماعيين المدربين ، للقيام ببحوث

وتجربيات دقيقة عن حالة الطفل المنحرف قبل نظر القضية ؛ وللإشراف على تنفيذ القرارات التي تصدرها المحكمة . وينبغي أيضاً أن تضم هيئة المحكمة متخصصاً نفسياً وطبيباً للأمراض النفسية مختصاً بالأطفال ، أو على الأقل أن يكون مثل هؤلاء الإخصائيين رهن إشارة المحكمة لاستشارتهم في حالات الانحراف .

والواقع أن كل هذه المزايا لا تتوافر إلا في عدد قليل جداً من محاكم الأحداث ، فالقاضي نفسه قد لا توجد عنده المؤهلات الخاصة التي تساعد على فهم الأطفال والتعامل معهم ، بل إنه قد يكون جاهلاً بالقانون . وفي مثل هذه الظروف السيئة ، قد يحرم الطفل من حريته ومن أسرته ، ويودع في ملجأ لا يناسبه على الإطلاق ، دون أن يستفيد من أية ميزة من الميزات التي يكفلها له قانون الأحداث ، ودون أن يتمتع بالحماية التي تكفلها له الضمانات القانونية التي تطبق في المحاكم العادية . كما أنه في كثير من محاكم الأحداث ، لا يتوافر العدد الكافي من الإخصائيين والباحثين المدربين .

* * *

فضلاً عن ذلك ، فإن وسائل العلاج المتاحة لقاضي محكمة الأحداث ، ليست متوافرة على الإطلاق . فالمؤسسات الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة والطفل ، تعجز أحياناً عن تقديم التوجيه والإرشاد الكافيين للآباء والأطفال . كما أنه من الصعب العثور على البيوت الصالحة للتبني ، وهي ذات أهمية حيوية بالنسبة للأطفال المنحرفين ، عندما تكون أسرهم في حالة من الفوضى الشاملة . والأصعب من ذلك هو العثور على بيوت التبني التي تستطيع فهم ورعاية الأطفال المتمردين . ثم إن عيادات توجيه الأطفال النفسية والعيادات النفسية الخاصة ، قليلة العدد ، بحيث لا تفي بالفرص المنشود .

ومن الضروري عند ذكر العلاج النفسي للأطفال المنحرفين (والمجرمين الراشدين) أن نوضح مدى صعوبة هذا العلاج . ولأنني أقول هذا لأن بعض

الناس لا يعرفون شيئاً عن العلاج النفسى ، اللهم إلا عن طريق بعض المناظر السريعة التى شاهدوها فى الأفلام السينمائية أو برامج التليفزيون . لذلك فهم قد يتخيلون أن هذا العلاج عملية سهلة سحرية ، وأنه فى خلال عدد بسيط من الجلسات يتذكر المريض أحداثاً وخبرات لها دلالتها فى طفولته المبكرة ، ثم يلاحظ الطبيب الفطن العلاقة بين هذه الخبرات وبين أعراض المرض النفسى أو السلوك الشاذ عند المريض ، ويشرح له هذه العلاقة ، فيشفى المريض على الفور .

والواقع أنه حتى فى أحسن الحالات ، قد يتطلب العلاج النفسى تحديد جلسات مع الطبيب ، مرة كل أسبوع على الأقل ، لمدة عام أو عامين ، ذلك لأن الخبرات الماضية التى جعلت المريض على درجة خطيرة من سوء التكيف ، كانت أليمة على نفسه فى حينها ، ومن ثم فإن عملية تذكرها تكون أليمة كذلك . وسرعان ما يحس المريض بهذا الألم ، فيقاوم لاشعورياً عملية تذكر هذه الخبرات ، ولا تلبث نزاعاته العدائية نحو الناس — التى تولدت عنده فى المراحل السابقة من حياته — أن تبدو فى سلوكه مع الطبيب أيضاً . وبعبارة أخرى ، فإن العلاج النفسى عملية بطيئة وشاقة ، بالنسبة للطبيب والمريض على السواء ، إذ لا بد أن تتوافر لدى المريض الرغبة فى تحسين أسلوب حياته ، والاستعداد للاعتراف بأن جزءاً من مشكلته يرجع إلى خطأ كامن فى أعماق نفسه ، وليس نتيجة خطأ من جانب الآخرين . على أن الشاب المنحرف يكون فى العادة ثائراً ساخطاً على أبويه وعلى عالم الكبار بصفة عامة ، لذلك فإنه لا يرغب مطلقاً فى أن يرى تصرفاته الاستفزازية على حقيقتها ، ومن ثم فهو قلما يطلب العلاج النفسى من تلقاء نفسه . وعند ما يقترح عليه أحد زيارة الطبيب النفسى ، فإنه قد يرفض هذه الفكرة ، على اعتبار أنها حيلة أخرى من حيل الكبار لإلقاء اللوم عليه .

لكن الأمر لن يكون على هذه الدرجة من سوء ، إذا كان الشاب مهذب السلوك وحي الضمير أساساً ، لكنه تورط في بعض المتاعب ، نتيجة ثورته على والديه في فترة المراهقة ، أو نتيجة اضطراب في اتجاهاته اللاشعورية ، ففي هذه الحالة ، يدرك الشاب — لا شعورياً — حاجته إلى المساعدة ، وتتوافر لديه القدرة على تنمية شعوره بالثقة بالطبيب المعالج ، بعد أن يجربه فترة من الزمن ، ويلبس منه فهماً صادقاً لمشكلاته . أما الشخص السيكوباتي الذي لم يشعر يوماً بأن أحداً يكن له الحب ، والذي لم يوجد عنده قط أى شعور بالمسؤولية ، فإنه لا يرجى منه أمل كبير في العلاج ، إذ لا يتوافر لديه الحافز لتغيير سلوكه ، أو حتى المحافظة على مواعيده مع الطبيب . والواقع أن معظم الأطفال المنحرفين لا هم أوغاد استبدت بهم نزعة الشر ، ولا عم قديسون أساء الناس فهمهم ، فالغالبية العظمى منهم مصابون باضطرابات في الشخصية ، تجعل مهمة علاجهم النفس شاقة أكثر من المعتاد ، لذلك لا ينبغي أن ننظر إلى هذا النوع من العلاج على أنه دواء لكل داء .

* * *

هناك مشروعان قانونيان قد اقترحا مراراً ، كلما ساد الانزعاج بعض المجتمعات بشأن مشكلة الانحراف هما : حظر التجول على الشباب بعد ساعة معينة من الليل ، وسن قانون يجمل الآباء مسئولين من الناحية المادية عن جرائم السرقة والنهب التي يرتكبها أبنائهم . ولقد أثبتت الخبرة الواسعة عدم فاعلية كل من هذين القانونين ؛ إذا يتضح عادة أن قانون حظر التجول يصبح مصدر ضيق للأسر التي ليست بحاجة إليه ، لكنها تضطر للاذعان له . وبالنسبة للشبان الذين أوشكوا على احترام القوانين ، فإن مثل هذا القانون يمثل ضرباً من ضروب عدم الثقة

بهم من جانب المجتمع ، مما قد يدفعهم إلى تحديه . أما بالنسبة للشبان الذين يحملون في نفوسهم نزعات خطيرة معادية للمجتمع ، ولا يخضعون مطلقاً لسيطرة آبائهم ، فإن قانون الحظر لن يعدو أن يكون مجرد « نكتة » يتندررون بها .

أما من ناحية قانون المسؤولية المادية ، فإن الآباء الذين يشعرون بالمسؤولية ، يسارعون عادة من تلقاء أنفسهم إلى دفع التعويض المادى مقابل الأفعال المنحرفة التى يأتونها أطفالهم ، بغض النظر عن وجود أى قانون يلزمهم بذلك . أما الآباء الذين يعجزون عن السيطرة على أبنائهم حرصاً على مصالحهم ومن أجل المحافظة على سمعة أسرهم ، فإنهم كذلك سوف يعجزون عن السيطرة عليهم من أجل تجنب الغرامات المالية ، فضلاً عن أنهم فى غالبية الحالات لن يجدوا المال اللازم لدفع هذه الغرامات . كما أن أسوأ عيب فى قانون مسؤولية الآباء عن الانحراف أطفالهم ، هو أنه قد يصبح بمثابة حافز خفى يدفع الطفل إلى التمدى فى الانحراف بدلاً من أن يردعه عنه ؛ ذلك لأن معظم المنحرفين يترددون على سلطة آبائهم ، ويرغبون لا شعورياً فى إيذائهم .

* * *

وإصلاحات الأحداث (دور التربية أو دور الكفالة) لا تعتبر من الناحية النظرية سجوناً للعقاب ، على الرغم من أنها قد تتميز ببعض مظاهر الحراسة وإجراءات الأمن . فالغرض الأساسى منها هو تقويم وإصلاح بعض المنحرفين ، الذين يقرر قاضى الأحداث عدم بقائهم فى بيوتهم ، إما لأنهم خطرون على المجتمع ، وإما لأن أسرهم وبيئاتهم لا تستطيع أن توفر لهم الظروف الملائمة للسلوك السليم . وهذا أمر يسهل قوله ، ولكن يصعب تنفيذه . فهناك فئة قليلة من الشهاب المنحرفين الذين استفحل بهم المرض ، بحيث أضحي من

الصعب جداً علاجهم أو تقويمهم ، حتى ولو وضعوا في أحسن الإصلاحات ، وزودوا بأحسن أساليب العلاج النفسى . ومثل هؤلاء قد يتأدون في سلوكهم المنحرف ، حتى يصبحوا من المجرمين الكبار معتادى الإجرام . على أن هناك فئة أخرى أكبر عدداً من هؤلاء ، تشكون من أفراد يعانون من اضطرابات مختلفة في الشخصية ، لكنها لم تبلغ مرحلة حادة خطيرة . ذلك أن هناك عوامل بيئية مختلفة قد ساعدت على انحرافهم : مثل الحرمان من الحب الكافى ، وعدم اتباع نظام ثابت في التهذيب ، واضطراب سلوك الوالدين ، وتفكك شمل الأسرة ، والمجرة إلى الأحياء القذرة في المدن ، والتميز العنصرى ، وبعض نواحي العجز التام التى تعوق القدرة على التعلم في المدرسة . ومثل هؤلاء المنحرفين عادة ما يتجاوبون — إلى حد ما — مع بيئة صحية سليمة ، ويستجيبون للمساعدة التى يقدمها إليهم الإخصائىون الاجتماعيون والنفسيون .

ومن ناحية أخرى ، يوجد فى الإصلاحات بعض الشبان من ذوى الشخصيات السليمة إلى درجة معقولة ، الذين لا ينبغى — من الناحية المثالية — أن يوجدوا فيها . فمن الجائز أن هؤلاء الشبان كانوا ضحية تهوهم واندفاعهم ، أو ضحية بعض المشكلات فى الحى ، أو سوء الحظ ، أو شدة القضاة ، أو عدم فهمهم لمشاكل الشباب . مثل هؤلاء الشبان يسرون على خير ما يرام فى أية إصلاحية يودعون فيها . ومع ذلك فإن اضطرابهم إلى قضاء فترة من الزمن فى الإصلاحية ، سيكون بالنسبة إليهم تجربة أليمة ، تضعف احترامهم لأنفسهم ، وتخلف على الأقل بعض الآثار الطفيفة فى نفوسهم بقية حياتهم .

إن إدارة الإصلاحية الجيدة مهمة شاقة للغاية . فالأم التى تعرف جيداً ما تتطلبه منها تربية أطفالها العاديين ذوى النوايا الطيبة من طاقة وفهم وتقويم لسلوكهم ، والمدرس الذى يعرف جيداً مدى الجهد الذى يبذله فى ضبط وتعليم

فضل عادى بالمدرسة — هذه الأم وهذا المدرس — يستطيعان أن يتخيلا بعض المشكلات التي توجد في إصلاحية بها مئات من المراهقين ، يتصف كل واحد منهم بنوع معين وبدرجة معينة من الميول والاتجاهات المعادية للمجتمع .

فبعض هؤلاء المراهقين قد يكون وقحا أو عابسا أو مرتابا أو عدوانيا ، ليس فقط في لحظات عابرة (كما يحدث في أية أسرة) وإنما بصفة مستمرة . ومثل هذه الاتجاهات تثير الغيظ والكدر ، لا سيما بالنسبة لأفراد هيئة الإصلاحية الذين يحاولون مخلصين التثبت بأهداب الصبر ، أكثر من أولئك الأفراد الذين يطلقون لأنفسهم حرية الأخذ بالثأر من هؤلاء المراهقين ومعاملتهم بالمثل . لذلك فإن التعامل البناء مع مثل هذه الأنماط من المراهقين المنحرفين ، يتطلب درجة عالية جداً من النضج عند جميع أفراد هيئة الإصلاحية ، سواء أكانوا من المشرفين ، أم المدرسين ، أم الإخصائيين الاجتماعيين ، أم الإخصائيين النفسيين . فبالإضافة إلى مهارتهم الفنية ، ينبغي أن يتوافر لديهم حب طبيعى للشباب ، وفهم لسلوكهم ، واحترام حقيقى للصفات الطيبة فى الفرد ، وقدرة على تحريك النواحي الخيرة فيه . كما ينبغي أن تتوافر لديهم فى نفس الوقت القدرة على قيادة الشباب فى أسلوب يتسم بالحزم والوضوح . وبمعنى آخر ، لا بد أن يشعروا شعوراً كاملاً بالأمن والطمأنينة فى قرارة نفوسهم ، حتى لا يحسوا بإهانة شخصية ، أو يتصرفوا بطريقة انتقامية ، إزاء الأسلوب الوقح المشحون بالتحدى الذى يواجهونه دائماً من جانب هؤلاء المنحرفين .

كما يجب أن يكون برنامج الإصلاحية الجيدة متعدد الجوانب ، يتسم بالذكاء والبراعة ؛ إذ لا بد أن يشتمل على دراسات أكاديمية لهؤلاء الذين يتوافر لديهم الميل والاستعداد لها ، وأن يتضمن أيضاً تدريباً مهنيّاً للآخرين ، فضلاً عن أندية النشاط لممارسة الحرف ، ودراسة العلوم والطبيعة الحية .

وفي الإصلاحية ، قد نهن عزائم الكثيرين من الشبان في بادئ الأمر ، بشأن قدرتهم على التعلم ، نتيجة ضعف التحصيل وسوء التكيف في السنوات السابقة بالمدرسة . لذلك قد تبدو عليهم اتجاهات تنم عن الازدراء وعدم الاهتمام بالدراسة . لكن الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها مقاومة هذه الاتجاهات ، هي أن تنظم لها برامج ومجالات للنشاط ، تثير فيهم الحماسة للعمل ، بحيث تكون في مستوى يتيح للمستركين فيها أن يشعروا بالنجاح والتقدم .

على أن الأوصاف السابقة إنما تمثل ما يجب أن تكون عليه الإصلاحية النموذجية. ولكن الواقع أن معظم الإصلاحيات الموجودة فعلا ، تفتقر إلى هذه الصفات المثالية (بدرجة أو بأخرى) ، إذ أن هناك مجزأ خفيا في عدد المشرفين والإخصائيين الصالحين الذين يقبلون العمل في مثل هذه الإصلاحيات مقابل المرتبات الضئيلة التي تعرض عليهم . حتى إن بعض هذه الإصلاحيات لا يكاد يختلف عن بعض السجون الرديئة ، لأن معظم العاملين فيها لا يتوافر لديهم التدريب أو الاستعداد للعمل في هذا المجال ، ولا يتوافر لديهم الحافز لأداء أى عمل أكثر من قيامهم بدور الحراس على الشبان في الإصلاحية . وفي مثل هذه الظروف لن يكون أثر الإصلاحية في المنحرفين هو التقويم والتأهيل لحياة سليمة. حتى إن بعض الشبان الذين يقفون على حافة الانحراف ، يخرجون من الإصلاحية أشد عداء للمجتمع منهم عند دخولها ، وذلك من جراء تأثرهم بالشخصيات المنحرفة انحرافا خطيرا بين الشبان الآخرين ، أو بين أفراد هيئة الإصلاحية أنفسهم .

* * *

قصارى القول : على من تقع مسئولية علاج المنحرفين ؟ إن بعض المواطنين الساخطين ينادون بأنها مسئولية الآباء . والواقع أنه في معظم الحالات حين يكون الآباء من النوع السليم المتزن ، فإنهم يتقبلون هذه المسئولية ، مع شيء من

المساعدة من جانب الإخصائيين في الغالب . غير أننا نجد من ناحية أخرى أن معظم آباء الأطفال المنحرفين يعانون من نفس الاضطرابات الانفعالية والاجتماعية التي يعاني منها أطفالهم ، ومن ثم لا يتسنى لهم مساعدتهم على مقاومة الانحراف ، ما لم يتلقوا هم أنفسهم الكثير من المساعدة على أيدي الإخصائيين . وفي هذه الحالات ، تقع مسئولية علاج هؤلاء الأطفال على عاتق المؤسسات الاجتماعية . وعيادات توجيه الأطفال النفسية ، ومحاكم الأحداث ، والإصلاحات . ولما كانت معظم المجتمعات تفتقر إلى الإخصائيين والإمكانات اللازمة لأداء هذه المهمة على الوجه الأكمل ، فإن المسئولية تعود إلى الجمهور نفسه ، وأعني بالجمهور أنت وأنا والآباء الآخرين في شتى الأنحاء ، ممن يحرصون على مستقبل أطفالهم ومستقبل الأطفال الذين يعاشرهم أبناؤهم . وفي استطاعة مجالس الآباء والمعلمين ، وبنوادي الخدمة ، تنظيم محاضرات يلقيها بعض الإخصائيين الذين يعرفون ظروف البيئة المحلية ، ويدرسون العوامل المؤدية إلى الانحراف في مختلف الحالات الشائعة بين الشباب ، ذلك أن هناك الكثير من الجهل ، وعدم الاكتراث ، ينبئ التغلب عليه في سبيل علاج هذه المشكلة .

ولكى يمكن علاج المشكلة بشكل مرض ، فإن من واجب الكثير من المجتمعات زيادة المساعدات المادية التي تقدم للمؤسسات الاجتماعية . ولا بد أيضاً من زيادة الميزانية المخصصة لرعاية المنحرفين ، من حصيلة الضرائب المحلية والفيدرالية . فالإخصائيون في هذا الميدان يعتقدون أنه بمرور الزمن سيكون من الأوفر لنا تقويم الأطفال المنحرفين الذين يمكن تقويمهم ، من أن ندعهم وشأنهم ثم نتحمل بعد ذلك التكاليف المالية والاجتماعية الباهظة التي ستفرضها علينا حياتهم الإجرامية فيما بعد .

منع انحراف الأحداث

« يمكن إحداث تغييرات كبيرة »
لو أننا طبقنا معلوماتنا وقمنا باستغلال
مواردنا استغلالاً فعلياً .

هل من الممكن منع انحراف الأحداث ؟ إن الآباء في أشد الحاجة إلى معرفة
جواب هذا السؤال . وقد يبدو أن احتمالات هذه المسألة لا تبعث على التفاؤل .
فقد دلت الإحصاءات على أن واحداً من كل اثنين من الفتيان في المدن الأمريكية
اليوم ، يوضع تحت رقابة الشرطة مرة على الأقل ، قبل أن يبلغ الثامنة عشرة
من عمره . (وقد ركزت اهتمامي على الفتيان خاصة ، إذ أن نسبة الفتيان الذين
يخالفون القانون تبلغ خمسة أضعاف نسبة الفتيات) ومع هذا يمكن اعتبار الغالبية
العظمى من هذه المخالفات هينة ، إذ أنها تتمثل في التشرذم والشقاوة والسرقعة ،
وهذه لا تنشأ بالضرورة عن ميول عدائية للمجتمع بدرجة خطيرة ، ومع ذلك
ينبغي أن تكون موضع الاهتمام . ولإني لأعتقد أنه من الممكن إحداث تغييرات
كبيرة ، لو أننا طبقنا معلوماتنا ، وقمنا باستغلال مواردنا استغلالاً فعلياً .

* * *

وضع معايير للسلوك في محيط الأسرة

فلنتحدث أولاً عن منع الانحراف البسيط بين الأطفال العاديين في الأحياء
المتوسطة والأرستقراطية . من البديهي أن خير ضمان لمنع الانحراف يتمثل في
روابط المحبة والاحترام التي تربط بين الصالحين من الآباء والأمهات وبين أطفالهم .
ومع هذا فإن خير الأطفال والآباء يتأثر تأثراً طيباً أو سيئاً بالبيئة التي تحيط بهم

منع انحراف الأحداث

٣٩١

وفي رأيي أن الرخاء الذي أعقب الحرب العالمية الأخيرة وكان سهل المنال ، قد أحدث هبوطاً بسيطاً في معنويات كثير من الناس . على أن خير الوسائل التي يستطيع بها الآباء بث المبادئ السامية في نفوس أطفالهم ، هي أن يشترك الآباء أنفسهم في نشاط جماعي ، سواء أكان هذا النشاط دينياً ، أم إنسانياً ، أم قومياً . ولاشك أن الزيادة التي ظهرت حديثاً في التردد على دور العبادة ، والاشتراك في الدراسات الخاصة بالكبار ، والإسهام في النشاط التمثيلي والموسيقى والمهنى ، لتدل على رغبة متزايدة عند الكبار في البحث عن معنى أعمق للحياة ، ولابد أن تنعكس هذه الرغبة على أبنائهم في النهاية . ومن ناحية معينة ، يتصدر هذه الحركة البناء أغلبية من الشباب الذين يهدفون إلى مواصلة دراساتهم العالية ، ذلك لأنهم يدرسون بروح جادة لم تعهدها الأجيال السابقة .

وأهم من ذلك في رأيي أن يتحقق المزيد من الثقة والوضوح في الأساليب التي ينقل بها الآباء معايير السلوك عندهم إلى أطفالهم . ولسوء الحظ أن كثيراً من الآباء قد اعتراهم التردد في القيام بتوجيه أطفالهم من جراء كل تعاليمنا ونصائهمنا نحن المتخصصين في رعاية الطفولة . وكذلك ظهر رد فعل مطرد في هذا العصر ضد التزمت الأخلاقي والزهو الأجوف اللذين كانا سائدين في القرن الماضي . فقد جعل ذلك الكثير من الآباء الصالحين — لا سيما من درس منهم دراسة عالية — يحسون بشيء من الحرج في التحدث إلى أطفالهم عن العقيدة الدينية ، والاعتزاز بالوطن والولاء له ، والتعلق بالأسرة ، وكذلك النواحي الروحية في الزواج ، وحب الغير . فقد افترض هؤلاء الآباء أن أبنائهم سوف يتمثلون هذه المبادئ بطريقة ما . حقاً إن الأطفال بوجه عام يتصرفون وفقاً لمعايير الآباء في السلوك ، ولكن إلى حد محدود . وزيادة في الدقة ، نقول إنه ما دام الآباء يحملون في نفوسهم آثار نزعات معادية للمجتمع تكن وراء نزعاتهم الخيرة ،

فإن بعض أطفالهم قد يلتقط منهم هذه النزعات العدائية إلى حد يبعث على الدهشة ، ما لم يدرك الآباء بوضوح معايير السلوك التي يتوقعونها من أطفالهم ، ويدخلونها بوضوح إلى هؤلاء الأطفال . وأبسط مثال على هذا ، أولئك الآباء الذين يبالغون في الأدب ، بحيث يتناضون عن سلوك أبنائهم الوقح للففر .

أمل ألا تأخذوا كلامي هذا مأخذاً جاداً أكثر من اللازم ، لو قلت إن عملية منع الانحراف البسيط بين الأحداث في مرحلة المراهقة ، يمكن أن تبدأ منذ مرحلة الطفولة المبكرة . فالأم ، في الوقت الذي تراعى فيه احتياجات وليدها الجديد مراعاة تامة ، يمكنها أن تدربه شيئاً فشيئاً على اتباع جدول منظم للرضاعة ، وبذلك تعلمه أن كل شيء في الوجود يخضع لنظام معين ، وأن عليه مراعاة حاجتها إلى الراحة هي وزوجها . وطبعاً لا أعني بذلك أن طريقة إرضاع الطفل « على هواه » لمدة عام أو حتى عامين ، سوف تؤدي في حد ذاتها إلى خلق نزعة إلى الأنانية في نفسه ، فما زالت أمامه فرص شتى للتعلم في المراحل التالية . ولكن الأم التي تضحى براحتها تماماً لإرضاء نزوات طفلها في العامين الأولين من عمره ، عرضة لأن تستمر على هذا المنوال في علاقتها بطفلها .

فأنا من جانبي أدع الطفل ابن العام يجرب بلطف العبث بإصبعه في قطرة من اللبن أو شيء من « البليلة » على الصينية . لكنني لا أسمح له بإلقاء ملء يده أو ملعته من الطعام على الأرض ، أو « بالشعبطة » على طرف كرسيه العالي وأنا أحاول إعطائه الطعام ، ولا أسمح له أيضاً بشد شعري ، أو عضى بأسنانه .

غير أنني أسمح للطفل ابن العامين ، الذي يعوزه الإدراك الكافي لحقوق الملكية ، بأن يتشاجر من آن لآخر مع رفيق يباريه في القوة ، على لعبة متنازع عليها ، فبذلك يتعلم كل منهما شيئاً من الآخر ، أما إذا دأب الطفل على اختطاف

منع انحراف الأحداث

٣٩٣

اللعب واضطهاد غيره من الأطفال ، فإنى أتدخل فى هذه الحالة ، وأبحث له إذا لزم الأمر عن ند يكافئه فى القوة . كما أنى عند ما يبلغ الطفل الثالثة أو الرابعة ، أعاوننه على تعلم مشاركة الآخرين ، وأعلمه كيف يراعى شعور الكبار ، دون أن أتوقع منه معاملتهم فى أدب إلى درجة الخنوع . ولا أسمح له فى أى سن بأن يسيء استعمال لعبه ، أو يخرب الأثاث ، أو يسيء إلى ، ولو أنى قد لا أخفى عنه أن كل طفل يثور على والديه فى بعض الأحيان .

وفى سن الخامسة أو السادسة ، أتوقع منه أن يساعد الأسرة فى بعض الأعمال البسيطة ، وأن يعامل الكبار فى أدب ، وأن يتعاون مع غيره من الأطفال . أما فى سن المدرسة الابتدائية ، التى يبدى فيها الأطفال اهتماماً طبيعياً بقواعد السلوك والأخلاق ويتلهفون على معرفة آراء آبائهم فى هذا الشأن ، فإنى فى هذه الحالة أحدد لطفلى بكل جلاء معايير السلوك التى أومن بها .

وبعد ذلك تصبح المهمة أصعب من ذى قبل ، لأن المراهقين يحسون أحياناً بحافز قهرى يدفعهم إلى معارضة قواعد السلوك التى يؤمن بها آبائهم ، بل ويدفعهم إلى معارضة فلسفتهم وعقيدتهم الدينية ، وآدابهم فى المعاملة ، وأسلوبهم العام فى الحياة . وهذه الظاهرة تشق على بعض الآباء — الذين يغالون فى التأدب ، أو الذين يسيطرون عليهم إحساس حاد بأنهم من الطراز القديم « دقة قديمة » ، أو الذين يستبد بهم الخوف من الاستبداد بأطفالهم ، أو الذين يحرصون أشد الحرص على أن يكون أطفالهم موضع حب الناس . فمثل هؤلاء الآباء يحجمون عن الإفصاح لأطفالهم عن مشاعرهم الحقيقية ، أو عن توجيههم بطريقة واضحة . ذلك لأنهم لا يدركون أن المراهقين عندما تثور ثائرتهم ، لا يعبرون عن عقيدة راسخة يؤمنون بها ، وإنما يعبرون عن الحيرة التى تسببهم . (أما عندما يكفون عن المعارضة والجدل ، فإن ذلك يدل على أنهم قد تأهبوا لرسم طريقهم

في الحياة) . وهذا لا يعنى أنهم يرغبون في أن تفرض عليهم سيطرة جائرة من جانب آبائهم ، أو أن يعاملوا في تعال وكأنهم أطفال صغار . فما من شك أن معاملتهم معاملة جائرة يسودها الشك والريبة فيهم ، من شأنها أن تحز في نفوسهم لكنهم في قرارة أنفسهم يتوقون إلى معرفة آراء آبائهم في قواعد السلوك ونماذج الناس ، حتى ترشد لهم هذه الآراء للوصول إلى القواعد السليمة .

* * *

تحدى الجماعة

يجب أن نناقش الآن في إيجاز الوسائل التي تكفل منع الانحراف الخطير في المجتمع . وهذا النوع من الانحراف يتركز أساساً في الأحياء الفقيرة بالمدن ، حيث ينعلم عامل الاستقرار بين السكان ، ويكاد ينعلم الترابط والتوجيه والاعتزاز بالجماعة بينهم . فالجماعات الجديدة التي تغد على هذه الأحياء ، تتعرض عادة للعداء والازدراء من جانب السكان القدامى ، كما لا تتوافر لهم في أغلب الأحيان وسائل الترفيه والتسلية . ثم إن سلطة الآباء على أطفالهم تقوضها العادات المحلية التي تتنافى مع عاداتهم .

وقد شكلت بعض الحكومات المحلية التقدمية في السنوات الأخيرة ، عدداً من اللجان للقيام بعملية مسح للمناطق التي تزداد فيها نسبة انحراف الشباب ، كي تركز اهتمام الهيئات الأهلية والحكومية على الاحتياجات المحلية ، وتشجعها على تنسيق خدماتها المختلفة (التي تتداخل أحياناً ، ويفوتها الكثير من المشكلات في أحيان أخرى) ، وكي تحت القادة في المدارس والكنائس والنوادي في المنطقة على التضامن في بذل جهودهم ، وحشد مواردهم المادية ، وتخطيط المشروعات الخاصة بالشباب ، وتوفير مجالات النشاط الترفيهي للأسر (مستغلين في ذلك .

مثلا المباني الخالية وقاعات الاجتماعات التي لا تستخدم إلا في النادر) ، وتشجيع تكوين الجمعيات الشعبية . فنحن نلجس التحسن في معنويات جميع الأسر في الحى ، عندما يقوى عامل الترابط بينها ، والشعور بأن هناك هدفاً مشتركاً يجمعها . وقد أثبتت التجارب أن من الممكن توجيه الحوافز التي تسيطر على أفراد عصابات الشوارع في اتجاه بناء ، لو تكفل بذلك رواد مهرة في توجيه الجماعات .

وهذه كلها مهام ضخام عسيرة ، غير أن بعض الجماعات قد أثبتت أنه من الممكن تحقيقها لو توافرت العزيمة والنية الصادقة .

* * *

إن معظم الأطفال المنحرفين انحرافاً مزمناً وخطيراً ، هم الأولاد والبنات الذين لم يحظوا بالقدر الكافى من الحب ، والذين عانوا من الإهمال أو سوء المعاملة منذ طفولتهم المبكرة . كيف يمكن منع الاعوجاج الأخلاقى عند هؤلاء الأطفال ؟ .

يكون آباء هؤلاء المنحرفين عادة قد عانوا نفس المعاملة فى صباهم ، ولم يستفيدوا سوى القليل من المدرسة ، وشبوا على الاندفاع وعدم الشعور بالمسئولية ، ثم أصبحوا من العمال الفقراء ، وتزوجوا زيجات مقلقة تفتقر إلى الاستقرار . ومن ثم ينتقل هذا النمط بنفس الصورة من جيل إلى جيل . على أن محكمة الأحداث عندما تلمس أن الأطفال يلقون معاملة فى غاية السوء ، يمكنها أن تتدخل فى الأمر ، وتسلمهم إلى إحدى الهيئات المهمة بشئون الطفولة ، التي تعهد بهم إلى بعض بيوت التبني ، وغالباً ما يتضح أن هذا هو الحل السليم لمشكلة هؤلاء الأطفال ، إذا لم تكن أخلاقهم قد أصيبت فعلاً بضرر بالغ يستعصى علاجه ، وإذا أمكن العثور على بيوت التبني الملائمة لهم .

وفي الأزمنة الماضية كان الأطفال الصغار الذين يهملهم آباؤهم ، يودعون في « ملاجئ الأيتام » التي يتصادف أن يوجد بها عدد قليل من اليتامى . غير أنه قد ثبت بالتجربة أن معظم هذه الملاجئ كانت تفتقر إلى المشرفين الصالحين ، الذين يمكنهم أن ينجحوا الأطفال الحب ، والشعور بالانتماء ، والإحساس بالأمن والطمأنينة ، التي تعتبر عوامل أساسية في تكوين الشخصية المتزنة المستقرة .

وبمرور السنين أغلقت معظم هذه الملاجئ ، وأصبح الأطفال المهملون يودعون في بيوت للتبني ، تختارها وتشرف عليها بعض الجمعيات الاجتماعية ، حيث يمكن هؤلاء الأطفال أن يشبوا في محيط عائلي مع الآباء والأمهات الذين يقبضونهم بدلا من ذويهم الحقيقيين . إلا أن بعض هؤلاء الأطفال يكون صعب القيادة بحيث يتعذر على أى أب بالتبني معالجته ، لذلك حولت بعض المؤسسات الاجتماعية إلى « إصلاحيات لعلاج الأطفال » ، حيث يتولى بعض الإخصائيين إصلاحهم وتكوين سلوكهم ، كي يمكن رعايتهم في بيوت التبني (أو في بيوتهم الأصلية) ، بعد خروجهم من هذه الإصلاحيات .

على أن هناك دائما عدداً كبيراً من الأطفال الذين ينشأون في جو من الحرمان وسوء المعاملة ، ولكن ليس بالدرجة العنيفة التي تبرر للمحكمة حجزهم في بعض المؤسسات الاجتماعية ، وإن كان بالدرجة الكافية لأن تخلق عندهم استعداداً للانحراف في المستقبل . وكثيراً ما اشتركت في بعض المؤتمرات مع مشرفات صحيات صادفن مثل هذه الحالات في العيادات النفسية أو في الأحياء التي يعملن بها . فالطفل الصغير في مثل هذه الحالة ، تبدو عليه أمارات تدل على عدم الثقة بالناس ، أو على الرغبة في الإيذاء ، أو على الجموح والتمرد . وتشير المشرفة الصحية على والدى الطفل بأنه سوف يستفيد من إلحاقه بإحدى مدارس الحضانة الداخلية أو بإحدى دور الحضانة النهارية . ولكن غالباً ما يتضح أنه لا توجد مدرسة

ممتازة للحضانة في الحى ، أو أنه لا توجد بها أما كن خالية ، أو أن الأم نفسها لا تبدى اهتماماً كبيراً بمشكلة طفلها . وقد يكون الأفيد من ذلك — من الناحية النظرية — لو أن أحد الوالدين أو كليهما ظل مدة طويلة يتلقى النصيح والتوجيه من إحدى جمعيات الخدمة الاجتماعية المشتغلة بشئون الأسرة . ولكن تكون مشاعر الوالدين وتصرفاتهما عادة مهوشة ومضطربة إلى حد بعيد ، بحيث يتعذر عليهما المبادرة بطلب مثل هذه المساعدة من جمعيات الخدمة الاجتماعية أو المحافظة على المواعيد التى تحددها . وفضلاً عن ذلك ، فإن معظم جمعيات خدمة الأسرة مشغولة للغاية بالعمل مع الآباء والأمهات الذين يتعاونون معها ، بحيث لا يتوافر لها سوى القليل من الوقت أو الميل لمطاردة « الزبائن » الذين لا تبشر تصرفاتهم بالخير . وقد يتوهم المرء أن الآباء والأمهات الذين يعوزهم الشعور بالمسئولية ، يمكن شيئاً فشيئاً أن يكتسبوا المزيد من النضج ، إذا قبلوا واشتركوا في مجالات النشاط الجماعى بالكنائس أو غيرها من المراكز الاجتماعية بالحي . غير أنهم في الواقع من السطحية والأنانية بحيث يتعذر عليهم خلق صداقات حقيقية مع الآخرين ، أو المساهمة بأى شئ في خدمة الجماعة

* * *

لقد ركزت اهتمامى على النواحي السلبية من المشكلة ؛ لأننا بتنظيمنا الحالى للخدمات الاجتماعية لا نفعل سوى أقل القليل للخروج من هذه الحلقات المفرغة التى ندور فيها . ومهما يكن من أمر فإن الإخصائيين الذين عملوا جاهدتين على علاج حالات بعض الناس السطحيين عديمي الإحساس بالمسئولية ، يعرفون جيداً أن عدداً كبيراً من هؤلاء الناس يمكن مساعدتهم على النمو والنضج — إلى حد ما — لو أن مرشداً متخصصاً مديده إليهم لكسب صداقتهم ، وأبدى لهم قدراً كبيراً من التسامح والفهم ، وأعطاهم الكثير دون أن يطلب سوى القليل ،

وحاول توجيههم في صبر وأناة ؛ إذ يمكن القول بأن هذا المرشد — من ناحية معينة — إنما يمد هؤلاء الناس الذين يشبهون الأطفال في سلوكهم بالحب الأبوي الذي افتقدوه في طفولتهم ، مما يدفع عملية نضجهم التي تأخرت طويلاً .

لكننا قبل أن نستطيع الحد فعلاً من الزيادة المطردة في حالات معتادى الانحراف والإجرام ، يجب علينا أولاً أن نزيد إلى حد كبير الإمكانيات اللازمة للوصول إلى هذه الأسر المنحرفة ، عن طريق التوسع في الخدمات الاجتماعية . وسوف يتطلب هذا زيادة المساعدات المادية التي تقدم إلى حملات الخدمة الاجتماعية ، بل وقد يتطلب أيضاً زيادة الضرائب . لقد قرأت أن القبض على مجرم واحد لا غير ، ومحاكمته ، وتوقيع العقوبة عليه ، يكلف المجتمع ٣٠٠٠٠ دولار . على حين أننا بـ ٣٠٠٠٠ دولار نستطيع أن نفعل الكثير في مجال مكافحة الجريمة والانحراف .

* * *

في إطلالة المدارس الصالحة أنه تخلص أطفالهم شعورهم بالمسؤولية

المدرسة هي القوة التي تلي الأسرة من حيث أثرها الفعال في تكوين أخلاق الطفل . فهي من نواح عديدة ، تستطيع أن تدفعه في اتجاه التوافق مع المجتمع واحترام القانون ، أو تدفعه — بدون قصد منها — في الاتجاه المضاد . وأنا شخصياً أعتقد أن الأمل المرتجى في تخفيض نسبة الانحراف بين الأحداث . يتمثل في رفع مستوى جميع مدارسنا ، بحيث تدنو من مستوى المدرسة المثالية .

إن نسبة كبيرة جداً من المنحرفين كانت تعاني من مشكلات في المدرسة . فالطفل الذي يمجز عن مساهرة تلاميذ فصله من الناحية الدراسية ، أو الذي يشعر بأنه منبوذ من زملائه ومدرسيه بسبب سوء سلوكه ، عرضة لأن يصبح — إلى

حد ما — طفلاً معادياً يحقر الآخرين ، كرد فعل لشعوره بعدم الانتماء إلى الجماعة؛ ذلك لأن كبرياءه توحى إليه بأنه ما دام عاجزاً عن الانضمام إلى الآخرين ، فإن في وسعه أن يعاديه . وشعور الطفل بالانتماء أو عدم الانتماء إلى رفاق الفصل في سن الثامنة ، غالباً ما يتحول إلى شعور بالانتماء أو عدم الانتماء إلى المجتمع في سن الثامنة عشرة ، لأن المدرسة هي المجتمع بالنسبة إليه في مرحلة الطفولة .

وقد أثبتت البحوث أن شخصية المعلمة ، واتجاهها الأساسي نحو الأطفال ، لها أثر حاسم فيهم . فإذا كانت المعلمة (أو المعلم) شخصية تميل إلى اللوم والنقد ، وتشك في بعض الأطفال بالذات ، ولا تثق بقدرتها على معالجتهم ، فإنها بذلك تبعث في نفوسهم شعوراً بأنهم منبوذون من حظيرة الجماعة ، وأنهم قد يكونون أطفالاً خطرين . حقيقة إن معظم هؤلاء الأطفال يتوافر عندهم القدر الكافي من الاتزان النفسى ، بحيث لا تجرح مشاعرهم جرحاً بالغاً من جراء معاملة المعلمة لهم . غير أنه قد يوجد في الفصل عديد من الأطفال الذين يتأثرون من هذه المعاملة ، فينضمون إلى صفوف الكارهين للمدرسات والمدارس ، لا سيما في الأحياء التي يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار . ومن الملحوظ أن الأطفال الذين يشعرون بالعداء من جانب معلمتهم ، يتشاجرون أكثر من غيرهم فيما بينهم أثناء الفسحة وبعد انتهاء اليوم المدرسى . أما المعلمة المحبة الودود فإنها تبث شعوراً بالانتماء في نفوس جميع الأطفال — سواء أكان سلوكهم حسناً أم سيئاً ، وسواء أكانوا أذكى أم أغبياء . والوسيلة التي يمكننا بها أن نحصل على العدد الكافي من المعلمات المحبات الودودات ، هي أن نجعل التدريس مهنة جذابة ، بحيث يتقدم إلى معاهد تدريب المعلمين والمعلمات عدد يزيد على حاجتنا ، فيمكننا في هذه الحالة أن نرفض أولئك الذين لا يحسون فعلاً بميل كبير إلى الأطفال .

هناك عوامل عديدة تؤدي إلى تخلف الطفل في الدراسة . لكنني سأذكر بضعة عوامل منها فقط ، فإذا كان الطفل من الذين يستبد بهم القلق ، أو الذين طانوا من الحرمان أشد المعاناة في طفولتهم المبكرة ، فإن قدرته على الانتباه إلى أى موضوع من الموضوعات قد تكون محدودة . كما أن هناك أيضاً ناحية القدرة العقلية ، وهي تتفاوت تفاوتاً كبيراً من طفل إلى آخر بطبيعة الحال . ونحن عرضة لأن نفكر فقط في المشكلات الخاصة بالطفل الممتاز والطفل المتخلف تخلفاً واضحاً ، ناسين أن في الفصل الدراسي العادي يوجد عادة فرق ملحوظ بين مستوى الاستجابة عند الطفل الذي يكون معامل ذكائه ١١٠ ، وبينه عند الطفل الذي معامل ذكائه ٩٠ . ثم إن هناك أيضاً بعض نواحي العجز التي تعوق الطفل في عملية التعلم ، لاسيما تعلم القراءة ، والحساب كذلك . وهي كثيراً ما تظهر عند الأطفال ، حتى الذين يكون مستوى ذكائهم عادياً أو مرتفعاً . فهناك نسبة تتراوح ما بين ١٠ ، ١٥ في المائة من الأولاد (وما بين ٢ ، ٣ في المائة من البنات) تلاقى صعوبة ملحوظة في تعلم القراءة . وحيث إن القراءة عامل أساسي في تعلم المواد الأخرى ، فإن هؤلاء الأطفال يفتقدون من جراء هذه الصعوبة شيئاً من شعورهم بالثقة بأنفسهم ، وشيئاً من حماسهم للمدرسة . وهذه الناحية ، عند ما تتمزج مع بعض العوامل الأخرى ، يمكن أن تؤدي إلى هروب « تزويغ » الطفل من المدرسة ، وإلى غير ذلك من النتائج . ومن ثم فإن المدرسة الصالحة — أو النظام المدرسي الصالح — ينبغي أن يوجد بها إخصائى نفسى لفحص الأطفال الذين لا يتقدمون تقدماً طيباً في دراستهم ، وأن توجد بها فصول خاصة للأطفال المتخلفين بوجه عام . كذلك يجب أن تضع المدرسة برامج علاجية لمساعدة الأطفال الذين يكون مستوى ذكائهم جيداً ، لكنهم يعانون من عجز معين في تعلم القراءة أو الحساب . وينبغي أن يكون بها أيضاً مرشدون للتوجيه أو إخصائىون اجتماعيون ، لمساعدة الأطفال وآبائهم على اكتشاف العوامل الانفعالية التي

منع انحراف الأحداث

٤٠١

تعوق توافق الطفل مع المدرسة ، والعمل على إيجاد حل لها . وأن يكون لها طبيب للأمراض النفسية لاستشارته في بعض المشكلات .

هناك عامل حيوى آخر يؤدى إلى سوء توافق الطفل مع المدرسة ، وهو ضعف الحافز على التعلم . هذه الظاهرة نلمسها في أبسط صورها عند بعض الأطفال في سنوات الدراسة الأولى . فهم لا يهتمون اهتماماً كبيراً بتعلم القراءة ، لأن آباءهم وأمهاتهم لا يكادون يقرأون شيئاً في البيت ؛ ولم يسبق أن قرأوا لهم قصصاً على الإطلاق . (فنحن الذين ننتمى إلى أسر تهوى القراءة ، قد لا ندرك أن ذلك الشغف بالقراءة الذى كنا نحن وأطفالنا نبديه في السنة الأولى الابتدائية ، قد نشأ عن رغبتنا في تقليد آبائنا ؛ وعن شعورنا بالمتعة حين كانوا يقرأون لنا بعض الكتب) . على أن الأطفال في سنى الدراسة الابتدائية ؛ يسهل قيادهم نسبياً ، فيمثل معظمهم لنظام المدرسة ، حتى ولو كان يحمسهم للعمل ضعيفاً . لكن الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة للأطفال في سنى الدراسة الثانوية ، إذ تقوى عندهم في هذه المرحلة ، النزعة إلى التمرد على السلطة ، والرغبة في الحصول على عمل لكسب المال كالرجال ، كما تقوى عندهم الحوافز العاطفية والاهتمام إلى الأشياء المثيرة . ولذلك يضعف اهتمامهم نسبياً بالعمل المدرسى ، ما لم تكن أسرة الطفل تؤمن إيماناً راسخاً بالتقدم عن طريق العلم والثقافة . والواقع أنه — حتى في الأسر التى بلغت أعلى مستوى في الثقافة والتعليم — تتعثر نسبة كبيرة من الأولاد ، مؤقتاً ، في بعض العثرات والعقبات أثناء سنى الدراسة الثانوية والجامعية .

إن هذه المشكلة السائدة الخاصة بضعف الحافز على الدراسة الأكاديمية ، تغيب عن بال المفكرين الذين ينقدون مدارسنا ، مثل بعض أساتذة التربية

فى الجامعات ، ورجال الفكر ، وغيرهم من العلماء الذين تمخضت عقولهم عن أعمال كبيرة باهرة . فهؤلاء المفكرون يشكون فى قيمة الجهود التى يبذلها رجال التربية الحديثة ، كى يجعلوا العمل المدرسى شيقاً وطريقاً بقدر الإمكان . وهم يريدون من مدارسنا أن تتخلى عما يسمونه المواد السهلة ، وعن الدراسات العملية ، والمناقشات التى تدور حول « توافق الطفل مع الحياة » ، ويريدونها أن تركز اهتمامها على دراسة الرياضيات واللغات والعلوم البحتة (لا التطبيقية) . وهم يعتقدون أن الهدف الوحيد السليم للمدرسة هو تدريب العقل ، وأن التدريب الأخلاقى هو مهمة البيت . وهم يعترضون على نقل الطفل إلى فصل أعلى ، ما لم ينجح نجاحاً مرموقاً فى جميع المواد الدراسية الخاصة بفرقة .

على أن الشئ الذى يخفى على هؤلاء النقاد هو أن أقلية ضئيلة محدودة من الأطفال هى التى يتوافر لديها مستوى مرتفع من القدرة العقلية والحافز الأكاديمى ، بحيث تستهويها الموضوعات المعنوية المجردة ، مهما تكن جافة . فلو أننا وضعنا توصيات هؤلاء النقاد موضع التنفيذ ، فإن الصفوة القليلة من الطلبة فى المدارس الأمريكية العادية هى التى ستتمكن من الالتحاق بالكليات (ولو أنى أعتقد أن مستواهم سيكون متخلفاً عن مستوى غيرهم من خريجي المدارس الممتازة فى الأحياء التى تنقسم بالتعاون والمبادرة والقدرة على مواجهة المشكلات الجديدة) . أما الغالبية الساحقة من الطلبة الآخرين ، فإنهم قد يتقدمون فى دراستهم تقدماً معقولاً أول الأمر . لكننا فى مرحلة الدراسة الإعدادية ، سوف نجد أن كل فصل يضم عدداً لا يستهان به من الطلبة المتخلفين عاماً أو عامين أو ثلاثة أعوام ، الذين انتهى بهم الأمر إلى الاشمئزاز من المدرسة ومن أنفسهم . أما فى المرحلة الثانوية فسوف نجد أن أغلبية الطلبة قد أصبحوا إما هارين « مزوغين » من المدرسة وإما مشاغبين ، وإما حاملين لا يسهمون بشئ فى العمل المدرسى .

قد يبدو منطقياً ذلك القول بأن مهمة المدرسة هي تدريب عقل الطالب ، وأن تكوين شخصيته هي مهمة البيت . فما من شك في أن المعلمين والمعلمات سوف يسعدون لو أمكن حل المشكلة بهذه البساطة . إلا أن الطلبة لا يتركون أخلاقهم وشخصياتهم في البيت ، حين تذهب عقولهم إلى المدرسة . فهناك نسبة كبيرة من هؤلاء الطلبة (شأنهم شأن الكبار) تعاني من مشكلات خاصة بالشخصية — من نوع أو آخر — من شأنها أن تعوق إسهامهم في العمل المدرسي . ومن واجب المدرسة أن تحاول معالجتهم ، ليس فقط بأن تعلمهم قدر استطاعتها ، بل بأن تساعد على حل هذه المشكلات (فالكليات الجامعية يمكنها أن تتخلص من الطلبة الذين يعانون من مشكلات سلوكية أو دراسية عن طريق فصلهم . أما المدارس الثانوية فلا مناص من أن تحتفظ بطلبتها جميعاً مهما كان الأمر) .

* * *

ولنتأمل الآن الوسائل التي تستخدمها المدارس الممتازة ، كي تساعد الطالب على التوافق مع عملية التعلم ، ومع رفاقه في الفصل ، ومع الحياة بوجه عام . إننا نجد أولاً أن المعلمين في هذه المدارس يختارون من بين الذين تتوافر لديهم اتجاهات سوية نحو الأطفال ، والذين درّبوا التدريب الكافي في ميدان تربية الطفل ، وفي المواد التي سيقومون بتدريسها ، وفي طرق تدريسها (وما على الناقدين الذين يزعمون أن كليات المعلمين تضع الوقت سدى في تعليم الطلبة طرق التدريس ، إلا أن يزوروا فصلافي مدرسة ابتدائية ، كي يلمسوا بأنفسهم مدى أهمية طرق التدريس) . كما أن الفصول بهذه المدارس قليلة العدد ، بحيث يتسنى للمعلم أن يتابع كل تلميذ على حدة ، وأن يؤدي عمله على أساس الفروق الفردية بين التلاميذ . ويستحسن أن يكون ترتيب أذراج الأطفال ومكاتبهم مرناً وقابلاً للتغيير ، كي يتسنى للأطفال الذين يعملون في مستويات مختلفة أوفى مشروعات خاصة ، أن يجتمعوا معاً ،

بعيداً عن المجموعات الأخرى . وفي مجال تأليف الكتب المدرسية ، والكتب الخاصة بإرشاد المعلم ، وفي تحضير المعلم نفسه لدروسه اليومية ، يبذل كل جهد ممكن لمعالجة المادة بطريقة تتلاءم مع مستوى ذكاء مختلف الأطفال ، وتثير لديهم الحد الأقصى من الاهتمام والتحمس . وهذا لا يعنى تبسيط المادة ، وإنما يعنى استهواء خيال الأطفال ، كي يبذلوا جهدهم في العمل والتفكير . كما أن هناك صوراً وأشياء مجسمة إلى جانب الكلمات . ويتاح للتلاميذ أن يعبروا عن خبراتهم الخاصة ، ويحضرها من بيوتهم أشياء متصلة بالمادة التي يقومون بدراستها . ويستنفذ المعلم معظم وقت الحصة في المناقشة والاستنتاج ، أكثر مما يستنفذ في اختبار قدرة التلاميذ على حفظ الدرس عن ظهر قلب .

إلا أن هذه الوسائل العامة ليست كل شيء في الأمر . فهما تحرص المدرسة على وضع التلاميذ ذوي القدرات المتكافئة في فصل واحد ، فلا بد من أن توجد بعض الفروق الفردية بينهم فيما يختص بمختلف المواد . بل إن استجابة التلاميذ لمادة واحدة ، تتفاوت تفاوتاً كبيراً بين تلميذ وآخر ، لذلك ينبغي أن تكون الأسئلة والواجبات التي تعطى للتلميذ ملائمة إلى حد ما لمستواه الفردي . فهذه هي الناحية التي يمكن فيها دفع تقدم التلميذ أو إهماله ، والتي يمكن فيها إشعاره بأنه إنسان ناجح ينتمى إلى الجماعة ، أو أنه إنسان تافه منبوذ من الجماعة ، ولهذا السبب فإن الواجبات التي تطلب منه ينبغي أن تتحدى قدرته ، لكنها في نفس الوقت يجب ألا تتجاوز حدود هذه القدرة . فالطفل المتأخر في القراءة ، لكنه ماهر في الأعمال اليدوية ، لا ينبغي أن يطلب منه سوى قراءة الأجزاء التي يستطيع أن يؤديها أداءً حسناً لدرجة معقولة . على أنه من الممكن في نفس الوقت إشراكه في جماعة من التلاميذ ، تتولى عمل نموذج للمزرعة التي يقرأون عنها في الكتاب المدرسي ، ذلك أن نجاح هذا التلميذ في عمل النموذج مع زملائه ،

من شأنه أن يزيد ثقته بنفسه ، ويقوى شعوره بالانتماء إلى الجماعة . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذا النجاح يخلق عنده حافزاً قوياً يدفعه إلى محاولة تنمية قدرته على قراءة الكتاب الذى بدور حول موضوع المزرعة .

ومن الممكن مثلاً فى حالة التلميذ المتقدم فى القراءة ، لكنه مكروه من زملائه ، أن يدبر المعلم الأمر فى لباقة وكياسة ، بحيث يختار طابئة الفصل هذا التلميذ ، كي يقوم بقراءة بعض الكتب الإضافية فى المكتبة ، ثم يقدم لهم تقريراً عن هذه الكتب . فهذه الوسيلة يشبع التلميذ رغبته الزائدة فى القراءة ، وفى نفس الوقت ينال شيئاً من تقدير زملائه فى الفصل . بيد أن كل هذه الوسائل التى تتبعها المدارس النموذجية ، قد تبدو لكم فى غاية التفاهة والبساطة ، بحيث لا يمكن أن تكون لها أهميتها فى تقويم الطفل . وأنا لا أعنى طبعاً أن أى طفل يمكن أن تحل جميع مشكلاته ومتاعبه ، فى خلال بضعة أشهر ، أو حتى بضعة أعوام ، يقضيها فى هذه الدراسة النموذجية . ومع ذلك فإن أى أم لها طفل يعانى من مشكلات فى المدرسة ، يمكنها أن تحدثكم عن الفوائد الجمة أو الأضرار الجسيمة التى عادت على طفلها ، عندما انتقل من فصل إلى آخر .

ويميل كثير من رجال التربية الحديثة إلى نقل بعض الأطفال من فرقهم إلى الفرقة التالية ، حتى ولو لم يكونوا قد تقدموا تقدماً حسناً فى بعض مواد دراستهم ، بشرط أن يكون المنهج فى الفرقة الأعلى مرناً بما فيه الكفاية ، كي يتسنى لهؤلاء الأطفال متابعة العمل المدرسى ؛ ذلك لأنه قد ثبت بالتجربة الطويلة أن مثل هؤلاء الأطفال حين ينقلون إلى الفرقة التالية ، يحرزون تقدماً فى دراستهم ، أكثر مما لو أجبروا على التخلف فى فرقهم ، حيث يحتمل أن يفقدوا تحمسهم للعمل وتهن عزيمتهم . ومع ذلك فما من معلم يشعر بالمسئولية ، ينقل طفلاً إلى فرقة أعلى ، يصبح فيها منزلاً تماماً عن العمل المدرسى .

وتهتم المدرسة الصالحة بأن تنمي في كل طفل الشعور بالمسؤولية نحو الآخرين والقدرة على التعاون معهم. والطفل لا يكتسب هذه الصفات عن طريق المواعظ الكلامية ، وإنما يكتسبها عن طريق إتاحة الفرص له كي يمارسها ممارسة عملية . لذلك يجب أن يكون المعلم رائداً ديمقراطياً ، يشجع الطلبة على المناقشة ، ويترك لهم — كجماعة — فرصة إصدار بعض القرارات بأنفسهم ، ويساعدهم على تكوين الجمعيات لتنفيذ بعض المشروعات . فقد أثبتت التجارب الدقيقة أن هذا الأسلوب ينمي الصداقة والثقة المتبادلتين بين أفراد أى جماعة من الجماعات ، ويزيد من قدرتهم على ضبط أنفسهم — في تصرفاتهم الفردية والجماعية — حتى يمكنهم بمرور الشهور أن يسلكوا أكثر فأكثر سلوكاً يدل على الشعور بالمسؤولية ، سواء أكان معهم أحد الكبار من ذوي السلطة عليهم ، أم كانوا بمفردهم .

أما عندما يدخل الأطفال مرحلة الدراسة الثانوية فإن الفروق بين مستويات ذكائهم ، وحوافزهم بصفة خاصة ، تظهر بشكل حاد شيئاً فشيئاً ، ولذلك فإن العمل المجيد الرائع الذى قامت به خير المدارس الثانوية الأمريكية — منذ تعميم التعليم حتى سن السادسة عشر — هو أنها وضعت برامج عديدة متنوعة ، تتحدى قدرات مختلف التلاميذ . فهناك برامج تعد التلميذ إعداداً مباشراً للدراسة الجامعية ، وهناك برامج عامة ذات طابع عملى ، وأخرى للتدريب على الأعمال التجارية. وهذه المرونة في البرامج تشجع كل طالب على التقدم في الدراسة إلى أقصى حدود قدرته ، في الاتجاه الذى يقوده إليه طموحه ، تحت إشراف المدرسة وتوجيهها . وقد ثبت أن مثل هذه البرامج عندما تفهم وتدرس بطريقة سليمة ، لها قيمتها في تخفيض نسبة الهروب « التزويغ » والغياب من المدرسة إلى الحد الأدنى ، كما أن لها قيمتها في رفع المستوى الثقافى لشعبنا ارتفاعاً مطرداً .

على أن الكثير من المناطق في الولايات المتحدة ، لا يفتنى لها الإنفاق على مدارس عالية المستوى ، لأن مستوى الدخل منخفض فيها ، ولأنها قد بلغت الحد الأقصى للقرض الممنوح لها من الحكومة . (منذ نهاية الحرب ، ازدادت القروض الممنوحة من الحكومات المحلية بنسبة ٣٢٠ في المائة ، على حين ازدادت القروض الممنوحة من الحكومة الفيدرالية بنسبة ٤ في المائة) ، ومع ذلك فإن أمتنا هي في مجموعها أكثر أمم العالم رخاء ، والحكومة الفيدرالية هي التي تحصل على نصيب الأسد من الضرائب ، لذلك فإنني شخصياً ، ومعظم رجال التربية ، نعتقد أن الحل الوحيد للمشكلة هو أن تعطى الحكومة الفيدرالية أطفالنا حقهم من العدل والإنصاف ، عن طريق تقديم المعونات إلى هيئات التعليم .

كشاف تحليلي

بالوالدين ٢٨٩ — ٢٩١	١
بالأبطال المعبودين لدى المراهقين	الأب ١٧٣
٣٢٨ — ٣٢٦ ، ٣٢١	الأب الذي يغالي في الصرامة ١٦٣ ، ١٦٥
ارتفاع الحرارة (الذي يتطلب استدعاء الطبيب) ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤	الأب الرياضي ١٧٣
إريك إريكسون ٣٢٨	الأب والعلام الذي يتبول في الفراش ٢٣٠
استسلام الوالدين ، خطأ للطفل ٣٦٤ ، ١٦٧	الأب كرفيق لطفله في اللعب ١٧٤ ، ١٧٥
الاستيقاظ ، ساعة ٧٧ ، ٧٨	تقليد الابن لأبيه ٢٥٠
الأسرة ٢٨٨ ، ٢٨٩	دور الأب في مسألة النظام ١٦١
أثر مركز الطفل في الأسرة ٨٩	الأبطال المعبودون لدى المراهقين ٣٢١ ، ٣٣٠ ، ٣٢٨
٩٩ —	الاتصال (الجلسي) ٢٣٠
العلاقات بين ٨٩ — ٩٩	الاحتمال ، الرياضة وعلاقتها بالقدره على ٥٠
الإسعاف ١٧	الاحساس بالزمن ٢٣٤
الأسنان ٨١	الأحلام ٢٥٨
أثر فلوريد الجير عليها ٨٥ ، ٨٦	الأحلام المزعجة ٢٥٨ ، ٢٦٣
الأسنان ومشكلات التغذية ٨٢	أحلام المراهقين ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧
تسوس الأسنان ٨١	الاخصائي الاجتماعي ١٩٦
تنظيف الأسنان بالفرشاة ٨٢	الاخصائي النفسي بالمدرسة ٤٠٠
الإصابات التي تتطلب استدعاء الطبيب ١٥ ، ١٦	آداب السلوك ٣٠٥
إصابات الرأس (التي تتطلب استدعاء الطبيب) ١٦	الأذنان ٣٦
اعتماد الطفل الأول اعتماداً متطرفاً ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٣	الآلم الذي يتطلب استدعاء الطبيب ٩ ، ١٦
الاعتماد على الوالدين أثناء النهار ١١٤ ، ١١٥	فحص الأذنين ٣٦
(انظر أيضاً الاعتماد المتطرف)	الارتباطات العاطفية ٢٨٩

- الأعراض للرض ١٠ ، ١١ ، ١٣
- الأعراض التي تتطلب العلاج الطبي
- السريع ١٣
- مدلولها ١٠ ، ١١ ، ١٣
- الأعضاء التناسلية ٢٥٤ ، ٢٥٥
- تحسبها والعبث بها ٢٥٥
- القلق عليها ٢٥٠
- الأفلام ١٩٠
- الأكل (انظر مشكلات التغذية) ٤٧ ، ٤٨
- التهاب الحنجرة ١٣ ، ١٤
- الالتهاب الرئوي ، ارتفاع الحرارة في
- ١١ ، ١٢
- التهاب العشاء البريتوني ، ارتفاع الحرارة
- في حالة ١١
- التواء المفاصل (الذي يتطلب استدعاء
- الطبيب) ١٣ و ١٦
- الألعاب (المباريات) ٥٦
- تحت الإشراف ٥٦
- الألعاب الرياضية ، أهمية تعلم ٥٦
- الألعاب العنيفة الحسنة ١٧٤
- الله ، علاقة الطفل ٣٠١
- الأم الذي يتطلب استدعاء الطبيب ١٢
- ١٥ —
- الأم ٩ — ١١ ، ١٣ ، ١٦ — ١٨
- تعلق ابن الثالثة تعلقاً شديداً بها
- ٢٤٩ ، ٢٥٠
- الطفل الصغير يلومها على إصابته
- بالمرض ١٩
- انتقال السكان ٣٣٤
- الانحراف ٣٣١
- الأسباب النفسية للانحراف ٣٣٨
- ٣٤٨ —
- الانحراف والضعف الأخلاقي ٣٣٩
- ٣٤٣ ، ٣٤٢
- الانحراف والظروف الاقتصادية ٣٦٧
- الانحراف والنزعات الدينية عند
- الوالدين ٣٤٩ ، ٣٥١
- الانحراف عند الأولاد ٣٤٠ ، ٣٤١
- ٣٥٨
- الانحراف عند البنات ٣٤١ ، ٣٤٢
- ٣٥٥
- الانحراف المزمن (معتادو الانحراف)
- ٣٤٤ ، ٣٤٨
- التدريب المبكر للوقاية من الانحراف
- ٣٩٠ — ٤٠٧
- الجماعات المهاجرة وعلاقتها بمشكلة
- الانحراف ٣٣٤ ، ٣٣٥
- الحافز إلى الانحراف ٣٣٤
- زيادة نسبة الانحراف ٣٦٥ ، ٣٦٦
- ٣٦٩
- علاج الانحراف ٣٧٧ — ٣٨٨
- العلاج النفسي ٣٨٢ ، ٣٨٤
- العوامل التي تؤدي إلى زيادة
- الانحراف ٣٣٤ — ٣٣٧
- العوامل الاجتماعية ٣٣٢ — ٣٣٧
- المدارس كقوة تقاوم الانحراف ٣٧٣
- الوقاية من الانحراف ٣٩٠ — ٤٠٧
- انحراف الأحداث ٣٣١

- (انظر الانحراف)
 الأنف ، أثر الهواء الجاف على ٦٣
 الانفصال ، قلق ٢٣٥ ، ٣٥٣ ، ٢٣٢
 الأنيميا ٣٥
 الأولاد ٢٢٤ ، ٢٢٥
 الأفعال المنعقدة ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٨
 الألعاب الرياضية ٤٩ - ٥٢
 التبول في الفراش ٢٢٢ - ٢٣١
 تقليد الأب ٢٥٠
 توترات المراهقة ٣١٣ - ٣٢٠
 العلاقات بين الابن وأبيه ١٧٥ ، ١٧٦
 العلاقات بين الابن وأمه ١٧١ ، ١٧٩
 المهام التي يكلف بها الأولاد ١٧٧ ، ١٧٩
 الإيحاء ، قابلية الإنسان ٥١
 إيذاء الآخرين ، الولود يجرب ١٨٧
 الإيذاء ، الرغبة في ١٦٧ ، ١٨٧
 ب
 البنات ، الألعاب القائمة على التنافس
 بالنسبة ٥٦
 البيوت ٣٩٧
 إصلاحات الأحداث ٣٩٧
 بيوت التبني ٣٩٧
 البيوت المخطئة (المنككة) ٣٩٥ -
 ٣٩٧ ، ٣٣٧ ، ٣٤٥
 ت
 تاريخ صحة الطفل ٣٢ - ٣٤ ، ٤٢
 تأكيد الذات ٢١٧
 التبول في الفراش ٢٢٢ - ٢٢٤
 أسبابه ٢٢٢ - ٢٢٦
 الجهاز الكبري لعلاجه ٢٢٨
 علاجه ٢٢٤ - ٢٢٧
 عند البنات ٢٣ - ٢٣١
 النوع الأكثر شيوعاً ٢٢٤
 تجربة الانفصال ١١٠
 التحليل النفسي ٢٢٧ - ٢٢٩
 تدخين السجائر ٣٥٤
 التدخين عند المراهقين ٣٥٤
 التدريب على استعمال التواليت ١٩٨ ، ١٩٩
 ٢٠١
 كسبب للتلكؤ ١٩٨ - ٢٠١
 والشعور بالعداء ٢٠١
 الترتيب والنظام ، النزعة إلى ٢٩٧
 التسمم ، الطبيب وعلاج ١٦ ، ١٧
 تسوس الأسنان ٨١
 تشخيص الأمراض ، التدريب على
 ١٥ ، ١٦
 تعري الوالدين (أمام الأطفال) ٢٧١ ،
 ٢٧٢
 التعليم ، أساليب ٤٠٣ - ٤٠٧
 التغذية ، العوامل التي تؤثر على ٤٧
 (انظر أيضاً مشكلات التغذية)
 التفكير الحر في التزمت ٢٨٩
 تقارير كلسي ٣٧٢
 تكوين الجسم ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦
 أنواعه ٤٩ - ٥٤

- قبل تكوين الطفل على علته ٥٤ — ٥٧
- تكوين العظام ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦
- التكؤ — الماطلة ١٩٧
- أسبابها المحتملة ١٩٨ — ٢٠١
- كساح يستخدمه الطفل ٢٠١
- منع هذه الظاهرة ٢٠١ — ٢٠٦
- التميزيون ١٩٠
- تناسق الأعضاء ٥١ ، ٥٣
- التناقص في سلوك الوالدين ٢٤١
- التنفس ، ضيق ١٣
- تعييط الجسم البشري ٤٥
- التهذيب والتنظيم ٣٦٤
- اختلاف وجهات النظر بين الوالدين ١٥٢ ، ١٦٨ — ٣٦٤
- الأساليب المختلفة لمعالجة مشكلة النظام ١٥٦ ، ١٥٧
- أهمية الحزم في المرحلة المبكرة ١٥٤
- ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٦٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
- تداعى النظام ١٥٥ ، ١٥٦
- تهذيب النفس ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٩٥ — ٢٩٨
- دور الأب ١٦١ ، ١٧٠
- العوامل التي تعوق النظام ١٥٥
- النظام بين الجنسين المختلفين ١٦٣
- نمو النظام الصالح ١٥١
- النواحي البناءة في مسألة النظام ١٥٠
- تهذيب النفس ، الحافز إلى ٢١ ، ٢٩٥ — ٢٩٨
- التوترات ٣١٣ — ٣٢٠
- بين الأم والابن ٢٣٢ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩
- توتر الوالدين وأثره على الطفل الاول ١٠٣
- توتر الوالدين كعامل يؤدي إلى الشجار بين الأطفال ١٣٣ ، ١٣٤
- التوتر وعلاقته بالنوم ٢٣٢ — ٢٣٥
- الطفل خمس سريعاً بالتوتر عند والديه ١٣٣ ، ١٣٤
- في مرحلة المراهقة ٣١٣ — ٣٢٠
- ث
- الثبات في العلاقات ٣٧٤
- التياب ٦٦ ، ٦٧ — ٦٩
- تياب الطفل في سن المدرسة ٦٧ — ٦٩
- في الطقس البارد ٦٨ ، ٦٩
- في الطقس الحار ٦٨
- ج
- الجرائم ، ازدياد نسبة ٣٦٩
- الجمعيات السرية ٢٩٦
- الجنس ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨
- إدراك الطفل لجنسه ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٩٠
- إدراكه المتزايد للأمور الجنسية ٢٥١ ، ٢٥٢
- اضطراب الاهتمامات الجنسية ٢٥٢
- ٢٦٠ ، ٣٢٤
- المراهقون والجنس ٢٥٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤

- ٣٢٨ الخوف ، رد الفعل لمشاعر
- د
- ٦٢ درجة حرارة المنزل
- الدواء ، حمل الطفل الناقه على تناول ٢٩
- الدوافع القهرية ٢٩٨
- ذ
- ٥٢ ذوو التكوين الطارد ٤٦ ، ٥٢
- ذوو التكوين للمستوعب ٤٦
- ذوو التكوين الوسيط ٤٦ ، ٥٢
- ذوو السلطة خارج البيت ، اقتباس بعض
- الكلمات من . . ٢٧٩
- ر
- الرجولة ، اهتمام الغلام بإثبات ٣٠٦ ، ٣٥٤
- الرضاعة ، جدول ١١٠ ، ١١١
- الرطوبة ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤
- ركوب الدراجة ٥٧
- الرياضة ٤٤ ، ٤٥
- أثرها في الشية ٦٧
- أهميتها ٤٤ ، ٤٥
- وزيادة القوة الجسمانية ٤٩
- نقص الرياضة ٤٤
- ز
- الزواج ٢٥٠ ، ٢٥١
- إدراك الطفل للترديد لمسألة الزواج
- ٢٥١ ، ٢٥٠
- دكتور زيورك ستانيسلوس ٣٤٠
- ٣٢٣ ، ٢٥٨ كبت الاهتمامات الجنسية
- النمو الجنسي ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤
- دكتور چونسون ، أدليد ٣٤٠
- الدكتور جيراند ، مرجريت ٢٢٤
- ح
- الحب ٨٢ ، ٨٣ ، ٣٢٥
- الحب المتكافئ ١٣٦ ، ٣٢٥
- العلاقة بين الحب والحوى ٨٢ ، ٨٣
- الحث ١٨٧
- الحرارة ، قياس ٣٤
- الحلق ، أثر الهواء الجاف على ٦٤
- الحوى ٨٠ - ٨٦
- أثرها على الأسنان ٨٥ ، ٨٦
- العلاقة بينها وبين الحب ٨٢ - ٨٦
- الحوافر ٤٠٠ - ٤٠٣
- اختلاف الحوافز ٤٠٠ - ٤٠٤
- الحافز إلى الانحراف ٤٠١
- ضعف الحافز إلى الدراسة الأكاديمية ٤٠٢
- الحيوانات ، الخوف من ٢٥٩
- خ
- الختان ، « الطهارة » الخوف من ١٦٦
- الخدمات الاجتماعية ١٩٣
- الخدمات التوجيهية (للتوجيه والإرشاد) ١٩٤
- الخرافات ١٨
- خشونة الصوت التي تتطلب استثناء
- الطبيب ١٣ ، ١٤

أحاديث إلى الأمهات

٤١٤

شئون الأسرة ، المؤسسات المشتغلة ٣٩٤	س	
٣٩٨ —	٣٣٨ ، ٣٣٩	السرقه
ض	١٨٥	السلوك
٢٩٨ الصرامة ، التشدد		الخدمات التوجيهية لحل مشكلات
٢٩٨ عند الطفل	١٩٥ ، ١٩٦	السلوك
٢٩٥ عند الوالدين		اهتمام الطفل في سن السابعة بمسألة
٩٦ صفات القيادة في الطفل الثاني	٢٩٥	السلوك
ض	٣٧	السمع ، اختبار قوة
الضجيج ، تدريب الطفل على النوم	٥٥	السنة المفرطة
وهط ٧٨		السموم ، مراكز الاستعلامات بشأن ١٧
ط	٣٥٤	السيارات
١٥٠ ، ١٤٥ الطاعة	٣٥٤	كرمز للقوة
٤٣ الطبيب	ش	
الطبيب الفسائي المختص بالأطفال	١٣١ — ١٣٥	الشجار
٢٤٩ ، ١٩٥	١٣٢	العوامل التي تؤدي إليه
٤٣ — ٣٤ الفحص الجسدي	١٣٤	الغيرة كعامل في هذه المشكلة
مق ينبغي استدعاء الطبيب ٩	١٣٩	كيفية معالجة الشجار
أنفة الأطفال في تناول صنوف الطعام	٤٥	الشحم
٢١٧	٤٦	اختلاف نسبة الشحم
(انظر أيضاً مشكلات التغذية)	٤٥	عامل الوراثة
١٨٧ الطفل ابن العام	٣٦٥	الشرطة ، رجال البوليس
٢١٧ ، ٢١٦ تأكيد ذاته		الشعور بالذنب عند الطفل في فترة النقاهاة
عناده في مسألة التدريب على استعمال	١٠ ، ١٩ ، ١٨	
التواليت ١٩٨ ، ١٩٩	٤٦	دكتور شلزن ، وليم
محاويلته إيذاء الآخرين ١٦٧ ،	٢١٤ ، ٢١٦	النسبية
١٨٧ ، ١٨٦		أثر الهواء النقي والرياضة عليها ٦٧
مشكلات تغذيته ٤٧ ، ٢١٤ ،	٢١٨	النسبية للمقلبة
٢٢١ — ٢١٦		

الطفل ابن العامين	٢٣٢	الطفل الثانى أو الأوسط	٩٤ - ٩٧
شعوره بالقلق	٢٣٢	الطفل فى سن دخول المدرسة	٢٨٥
مشكلات وقت النوم	٢٣٢	ارتباطاته العاطفية	٢٨٩ - ٢٩١
الطفل الأصغر	٩٨	حاجته إلى سيطرة الوالدين	٣٠٥
الطفل الأول	١٠٠ - ١١٥	سمات شخصيته	٢٩٣
أثر توتر الوالدين عليه	١٠٢ - ١٠٤	قواعد السلوك اللازمة له	٣٠٥ - ٣٠٩
اعتماده للطرف	٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤	الطفل النحيل	٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٥
	١٠٥ - ١٠٦	الطول ، قياس	٤٩
السمات المألوفة فى شخصيته	١٠٠	ظ	
تعبير عن ذات الوالدين	٩٤	الظلم ، الاحتياطات لدرء	١٣٨
يتكدر عند مقدم المولود الجديد	٩٠	ع	
الطفل البدين	٤٥ ، ٤٦ ، ٥٥	العادات التى تثير الغيظ عند الطفل فى سن	
الطفل بين سن الثالثة والخامسة	٣٢٢	المدرسة	٢٨٨
النمو الجنىسى	٣٢٣ ، ٣٢٢	العادة السرية	٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤
نواحى القلق	٣٢٢	العجزة	١٦
الطفل بين الثالثة والسادسة	٢٤٩	العداء	١٨٨ - ١٩٠ ، ٣٥٢
ارتباطه بالوالدين	٢٥١ ، ٢٥٢	تشبهه القبرة من المولود الجديد	١٩٤
تقليده للوالدين	١٢١ ، ١٢٥ ، ٢٥٠		١٩٥
مخاوفه	٢٤٧ - ٢٦١	التعبير الصريح عنه	١٨٨ - ١٩٠
معالجة المخاوف	٢٥٩ - ٢٦١	تمثيل أدوار العداء	١٨٨ - ١٩١
الطفل بين سن السادسة والثانية عشرة	٢٩٥ ، ٢٩٧	علاقته بالتدريب على استعمال	
		التواليت	١٩٢
ارتباطاته العاطفية	٢٩٩	العدوان ، النزعة إلى	١٨٥ ، ١٨٦
أسلوبه فى السلوك	٢٩٥ - ٢٩٧	اتخاذها مظهر اللعب	١٨٧
حل عقدة أوديب	٢٦٠	علاقتها بالبيئة	١٩١
سمات شخصيته	٢٨٥ - ٢٨٩	علاقتها بالقبرة من المولود الجديد	
مدلول مظاهر النمو عنده	٢٩١ ، ٢٩٣		١٨٨ - ١٩٤
ميله إلى التلصق	١٩٧	للزمنة	١٣٢

١٨١	والشعور بالعداء	١٨٧ — ١٩٥	المؤقتة
٤٠٠	عملية التعلم ، نواحي العجز التي تعوق	١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥	العراك
٤٨ — ٤٦	العوامل الانفعالية	١٣٤ ، ١٣٢	العوامل التي تؤدي إليه
٤٨ — ٤٦	أثرها في التغذية والوزن	١٣٨ ، ١٣٤	الغيرة كعامل يؤدي إليه
٧٣	أثرها في النوم	١٣٨ ، ١٣٩	كيفية معالجته
(انظر أيضاً مشكلات وقت النوم)		٣٦٢ ، ٣٦١ ، ٣٣٧ ، ٣٣٥	العصابات
١٩	العوامل النفسية في فترة النقاهة	٣٣٧ — ٣٣٥	عصابات الشوارع
٢١٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧	العريل «البكاء»	١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٥	العض
٢١٢		٤٥	العضلات ، عامل الوراثة
٢١٢ ، ٢١٠	رد فعله عند الأمهات	١٥٦ ، ١٥٥ ، ١٥٣ ، ١٥٢	العقاب
٢١٣	كعرض لمرض عضوي	١٥٦ ، ١٦٠	توقيته ونوعه
٣٩٥ ، ٣٤٧ ، ٣٤٣	العيوب الأخلاقية	٣٠٥ ، ١٦٧	شعور الطفل بحاجته إليه
غ		٣٧٨ ، ٣٤٩	على مخالقات المراهقين
٣١٩	الغذاء الشاذ عن المألوف		المرض يفسر على أنه نوع من
٣٢٩ ، ٣٢٨	غريزة القطيع	١٩ ، ١٨	العقاب
١٣٦ ، ١٣٥ ، ١٣٤	الغيرة	٢٩٣ — ٢٩٢	عقدة أوديب
١٣٤	أثر اتجاهات الوالدين عليها	٢٩١ ، ٢٦٠	حل عقدة أوديب
تشدد نتيجة المقارنات بين الأطفال		٢٢٧ ، ٢٢٦ ، ٢٢٣	العلاج
١٣٦ ، ١٣٧		٢٢٦ ، ٢٢٣	للتبول في الفراش
١٣٩	تعبير الطفل عن مشاعر الغيرة عنده	٣٨٨ — ٣٧٧	لمشكلات الانحراف
١٣٥	علاقتها بالشجار بين الأطفال	٣٨٤ ، ٣٨٢	العلاج النفسي
١٩٥	علاقتها بالنزعة إلى العدوان	٣٨٨ — ٣٧٧	ومشكلات الانحراف
١٣٤	غيرة الطفل من المولود الجديد	١٧١	العلاقات
١٢٧	كتجربة بناء	١٧١ ، ١٧٥	بين الابن والأب
(انظر أيضاً المنافسة)		١٧٩ ، ١٧١	بين الابن والأم
		١٨٠ ، ١٧٩	بين البنت والأب
		٢٢٤	
		١٨٠ ، ١٧٩	بين البنت والأم

القلق على الأعضاء التناسلية ٢٥٥

القلق في سن العامين ٢٣٢

القلق ما بين الثالثة والخامسة ٣٢٢

قلق المراهقين ٣٢٤ ، ٣٢٥

قلق الوالدين ١٠٦

القلق ومشكلات وقت النوم ٢٣٢

المعالجة العملية للقلق ٢٣٥ — ٢٣٨

قواعد السلوك ١٨٥

قواعد السلوك بالنسبة للطفل في سن

الدرسة ٢٩٥

القوة الجنسية ٤٩

ك

الكبار ، تقليد ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٥٤ ، ١٧٢

الكدمات البسيطة ١٧

الكلاب ، الخوف من ٢٥٩

ل

اللعب ١٨٩

دور الوالدين في اللعب ١٧١ — ١٧٣

اللعب بالمسدسات والبنادق ١٨٩

اللعب بالنسبة للطفل الصغير ١٨٩

اللعب في سن السادسة والسابعة

٢٥٨ ، ٢٨٨

اللعب الجنسي ٢٥١ ، ٢٥٢

موقف الوالدين منه ١٦٣

لعب الأطفال في فترة النفاة ٢٢ — ٢٥

لغة الأطفال ٢٨٩

اللياقة البدنية ٤٤ — ٤٩

علاقتها بالرياضة ٥١

ف

فترة الكون ٢٩٢

الفحص ٣٢ — ٣٦

الفحص الجسدي ٣٢ — ٣٦

الفرد ٢١٦

شعور الطفل بذاته كفرد مستقل

٢١٦

معاملة كل طفل كفرد له كيانه

المستقل ١٣٩

الفروق الجنسية (بين الأولاد والبنات)

٢٥٢

سوء تأويلها شائع بين الأطفال

٢٥٢ ، ٢٥٣

كيفية معالجة القلق بشأنها ٢٦٢

فرويد ، سيجموند ٢٥٩ ، ٢٩٠

الفضول العقلي ٢٥٣ ، ٢٥٤

القطار وأثرها على الأسنان ٨١ ، ٨٢

فلوريد الجير ٨٥

فلوريد الجير القصديري ٨٦

ق

القائمة

٤٩

القانون ، مسئولية الوالدين أمام

٣٨١ — ٣٨٢

القلب ، فحص ٣٨

القلق ٣٣٢

قلق الانفصال ٢٣٥

أحداث إلى الأمهات

٤١٨

٣٠٠	استعداد الطفل لمعالجتها	٢	المجموعات
٢١٦، ١٥	مشكلات التغذية	٢٩٧	محاكم الأحداث
٧٣	مشكلات وقت النوم	٣٨١	الخوف (انظر القلق)
	(انظر أيضاً النوم)	٢٣٣	الخوف الوهمية (انظر أيضاً القلق)
٥٧	المشي	٢٥٩، ٢٥٨	المدارس
٣٣٩، ٣٣٨	المصابون بمجنون السرقة	٣٩٨	التدريب
٨٢	المصاصات	٤٠٢، ٤٠١	المدارس ومنع الانحراف
٧٨٩، ٢٨٧	المصطلحات	٣٩٩	مراققات الأطفال (في غياب الأم)
٣١٦	معايير السلوك في محيط الأسرة	٢٣٧، ٢٣٢	المراهقون
٨٦	معجون الاسنان	٣٢٨، ٣٢٤	التوترات
٣٩٩	المعلم	٣٢٥، ٣٢٤	حاجتهم إلى سيطرة الوالدين
٤٠٠ — ٣٩٨	أثره الهام	٣١٣	وتوجيهها
٢٨٨	الطفل يقتبس كلماته	٣١٦	الحيرة بين الاعتماد والاستقلال
١١٥	الغالة في إحاطة الطفل بالحماية	٣١٦	شعورهم بأن الكبار لا يفهمونهم
٤٧	للغالة في إطعام الطفل	٣٥٢	شكاواهم
	للنفس (الذي يتطلب استدعاء الطبيب)	٣١٣	القلق
١٥، ١٤، ١٠	للمقارنات وعلاقتها بالغيرة	٣١٨، ٣١٧	مشكلاتهم الدراسية
١٣٧	للملاجيء	٤٠٠ — ٣٩٨	مشكلة التدخين
٣٤٥، ٣٩٧	للمنافسة	٣٥٤، ٣٥٣	مشكلة الجنس
١٣٦	بين الابن والأب	٣٢٤، ٣٢٣، ٣٢٢	نواحي الشغف والوله (انظر أيضاً
١٨٩ — ١٣٦	بين الابنة والأم	٣٢٨، ٣٢٧، ٣٢١	الانحراف)
١٨٩ — ١٣٦	تشدد نتيجة المقارنات	١٣٨، ١٣٧	المساواة في المعاملة
١٣٧ — ١٣٦	علاقتها بالشجار	٣٠٠	المسائل المجردة
١٤١ — ١٤٠	مع الوالد الذي من نفس الجنس		
٣٦١	مع الأشقاء		
٩١	(انظر أيضاً الغيرة)		

العوامل النفسية التي تؤثر على	المنن (انظر أيضاً التبول في الفراش)
السلوك في فترة النقاهة ١٨ - ٢٠	٢٢٢ - ٢٣١
مقترحات لتسليّة الطفل أثناء هذه	١٧٣ - ١٨٢ المهام
الفترة ٢٢ - ٢٥	المهام للطفل في سن المدرسة ٢٠٩
١٢٠	المهام المنزلية للأولاد ١٧٣ - ١٧٨
النكوص	المهام المنزلية للبنات ١٧٨ - ١٨٠
النوادي	المهد (سرير الطفل) ٢٣٩
٢٩٦	١٢١ المولود
٧٥ - ٧٠	النوم
٧٦ - ٧٠	أنظمة النوم
تدريب الطفل الصغير على نظام	(أثره البناء على الطفل الأكبر)
النوم ٧٦	سنا ١٢١ - ١٢٧
(انظر أيضاً مشكلات النوم) ٢٣٣	إعداد الطفل لاستقباله ١٢٤ ، ١٢٥
التكيف مع التغييرات التي تطرأ	١٢٦ -
على كمية النوم ٧٢	تدريبه على النوم وسط الضجيج ٧٨
التوترات الانفعالية وعلاقتها بالنوم	حمايته من المشاعر العدائية عند
٧٦ - ٧٣	أشقائه ١٢٤ - ١٢٧
العوامل التي تؤثر على النوم ٧٤	الغيرة منه ٩٠ ، ١١٩ ، ١٢١ ،
النوم في مرحلة الطفولة المبكرة ٧٠	١٩٤ ، ١٩٥
دكتور نيكلسون ، ميلتون ، ٨١ ، ٨٣	مياه الشرب ، إضافة فلوريد الجير إلى
	٨٥ - ٨٦

أ

٥٩ - ٥٨	الهواء	١٢	النزلة الشعبية
٦٧	أثره على الشهية	٦٢ ، ٦١	الترهات خارج البيت
٦٣	البارد	٦٢ ، ٦١	للأطفال الرضع
٦٣	بخار الماء في الهواء	٦١	التياب الملازمة لها
٥٩ ، ٥٨	التشمس لفائدته في الماضي	٢٩٧ - ٢٩٩	نشوء الضمير
٦٠ ، ٥٩ ، ٥٨	النقي	٢٠	النقاهة

و

١٩٨ ، ١٩١	الوالدان
-----------	----------

أسلوب الأم أثناء فترة نقاهة الطفل

٢٠ - ٢٢

- أثر طفولتهما على سلوكهما ١٤٨ ،
١٥٦ ، ١٦٥ ، ٢١٧
تدخلها في مشاجرات الأطفال
١٣٩ - ١٤١
تعريضهما أمام الأطفال ٢٧١ ، ٢٧٢
تقليد الأطفال لهما ١٢٤ ، ١٢٥ ،
١٥٤ ، ١٧٢
التعلق العاطفي بهما ٢٨٩ ، ٢٩١
توافقهما مع الطفل ١٩١
النزعات الدفينة نحو الأفعال
المنحرفة ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٢٢
الزعة إلى الخضوع والامتثال
١١٢ ، ١٢١
علاقتهما بأنظمة النوم ٧٦
علاقتهما بعقدة أوديب ٢٦٠
قلقهما على الطفل الأول وفرحتهما
به ١٠٦
- كمصاحبين للطفل ١٧١ - ١٧٢
معالجة الطفل الذي يتبول في
الفراش ٢٢٣
معايير السلوك في الأسرة ٣١٦
نقص الثقة بالنفس عندهما ١٠١ ،
١٠٢
الوجبات الخفيفة ٨٤
الوراثة ٤٥
الوزن
زيادة الوزن في السنوات التي
تسبق دخول المدرسة ٢٢٠
زيادته في العام الثاني ٢١٦
مدلول زيادة الوزن في تاريخ صحة
الطفل ٣٣
ي
اليقظة ، الميل إلى ... ٧٧

هذا الكتاب

المشا كل في حياة الطفل عديدة ، والطفل مخلوق ضعيف قاصر ، يرقب الأفتق من بعيد فيخاله في قبضة يده ، ويعيش للساعة التي هو فيها ، غير مفرق بين أمسه وغده . وهو أحياناً جبار عنيد عنيف يتخطى المسؤوليات دون مبالاة .

وما من والد مد له الله جبل العمر حتى عاصر ابنه المراهق إلا أدرك جو الحيرة الذي أحاط به لمواجهة هذا الانقلاب الطارئ الذي ساد الجو العائلي فأظلمت سحب الشقاء بعد أن كانت السعادة ترفرف بسخاء في أرجائه .

وهناك فترة من حياة الطفل لا تقل حرجاً عن فترة المراهقة ، وهي الفترة بين السنة الثالثة والسنة السادسة من العمر ، وفيها يصول الدكتور سبوك ويجول ، شارحاً ما خفي من مشكلات خالدة ، مثل الأحلام المزعجة ، والخاوف ، والاهتمام الجنسي ، والأسئلة المخرجة التي قد يوجهها الطفل إلى أمه في هذا الصدد .

وإنك حين تقلب صفحات هذا الكتاب تعجب كيف ينتقل بك الدكتور سبوك من دوح إلى دوح ، فهو لا يقتصر على النفسيات ، بل يلمس في بعض الصفحات مشا كل مرضية وصحية ، مثل التبول الليلي ، وفوائد الهواء الطلق النقي ، وفوائد ومضار إعطاء الحلوى للأطفال ، ومشكلات الشهية للطعام . ثم يرشد الأم كيف تربي في طفلها ملكة (الضمير) . ولم يفته أبداً الاهتمام بموضوع انحراف الشباب ، وهو مشكلة المجتمع في كل مكان ، فأقرده له باباً خاصاً مفصلاً أسبابه الاجتماعية والنفسية ، وسرد طريق تجنب الولد اليافع من السقوط بين براثنه قبل فوات الأوان .

من تقديم

الدكتور مصطفى الديواني

